PJ
7846
A28
B5

CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY

BOUGHT WITH THE INCOME
OF THE SAGE ENDOWMENT
FUND GIVEN IN 1891 BY
HENRY WILLIAMS SAGE

DATE DUE

~~SEP 17 1971 M P~~			
~~JUN 27 1979 P~~			
~~APR 5 1980~~			

Cornell University Library
PJ 7846.A28B5
Bidayah wa-nihayah /
3 1924 026 936 728

نجيب محفوظ
مكتبة مصر
بداية ونهاية

مطبوعات
مكتبة مصر

بداية ونهاية

تأليف

نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي "الفجالة"

PJ
7846
A28
B5

B694886
55
S

١

القى الضابط نظرة كئيبة على الردهة الطويلة التى تفتح عليها فصول السنتين الثالثة والرابعة ، وقد شمل المدرسة ــ التوفيقية ــ سكون عميق ، ثم مضى الى فصل من فصول السنة الثالثة ، ونقر على الباب مستأذنا ، ودخل متجها صوب المدرس وأسر فى اذنه بضع كلمات ، فسدد المدرس بصره صوب تلميذ يجلس فى الصف الثانى وناداه قائلا :

ــ حسنين كامل على .

فقام التلميذ وهو يردد بين المدرس والضابط نظرة مليئة بالترقب والقلق ، وغمغم :

ــ افندم ؟

فقال المدرس :

ــ اذهب مع حضرة الضابط .

فخرج التلميذ عن قمطره ، وتبع الضابط الذى غادر الفصل فى خطوات بطيئة . ولم يطمئن قلبه لهذه الدعوة ، وراح يسائل نفسه : ترى اجاءت بسبب المظاهرات الأخيرة ؟. وكان قد اشترك فى المظاهرات ، وهتف مع الهاتفين : « ليسقط تصريح هور » و « ليسقط هور ابن الثور » ، وقد ظن انه نجا من الرصاص والعصى والعقوبات المدرسية جميعا ، فهل كان مغاليا فى ظنه ؟ . وسار وراء الضابط فى الردهة الطويلة متفكرا ، يتوقع بين لحظة واخرى أن يجبهه بما عنده من تهم . ولكن قطع عليه تفكيره وقوف الرجل حيال فصل من فصول السنة الرابعة ودخوله مستأذنا ، ثم بلغ مسمعه صوت المدرس وهو ينادى قائلا :

ــ حسين كامل على .

شقيقه ايضا ؟! ولكن كيف يمكن أن توجه اليه تهمة من هذه التهم وهو لا يشترك فى المظاهرات بتاتا ؟ ! وعاد الضابط يتبعه الفتى واجما ، وما ان وقعت عيناه على شقيقه حتى غمغم فى دهشة :

— وانت ؟ ! . . ماذا حدث ؟ !

وتبادلا نظرة حائرة ، ثم تبعا الضابط الذى مضى متسمتا حجرة الناظر . وساله حسين فى لهجة رقيقة مؤدبة :

— ما الذى أوجب استدعاءنا من الفصل ؟

فأجاب الضابط بعد تردد قائلا :

— ستقابلان حضرة الناظر . .

وقطعوا بقية الردهة دون أن ينبس احدهم بكلمة . وكان الشقيقان متشابهين لدرجة كبيرة ، فكلاهما له هذا الوجه المستطيل ، وعينان عسليتان واسعتان ، وبشرة سمراء ضاربة الى العمق ، الا ان حسين فى التاسعة عشرة ، يكبر اخاه بعامين ودونه طولا ، على حين يمتاز حسنين بدقة فى قسمات وجهه اكسبته وضاءة ووسامة . ومضى قلقهما يتزايد وهما يقتربان من حجرة الناظر ، وتخايل لعينيهما منظره الصارم فى رهبة وخوف . وزرر الضابط سترته ، ونقر على الباب ، ثم دفعه برقة ودخل وهو يومىء اليهما ان يتبعاه . ودخلا وهما ينظران الى الرجل وقد انكب على مكتبه فى صدر الحجرة يقرا رسالة بعناية دون ان يرفع بصره نحو القادمين كانه لم يشعر بحضورهم . وحياه الضابط بادب جم وقال :

— التلميذان حسين كامل على وحسنين كامل على .

فرفع الناظر راسه وهو يطوى الرسالة بيديه ، واطفا عقب سيجارة فى النافضة ، وجعل يردد بصره بينهما ، ثم تساءل :

— فى اى سنة انتما ؟

فقال حسين بصوت متهدج :

— رابعة رابع .

وقال حسنين :

ـ ثالثة ثالث .

فنظر الرجل اليهما مليا ثم قال :

ـ ارجو أن تكونا رجلين كما ينبغى . لقد توفى والدكما كما ابلغنى اخوكما الأكبر ، والبقية فى حياتكما . . .

ووجما فى ذهول وانزعاج ، وهتف حسنين وهو لا يدرى قائلا :

ـ توفى ابى !! . . مستحيل !

وغمغم حسين وكأنه يحدث نفسه :

ـ كيف ؟ ! لقد تركناه منذ ساعتين فى صحة جيدة وهو يتاهب للخروج الى الوزارة . .

فصمت الناظر قليلا ثم سألهما برقة :

ـ ماذا يعمل اخوكما الأكبر ؟

فقال حسين بعقل غائب :

ـ لا شيء . . .

فتساءل الرجل :

ـ اليس لكما أخ آخر موظف او شيء من هذا القبيل ؟

فهز حسين رأسه قائلا :

ـ كلا . . .

فقال الرجل :

ـ ارجو أن تتحملا الصدمة بقلوب الرجال ، واذهبا الآن الى البيت كان الله فى عونكما . . .

٢

وغادرا المدرسة الى شارع شبرا يلتمسان طريقهما خلل الدموع . وكان حسنين أسرعهما الى البكاء فأراد حسين أن ينهره فى حال عصبية ولكن افحمه البكاء واختنق صوته فلم ينبس

بكلمة . وعبرا الطريق الى الجانب الآخر ، وحثا خطواتهما قاصدين عطفة نصر الله على مسير دقائق من المدرسة . وتساءل حسنين وهو ينظر الى شقيقه كالمستغيث :

ـ كيف مات ؟

فهز حسين راسه واجما وتمتم :

ـ لا ادرى . لا استطيع ان اتصور . لقد تناول فطوره معنا ، وتركناه فى صحة جيدة . لا ادرى كيف وقع هذا . .

وحاول حسنين ان يتذكر الصباح القريب بتفاصيله فذكر انه رأى اباه اول ما رآه وهو عائد من المرافق فحياه كعادته قائلا : « صباح الخير يا بابا » فاجابه مبتسما : « صباح الخير ، الم يستيقظ اخوك ؟ » واجتمعوا بعد ذلك حول المائدة ، فدعا الرجل الأم الى مشاركتهم الطعام فاعتذرت بان نفسها مصدودة ، فتذمر الرجل قائلا : « اذا جلست معنا انفتحت نفسك » ولكنها اصرت على الاعتذار . فقال بعدم اكتراث وهو يقشر بيضة : « على كيفك » . لا يذكر انه سمعه يتكلم بعد ذلك ، اللهم الا نحنحة مقتضبة . وكان آخر ما رآه منه ظهـــره وهو يدخل حجرته مجففا يديه فى منشفته . ثم انتهى ، انتهى ، ابشع بها من كلمة . واسترق الى حسين نظرة مروعة فوجده محزونا واجما كأنما كبر وشاخ ، وعاد الى ذكرياته وهو يكابد لوعة حارة ، « لا اصدق انه مات » ، لا استطيع ان اصدق . ما هذا الموت ؟. لا استطيع ان اصدقه . انتهى ؟ ! لو كنت اعلم ان هذا آخر ما بقى لنا من عمره ما غادرت البيت . من اين لى ان اعلم ؟. ايموت الانسان وهو يأكل ويضحك؟ لا اصدق . لا استطيع ان اصـــدق » . وانتبه على اخيه وهو يجذبه من ذراعه الى عطفة نصر الله التى كاد يفوتها فى ذهوله . وسارا فى طريقها الضـــيق تصطف على جانبيه البيوت القديمة والحوانيت الصغيرة الى ما يعترضـــها من عربات الغاز والخضر

والفاكهة . وسبقهما البصر الى عمـــارتهما ذات الأدوار الثلاثة والفناء المستطيل الترب ، ثم ترامى الى اذنيهما الصوات فتبينا صوتى امهما واختهما الكبرى وهزهما حتى الأعمـــاق فأجهشا فى البكاء ، وجريا لا يلويان على شيء ، وارتقيا السلم مهرولين الى الدور الثانى فوجدا باب الشقة مفتوحا فتدافعا الى الداخل ، وقطعا الصالة الى حجرة الأب فى نهايتها ثم دخلا وهما يلهثان . وثبتت عيناهما على الفـــراش وقد وشى الغطاء بالجسم الممدد تحته ، ثم اقتربا من حافته وارتميا عليها واغرقا فى نشيج حار . وكفت الأم والأخت عن الصوات على حين غادرت الحجرة امراتان غريبتـــان . وارادت الأم أن تتركهما ينفسان عن صـــدرهما فتماسكت واقفة فى جلبابها الأسود وقد احمرت عيناها وانتفخ خداها وانفها ، اما الأخت فقد ارتمت على كنبة واخفت وجهها فى مسندها وراح جسمها ينتفض من البكاء . وكان حسين يبكى ولسانه يتلو بطريقة آلية بعض السور الصغيرة استنزالا للرحمة . وكان حسنين يبكى فى جو من الخوف والذهول والانكار . وقف حيال الموت محتجا ثائرا ولكن فى نفس الوقت خائفـــا يائسا . « ليس هذا ابى . لا يمكن أن يسمع ابى هذا البكاء كله دون أن يتحرك . رباه لماذا يجمد هكذا ؟ انهم يبكون ولكن فى تسليم من لا حيلة له . لم اكن لأتصور هذا ، ولا اتصوره . الم أره يمشى فى هـــذه الحجرة منذ ساعتين ؟ ليس هذا ابى . وليست هـــذه حياة » وبدأ الانتظار وكان لا نهاية له فاقتربت الأم من الشابين ومالت نحوهما قائلة :

ــ حسبكما . قم يا حسين وخذ اخاك خارجا .

واعادت القـــول حتى قام حسين وانهض اخاه ولكنهما لم يغادرا الحجرة . وقفا يلقيان على الجدث المسجى نظرة طويلة غائمة بالدموع . ولم يستطع حســـين أن يقاوم رغبة حارة غامضة فانحنى على الجثمان وكشف الغطاء عن وجهه دون مبالاة بالحركة

التى بدرت من امه ، فطالعه الوجه الغريب موسوما بميسم الفناء ، تشوبه زرقة مروعة ، ويرين على صفحته سكون غير دنيوى ، فى عمق العدم ولا نهائيته ، فسرت رجفة فى أوصاله . لم يكن احد منهما قد راى ميتا قبل هذه المرة فركبهما الخوف والأسى . ونفذ الى اعماقهما حزن قهار الى حيث لم تنفذ عاطفة من قبل . ومال حسين نحو الميت ولثم جبينه فعاودته الرجفة . ومال حسنين نحوه كذلك ولثم جبينه فى شبه غيبوبة . واعادت الأم الغطاء على الراس الفانى ، وحالت بينهما وبين الفراش ، ثم قالت لهما بلهجة حازمة :

ـ اخرجا ..

فتراجعا خطوتين ، وتولى حسنين عناد طارىء فتوقف ، وتشجع به حسين فتوقف كذلك . وجال بصرهما بالحجرة فيما يشبه الذهول ، وكانهما كانا يتوقعان تغيرا شاملا لا يدريانه ، ولكنهما وجداها كالعهد بها لم يتغير منها شىء . هذا الفراش على يمين الداخل ، والصوان فى الصدر يليه المشجب ، والى اليسار الكنبة التى ارتمت عليها الأخت وقد اسند الى حافتها عود انفرست ريشته بين اوتاره ، وثبتت عيناهما على العود فى دهشة ممزوجة بالحزن . طالما لعبت انامل الراحل بهذه الأوتار ، وطالما التف حولها الأصدقاء مطربين يستعيدون ويعيد ، فما اعجب ما بين الطرب والحزن من خيط رقيق ، ارق من هذا الوتر . ثم مر بصرهما الحائر بساعة الراحل على خوان غير بعيد من الفراش ، لا تزال تدور باعثة دقاتها الهامسة ، ولعل الراحل قرا فيها آخر تاريخ له فى الدنيا واول عهدهما باليتم . وهذا قميصه على المشجب وقد لاحت آثار عرقه ببنيقته ، فرنوا اليها بحنان عميق ، وقد بدا لهما فى تلك اللحظة أن عرق الانسان اشد ثباتا من حياته العظيمة . ولبثت الأم تنظر اليهما فى صمت . لم تجر لها خواطرهما على بال ولكنها كانت تدرك من هول الكارثة ما لم

يدر لهما بخلد . وندت من حسنين تنهدة حارة لفتت اليه شقيقه فوضع يده على كتفه وهمس فى أذنه :

ـ هلم بنا .

والقى الشابان نظرة أخيرة على الجثمان المسجى وهما يعتقدان ـ بحكم العادة المتوارثة ـ ان عينى ابيهما ترىانهما رغم الموت فلم يولياه ظهرهما ان يسىء اعراضهما الى شعوره ، وبعثا اليه بتحية قلبية وتقهقرا الى الباب ثم غادرا الحجرة . ولاحت من حسنين نظرة الى اخيه فطالع فى وجهه حزنا عميقـــا مؤثرا فخفق قلبه واحس نحوه بعطف ، كما احس بحاجته الشديدة الى عطفه ..

٣

وغادر الشقيقان الشقة الى باب العمارة حيث اصطفت بعض الكراسى فوجدا اخاهمـــا الأكبر ـ حسن ـ جالسا فى صمت وكآبة . وجلسا الى جانبه يشاركانه صمته وكآبته . لم يكن لديهما فكرة عما ينبغى عمله ، اما حسن فكان ذا تجارب كثيرة . وكان يشبه اخويه الى حد كبير بيد انه اختلف عنهما فى نظرة عينيه التى تنم عن جراة واستهتار ، فضلا عن ان طريقته فى ترجيل شعره الكثيف المنفوخ ، ولبس البدلة ، دلت على عنايته بنفسه من ناحية ، وعلى قدر غير قليل من الابتذال من ناحية اخرى . كان حسن يعلم بما ينبغى عمله ولكنه لم يبد حراكا لأنه كان ينتظر مقدم شخص هام . وقد ساله حسين بتاثر :

ـ كيف مات والدنا ؟

فأجاب قائلا وهو يقطب :

ـ مات فجاة فاذهلنا جميعا . كان يرتدى ملابســـه وكنت جالسا فى الصالة فما ادرى الا ووالدتنا تنادينى بفزع ، فهرعت

الى الحجرة ، فوجدته ملقى على الكنبة وصدره يعلو وينخفض . وجعل يومىء فى الم الى صدره وقلبه فحملناه الى الفراش ، وقدمنا له كوب ماء ولكنه لم يستطع ان يشرب . ثم غادرت الحجرة مسرعا لاستدعاء طبيب ، ولكنى لم اكد أبلغ الفناء حتى صك مسمعى صوات حاد فعدت فزعا ، ووجدت ان كل شىء انتهى ...

ورأى وجهى شقيقيه يتقلصان من الألم فازداد وجهه كآبة . كان يشعر بحرج شديد جعله يتوجس خيفة من شقيقيه ان يظنا بحزنه الظنون . كانا يعلمان بطبيعة الحال بما كان يقع بينه وبين والديه من شقاق وملاحاة بسبب حياته المضطربة المستهترة ، فخاف ان يحسباه دونهما حزنا واسفا . والحق انه يجد لوعة الحزن والأسى . والحق أنه لم يبغض اباه قط على رغم ما كان . واذا لم يكن حزنه كحزنهما فمرجع هذا الى تقدمه عنهما فى السن – كان فى الخامسة والعشرين – والى تمرسه بالحياة حلوها ومرها ، ومرها على الأكثر ، الأمر الذى يلطف عادة من مرارة الموت . حقا كان قلبه يحدثه بأنه لن يجد بعد اليوم من يصرخ فى وجهه قائلا : « لا أستطيع ان أعول رجلا خائبا مثلك الى الأبد ، فما دمت قد نبذت الحياة المدرسية فشق سبيلك بنفسك ولا تلق بنفسك على » . حقا لن يجد من يقول له هذا بعد اليوم ، ولكنه لن يجد كذلك من يؤويه اذا ضاقت به السبل وكثيرا ما تضيق به حتى لا يوجد بها منفذ لأمل . انه اعظم ادراكا لحقيقة الكارثة التى وقعت من هذين الطفلين الكبيرين فكيف تنقصه دواعى الحزن والأسف ؟!. واختلس من الوجهين المحزونين نظرة سريعة من عينيه البراقتين ثم عض شفته . كان يحبهما على رغم الظروف التى تدعوه الى الحقد عليهما وفى مقدمتها جميعا نجاح حياتهما المدرسية وتمتعهما بعطف ابيه . ولكنه لم يكن يرى فى المدرسة ميزة يحسد عليها أحد ، ومن ناحية اخرى كان مقتنعا بان اباه يحبه كشقيقيه وان

ران على حبه السخط والغضب ، واهم من هذا كله ان الشعور برابطة الأسرة كان ولا يزال قويا فى آل كامل بفضل الأم قبل كل شيء .

وعند الضحى اقبل عليهم رجل وامراة فى ثياب ريفية فعرفوا فيهما خالتهم وزوجها عم فــرج سليمان ، وقد عزاهم الرجل وشاركهم جلستهم ، على حين هرولت الخالة الى الداخل وهى تصرخ « يا خراب بيتك يا أختى » فدوت العبارة فى آذانهم دويا مفجعا وعاود الشابين البكاء . وراح عم فــرج سليمان يحادث حسن بينما خلا الشقيقان الى نفسيهما فى صمت طويل . والتقت افكارهما وهما لا يدريان فى مصير ابيهما بعد الموت . وكان حسين راسخ العقيدة عن وراثة وبعض العلم فلم يداخله شك فى النهاية ، وسال الله بقلبه ان يلقى اباه فى ذلك اليوم البعيد وهما على أحسن حال من رضوان الله . واما حسنين فكان فى حيرة من كرب الموت لا يدع للعقل راحة للتامل والتفكر . وكان يسلم بالايمان تسليما وراثيا لا شان فيه للفكر ، وقد حملته امه يوما على أداء الفرائض فاداها دون وعى ، ثم هجرها فى شيء من التردد دون تكذيب او زيغ . ولم تتسلط العقيدة على فكره . ولم تشغل باله كثيرا ، ولكنه لم يجد نفسه خارجا على حقائقها قط . وقد دفعه الموت الى التفكير ولكنه لم يطل به ، وسرعان ما عاوده التسليم تؤيده هذه المرة عاطفة حادة : « هل الموت هو النهاية ؟ . الا يبقى من ابى الا التراب ولا شيء وراء هذا ؟ . معاذ الله . لن يكون هذا . ان كلام الله لا يكذب » . ولبث حسن وحده لا يشغله شيء من هذه الأفكار ، ولم يستطع الموت نفسه ان يدعوها الى راسه . كانه كان وثنيا بالفطرة . والحقيقة انه لم يتاثر باى نوع من التربية او التهذيب . كان ابن الشارع كما كان يدعوه ابوه فى ســاعات الغضب . وقد طبع على العبث فلم يعد قلبه تربة صالحة لبذور العقيدة ، وما انفك يتخذ منها مادة لمزاحه ودعابته ، وحتى الأثر

الخفيف الذى علق بقلبه من وحى امه ضاع فى خضم الحياة التى اكتوى بنارها . لذلك تاه به الفكر فى وديان بعيـــدة عن الأبدية تتركز حول هذه الحياة وحظه وحظ اسرته منها . بيد انه لم يطل به المكث مع شقيقيه وزوج خالته فقد تراءى عن بعد رجل يهرول قادما ما أن وقع بصر حسن عليه حتى قال بارتيـــاح كانه كان ينتظره :

ـ فريد افندى محمد !

وكان القادم يجفف جبينه بمنديل على رغم لطافة الجو الخريفى ، ولكنه كان بدينا مفرطا فى البـــدانة ، ذا كرش عظيمة ، ووجه مستدير مكتنز لاحت فيه قسماته دقيقة صغيرة ، على أن بدانته وكهولته واناقته ايضا اضـــفت عليه وقارا مما يعتز به موظفو الحكومة والكتبة منهم خاصـــة . وعلقت به أعين الاخوة برجاء يستحقه من كان جارا مثله وصديقا قديما لابيهم . واقبل الرجل عليهم معزيا . ثم خاطب حسن قائلا :

ـ طلبت اجازة اليوم من الوزارة . هلم بنا الى ديوان المرحوم لصرف الدفنة ثم لابتياع اللوازم الضرورية .

وجعل يسأل عما كان وصاه به قبل ذهابه الى الوزارة من اجراءات تستدعيها الوفاة ، ثم تأبط ذراعه وذهبا معا ..

٤

وعند اقتراب موعد الجنازة بلغ الاضطراب بحسنين مداه ، اضطراب من نوع جديد كان يشغله عن الحزن نفســه . كان يرجو لأبيه جنازة رائعة تليق بمقامه وبمكانته هو التى يحب ان يظهر بها أمام الناس . لم يكن أخواه ليكترثا كثيرا لهذا الأمر ، اما هو فكان يعد اخفاق الجنازة كارثة كالموت نفســه ، غضبا لأبيه الذى يحبه ،

ولنفسه هو . وقلب عينيه فيمن تجمع من المشيعين فلم ير أحدا يملأ العين الا جارهم الكريم فريد افندى محمد ، اما زوج خالته فكان فى حكم العمال ، وليس عم جابر سليمان البقال بخير منه ، والحلاق ادهى وامر ، ونفر غيرهم غيابهم اشرف من حضورهم . وانقبض صدره وغشيه كدر عميق . ولكنه كان قليل الصبر فما وافت الساعة الرابعة حتى تدفقت جماعات الموظفين حتى سدوا عطفة نصر الله سدا . وردت اليه الروح فعاد الى حزنه خالصا من القلق . ثم حدث ما لم يدر له فى حسبان ، فجاءت سيارة فخمة تنطق بالعز والجاه ، ووقفت على بعد يسير من البيت وغادرها ساع ،ففتح بابها ثم نزل منها رجل ينم مظهره على الألقاب والرتب . وتقدم بجسمه الطويل العريض الذى عقدت عليه الخمسون هالة من وقار فهرع اليه الاخوة بادب ، واندس بينهم فريد افندى محمد ليحظى باستقبال الشخصية الممتازة التى ينبغى أن يقدرها ــ كموظف ــ اكثر من سواه . وتساءل القادم فى صوت منخفض:

ــ اليس هذا بيت المرحوم كامل افندى على ؟

فبادره فريد افندى قائلا باحترام :

ــ بلى يا سعادة البك . .

ولم يجدوا ما يقدمونه له الا كرسيا خيزرانا على قارعة الطريق فشعروا بحرج غير قليل . وكان حسنين قد امتلأ ارتياحا لمقدمه ولكنه وجد ضيقا لسؤاله عن بيت المرحوم مما دل على أنه لم يكن يعرف البيت ، واقترب من اخيه حسن وساله :

ــ من يكون هذا الرجل ؟

فقال حسن :

ــ احمد بك يسرى ، مفتش عظيم بالداخلية ، وصديق حميم للمرحوم . .

فساله بغرابة :

ـ لماذا سأل عن البيت كأنه لا يعرفه ؟

فحدجه حسن بنظرة غريبة وقال :

ـ كان والدنا كثير التردد على بيته ، اما هو .. انه رجل عظيم كما ترى .. !

وصمت الشاب لحظة ثم استدرك قائلا :

ـ كان المرحوم يحبه ويعده أعز صديق .

وتناسى حسنين هذا ، ولم يشأ ان يفسد على نفسه زهوها ، وود لو يراه ـ ذلك المفتش ـ المشيعون جميعا . ثم حلت اللحظة المفجعة فخرج النعش من البيت وعلا الصوات من الشرفة والنوافذ . انتظمت الجنازة بالمشيعين جميعا يتقدمهم النعش . وعلقت أعين الشقيقين بالنعش فى ذهول وانكار ، وتساقط دمعهما طوال الطريق . وبلغوا المسجد فأخذوا فى توديع المشيعين وشكرهم . واظهر البعض استعدادا لمرافقة النعش حتى مستقره الأخير ، ولكن حسنين همس فى اذن أخيه الأكبر قائلا :

ـ لا تسمح لأحد بالذهاب مهما كلفك الأمر .

كان حريصا على الا تقع عين على القبر حفظا لكرامة الأسرة . ووفقوا الى صرف المشيعين ، وركبوا سيارة الموتى وليس فى ركابهم الا العم فرج سليمان وفريد أفندى محمد الذى ابى الرجوع اباء لم ينفع فيه الرجاء . وانطلقت السيارة بهم الى باب النصر ، ووقفت بهم ناحية قامت بها القبور فى العراء ثم ووري جثمان كامل افندى على فى قبر غير بعيد من الطريق الملتوى الذى يشق المدافن كأنه من قبور الصدقة . ووقف حسنين غارقا فى الحزن والبكاء ، ولكنه على حزنه كان يسترق النظرات الى محمد افندى فريد فى خجل واستياء « لو علم التلاميذ بالوفاة لجاءونى معزين ، ولرافقنى بعضهم حتما الى هذا القبر . الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه . لا مقبرة ولا يحزنون . لماذا لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا ؟ ! » .

٥

انتصف الليل او كاد ، وخلت الشقة الا من اهلها . وآوت الأسرة الى الصالة ومعهم الخالة وزوجها . وراحت الأم تعيد قصة الوفاة للمرة العشرين فى ذاك اليوم الحزين ، وانصت اليها حسين وحسنين باهتمام ، على حين وجم حسن متفكرا .

وتحدث حسنين عن احمد بك يسرى متحاشيا مسألة جهله للبيت ، لوجود خالته وزوجها من ناحية ، ولأنه لم يكن يحب أن يذكرها من ناحية اخرى . وكان شعور العطف نحو والده يملأ عليه نفسه فجعل يرنو الى باب حجرته المغلقة بطرف حزين ، ويتخيل فراشه الخالى بانكار وأسف . ثم نظرت الأم الى الأبناء وقالت :

ــ قوموا للنوم . . .

واذعنوا لمشيئتها بلا اعتراض بعد يوم شاق اليم ، ومضوا الى حجرتهم . وكان بالحجرة ثلاثة اسرة صغيرة فأخلوا واحدا لزوج خالتهم الذى لحق بهم على الأثر ، وشارك حسنين حسين فى فراشه . ولكنهم لم يستسلموا للنوم ، أو تأبى النوم عليهم ، فراحوا يتحدثون عن أبيهم بحزن وحنان ، ويذكرون أيامه الأخيرة ، وميتته المفاجئة . ثم قال حسن :

ــ كانت جنازته تليق بمقامه حقا . .

فقال عم فرج سليمان مؤمنا على قوله :

ــ كان رحمه الله رحمة واسعة رجلا عظيما ، فلا عجب أن تكون جنازته عظيمة مثله . ولقد امتلأت عطفة نصر الله بالمشيعين من البيت الى شارع شبرا . .

ولم يرتح حسنين لصـوت الرجل ، وكان يشعر لوجوده بضيق ، ثم ذكر حانقا انه رأى القبر العارى ، فقال :

ـ العجيب ان والدنا وقد أفنى مالا كثيرا لم يفكر فى بنـاء مقبرة تليق بالأسرة .

فعاد الصوت الذى لم يرتح اليه يقول :

ـ وهل كان يظن انه سيهلك فى مثل هذه السن ؟. ان والدك فى الخمسين . وعندنا فى الريف كثيرون يتزوجون للمرة الثانية او الثالثة فى هذه السن .

وصمت الرجل مليا ثم استدرك قائلا :

ـ ولا تنس ان والدك قد هاجر مع جـدته من دمياط الى القاهرة وهو فى مثل سنك يا سى حسنين ، فلستم من اهل القاهرة الذين يتوارثون المقابر جيلا بعد جيل .

فقال حسنين بامتعاض :

ـ حقا لسنا من أهـل القـاهرة وان كانت اسبابنا بآلنا فى دمياط قد انقطعت .

وذكر فى حزن انه لا يعرف لنفسه أقارب غير خالته هذه . وسيبقى هذا القبر المغمور فى العراء رمزا لضياعهم المخجل فى هذه المدينة الكبيرة . وازداد ضيقا بوجود هـذا الرجل الذى احتل فراشه ، فآثر الصمت حتى يقطع عليه سـبيل الكلام . وساد الصمت حتى رنق النوم بأجفانهم . وفى الصـالة لم تبارح الأم واختها وابنتها مجلسهن ، ولم يتعبن من الحديث عن الفقيد العزيز . وكان الشعور بالفاجعة هنا أعمق من الحجـرة الأخرى . وقد ارتسمت اماراته على وجـه الأم النحيـل البيضـاوى وعينيها الملتهبتين . وكانت بأنفها القصير الغليظ وذقنها المدبب وجسمها النحيل القصير توحى بأنها وهبت الأسرة خير ما فيها ، فلم يبق من حيويتها الا نظرة قوية تنم عن الصبر والعزم .

وكان التغير الطارىء عليها من العمق بحيث يتعذر تصورماكانت

عليه ايام شبابها ، الا ان ابنتها نفيسة كانت تعيد حياتها وصورتها بدقة كبيرة . كان لها هذا الوجه البيضاوى النحيل والأنف القصير الغليظ والذقن المدبب ، الى شحوب فى البشرة ، واحديداب قليل فى اعلى الظهر ، فلم تكن تختلف عن امها الا فى طولها المماثل لطول شقيقها حسنين . كانت بعيدة عن الوسامة ، وادنى الى الدمامة ، وكان من سوء الحظ ان خلقت على مثال امها ، على حين ورث الاخوة خلقة ابيهم . وكان الحزن قد اتى عليها فبدت فى صورة بشعة واستغرقت فكرها ذكريات والدها الحبيب . اما الأم فعلى حزنها الشديد دارت براسها خواطر اخرى . كان بداخلها نحو اختها شعور بعدم الارتياح . ولم تستطع ان تنسى انها كانت تنغص عليها حياتها ، وانها كان يحلو لها كثيرا ان تقارن بين حظيهما فتقول : ان أختها تزوجت من موظف اما زوجها هى فعامل فى محلج قطن ، وان أختها تقيم فى القاهرة وهى مقضى عليها بالحياة فى الريف ، وان ابناء أختها تلاميذ وابناءها هى لا حظ لهم الا حظ العمال ، وان كرار اختها لا ينضب معينه اما بيتها فلا يعرف السعة الا فى المواسم . لعلها لا تجد الآن ما تحسدها عليه . وامتلأت نفسها امتعاضا الى ما بها من حزن . انها تدرك من هول الكارثة ما لا يدركه احد . انتهى زوجها ، وانها لتتلفت يمنة ويسرة فلا تجد احدا تعرفه الا هذه الأخت التى لا يعقد بها رجاء . لا قريب ولا نسيب . ولم يخلف الراحل شيئا . وهيهات ان تأمل فى معاش مناسب وقد كان مرتبه كله يستنفد فى ضرورات الأسرة . وقد وجدت فى محفظته جنيهين وسبعين قرشا هى كل ما تملك من نقود حتى تنتظم الأمور ؟ . ورنا بصرها الى حجرة الأبناء فى سهوم . اثنان فى المدرسة ، معفيان من المصاريف حقا ، ولكن هيهات ان يغنى هذا عنهما شيئا . اما الثالث ففى حكم الصعاليك ! . وتنهدت من الاعماق . ثم حولت عينيها الى نفيسة فتقطع قلبها ألما . فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها بلا مال ولا جمال ولا أب . وهذه

هى الاسرة التى باتت مسئولة عنها بلا معين . بيد انها لم تكن من النساء اللاتى يفضضن همومهن بالدموع . وان حياتها الماضية وإن أمست حلما سعيدا موليا الا انها لم تكن يسيرة خصوصا فى مطلعها حين كان المرحوم موظفا صغيرا ذا جنيهات معدودات ، وقد علمتها الصبر والجلد والكفاح . كانت دائما قوية ، وكانت محور البيت الأول ، بل كانت على الأرجح تقـــوم بدور الاب ، على حين كان المرحوم أدنى الى حنان الأمهات وضعفهن . والأبناء انفسهم مثال حى على هذا التباين بين الأب والام ، فكان حسن شاهداً تعيسا على رخاوة الأب وتدليله ، وكان حسين وحسنين شاهدين على حزم الأم وحسن تربيتها . اجل كانت ارملة قوية ، ولكنها لم تملك فى تلك اللحظة من الليل الا اجترار الحزن والقلق . .

٦

فى مساء اليوم التالى لم يبق فى الدار احد غير اهلها . وقد كوم اثاث حجرة الراحل فى ركن منها واغلق بابهـــا . واجتمع الأبناء حول أمهم وهم يشعرون بانه آن لهم أن يسمعوا لها . وكانت الام تعلم بانه ينبغى ان تتكلم . ولم يختلط عليهـــا الأمر فيما يجب قوله ، فقد كانت فكرت فاطالت التفكير ، ولعله لم يكن يحـــيرها شىء مثل هذا التناقض بين ظاهرها الدال على الحزم والقـــوة ، وباطنها الذى يندى رحمة وعطفا على أسرتها البائسة . وخفضت عينيها متحامية النظرات المصوبة نحوها وقالت :

— مصيبتنا فادحة ، ليس لنا الا الله ، والله لا ينسى عباده . .

لم يكن بوسعها أن تتساءل « ما عسى أن نفعل ؟ » ، وهيهات أن تنتظر جوابا من احد من المحيطين بها ، حتى كبيرهم حسن .

وليس فى الدنيـا احـد تستطيع ان تلقى اليـه بهذه الاستغاثة فتشركه فى بعض همها .

شعرت بالخلاء يكتنفها ، ولكنها ابت ان تستسلم لليـاس . واستدركت تقول :

ـ ليس لنا من قريب نعتمد عليه . وقد رحل العزيز الغالى دون أن يترك شيئا الا معاشه ، ولا شك انه دون المرتب الذى كان لا يكاد يكفينا . فالحياة تبدو كالحة الوجه ، ولكن الله لا ينسى عباده . وكم من اسرة مثلنا صبرت حتى أخذ الله بيدها فشقت طريقها الى بر الأمان . . .

واختنق صوت نفيسة بالبكاء وهى تقول :

ـ لا احد يموت جوعا فى هذه الدنيا ، وسياخذ الله بيدنا ، اما المصيبة التى تجل عن العزاء فهى موته هو . اسفى عليك يا بابا .

ولم تحدث هذه الدموع اثرا عميقا لأن كلام الأم انذر بأمور خطيرة استاثرت بجل اهتمامهم ، فثبتت اعينهم على امهم التى عادت تقول :

ـ لا يجوز اذن ان نيـاس من رحمـة الله ، ولكن ينبغى ان نعرف راسنا من قدمنا والا هلكنا ، وان نوطن نفوسنا على تحمل ما قدر لنا من حظ بصبر وكرامة ، وربنا معنا .

واحست بان معين الكلام العام قد نفد ، وانه ينبغى ان تخاطب الأبناء ، كل بما يعنيه . ورات عن حكمة ان تبدا بمن هو اقل خطورة ، تمهـد به لمن هو اشد خطورة ، فنظرت صوب حسين وحسنين ، وقالت بصوت هادىء ان تكشف عما لحق قلبها من تاثر :

ـ لن يـكون فى الامكان اعطاؤكما اى مصروف يومى ، ومن حسن الحظ ان المصروف ينفق عادة فى وجوه تافهة . .

وجوه تافهة ! . اشتراك نادى الكرة ، السينما ، الروايات ، اهذه وجوه تافهة ؟!. وقد تلقى حسـين الحكم فى وجوم ، وتاه عقله متخيلا الحياة بلا مصروف ، ولكن دون أن ينبس بكلمة . اما

حسنين فقد انقض الحكم عليه كالصاعقة ، وسرعان ما قال معترضا ، وبلا وعى تقريبا :

- كل المصروف ؟! .. ولا مليم ؟!

فحدجته امه بنظرة طويلة ثم قالت بحزم :

- ولا مليم ..

احزنها اعتراضه ، ولكنها رحبت به لانه اتاح لها ان تؤكد قولها بما لا يدع سبيلا الى الشك فيه ، ولكى يسمعه شخص آخر تخشى متاعبه اكثر من شقيقيه . وفتح حسنين شفتيه ، وهمهم دون ان يبين ، ثم قال بصوت منخفض :

- سنكون التلميذين الوحيدين اللذين تخلو جيوبهما من مصروف ...

فقالت امه بحدة :

- انك واهم ، المصائب كثيرة ، والتلاميذ المصابون لا حصر لهم . ولو انك فتشت جيوب التلاميذ جميعا لوجدت اكثرها فارغا . وهبكما الوحيدين الفقيرين فما فى هذا من عيب ، ولست المسئولة عما وقع ...

ولاذ حسنين بالصمت متذكرا انه يخاطب امه . كان دائما يجد عند ابيه من التسامح ما لا يجده عندها ، وكان الرجل يحبه كثيرا فلم ينزل من نفسه هذه المنزلة الا ابنته نفيسة . اما الام فلم تكن تتخلى عن حزمها قط . ولما فرغت من الرد على اعتراضه استطردت قائلة :

- كذلك احذركما من ترك نصيبكما من الغداء المدرسى كما تفعلان عادة .

وكان الشقيقان يقنعان من غذائهما المدرسى بلقمات معدودات كى يتناولا وجبتهما الرئيسية فى البيت . وكان التلاميذ الذين يأكلون فى المدرسة حتى الشبع موضع غمز عادة ، فتساءل حسنين برقة :

ـ لماذا لا ناكل فى بيتنا كعادتنا ؟

فقالت الأم بامتعاض :

ـ من يدرى فلعله لن يتاح للبيت الطعام الذى تحب !

وارتسمت على شفتى حسن ـ الذى اصغى الى الحديث كله فى صمت عميق ـ شبه ابتسامة ، اخفاها بتقطيبة مصطنعة ، ولكنها لم تخف على الأم ، فصممت على ان تواجهه بالحقيقة ـ ان كان حقا فى حاجة الى ذلك ـ بعد هذا التمهيد الطويل . فتساءلت بلهجة حزينة :

ـ وانت يا حسن ؟ ! .

هذا اكبر الأبناء ، اول من ايقظ امومتها ، الحبيب الأول !. ولكنه دليل ملموس على ان الأمومة قد تتاثر بامور لا تمت للفطرة بسبب . لا يعنى هذا بطبيعة الحال انها كرهته . انها ابعد ما يكون عن هذا . ولكنها اسقطته من حسابها فتوارى من مرموق آمالها فى حسرة بالغة . انزوى فى ركن مظلم ، ولم يعد حبه يتحرك فى فؤادها الا مصحوبا بالأسف والحزن وقاتم الذكريات . وقد كان ولا يزال المشكلة المستعصية لهذه الأسرة . كان فى البدء ضحية لفقر ابيه وتدليله ، فلم يبعث به الى المدرسة الا فى سن متاخرة. وسرعان ما ظهر تمرده على الحياة المدرسية ، وتكرر هروبه من المدرسة ، وتوالى سقوطه عاما بعد عام ، حتى انقطع عنها ولم يجاوز السنة الثالثة . واستحال ما بينه وبين ابيه الى نقار وشجار ثم الى ما يشبه العداوة الحقة ، فكان يطرده احيانا من البيت فيقضى اياما متسكعا ثم يعود الى البيت وقد اكتسب شرورا جديدة من مخادنة الأشقياء والغوص فى الاثم والادمان وهو دون العشرين . ولما بلغ الياس من ابيه مداه الحقه بحانوت بقال فمكث به شهرا ثم طرده صاحبه بعد معركة كاد يذهب الحانوت ضحية لها . ثم عمل فى شركة سيارات وطرد منها اثر عراك ايضا . ولم يعد يابه لا بغضب ابيه ولا بحزم امه ففرض نفسه

على البيت فرضا ، يلقى سخطهم باستهانة أو بدعابة أو بشجار ولكنه لا يتزحزح ولا يبحث جادا عن عمل . وبدا وكانه لا يعمل للمستقبل حسابا ، وظل سادرا مستهترا حتى فاجاه موت الأب . انه يدرك خطورة الحال ، فهو الوحيد الذى عرف مرتب أبيه ، وقدر على وجه التقريب معاشه . وفهم ما تعنى الأم بتساؤلها « وانت يا حسن ؟ » . « انت تقولين ان الله لا ينسى عباده ، وانا عبد من عباده . فلننظر كيف يذكرنا . لماذا أخذ والدنا ؟ لماذا يعلن عن حكمته على حساب امثالنا من الضحايا ؟ » ولكنه طالعها بابتسامة مؤدبة ، وشعوره ممتلىء عطفا وتقديرا للمسئولية ، ثم قال :

ـ انى ادرك كل شيء . .

فقالت المراة فى ضيق متسائلة :

ـ ما عسى أن يجدى الادراك وحده ؟

ـ لا بد من عمل شيء .

فقالت فى انفعال :

ـ هذا ما نسمعه كثيرا .

ـ الآن تغير الحال .

ـ أليس ثمة أمل أن تتغير انت ؟!

فقال حسن فى نبرات قوية :

ـ مثلى لا يضيع فى الحياة ، انى استطيع ان اشق سبيلى . والفرص كثيرة والأسلحة فى يدى لا حصر لها . اصغ الى يا أماه لن اطالبك بغير الماوى واللقمة ! . .

هذا اسلوبه !. يبدا وكانه يسلم بكل شيء ، ثم ينتهى وكانه يطالب بحقوق جديدة . الماوى واللقمة ، وماذا يبقى بعد ذلك ؟! ورمقته باستياء وقالت :

ـ ان حالنا لا يحتمل هذا الهذر . .

ـ الهذر ؟!

ـ اجـــل . نحن فى حاجة الى من يطعمنا فكيف نهيىء لك اللقمة ؟ ! لماذا تضطرنى الى مصارحتك بهذا ؟

فابتسم ابتسامة باهتة وقال :

ـ اعنى الى حين . حتى تفرج . لن يضيق البيت بى ، ام تريدين ان تطردينى ؟ ! . وسوف التقط رزقى ما وجدت اليه سبيلا . ولكن هبى اياما انقضت دون ان اجد عملا فلا احسبك ترضين ان اموت جوعا . وعلى اية حال ساقاسمك رغيفك حتى اجد عملا !

وتنهدت فى يأس . انها حيال مشكلة حقا ولا تدرى ماذا تفعل . واخوف ما تخاف ان يستسلم لحياة البطالة والكسل والتسكع خاصة اذا فتر تاثره بموت ابيه فقالت برجاء :

ـ أرجو ان تبحث بجد واخلاص عن عمل . .

فقال بلهجة تنم عن الصدق :

ـ اعدك بهذا ، واقسم لك بقبر والدنا .

وثار قسمه عاصفة حزن فى الصدور لموقعه الأليم . . وهزتهم « قبر والدنا » هزة عنيفة ، فاجهشت نفيسة فى البكاء ، وغاص قلب حسنين فى صدره ، على حين رمق حسين اخاه بنظرة حيرة وعتاب . ولبثت الام صامتة مليا تكابد جرحا عميقا ، ولكنها لم تنس ـ حتى فى هذه اللحظة ـ انها لم تفرغ بعد من قول ما تريد قوله ، فرددت عينيها اللتين انتفخ جفناهما واحمرت اشفارهما بين ابنائها ثم قالت :

ـ اما نفيسة فتحسن الخياطة ، وهى تخيط كثيرا لجاراتنا محبة ومجاملة ، ولست ارى باسا فى ان تتقاضى على تعبها مكافاة .

وهتف حسن بحماس :

ـ عين الصواب . .

ولكن حسنين صاح بغضب وقد اصفر وجهه غضبا :

ـ خياطة ؟ !

فاجابه حسن معترضا :

ـ ما عيب الا العيب ، فلتكن . .

فقال حسنين بحدة :

ـ لن تكون اختى خياطة ، كلا ، ولن أكون اخا لخياطة .

وقطبت الأم فى غضب وصاحت به :

ـ انت ثور ، تاكل وتنـــام ، ولا تدرى عن الدنيا شيئا ، وهيهات ان يفهم عقلك الغبى حقيقة حالنا !

وفتح فاه ليعترض ولكنها صاحت به :

ـ اخرس . .

فنفخ دون ان ينبس بكلمة . ورات الأم انهـــا فرغت من معارضته فالتفتت الى حسين ، فالتقت عيناهما برهة قصيرة ، ثم خفض الفتى عينيه وتمتم على مضض :

ـ اذا لم يكن من هذا بد فالأمر لله . . !

فقالت الأم بتأثر :

ـ ما عيب الا العيب كما يقول حسن . لست احب لأحد منكم المهانة ولكن للضرورة أحكام ، ولا حيلة لى . .

وساد صمت مؤلم . وكان حسين اشبه الأبناء باخلاق امه فى صبرها وعقلها واخلاصها للأسرة . وقد تالم كثيرا لمصير اخته ولكنه استسخف الاعتراض على اقتراح اوحت به الضرورة . وشعر فى الـه بانه تعلم فى هـــذين اليومين ما لم يتعلم فى حياته كلها . اما نفيسة فسكتت مغلوبة على أمرها . ولم تكن تسمع الاقتراح لأول مرة فقد اقنعتها امها بضرورته ووجاهته معا . وكانت الخياطة هويتها وملهاتها ، فلم يبق الا ان توطن النفس لقبول الأجر . لهذا كله تضاعف حزنها على أبيها الذى لم تعد بعده شيئا . ثم قطع حسن الصمت قائلا بلهجة تنم عن الحسرة :

ـ من المؤسف حقا أن المرحوم ابى على نفيسة ان تواصل تعلمها فى المدرسة . تصوروا لو كانت اختنا مدرسة الآن !

وحدجوه بغرابة فادرك انه تورط فيما يشبه الدعابة وهو لا يدرى . افلم يكن الأولى به ان يعرف للتعليم قيمته فيواصل حياته المدرسية ؟!. وقطب مغيظا وقال :

ـ التعليم ينفع امثالها ممن لا حيلة لهم ...

٧

وفى صباح اليوم التالى مضت الام الى وزارة المعارف مصطحبة معها حسن اكبر الأبناء . ولما علم هنالك انها ارملة المرحوم كامل على افندى اظهر كثير من زملائه اســتعدادهم لأن يكونوا فى خدمتها . وطلبت المراة صرف المستحق من مرتبه فدلها بعضهم على اجراءات اثبات الوراثة . وسالت عن معاشه فذهب معهـا احـد الزملاء الى ادارة المستخدمين . وتبين ان المرحوم خـدم الحكومة حوالى الثـلاثين عاما فبلغ مرتبه ١٧ جنيها واستحق معاشا قدره خمسة جنيهات لورثته . لم تكن المراة تتصــور هذا ، ولا كانت تعلم شيئا عن نصيب الحكومة من معاش المتوفى ، ولكن الذى افزعها حقــا هو ما قيل عن الاجراءات الطويلة التى تسبق صرف المعاش ، والتى تستغرق اشهرا طوالا . هالها الأمر فلم تملك أن قالت :

ـ وكيف يتيسر لنا الانتظار طوال فترة الانتظار ؟

وقال حسن مسوغا قلق أمه :

ـ نحن لا نملك الا هذا المعاش المنتظر ؟

وندم حسن على قوله عقب القائه مباشرة لانه بدا غريبا من شخص فى مثل طوله ورجولته ، ولكن الموظف قال دون أن يلقى بالا الى هذا :

- اعدك يا سيدتى بالا نضيع دقيقة واحدة بلا عمل . اما اجراءات وزارة المالية فلا حيلة لنا فيها . .

ما جدوى هذا الكلام الطيب ؟. ولكن اية فائدة تنتظرها من التذمر والشكوى ؟!. وغادرا الوزارة فى شبه ظلام من القلق والياس . وهتفت المراة :

- كيف نلقى الحياة هذه الاشهر ؟! . . وكيف نعيش بخمسة جنيهات بعد ذلك ؟!

وخفض الشاب بصره فى وجوم وضيق . ولاح لعينى المراة المكدودتين بصيص من نور فقالت :

- سأزور احمد بك يسرى . انه مفتش عظيم نافذ الكلمة ، وكان صديقا عزيزا لأبيك . .

فقال حسن بأمل :

- راى حسن . ان كلمة منه تغير اجراءات الحكومة .

فنظرت اليه باهتمام وقالت :

- لا تضيع وقتك معى . لعلك تدرك حالنا على حقيقتها فاذهب وابحث لك عن عمل مهما كلفك الأمر . .

وعادت الى شبرا بمفردها ، ولبثت فى البيت حتى العصر ثم قصدت شارع طاهر أو حى الأعيان كما يسمونه . وكان يقع شمال عطفة نصر الله بثلاث محطات ، متفرعا من الطريق العام ، تقوم على جانبه الفيللات الأنيقة والعمارات الحديثة . واسترشدت ببعض السابلة حتى استدلت على فيللا البك . وكانت بناء جميلا مكونا من دورين تحيط به حديقة مونقة . وذكرت للبواب صفتها « حرم المرحوم كامل افندى على » فعاد اليها مسرعا وقادها الى بهو استقبال فاخر موصول بفراندة كبيرة ، ثم اخبرها ان البك قادم بعد ارتداء ملابسه . وخيل اليها ان فترة الانتظار قد طالت ، ولكنها لبثت بمكانها دون أن ترفع النقاب الأسود عن وجهها . وقد شغلت بأفكارها المضطربة عن رؤية المنظر النفيس

الذى يكتنفها . بيد انها كانت كبيرة الرجاء فى هـــذا الصديق العظيم . طالما ذكره المرحوم امامها بالحب والفخار . وطالما لمست بنفسها انعم هذه الصداقة فى اقفاص العنب والمانجو تهدى اليهم فى المواسم ، وكان المرحوم يقضى اكثر سهراته فى هذه الفيللا ، وربما فى هــذا الموضع منها حيث تجلس الآن - وقد القت على ما حولها نظرة حزينة - يلعب بأوتار عوده ، ويسمر هزيعا طويلا من الليل . فليس بعيدا أن تغادر هذه الفيللا مجبورة الخاطر . وانها لمغرقة فى افكارها اذ فتح الباب الداخلى للبهو وجاء البك بجسمه الطويل العريض ، وشاربه المفتول بعناية بالغة ، فقامت المراة فى ادب ، وسلم عليها البك وهو يقول برقة :

- تفضــلى يا ست بالجلوس . شرفتنا . رحمــة الله على زوجك . كان صديقا عزيزا احزننى فقده ، وسوف يحزننى طوال العمر ..

فاستبشرت المراة خيرا بهذا اللقاء ، وشكرت له عطفه . وراح البك يحدثها عن الفقيد حتى اغرورقت عيناها بالدموع ، وزادها الموقف استفاضة فلم تحاول منعها مدفوعة برغبة غــريزية فى استثارة عطفه . ثم ســـاد الصمت حينا فادركت رغم حزنها واضطرابها أن شارب البك وسوالفه مصبوغة ، وانه يغالى فى العناية بمظهره ، الى ما تطيب به من رائحة زكية عميقة الأثر . ولما تكرم بسؤالها عن طلبتها قالت :

- جئت مستشفعة بســـعادتك لاستعجال صرف معاش المرحوم . قالوا لى يا ســعادة البك ان اجراءات صرفه تستنفد اشهرا .

فتفكر الرجل مليا . ثم قال :

- لن ادخر وسيلة فى سبيل ذلك ، وسأقابل وكيل المــالية بنفسى .

فأثلج صدرها ارتياحا ، وشكرته ، ثم ترددت لحظات وقالت :

- الحال يا بك تستدعى السرعة ، والله المطلع .

فقال الرجل باهتمام :

- طبعا ، طبعا . أنى فاهم كل شيء . هل انت فى حاجة الى مساعدة ؟ !

يا له من سؤال !. انها لا تملك الا جنيهين هما ما تبقيا من المبلغ الذى وجدته بمحفظة المرحوم ، ولن تجد سواهما حتى يصرف لها ما استحق من مرتبه حتى تاريخ الوفاة . ولكن كيف تفصح له عن هذه الحقيقة ؟ لم تتعرض لمثل هذا الموقف من قبل ، وانه لموقف يستوجب أن يألفه المرء حتى يخرج منه بطائل . وعقل الحياء لسانها فسكتت قليلا ثم قالت بصوت منخفض :

- احمد الله على الستر . بوسعى ان انتظر قليلا . .

وارتاح البك للجواب . لقد انزلق الى السؤال متأثرا بالحياء والذوق . ولم يكن ارتياحه لبخل مركب فى طبعه ، ولا لأنه يكره ان يمد يد المساعدة الى ارملة صديقه ، ولكن لأنه كان على ثرائه لا يكاد يبقى على شيء لكثرة نفقاته على نفسه وافراد اسرته . كان يضايقه أن يأخذ بيد هذه الأسرة حتى تبلغ بر السلامة . ولكنه كان على استعداد للبذل لو سألته المرأة اياه . وقد غاب عن المرأة ان زوجها لم يكن صديقا للبك بالمعنى الذى يفهمه البك من الصداقة . ولعله كان صديقا من اصدقاء الدرجة الثالثة . كان يحبه ويقربه ويود سمره وفنه دون أن يعده ندا له ، او صديقا كسائر البكوات والباشوات . ولكن نيته صدقت على السعى لخدمة هذه المرأة حتى يصرف لها المعاش ، اكراما لذكرى الراحل ، وتفاديا من التورط فى مساعدتها ، ونهضت المرأة مستأذنة فى الانصراف فودعها بالاحترام . ولما خلصت الى الطريق تنهدت فى امل ، ولكنها قالت لنفسها فى شبه ندم : « لو أوتيت قدرا من الشجاعة لما ضيعت على نفسى معونة انا فى امس حاجة اليها . . » .

٨

وخلا حسين وحسنين لنفسيهما اول مرة بعد الوفاة . كانت نفيسه فى المطبخ والأم فى وزارة المعارف سعيا وراء همومها الجديدة ، وحسن لا يعلم بمكانه الا الله ، وكان حسين متربعا على فراشه ، والآخر جالسا الى مكتب المذاكرة بركن الحجرة يرعش بين اصابعه قلما فى نرفزة ويقول :

ـ يبدو ان الحياة لم تعد تطاق . .

وانتظر أن يتكلم حسين ، ولكنه تجاهل ملاحظته فرفع اليه بصره فى حنق . كان حسنين آخر عنقود الأسرة فلم يكن غريبا ان يبحث لمشكلاته عن حلول عند الآخرين . وضاق صدره بصمت اخيه فسأل :

ـ ما رأيك ؟

فتساءل حسين متجاهلا :

ـ فيمه ؟

ـ فيما قالت ! اتحسب حقا أن حالنا بهذا السوء ؟

فهز منكبيه قائلا :

ـ ولماذا تكذبنا ؟

فتألقت عينا الفتى ببريق أمل وقال :

ـ كى تكسر من حدتنا . كى نخاف ونتئد . وليس هذا عجيبا فالشدة مركبة فى طبعها ، ولولا المرحوم والدنا ما عرفنا المرح !

فقال حسين بحزن :

ـ ليتنا ما عرفناه قط !

ـ ماذا تقول ؟

- اقول ليتنا ما عرفنا التدلل ابدا ، اذن لهانت علينا الحياة الجديدة المقضى علينا بها !

فقال حسنين وقد ساوره الخوف :

- اذن فانت تصدق ما قالت !. احقا لم يترك والدنا شيئا ؟ الا يسد المعاش نفقاتنا ؟

فتنهد حسين قائلا :

- انى مؤمن بكل كلمة نطقت بها . هذه هى الحقيقة .

فتساءل حسنين فى جزع :

- كيف نطيق هذه الحياة ؟

فارتسمت على شفتى حسين ابتسامة حزينة . كان يشارك اخاه حزنه وقلقه ولكنه راى من الحكمة ان يقف منه موقف المعارضة فقال :

- كما يطيقها الكثيرون . ام حسبت الناس جميعا يحظون باب كريم ورزق موفور ؟!. ومع ذلك فهم يعيشون ولا ينتحرون.

فامتلأ حسنين غيظا وهو يحدق فى وجه اخيه وهتف به :

- لشد ما يخنقنى برودك ..

فقال حسين مبتسما :

- لو جاريتك فى عواطفك لركبك الياس واجهشت باكيا .

فقال حسنين بسخط :

- أن من يستسلم للأقدار يشجعها على التمادى فى طغيانها !

فابتسم الآخر ابتسامة ساخرة وقال فى شبه دعابة :

- هلم نثر عليها . دعنا نهتف لتسقط الاقدار كما هتفنا ليسقط هور .

- الم تفدنا ليسقط هور ؟!

- هيهات أن تفيدنا الأخرى !

وقطب حسنين فى كدر وتساءل :

- من لنا الآن ؟

فابتسم حسين ابتسامة عريضة فرطحت انفه الذى بدا فى تلك اللحظة شبيها بانف امه الغليظ ، وقال باقتضاب :

ــ الله . . !

وزاد الجواب من حنقه ! انه لا يشك فى هذا ولكنه لا يقنع به . الله للجميع حقا ولكن كم فى الدنيا من جائع ومصاب !. لم يتنكر يوما لعقيدته ولكنه يتلهف فى خوفه على سبيل محسوس للطمانينة . وتوهم ان اخاه يحرجه ليتخلص منه فتشبث بعناده وقال :

ــ لقد شاء ان ياخذ والدنا ويتركنا بلا معين !

فقال حسين وكانه يمعن فى اثارته :

ــ هو المعين . . .

فانفجر حسنين قائلا :

ــ ان هدوءك الكاذب لا يجوز على . . اانت مطمئن حقا ؟!

فاصغى حسين اليــه فى امتعاض والم ، ثم قال ولعله كان يدارى عواطفه :

ــ المؤمن لا تخونه طمانينته . . .

ــ انى مؤمن وقلق معا !

فقال حسين فى غير ايمان حق بما يقول :

ــ هذا من ضعف الايمان .

فقال حسنين بحنق :

ــ اوه ، ليكن ! انى اعرف تلاميذ يجاهرون بالشك !

ــ أعلم هذا .

ــ هم أذكياء ومطلعون .

ــ اتحب ان تفعل مثلهم ؟

فقال فى خوف :

ــ كلا . لست من هواة الاطلاع . انت نفسك تقرأ كثيرا !

فقال حسين مبتسما :

ــ هذا حق ولكنى لم أنتزع الله من قلبى . والحق اننا نغالى

فى تحميل الله مسئولية مصائبنا الكثيرة . الا ترى أن الله اذا كان مسئولا عن موت والدنا فليس مسئولا بحال عن قلة المعاش الذى تركه ...

وشعر حسنين ان تطور الحديث ناى به عن مخاوفه الحقيقية فقال بضيق :

ـ دعنا من هذا وخبرنى كيف نعيش بلا مصروف ؟ أى بلا سينما ولا كرة . والأدهى من هذا كله انى كنت شارعا فى تعلم الملاكمة !

فقطب حسين قائلا :

ـ تحام ما يؤلم أمنا . اذا لم يكن فى وسعنا أن نساعدها فلا أقل من ان نريحها من منغصات لا داعى لها . واذكر أنها وحيدة فلا أعمام لنا ولا أخوال !

ـ لا أعمام ولا أخوال ! كان هذا يهون لو لم تصبح أختنا خياطة !. رباه ما عسى أن يقول الناس عنا ؟!

وضاق صدر حسنين ، وغلبه الحزن ، ووقعت لفظة «خياطة» من نفسه موقعا مؤلما ، فقال بغضب :

ـ نستطيع ان نعيش دون مبالاة بما يقول الناس .

وأراد ان يقطع الحديث فنهض قائما وغادر الحجرة .

٩

شعرا بحرج وهما يدخلان فناء المدرسة لأول مرة بعد الوفاة . لن يستطيعا مواصلة الحياة الأولى وسيتغير كل شىء ، وهيهات أن تخفى خافية عن أعين التلاميذ . وكانا يعانيان من هذا شعورا مؤلما وان تباينت درجة ألمهما . ولم يكن قد علم بالوفاة الا قليل

فسرعان ما ذاع الخبر بين الأصدقاء واقبلوا عليهما معزين . وقال احدهم محذرا :

ـ يجمل بذويكما ان يحسنا اختيار الوصى عليكما ، فانني لم ادرك حقيقة الفاجعة بموت ابى حتى ابتليت بوصاية عمى !

الوصى ! وتظاهر حسين بالاصغاء الى نفر يتحدثون عن المظاهرات الأخيرة والمساعى المبذولة لضم الصفوف ، ولكنه سمع حسنين وهو يجيب صاحبه قائلا :

ـ نحن مطمئنون الى الوصى كل الاطمئنان . .

فقال محدثه :

ـ انى اغبطكما على حظكما ، بيد ان الأمر يتوقف على نوع التركة ، فاذا كانت اراضى زراعية تيسرت سبل الخداع ، واذا كانت عقارا ضاقت السبل على الوصى بعض الشيء ، أو هذا ما تقول امى . .

فقال حسنين بهدوء :

ـ من حسن الحظ ان تركتنا عقار !

واصغى اليه حسين فى غيظ . لم يحنقه الكذب فحسب ولكنه اشفق من عواقبه . « كيف نواجه الحال الجديدة اذا ظن بنا الاخوان اليسار ؟ ماذا نفعل وماذا نقول ؟ . . انه يكذب بلا مبالاة . سحقا له ! » وصوب عينيه نحو اخيه محذرا فتحاشاه الفتى فى تذمر . ثم تساءل تلميذ كيف مات والدهما فأجاب حسنين فى تأثر قائلا :

ـ قيل لنا انه مات فجاة . ومن عجب انه لما رآنى خارجا الى المدرسة صباح اليوم الذى توفى فيه ، وقبل ان يتوفى بساعة واحدة ، وضع يده على منكبى ورنا الى فى حنان وقال لى بلا داع ظاهر « مع السلامة . . مع السلامة ! » . .

فمن كان يدرينى انه يودعنى !؟

لم يكن شيء من هذا قد حصل ، ولا يدرى كيف قاله ،

والأعجب من هذا كله انه قاله بتأثر صادق كما لو كان وقع حقا . وقد نطق به ارتجالا مدفوعا برغبة غامضة فى تبجيل والده . وعجب حسين لوصفه ثم دهش لتأثره فكاد يغلبه الابتسام ، ونحى وجهه جانبا فرأى عن بعد قريب رئيس فرقة كرة القدم فأراد ان ينفس عن ضيقه بمواجهة الحقائق فمضى اليه وحياه ثم قال :

ــ ارجو ان تعفينى واخى من الاشتراك فى نادى شبرا ..

ولاحت الدهشة فى وجه الرئيس ، وازعجه الطلب خاصة فيما يتعلق بحسنين ــ جناح الفريق الأيمن ــ فقال معترضا :

ــ لعل امرا ضايقكما !

فقال حسين بتأثر :

ــ توفى والدنا !

فوجم الرئيس مليا ، ثم عزاه برقة ، وصمت لحظات ثم قال :

ــ الا ترى ان هذا لا يدعو الى حرمان النادى من عضوين بارعين مثلكما ؟

فقال حسين بلهجة خاطفة :

ــ ان الحداد يقضى بهذا !

فقال الفتى باشفاق :

ــ ان الحداد لا يتعارض مع الرياضة !

فقال حسين باسًا :

ــ ان ظروفنا تقضى بهذا . انى آسف !

ثم حياه مرة أخرى وغادره متحامية النظر الى عينيه ، وانضم الى اصدقائه . ووجدهم يتحدثون فى السياسة ، وكان احدهم يقول :

ــ رحمة الله على شهداء الآداب والزراعة ودار العلوم !

فقال آخر :

ــ لا بد من التضحية فالدم هو اللغة الوحيدة التى يفهمها الانجليز ..

فقال ثالث :

- لم يضع الدم الطاهر عبثا ، الم تسمعوا عن الدعوة الى الاتحاد ؟

- وهذه التيمس تلمح الى المفاوضة ..

ودق الجرس فاتجهوا الى الفصول وهم يتناقشون ...

١٠

قطعا فناء البيت فى صمت حاملين كتبهما ، ثم قال حسنين وهما يرتقيان السلم :

- عما قليل يبدأ فريق نادى شبرا فى التمرين استعدادا للمباراة القادمة !

فلاذ حسين بالصمت . وجعل يتخيل الملعب واللاعبين ، فكانه يسمع الرئيس وهو ينبىء الآخرين بانفصالهما « لظروف الأسرة الجديدة ! » . لا لعب ولا مسرة ولا رحمة من شكوى حسنين المتواصلة . وطرقا الباب ثم دخلا . وتسمرت اقدامهما وراء الباب لمنظر غريب لم يتوقعاه . رايا اثاث البيت مكوما فى الصالة فى اضطراب شامل وقد رصت المقاعد فوق الكنبات ولفت الأبسطة وفكت الدواليب ، ولاحت الأم ونفيسة مشمرتين يعلوهما التراب ويتصببان عرقا على لطافة الجو . وهتف حسنين :

- ماذا حصل ؟

فقالت الأم :

- سنترك الشقة .

- الى أين ؟ !

- الى الدور التحتانى . سنتبادل السكن مع صاحبة البيت : شقة ارضية بمستوى الفناء الترب ، لا شرفة لها ، ونوافذها

مطلة على عطفة جانبية تكاد تبــدو منها رءوس المــارة ، وطبعا محرومة من الشمس والهواء ، وتساءل حسنين فى امتعاض ولو انه كان يعرف الجواب مقدما :

ــ لمــاذا ؟ !

فقالت الأم بصوت واضح :

ــ لأن ايجارها ١٥٠ قرشا !

فقال الشاب متذمرا :

ــ فرق الايجار اقل من ٥٠ قرشا لا يتناسب مع الفرق بين الشقتين !

فسألته الأم ساخطة :

ــ هل تتعهد بدفع هذا الفرق التافه ؟

ــ لماذا رضينا اذن بأن تشتغل نفيسة خياطة ؟

فالتهمته الأم بنظرة من نار وصاحت به :

ــ كى ناكل ، كيلا تموتوا جوعا !

وحافظ حسين على طلاقة وجهه ان يفتضح امتعاضه وسال امه بلهجة لا اثر فيها للاعتراض :

ــ متى تم هذا يا اماه ؟

فقالت المراة وهى تمسح جبينها بكم ثوبها الأسود :

ــ عرضت الأمر على صاحبة البيت غير مخفيــة شيئا من حالنا ، فاظهرت روحا طيبا ووافقت بلا تردد .

فقال حسنين فى استياء :

ــ لو كانت ذات روح طيب حقا لنزلت لنا عن فرق الايجار مع ابقائنا فى شقتنا !

فقالت الأم فى حدة :

ــ للناس اعمال أخرى غير العناية برفاهيتك !

ــ وكيف ننام ليلتنا ؟

فقالت نفيسة بصـوت كسير دل على انها لم تفق بعد من صدمة الوفاة :

ـ سننام فى الشقة الجديدة .

وخرج فى تلك اللحظة حسن من حجرة المرحوم حاملا بين يديه المشجب وهى آخر ما بقى من الأثاث فى الحجرات وقال بسرعة :

ـ كفاكم نقارا وهلموا نرفع الأثاث الى الدور التحتانى فليس بيننا وبين الليل الا ساعتان .. واراد ان يضرب لهم مثلا عمليا فرفع كنبة من جانب وخاطب حسين قائلا :

ـ ارفع ...

وفتحت نفيسة الباب على مصراعيه وسار الشقيقان بحملهما الثقيل ، وجعل حسين يتساءل وهو يهبط فى السلم بحذر : ترى هل يراهما احد من اسرة فريد افندى محمد جارهم الكريم بالدور الثالث ؟ ! . « ليس الفراق شر ما فى الموت . ان الفـراق حزن المطمئن . متاعبنا تتلاحق بحيث لا تدع لنا وقتا للتفكير فى الحزن . لشد ما نتغير ونتدهور ، ولكن ينبغى ان نصـبر او فى الأقل ان نتظاهر بالصبر . اكبر جريمة فى نظرى ان نضاعف بجزعنا شقاء امنا . ساخاطب حسنين بحزم اكثر ! » ثم تبعتهما الأم والأخت يحملان ما يقدران على حمله من قطع الأثاث . ولم يستطع حسنين ان يقف متفـرجا فانضم للعـاملين . وما زالت الأسرة فى نزول وصعود والأثاث يتحول من فوق لتحت . وكانت صاحبة البيت قد اخلت الشقة وجمع اثاثها فى الفناء الى جانب الحمالين الذين وقفوا ينتظـرون دورهم فى العمـل . وكانت الأسرة جميعا ـ الصامت منهم والساخط ـ سواء فى الحزن والألم . ولم يكن وجه الأم مما تسهل قراءته ، اما نفيسة فابتلت عينـاها بالدموع . واشتغل حسن بهمة كانه يتملق بجهده امه فلا تلحف فى تانيبه على تعطله . وكان اقل الأخوة تاثرا للتغير الذى قلب الأسرة كما

ينبغى لرجل ذاق التشريد والف التسكع . وهمس حسنين فى اذن حسين وهو يلهث من الجهد :

ــ الا ترى ان خسارتنا بموت ابينا لا تعوض ابدا ؟ !

وانسابت من عينيه دمعتان .

١١

غادر حسن البيت مبكرا ، عقب خروج شقيقيه للمدرسة . لم يكن ثمة داع ضرورى لهذا الخروج المبكر ، ولكنه اراد ان يتفادى من الاصطدام بوالدته ان يصبحها بنقار هى فى غنى عنه بما تكابد من تغير الزمن وتجهم الحظ . انطلق من عطفة نصر الله بلا غاية ولا أمل . «ابحث لك عن عمل ! لا تفتأ تردد على مسمعى هذه الجملة . اين يوجد هذا العمل ؟ صبى بقال ؟ ! . هذا معناه الاسعاف ثم البوليس . » ولكنه لم يكن يائسا للحد الذى توجبه حاله . كان كبير الثقة بنفسه ، وكان فى طبعه تفاؤل لا يدرى من اين يأتيه . ولكنه لم يستطع ان يتجاهل دقة موقفه وراح يخاطب نفسه قائلا « يا ابا على ، مات الوالد رحمه الله ففقدت الركن الذى كنت تأوى اليه . حقا كنت تلتقط رزقك بالشجار والنقار ، وتتحمل فى سبيله السب واللعن ، ولكنه كان على اى حال رزقا مضمونا . هذه البدلة التى تجعل منك افنديا لا بأس به من نقوده رحمة الله عليه . اجل أبى ان يبتاعها لك بادىء الأمر ولكنك هددته بأن تمشى فى الطرق باللباس والفانلة وان تقتحم عليه مجلسه بقصر احمد بك يسرى شبه عار ، فأذعن على مضض وكلف الخياط بأن يفصلها لك . الآن لو مشيت عاريا بلا لباس ولا فانلة فلن تجد من يسأل عن صحتك الا الشرطى ! » . كانت البدلة حسنة وان لم تخل من بقع باهتة عند ثنية الركبة . وكان يربط رقبته ببابيون فبدا القميص

فى حال لا يحسد عليها . وكان شـعره أعجب ما فيه فقد تركه حتىغزر واسترسل ، وتصاعد فى جعودة جعلت منه راسا مستقلا فوق الراس الأصلى . اما وجهه فكان حسنا كشقيقيه الى جسم طويل مفتول العضلات عريض العظام . سار متفكرا فيما خاطب به نفسه ، ثم واتته ثقته بنفسه فجاة فقال « يا سيدى لا تسمح للهم بان يركبك فما يجوز ان يركب الا البهائم من عبـاد الله . سوف تعيش طويلا وتلقى الحياة بخيرها وشرها . لم اسمع عن انسان مات جوعا . الأغذية تسد الطرق سدا . ولست طماعا فما تريد الا اللقمـة والسترة وكم كاسا من الكونيـاك ، وكم نفسـا من الحشيش ، وكم امراة من النساء ، وكل اولئك متوفرة بكثرة ، اكثر من الهم على القلب . توكل على الله ولا تحمل هماً » ولم يكن خلو الجيب فقد اشرف على جنازة ابيه ، وخرج منها باربعين قرشا لم يعلم بها احد . وقد تساءل الم يكن الأخلق به ان يعطيها لوالدته ؟ « كلا لو نزلت عنها ما افادت امى منها نفعا مذكورا ، ولكن ضياعها يضرنى ضررا لا شك فيه . لا ادرى متى يتاح لى الحصـول على مثلها ! » واخذت قهوة الجمال تلوح لعينيه الحادتين فحث خطاه حتى انتهى اليها . هى قهوة صغيرة لم تؤت من ميزة الا وجودها على الطريق العام . ولم يوجد بها فى هذه الساعة المبكرة الا زبونان جلسا الى مائدة على الطوار يتشمسان ويحتسيان القهوة ، على حين قبع فى ركن بالداخل شـبان ثلاثة يدل مظهرهم ونظرات اعينهم الحائرة على الفراغ والياس ، فلم يكن عجيبا ان يقصدهم الشاب وينضم الى مجلسهم . وما لبث ان طلب احـدهم الورق فتهيئوا للعب الكومى . وكان كل منهم يمنى نفسه بان يربح رزق يومه ـ خمسة قروش فوق الكفاية ـ من رفقائه . بيد ان حسن كثيرا ما يكون الصائد لمهارته من ناحية ولخفة يده وعينيه من ناحية اخرى . لهذا قال احدهم قبل البدء فى اللعب :

ـ لا نريد غشا .

فقال حسن :

ـ طبعا .

فقال الشاب :

ـ فلنقرا الفاتحة ..

وقراوا الفاتحة جميعا بصوت مسموع ، ولعل حسن تعلم حفظها حول هذه المائدة ، ثم لعبوا مقدار ساعة فربح أحدهم دورا ، وربح حسن دورين . فكان صافى ربحه اربعة قروش ونصف بعد خصم نصف قرش ثمن فنجان القهوة . واقترح بعضهم أن يمدوا وقت اللعب ، ولكن دخل القهوة شاب ما ان رآه حسن حتى نهض قائما ، واقبل نحوه فى احترام وسرور وهو يقول :

ـ صباح الخير يا استاذ على صبرى .

فمد له القادم يده فى حركة تشى بشعوره بقدر ذاته ، وقال :

ـ صباح الخير ...

وجلسا الى مائدة متقابلين . واجتاحت نفس حسن موجة كرم عاتية فنادى النادل وطلب للأستاذ على صبرى قهوة ، ثم قال الأستاذ للنادل قبل ان يذهب :

ـ ونارجيلة ...

وغاص قلب حسن فى صدره أن يلزم بدفع ثمن النارجيلة ايضا فيضيع عليه ما ربح باللعب والحظ واليد والعين . ولكنه سرعان ما تناسى قلقه ليفرغ الى استطلاع وجه الأستاذ . وكان على صبرى فى منتصف عقده الثالث ، متوسط القامة نحيل العود ، صغير القسمات ، أما شعره فاشبه ما يكون بشعر حسن ، الى سوالف تزحف حتى منتصف خده . وكان مظهره بوجه عام يدل على سوء الحال ولكنه يغطيه بنفخة كاذبة وغرور غير محدود . قال حسن باسف وهو يستطلع وجهه :

ـ لم نسمع صوتك من زمان !

وكان اذاع مرات من المحطات الأهلية وبدا وكان الحظ يبتسم

له ، فلما الغيت المحطات الأهلية وانشئت محطة الاذاعة الرسمية حيل بينه وبين احياء الحفلات ، وضاعت مساعيه وراء هذا الأمل هباء . وكان حسن احد افراد تخته المعطل ، وطبيعى ان العمل لم يكن يدر عليه اكثر من قروش فى الحفلة ، ولكنه كان يحبه ويؤثره على العمل الجدى الذى لم يصادف فيه توفيقا على مشقته و « حقارته » ! وقال الأستاذ :

ـ سابدا نشاطا جديدا عما قريب .

فخفق قلب حسن وقال برجاء :

ـ نحن رجالك ، وفى الخدمة دائما . .

فهز الأستاذ راسه فى رضى لأنه لم يكن يشعر بالعزة الا اذا خاطبه احد افرادتخته المتسكعين ، خصوصا حسن ، ذلك الشرس الجبار ، الذى ينقلب بين يديه وديعا متملقا ، ثم قال :

ـ طبعا . انك تردد ترديدا حسنا ، وصوتك لا بأس به . .

فانطلقت اسارير حسن فى بشر وقال :

ـ ولقد حفظت كثيرا من الطقاطيق . . .

ـ مثل ماذا ؟ !

ـ اللى حبك ، ظالمانى ليه ، لما انكويت بالنار .

فهز الأستاذ منكبيه استهانة وقال :

ـ ان محك الفن الدور والليالى . ماذا يسمع الآن فى الراديو ؟ . لا شيء . هذا زعيق فارغ وليس بغناء . ولو كانت المحطة تراعى وجه الفن وحده لكنت المذيع الأول بعد ام كلثوم وعبد الوهاب . وعبد الوهاب نفسه ، يخاف كثيرا أن تخونه حنجرته فتراه يتحامى النفس الطويل ، ويشطره اجزاء قصيرة متواريا وراء ما يسميه بالتجديد ، ثم يغطى ضعفه بضجيج الآلات . اليك كيف غنى « يا ليل » فى الحفلة الأخيرة . . .

وتنحنح ثم راح يغنى يا ليل مقلدا عبد الوهاب . وجاء النادل بالنارجيلة والقهوة وهو يغنى فتناول الخرطوم دون أن يمسك عن

الغناء حتى انتهى ، وحينذاك هتف رفاق حسن « الله . الله . . » ، فاخذ نفسا من النارجيلة دون ان يلتفت اليهم ، ثم قال لحسن همسا :

- هذا اعجاب بالصوت لا بالفن . اسمع هذه الليالى فى نفس واحد كما كان ينبغى أن تغنى . .

وانشد بصوت ملأ القهوة الصغيرة حتى رفع صاحب القهوة راسه عن صندوق الماركات واسارير وجهه تراوح بين الابتسام والاعتراض . وانتهى الأستاذ على صبرى ، وعاد الى النارجيلة وفى نيته ان يشكر فى هذه المرة للرفاق استحسانهم اذا ابدوه ، ولكن ساد الصمت فلم يسمع الا قرقرة الماء فى قنينة النارجيلة ، وقطب الأستاذ وقال فى ثقة :

- هذه اصول الفن . .

فقال حسن بحماس :

- لا شك فى هذا . .

فقال بلهجة الناصح :

- مرن صوتك . لا تكف عن التمرين . اكثر من الليالى . ولا تن عن مص السكر النبات . .

- يا سلام !

- مفيد جدا . ويا حبذا لو استيقظت حين الفجر واذنت للصلاة فهو خير مران للحنجرة ، وهو ما كان يفعله سلامة حجازى . .

فضحك حسن وقال :

- ولكنى انام عادة قبيل الفجر . .

- اذن قبل النوم .

- فى مسجد ؟ !

- المهم الاذان نفسه فى هذه الساعة المبكرة . فى مسجد ، فى حانة ، كيفما اتفق !

ــ واذا كان الانسان من غير مؤاخذة سكران أو مسطولا ؟

ــ يكون أفضل . فما تستطيعه وانت غائب عن وعيك تستطيع اضعافه وانت صاح ..

ــ عظيم ..

ــ ينبغى ان نتقابل كثيرا حتى يفتح الله علينا ..

ثم التفت صوب الرفاق الثلاثة وسأله :

ــ ماذا كنتم تفعلون ؟

ــ كنا نلعب الكومى ..

فقال الأستاذ على صبرى باهتمام :

ــ هلم نجرب حظنا ..

ونهض الرفاق واقبلوا نحوهما بلا تردد ، ثم تحلقوا المائدة والطمع يلعب بقلوبهم جميعا ، بيد ان حسن كان قلقا مشفقا من مغبة هذا اللعب . « ما عسى ان أصنع مع ابن القديمة هذا ؟ اذا كسبت اغضبته واذا خسرت ضاع اليوم هدرا ؟! » .

١٢

ــ لا أدفع مليما واحدا اكثر من الثلاثة الجنيهات .

قالها تاجر الأثاث وهو يلقى نظرة أخيرة على فراش المرحوم . ولم تعد تجدى مساومة الأم . وكانت قد اجمعت على بيع الفراش ولوازمه لما يثيره وجوده من الأحزان ، ولأنها باتت فى مسيس الحاجة الى نقود . وكانت ترجو له ثمنا اكثر من هذا لعله يسد بعض عوزها الملح الى النقود ، ولكنها لم تجد بدا من الاذعان فقالت للتاجر :

ــ غلبتنا سامحك الله ولكننى مضطرة للقبول ..

ودفع الرجل اليهـا بالجنيهات الثلاثة وهو يشـهد الله انه المغلوب ، ثم امر تابعين بحمل الفراش .

واجتمعت الأسرة فى الصالة تلقى نظرات الوداع على فراش فقيدها المحبوب . وتمثل الراحل لهم فكانهم يرونه رؤية العين ، وغلب الحزن نفيسة فأجهشت فى البكاء واطبقت الأم شفتيها كاتمة آلامها . كانت تحرم على نفسها البكاء أمام أبنائها أن تعاودهم حدة الحزن . لم يكن لهم من احد يعتمد عليه سواها فوجب ان تظهر بمظهر الرجولة . ولو وجد هذا الشخص للاذت بالدموع كسائر النساء ولكن لم يكن لها محيد عن التصبر والتجلد . وفضلا عن هذا كله فلم تواتها فرصـة للتنفيس عن حزنهـا بما جبهها من هموم العيش واثقاله ، ووجدت نفسها فى الغالب مضطرة الى تناسى أحزان القلب لتناضل ما يتهدد أسرتها من الضراء . « يحز فى نفسى الا اجد فراغا للحزن عليك يا سيدى وفقيدى . ولكن ما الحيلة ؟ . حتى الحزن نفسه محرم على امثالنا من الفقراء » . ولم يكن حسنين يتصور ان يفرطوا فى مخلفات ابيه ولكنه لم يفكر فى الاعتراض . والواقع أن حال الأسرة لم تعد تخفى على أحد . ومضى التاجر بالفراش واغلق الباب .فساد الوجوم حينا ، وارادت الأم ان تبدد سحابة الحزن التى أظلتهم فقالت مخاطبة حسين وحسنين :

– هيا الى حجرتكما للمذاكرة ..

وقبل ان تبدا حركة قالت نفيسة بانفعال :

– لن اسمح لمخلوق بان يمس ثياب أبى ..

فقال حسن مؤمنا على قولها :

– وما من فائدة ترجى من بيعها ..

وساد الصمت حينا ، ثم قال حسن مستدركا وكانه يواصل حديثه :

– وفضـلا عن هذا فلن ينقضى وقت طويل حتى تشـتد حاجتنا الى الملابس !

فتساءلت نفيسة فى ارتياع :

– ايمكن ان تستعملوا ملابس ابى ؟!

ولم يجرؤ احد على الاعتراض ، ولكن الرقة مست قلب الأم فقالت :

– ما فى ذلك من ذنب . وليس فيه ما يسىء الى المرحوم ، بل لعله مما يطيب ثراه . ولكنى ساحتفظ بها بنفسى حتى تمس الحاجة اليها حقا . .

وتشجع حسن بقولها فقال فى ارتياح :

– نطقت عن حكمة . وانى اذكرك بانى الوحيد الذى لا اكاد اختلف طولا او عرضا عن المرحوم ابى .

وتناسى الشقيقان الحزن الذى ران على صـدريهما فقـال حسنين محتجا :

– انى وان كنت اطول منك قليلا الا انه يمكن مد ثنية البنطلون!

وقال حسين بلهجة ذات معنى :

– أو ثنيها مرة أخرى . .

فقالت الأم فى ضيق :

– لا داعى للنزاع . توجد اكثر من بدلة فى حال لا بأس بهـا وساوزعها تبعا للحاجة اليها . .

ثم بلغ المسامع طرق على الباب فقطع عليهم الحديث ، وخفت نفيسة اليه ففتحته ، فدخلت خادم فريد أفندى محمد حاملة سلة مغطاة بغطاء ابيض وضعتها على السفرة وهى تقول :

– ستى تسلم عليك يا ستى وتقول ان هذا فطير القرافة .

فحملتها الأم السلام والشكر وذهبت الخادم من حيث اتت .

واقترب حسن من السلة وحسر عنها الغطاء فبدت الفطائر بالوانها الوردية وطار عرفها الشهى الى الأنوف . ولم يكن تهيا للأسرة طوال

الأسبوعين المنصرمين طعام شهى لما اخذت به الام نفسها من الحذر والتقتير . ولاحت الرغبة فى اعين الأخوة . ولكن الأم كانت تتجهم لها الخواطر ، والحقيقة ان تلك الأيام لم تكن تضمر لها خيرا ، وحتى خيرها لم يخل من نكد ، وبدا التفكير فى تجاعيد وجهها وهى تقول :

ـ هدية مشكورة ولكن الواجب ان نهدى ما يماثلها عقب العودة من القرافة ، فما العمل ؟!

وجد الاخوة خيبة ، واراد حسين ان يخفف عن امه فقال :

ـ فلنعد الهدية الى اصحابها شاكرين !

فقالت الأم فى حيرة :

ـ يعد مثل هذا العمل معيبا لا اثر للمودة فيه ..

فقال حسن متحمسا لقول امه :

ـ بل يعد سلوكا عدائيا ..

وتناول فطيرة ، وشمها ثم قال باستهانة :

ـ لا تحملوا هما . انما ترد هذه الهدايا فى أوقاتها ، فاذا مات فريد افندى بعد عمر طويل اهدينا الى اسرته سلة فطائر ، ولن يعجزنا صنعه وقتئذ باذن الله .

وراح يلتهم الفطيرة . وتبادل الشقيقان نظرة ثم مدا يديهما الى السلة ، حتى نفيسة سمعت تمطقهم فلم تعد تقاوم ..

١٣

جلست نفيسة على الكنبة فى الحجرة التى تنام فيها مع امها مكبة على ماكينة الخياطة ، وقد نثرت على ارض الحجرة قصاصات من الأقمشة . كانت الأم فى المطبخ ، والشقيقان فى المدرسة ، اما حسن فحيث لا يدرى أحد . وقد باتت الفتاة تضمر لشقيقها الأكبر مر اللوم ، فلو أنه وجد لنفسه عملا لما وجدت نفسها فى

الوضع التى هى فيه . لا يؤمن احد بانه جاد ـ كما يقول ـ فى البحث عن عمل ، ولكنه يغيب النهار ونصف الليل ثم يعود كما خرج صفر اليدين . ولم تعد الأيام تطالعهم الا بما يسوء ، فاليوم اضطرت الأم الى الاستغناء عن الخادم الصغيرة لتوفر اجرتها فاصبح عليها ـ هى ـ واجبان يوميان أن تبتاع حوائج البيت من الطريق لتسد الفراغ الذى تركته الخادم ، وان تعكف سحابة يومها بعد ذلك على ماكينة الخياطة . وقد مهدت لها الأم سبيل العمل بنفسها منذ يومين فقالت لصاحبة البيت التى جاءت بقطعة من القماش لتفصيلها :

ـ هل عندك مانع من مكافاة نفيسة على عملها ؟

فقالت المراة بلا تردد :

ـ أبدا يا ست أم حسن . هذا حق وعدل . وهيهات ان نوفى ما علينا من دين لست نفيسة .

ما زال سمعها يرجع هاتين الجملتين . وما تذكر انها وجدت نفسها فى مثل هذا الموقف طوال عمرها . لقد تصاعد الدم الى وجهها الشاحب فكاد ينضح به ، وشعرت بأنها تهوى من عل ، وانها امست فتاة اخرى . ليس بين الكرامة والضعة الا كلمة . كانت فتاة محترمة فانقلبت خياطة . واعجب شىء أنه لم يستجد جديد بالنسبة الى العمل نفسه ، فطالما خاطت ثياب صاحبة البيت ، وامراة فريد أفندى وابنتها وغيرهن من الجيران . فالخياطة هوايتها ، ولها فيها من البراعة مايجعلها قبلة الجيران والصديقات ، لشد ما تغير شعورها . احست بالخزى والهوان والضعة ، وتضاعف حزنها على أبيها ، فبكته بكاء حارا ، وبكت نفسها فيه . مات الفقيد المحبوب فمات بموته أعز ما فيها .

كانت تخيط منقبضة الصدر ، لا ضاحكة الثغر ولا مترنمة كعادتها فيما ولى من أيام . وكانت تنتظر حضور صاحبة البيت بين آونة واخرى لتفصل لها بعض ثياب داخلية بعثت بها اليها

هذا الصباح . اجل بعثت بها هذا الصباح فحسب ، عقب حديث امها بيومين ، مما جعلها تظن انها ارسلتها على سبيل الاحسان ! وقد افضت بأفكارها الى أمها فانتهرتها قائلة :

ــ لاتسلطى هذه الأوهام على نفسك والا خاب مسعانا جميعا .

ولم تكن تجرؤ على معارضة امها الى مابانت تكنه لها من الرثاء فى هــذه الأيام الأخيرة . « ما اغبانى . هل حسبتها راضية عن حالى ؟ انها تكابد حيرة قاتلة وهى احقنا بالعطف . ان التعاسة تنفذ فى لحمنا كما تنفذ هذه الابرة فى قطعة القماش . ما كان ابى ليسمع بشىء من هذا ولكن اين هو ؟ . ان حزنى عليــه يتضاعف يوما بعد يوم لا للضر لذى مسنا بعده فحسب ولكن لأن هذا الضر نزل بمن يحبهم ويحب لهم الخير . انى آلم لألمه . لا بد انه يتالم لنا ، لشد ما كان يحبنى . كانه يحدس مايرصدنى من شقاء . اضحكى ، ما احب ضحكتك الى نفسى ، هكذا كان يقول لى كلما تعالت ضحكتى الرنانة . وكان يقول لى ايضا الخفة انفس من الجمال كانه يعزينى على دمامتى . لله ما الطفه وما أعذبه ، لم يكن مثله احد فى الرجال . مات . لن انسى ما حييت ايماءته الى صدره وهو ملقى على الكنبة : ابى يستغيث ولا مغيث . لتندك الجبال على الأرض . حياة بغيضة مفجعة لا خير فيها . ابى ميت وانا خياطة . عمــا قليل تجىء صاحبة البيت لاضيفة كما كانت ولكن زبونة . كيف القاها ؟ باى عين تنظر الى ؟ . حسبى ، حسبى ، داخ راسى » . وسمعت امها تخاطب شخصا فى الصالة فكفت يدها عن الماكينة وأرهفت السمع فقرع اذنيها صــوت تاجر الأثاث وهو آخذ فى مساوماته التى لا تنتهى وامهــا تحاوره بصــوت ملئه الاشــفاق واللوم . « ليست امى بلهاء ، وما كانت لتغلب فى مثل هذا الموقف ، ولكنها الحاجة القاسية التى تركبها ، متى يصرف لنا المعاش ؟ لا ادرى ، ولا احمد يسرى يدرى . هيهــات ان يكفينــا المعاش . خمســة جنيهــات ؟ ! كارثة . جاء الرجل ليحمل المرآة الكبيرة بحجــرة

الاستقبال ولما يمض اسبوعان على بيع الفراش العزيز . وسيأتى غدا وبعد غد حتى يترك الشقة ارضا عارية . لماذا خلقنا اسرى اذلاء للغذاء والكساء والمسكن ؟ هذا سر متاعبنا » . وخفت الى باب الحجرة ففتحته ورأت التاجر ومعاونيه يحملون المرآة الطويلة الى الخارج وقد فتح باب حجرة الاستقبال على مصراعيه ووقفت امها على عتبتها . وكان الرجل الذى يحمل مؤخرة المرآة قصيرا فحملت المرآة فى وضع مائل ورأت سطحها ينعكس عليه ركن سقف الصالة متأرجحا بحركة الرجلين كأنما سرى بأوصال البيت زلزال . وذكرت وهى لا تدرى نعش ابيها . واشتد انقباض صدرها وهى تلقى نظرة الوداع على المرآة التى عاشرتها منذ رأت النور . وعادت الى مجلسها . « ينبغى ان تكون المرآة آخر ما احزن عليه . لن تعكس لى وجها اسر به . الخفة انفس من الجمال ! ، هذا قولك يا أبى وحدك ، ولولاى ما قلته ابدا . لا جمال ولا مال ولا اب . كان يوجد قلبان يساورهما القلق على مستقبلى ، مات احدهما ، وشغلت الهموم الآخر . وحيدة ، وحيدة ، وحيدة ، فى يأسى والمى ، ثلاثة وعشرون عاما ! ما ابشع هذا . لم يأت الزوج بالامس والدنيا دنيا فكيف يأتى اليوم او غدا ؟ ! وهبه جاء راضيا بالزواج من خياطة فمن عسى ان يقوم بنفقات الزواج ؟ . لماذا افكر فى هذا ؟ لا فائدة ، لا فائدة . سوف اظل هكذا ما حييت » .

ودق الباب ، ثم جاءت صاحبة البيت متهللة كعادتها ، واحتضنتها وقبلتها . ثم جلستا جنبا الى جنب وتحدثت المرأة برقة ومودة ، ولعلها حرصت على الرقة والمودة اكثر من ذى قبل . وتظاهرت نفيسة بالرضا والارتياح تدارى بهما ارتباكها وخجلها . ولكن من المؤكد ان مبالغة المرأة فى اظهار مودتها آلمها وآذاها وضاعف من ارتباكها وخجلها . وقد جربت المرأة الفستان الذى انتهت نفيسة من خيطه ، وقاست الثياب الداخلية ، ثم جلست لصقها وغمرت يدها بنقود فضية وهى تقول :

— هيهات ان نوفى دينك السابق .

ومكثت معها ردحا من الزمن ثم ودعتها وانصرفت . وبسطت نفيسة يدها فرات قطعتين من ذوات العشرة القروش . وثبتت عيناها عليهما وصدرها جياش وقلبها خافق . ثم قهرها الحياء والهوان « شيء مؤلم ، ولكن لا ينبغى ان أفكر فى هـذا . ما جدوى وجع الدماغ ؟ روضى نفسك على قبول ما لا بد منه . هذه حياتى ولا حياة لى غيرها . . » وجاءت الأم وهى لا تزال تنظر الى النقود فأخذتها من يدها وسالتها :

— أجرة الثياب كلها أم الفستان وحده ؟

فغمغمت الفتاة :

— لا ادرى . . .

فقالت الأم وهى تزدرد ريقها بصعوبة :

— أجرة حسنة على أية حال .

وتحاشت الأم أن ينم وجهها على شيء مما يقوم فى نفسها . .

١٤

ومضت أسابيع . وكان الليل قد ارخى سدوله وشملت الشقة كآبة وما يشبه الصمت . وكان الشقيقان يجلسان الى المكتب متقابلين ، منهمكين فى المذاكرة ، على حين جلست الأم ونفيسة فى الصالة فى شبه ظلام قانعتين من النور — على سبيل الاقتصاد — بما ينبعث من حجرة الأبناء . وتناجيتا فى صوت منخفض شانهما كل مساء ، وكانت هموم العيش اكثر ما يستأثر بحديثهما . لم تزل الحاجة همهما الاكبر ، وما انفك الخوف يقض مضجع الأم ويجعلها ترمق المستقبل بقلق وحزن عميقين . بيد ان العادة كانت تحدث أثرها الملطف فى تهوين الخطب واساغته ، فلم

بعد التقشف فى الغــذاء مزعجا كما كان بادىء الأمر ، واخذت نفيسة تالف مهنتها الجديدة ، وتتطلع الى زبائن جدد ، فى شىء من الانكسار وكثير من الرجاء . حتى الشقيقان ، تعودا أن يجعلا من غذاء المدرسة وجبتهما الرئيسية ، وأن يبيتا بلا عشاء فى صبر وجلد . كانت العادة تحدث اثرها ، وكان حزم الأم يسيطر على ضبط اعصاب الأسرة المنكوبة .وفى ذاك المساء جاء فريد افندى محمد وزوجه يزوران الأسرة فاستقبلتهما الأم ونفيسة بترحاب وقاداهما الى حجرة الاستقبال .

وكان فريد افندى يرتدى جلبابا ومعطفا ، اما حرمه فقــد التفت بالروب ، وكانهما فى شفتهما بغير ما كلفة . وجلس الرجل على الكنبة ليفسح المجال لجسمه المكتنز وراح يحدث حديثــه الودود فى لطف وايناس . وكانت زوجه ــ ست أم بهية ــ بدينة مثله مع ميل الى القصر ، الا أنها كانت تعد أجمل امراة فى العمارة لبياض بشرتها وزرقة عينيهــا . وقد قالت تخــاطب ام حسن متسـائلة فى لهجة تنم عن العتاب :

ــ لماذا تلزمان البيت هكذا ؟ لماذا لا تروحان عن نفســكما بزيارتنا كما كنتما تفعلان ؟

فقالت الأم :

ــ هجم برد الشتاء وما أن ياتى المساء حتى يركبنا الكســل . اما نهارنا فلا يخلو ساعة من هموم البيت . .

فقال فريد افندى :

ــ نحن اسرة واحدة ، وينبغى ان نمضى جل فراغنا معا .

كان فريد افندى ممن لا يبرحون بيوتهم بغير داع قهــار . ويرى طيلة فراغه متربعا على الكنبة ومن حوله زوجه وبهية ابنته وسالم ابنه الصغير ، يسمرون ، ويمصون القصب او يشــوون ابا فروة . وكانت الأم تكن مودة صادقة لعطفه ومروءته ، ولا تنسى له ما تجشم من تعب يوم وفاة زوجها . وفضلا عن هذا كله

فقد اقرضها بعض المال لحين صرف المعاش ، ولم يكن ينى عن الذهاب الى وزارة المالية للاستعلام والاستعجال . بيد انه كان موظفا تافه الشان وهو ما غاب عن تقدير المراة . ولم يرق الى الدرجة السادسة الا حديثا على بلوغه الخمسين . وكانت جيرته للأسرة ترجع الى عهد بعيد . وتوثقت أواصر الصداقة بينهما لطيب معشرهما وقرب أسباب المعيشة بين الاسرتين . وكانت حياة لا بأس بها ، ولا تخلو من ألوان الترفيه . ثم نعمت اسرة كامل افندى برفاهية جديدة حين رقى المرحوم الى الدرجة السادسة قبل وفاته بخمسة اعوام . واستقبل فريد افندى عهدا جديدا منذ عامين ، فورث بيتا بالسيدة زينب يدر ايجاره عشرة جنيهات شهريا ، وبلغ به دخله ثمانية وعشرين جنيا او ما يعد ثروة فى عام ١٩٣٣ . وبات فريد افندى سيد عطفة نصر الله ، وزاد ترهلا على ترهل ، ولولا حرص زوجه على الاقتصاد لمواجهة مستقبل فتاتهما وابنهما الصغير لنفذ الرجل ما اراده يوما من الانتقال الى شقة بشارع شبرا .

وتنقل بهم الحديث من واد لواد ، ثم قال فريد افندى مفصحا عن رغبة لعلها كانت أول ما بعثه الى هذه الزيارة :

— يا ست ام حسن ، انى قاصدك فى رجاء . .

فقالت الأم :

— مر يا سيدى . .

— ابنى سالم ، وهو فى السنة الثالثة الابتدائية ، ضعيف فى الانجليزى والحساب . وقد رايت على سبيل الاقتصاد — لأن المدرسين طماعون كما تعلمين — ان اعهد الى حسين وحسنين بالقيام بهذه المهمة ، ساعة كل يوم او يوما بعد يوم ، هذا رجائى يا ست ام حسن .

وأدركت المراة ان الرجل يهيىء سبيلا غير ماس بالكرامة لنفح

ابنيها بمصروف شهرى يرفه عنهما . هذا واضح كالنهار وينفق مع ما طبع الرجل عليه من دماثة ورقة . وقالت برقة وحياء :

ــ ان حسين وحسنين ابناك ، وهما طوع امرك . . !

فقال الرجل بسرور :

ــ فليسعفاني بسرعة اذن ، وليبدءا يوم الجمعة القادم . .

وعادوا الى حديثهم الطويل ، ثم غادر الرجل وزوجه الشقة حوالى التاسعة . وهرعت نفيسة الى حجرة اخويها حاملة خبرا سارا لاول مرة منذ عهد ليس بالقصير ، وقالت بمرح وقد استردت شيئا من طبيعتها الأولى :

ــ مفاجاة !

فرفعا راسيهما اليها فى استطلاع فقالت :

ــ فريد افندى راغب فى اختيار مدرس لسالم . .

ــ وما شاننا فى ذلك ؟

ــ منكما ؟

ــ لأى مادة ؟

ــ الانجليزى . .

فصاح حسنين :

ــ انا طبعا !

فقالت مبتسمة :

ــ والحساب أيضا .

فقال حسين وهو يتنهد :

ــ انا . . .

فقالت فى مكر :

ــ يريدكما معا ، وطبعا بالمجان !

فهتفا معا فى سرور وقد ادركا ما وراء كلامها :

ــ طبعا !

١٥

لم يكن ثمة ما يدعو الى ارتداء البدلة فى ذهابهما الى شـقة فى نفس العمارة فارتديا معطفيهما على البيجامتين . والى هذا كانت أمهما تحرم عليهما ارتداء البدلة - ان يبليها طول الاستعمال - الا للضرورة القصوى . وكان الضحى بسـام الشمس فلطفت حرارتها من برودة الجو . وارتقيا السلم يملأهما السرور والأمل . ومرا فى صعودهما بباب شقتهما القديمة فالقيا عليها نظرة صامتة ، وانتهيا الى الشقة العليا فوجـدا الباب مواربا ووقفـا لحظات مترددين . ثم اقترب حسنين من الباب ورفع يده لينقر عليه ولكن يده جمدت فى الهواء ورنت عيناه الى الداخل على رغمه . رأى فتاة مولية الباب ظهرها ومنحنية على شيء بين يديها - لعلها تبحث فى درج من أدراج البوفيه - وقد برز ردفاها اللطيفان ، وانحسر الفستان عن ساقيها وباطن ركبتيها ، ساقان مدمجتان يكسوهما بياض ضـاحك تكاد العين تحس طراوتهما . وثبتت عيناه على المنظر فلم يبد حراكا . وعجب حسين لموقفه فدنا منه فى اهتمام والقى ببصره من فوق كتفه وهو يشرئب بعنقه فغمرته دهشـة ، ولكن سرعان ما ارتد عن فرجة الباب كالهارب وجذب اخاه من ذراعه وهو يرميه بنظرة حادة كانما يقول له « أمجنون انت ؟ » . ولبثا حينا وقد ركبهما ما يشبه الشعور بالذنب ، وكان المنظر ذر فى شقوق صدريهما الشطة . ومال حسنين على اذن حسين وهمس :

- بهية . . .

فغمغم الآخر متظاهرا بعدم الاكتراث :

- لعلها . . .

فتردد حسنين وفى عينيه بسمة شيطانية ثم قال :

ــ الا تسرق نظرة اخرى ؟

فلكزه فى كتفه ونحاه جانبا ثم اقترب من الباب وطـرقه ، وسمعا وقع اقدام آتية ، وفتح الباب عن وجه جميل ، مستدير ، ممتلىء ، أبيض مشوب بشحوب خفيف ، تزينه عينان زرقاوان صافيتان . وما ان رات القادمين حتى تراجعت فى خفر . ثم جاء من بعيد صوت فريد افندى وهو يهتف :

ــ تفضلا يا حضرتى الأستاذين الكبيرين !

ودخلا الى الصالة ــ حجرة السفرة ايضا ــ فرايا فريد افندى جالسا على كنبة فى مواجهة البوفيه ، فى جلباب فضفاض ، جعل منه كهيئة المنطاد . وسلما عليه وهو يتصفح وجهيهما باهتمام وترحيب ، ثم نادى سالم ، فجاء الغلام ووقف فى حياء وارتباك ، فقال فريد افندى :

ــ سلم على استاذيك . انت تعرفهما طبعا ولكنهما من الآن فصاعدا شخصان جديدان . هما أستاذاك فتأدب فى محضرهما كما تتادب امام معلميك . .

فاقترب منهما الغلام فى ادب وهو يغالب ابتسامة حيال الشابين اللذين لم يالف احترامهما بعد ، واشار الأب الى حجرة الى يسار الداخل وقال :

ــ حجرة الاستقبال اوفق حجرة للدرس ، وبها الشرفة اذا اراد احدكما أن يتشمس . .

ومضى الأستاذان الى الحجرة يسبقهما التلميذ ، وبادر الغلام الى الشرفة ففتح بابها ، ثم اغلق باب الحجـرة . وكانا يدخلان الشقة لأول مرة لأنه لم يكن لفريد افندى ابن فى سنهما فتدعوهما صداقته الى التردد عليها . ووجدا حجرة الاستقبال بمنزلة حجرتهما بوجـه عام فهى مكونة من طاقم قـديم ذى كنبتين افرنجيتين وستة كراسى ، ومرآة كبيرة ذات حوض مذهب يحوى

وردا اصطناعيا بيد أن حجرتهما بقيت على قدمها وبيعت مرآتها ، اما هذه فيبدو أن يد النجار قد جددت حشوها وكساءها . وجلس حسين على كنبة فجاء سالم بكرسي وجلس قبالته واضعا بينهما خوانا صفت عليه الكتب والكراسات ، على حين خرج حسنين الى الشرفة فى انتظار دوره . وجعل حسين يتصفح كراسات الغلام وكتبه ، ثم قال له :

— ساعيد الدروس من الأول شارحا ما يغمض عليك على ان نبدأ فى الدرس التالى بتسميع ما تم شرحه .

وبدأ الدرس فى اهتمام جدى .

ووقف حسنين فى الشرفة مرتفقا حافتها كما كان يفعل ايام كان لهم شرفة . وكان المنظر الذى أثاره لا يزال ناشبا فى مخيلته . الساقان البديعتان ، والوجه البدرى ذو العينين الزرقاوين . نظرة هادئة رزينة توحى بالثبات لا بالخفة . جمال يبهر وان شابه شيء من ثقل الدم ولكنه لم يترك اثرا سيئا فى نفسه . لا يزال دمه يتدفق حارا فى عروقه ، وقلبه يخفق بنشوة المنظر ، وراسه لا يمسك عن خلق الصور والأحلام . هذه اسطح البيوت المحدقة به وهذه عطفة نصر الله فى اسفل ، وهؤلاء خلق كثيرون ذاهبون آئبون ، كل أولئك يلوح وراء غلالة حمراء نشرها خياله المحتقن بالدم ، متى تعود السكينة الى نفسه ؟ انه يذكر بهية . كان يراها كثيرا وهى صغيرة تحجل فى فناء العمارة . ولكنها اختفت منذ الثانية عشرة ، وانقطعت عن المدرسة أيضا قبل ان تلتحق بالمدرسة الثانوية . ولعلها فى الخامسة عشرة ، ولكن كان كانه يراها لأول مرة . « انى بحاجة الى مثل هذه الفتاة . نذهب الى السينما معا ، ونلعب معا ، ونتحدث كثيرا . وما من باس فى ان اقبلها واعانقها . ليس فى حياتى وجه جميل يجذبنى اليه . وحسبى ما صادقت من فتيان فى المدرسة ونادى شبرا . أريد فتاة . أريد هذه الفتاة . فى أوربا وامريكا ينشا الفتيان والفتيات

معا كما نرى فى السينما . هذه هى الحياة . اما هذه فما ان راتنا حتى توارت عن الباب كأننا وحوش نروم التهامها . وكان اجدادنا يقتنون الجوارى . لو نشأت فى بيت ملىء بالجوارى لعرفت حياة اخرى على رغم امى وانذاراتها ولكماتها . حتى الخادمة الصغيرة طردت لفقرنا . ماذا يخبىء لنا المستقبل ؟ اظن اكبر ذنب يؤخذ به فى الآخرة هو ان نترك هذه الدنيا دون ان نستمتع بحلاوتها . اجمل منظر حقــا هو بطن ركبتها . فى وســطه عضــلة رقيقة مشدودة تشف بشرتها عن زرقة العروق . لو انحسر الفستان قليلا لرأيت مطلع الفخذ . اجمل منظر فى الدنيا منظر امراة تخلع ثيابها . اجمل من المراة العارية نفسها . يقولون ان مدرس التاريخ زير نســاء . متى اجد نفسى رجلا حــرا ؟!. عندنا غدا حصة تاريخ ويجب ان احفظ هذه الليلة القبائل الجرمانية . انكحوا ما طاب لكم من النساء ، هذا أمرك يا رب ولكن هذا البلد لم يعد يحترم الاسلام . » وتابع احلامه فى نشاط حتى ترامى اليه صوت حسين يدعوه الى درس الانجليزى فغادر موقفه . .

وعند انصرافهما بدت لهما الفتاة جالسة فى الحجرة المقابلة لحجرتيهما ، اما حسين فقد غض بصره فى وقاره المعهود ، واما هو فقد رنا اليها بنظرة قوية فخفضت عينيها فى حياء .

١٦

ــ كم تظن ان يكون أجرنا ؟

فقال حسين متظاهرا بعدم الاكتراث :

ــ لا تكن شحاذا ثقيلا . .

فقال حسنين بأمل :

ــ نحن ندرس لسالم يوما بعد يوم وقد مضى زمن لا بأس به

فلعله ينقدنا اجرنا أول الشهر ، نينة لا تستبعد ان يعطى كلا منا نصف جنيه وهو مصروف عال ! ستعود أيام الكرة والسينما وشيكولاتة المقصف فى الفسحة ..

كانا يرتقيان السلم وقد غاب نهار الشتاء القصير فى ظلمة المساء المبكرة . وطرقا الباب كعادتهما وانتظرا ان يجىء من يفتحه وهما يطويان فى صدريهما املا يتجدد مساء بعد مساء دون ان يتحقق . وجاءت الخادم وقادتهما الى حجرة الاستقبال . كانت الصالة خالية والضوء ينبعث من حجرة نوم الوالدين فى نهاية الصالة فسار حسنين وهو يلحظ المكان بجانب عينيه دون جدوى ثم جاء سالم واغلق وراءه الباب وجلس امام حسين وبدأ الدرس. وشعر حسنين بخيبة وملل . وكان أحضر معه كتابا يذاكره حتى يجىء موعد درسه فراح ينظر فيه بعينين غائبتين . وجعل يرفع بصره الى الباب المغلق بحنق شديد ، ثم تساءل بمكر :

— الا يحسن بنا أن نغلق الشرفة اتقاء للبرد ونفتح الباب ؟

وهم سالم بالنهوض ولكن حسين اشار له بالجلوس وقال :

— اغلق الشرفة اذا اردت على أن يبقى باب الحجرة مغلقا .

ورمقه بنظرة ذات معنى فتلقاها حسنين باستياء مكتوم . وضاق بمجلسه فقام الى الشرفة متناسيا انه كان يقترح اغلاقها منذ لحظات . ووجد حيال الظلمة كآبة مثل تلك السحب التى كانت مرتقة بصفحة السماء تزيد الظلمة عمقا ووحشة ، لم يكن بالآفاق نجم واحد ، ولاحت اضواء المصابيح خافتة تحت غاشية من الضباب ، وخيم على الكون سكون ثقيل وبرودة صامتة كانما كتمت أنفاسه . « حنبلى ، حنبلى . يجب ان يكون رجلا وقورا قبل الأوان . ولا يبدو انه يريد ان يعاوننى . من يدرى لعلها لو كانت لها اخت لتغير سلوكه . انه كأمه جاد صارم . ينبغى أن أفض هذه المشكلة بالحل الموفق » وراح يتفكر باهتمام حتى سمع صوت سالم يناديه فغادر موقفه الى الحجرة . وقال له الغلام:

ـ تفضل شايا .

ورای قدحین من الشای علی الخوان فتناول احـدهما وقد خفف منظر الشای من توتر اعصابه . وقبل مضی دقيقة سمعا صرير الأكرة فنظرا صوب الباب ففتح قليلا وبدت بهية !. كانت تحمل السكرية فاعطتها لسالم وهی تقول :

ـ خذ هذه فربما لم يكف ما بالشای من سكر . .

كانت ترتدی فستانا بنيا تكاد تمس أهدابه أعلى القدم فأضفى طوله على قامتها المائلة للقصر ملاحة . وحملق الشقيقان فی وجهها وهی لا تحول عينيها عن الغلام . ثم غض حسين بصره ولما يفق من وقع المفاجأة بينا ظل حسنين يحملق فی وجهها كأنه عجز عن استرداد بصره . ورای الغلام يجیء بالسكرية ، واخذت الفتاة ترد الباب فملأ الجزع قلبه الخافق ، وعز عليه ان تختفی وهو غارق فی ذهوله وجموده ، وطفرت من أعماقه رغبة فی الافصاح لا تقاوم ، فقال بعجلة :

ـ شكرا . الشای به الكفاية . . !

وتحولت عيناها اليه فی ارتباك ، ثم اختفت دون أن تنبس بكلمة ، ولعل عينيها نمتا عن ابتسامة مكتومة . وتحاشى النظر صـوب أخيه فحصر بصره فی قدح الشـای . « مفاجأة لم اكن انتظرها . حلم سعيد . علی الرغم من الباب المغلق ! » ورشف رشفة كبيرة من السائل الساخن فلسعت لسانه وسقف حلقه وجعلته ينفخ فی جزع . ولكن سخونة الشـای لم تغيبه طويلا عما يعانی من اغراء . « جسم لدن . عينان جذابتان . هيهات أن يخفی هـذا الفستان الطويل ما انطبع فی حسی من صـورة الساقين . وبطن الركبة خاصة . لا الفستان ولا الباب ولا الظلام . أعظم واجب فی هـذه الدنيا ان تلاعب فتاة جميلة تحبها . انی أعجب كيف أن فتاة يمنعها الحياء من التحديق فی وجه حبيبها تستطيع يوما أن تنزع ثيابها بين يديه دون مبالاة !. هذا التطور

خاصة خليق بأن يبعث بهيج الأمل فى موات النفوس . او لعلها العادة ؟!. يجوز . هــذه العادة التى جعلتنا نالف المبيت على الطوى ! كيف يحق لى ان افكر فى الحب على ما نكابد من قساوة الحياة !. شكرا ، الشاى به الكفاية !. احسنت بشكرها صنعا . لا يحب طبعى الجبن والتردد . وبذلك يمكن ان اقتنص فرص الحب وسط برودة الفقر . الفقر ! . لو كان الفقر رجلا لقتلته ! . ولكنه امرأة . تقتلنا ونحن راضون . ترى هل يتالم ابى لحالنا ؟ ترى ما هيئته الآن ؟ لهفى عليك يا ابى . حقا ان الحياة اكذوبة ضخمة . ولكنها جاءت بنفسها بالسكرية !. جاءت لى انا فى الواقع . اريد ان اكون شارلمان عصرى . لو عدت يوما الى عطفة نصر الله محاطا بعظمة فروسيته لألقت بنفسها على من الشرفة .. » وما يدرى الا وحسين يقول له :

— دورك ...

اللغة الانجليزية !. وحل محل اخيه ، والقى درسا ممتلئا عطفا وحبا للغلام الذى يجرى فى عروقه الدم الذى يجرى فى عروقها . ذلك الدم الذى استشفه فى بطن ركبتها . وانتهى بعد زمن لم يدرك له طولا ، ثم غادرا الشقة معا الى السلم المظلم . ولم يعد يطيق صبرا فقال :

— كان ظهورها اليوم مفاجاة بديعة !

فقال حسين بلهجة تنم عن الانتقاد :

— حاذر لا تكن وقحا . هذا بيت محترم !

— ماذا فعلت فاستحق هذا التانيب ؟

— لا تفعل شيئا لا تقدم على فعله اذا كان فريد افندى معنا .

وغلبه السرور فقال وكانه يناجى نفسه :

— جاءت بنفسها !. لله ما الطفها !

— ليس فى هذا ما يعيب ..

— ترى اكلفها ابوها باحضار السكرية ؟

فقال حسين بملل :
ـ من ادرانى بذلك !
ـ أم جاءت من تلقاء نفسها ؟
ـ ليكن هذا او ذاك .
ـ واذا كان من تلقاء نفسها فهل جاءت تحت بصر والديها ؟
فلم يجبه الآخر وان ظل منتبها لما يقول فى اهتمام شديد ، فعاد حسنين يتساءل :
ـ او جاءت خفية !؟
فهتف حسين :
ـ خفية !؟ .
فضغط الشاب على ذراع اخيه وقال وهما يغادران آخر درجات السلم :
ـ الا يقولون « من القلب للقلب رسول » !؟

١٧

ـ جئت الآن وحدى ، وسيجىء حسين بعدى ، حتى لا يضيع وقتنا بلا ضرورة !
فقال سالم بادب :
ـ هذا افضل ...
واتخذ كلاهما مجلسه ، ولكن حسنين قال قبل ان يبدأ درسه :
ـ الأوفق ان تغلق الشرفة وتفتح الباب !
ونهض سالم فحقق رغبة استاذه . ورأى الصالة مظلمة صامتة ولكن لم يفتر امله ، فلا يزال فى الوقت متسع للشاى ، ثم للسكر !.
واراد سالم ان يتودد الى مدرسه بأن يفضى اليه بما فى نفسه فقال :
ـ بابا وماما عند ستى ..

فخفق قلبه بعنف ، ونظر الى الغلام طويلا ، ثم سأله :
- متى ذهبا ؟
- بعد العصر ...
وساوره القلق ان تكون قد ذهبت معهما فتساءل :
- وكيف تبقى وحدك فى البيت ؟
فقال الغلام :
- معى ابله بهية ..
وابترد صدره بلذة الارتياح والأمل . « الشاى والسكر . السكر خاصة . بل السكرية . سأتحقق اليوم مما اذا كانت تتعمد الظهور امامى ! » . وامر الغلام ان يطالع ويبدأ الدرس ، واصغى اليه دقائق ثم مضى يغيب عنه . « هل أطلب شايا ؟. قلة ذوق !. ولكن اذا تأخر الشاى فلا بد من طلبه . انى مضطرب اكثر مما ينبغى . اننا وحيدان فى الشقة انا وهى . لا يخدش هذه الوحدة سالم او الخادم الصغير ، فنحن وحيدان . فلأنعم طويلا بهذه الوحدة الخيالية . لو كانت الدنيا بسيطة كبساطتها الحلوة الأولى لقمت اليها واخذتها بين ذراعى ، وسألتها باطمئنان كامل ان تكشف لى عن ساقيها . ما الذى يجعلنى احجم عن رغبة كهذه ؟ . هذا سخف الدنيا الذى قتل ابى وأنزل بنا ما نحن فيه » . وانتبه الى سالم وهو يسأله عن معنى كلمة فذكر له معناها ، وامره ان يواصل المطالعة . وقبل ان يغيب عنه صوت الغلام سمع وقع اقدام تقترب فاتجه بصره ناحية الباب المفتوح ، ثم رأى صينية الشاى تتقدم حاملها ، ووقع بصره على الساعدين اللتين تحملانها فخفق قلبه خفقة عنيفة ونهض قائما كمن به مس . وجاءه صوت رقيق وهو يخطو نحو الباب يقول بصوت بالهمس :
- سالم ...
فظهر حيالها وهو يتفحصها بنظرة عارمة ثم همس :
- الف شكر ...

وتورد الوجه الأبيض المائل للشحوب ولعله لم يتوقع ظهوره ، ثم غضت بصرها فى ارتباك . ومد حسنين يديه فتناول الصينية ، فاطبقت يده اليمنى على أصابع يسراها ، وسرى مسها فى يده ، وذراعه ، وجسمه ، وروحه ، فى اقل من الثانية . ولم تقف به جرأته عند حد فضغط على أصابعها ضغطة غير خافية ، فاستخلصت يدها فى استياء ، وفى وجهها عبوسة ، وتحولت عن الباب فى حدة الغضب . وعاد الى الخوان بالصينية شديد التأثر ، ثم جلس على مقعده وهو يقول للغلام فى ارتباك :

ــ استمر . . .

« ترى هل تعجلت الأمر قبل أن ينضج ؟ . ما اقل صبرى ، هكذا انا دائما . يالها من عبوسة !. عبست وتولت . ان يكن حياء فهو عز المنى ، وان يكن حنقا فلعله الختام . هيهات ان اتراجع . هيهات ان يطيب لى التردد ابدا ، لماذا جاءت بنفسها ؟ لماذا لم تكلف الخادم بحمل الصينية ؟ . جاءت لى انا . هذا واضح . لا داعى للخوف . » . وكان ينتبه الى سالم فى أويقات متقطعة . ويلقى عليه بعض الأسئلة ، ثم يغيب عنه فى قلق يراوح بين الاشفاق والسرور . ولما ان انتهى الدرس خطرت له فكرة فصمم على تنفيذها دون تردد . ونهض قائما ، وغادر سالم الحجرة ليوسع له الطريق فاخرج منديله من جيب معطفه وتركه على المقعد ، ثم غادر الشقة . ولكنه لم يبرح مكانه بعد اغلاق الباب . وقف يرهف السمع الى خطوات الغلام حتى ضاعت ، وتريث لحظة ثم نقر على الباب . وانتظر وقلبه يثب وثبا من شدة الخفقان . « اذا جاءت الخادم ضاع تدبيرى هباء . ولكن من المحتمل ان تاتى هى . امرى لله » . واضاء نور الصالة وسمع وقع اقدام قادمة ثم فتح الباب . هى . ولم يبال ما ارتسم على وجهها من آى الدهشة ، ولم يضع وقته سدى فتساءل فى رقة واشفاق :

ــ اخاف ان اكون اغضبتك !

فتراجعت خطوة دون ان تفتح فاها فقال بعجلة :
ـ لا اطيق ان تغضبي ابدا . .
فغمغمت فى استنكار كأنها لا تحتمل ان يوجه اليها خطابا :
ـ لا ، لا ، لا ، هذا كثير !
ولم يستطع ان يتكلم لأن سالم ظهر على عتبة الغرفة اليسرى وهو يتساءل :
ـ جاءت ماما ؟
فقال حسنين بصوت مرتفع :
ـ نسيت منديلى فى الحجرة ! . .
وجرى سالم الى الحجرة ، وسارعت الفتاة بالعودة الى الداخل، ثم جاءه الغلام بالمنديل فتناوله ومضى وقد نسى أن يشكره . .

١٨

ورفع حسين راسه عن المكتب وتفحصه بدهشة ثم سأله :
ـ مالك ؟
فضحك حسنين ضحكة قصيرة دون أن يجيب ، فسأله الآخر بلهجة ذات معنى :
ـ اعطيت درسك ؟
فارتمى حسنين على فراشه وتساءل :
ـ هل ابدو متغيرا ؟
ـ بلا ريب .
فتنهد الشاب قائلا :
ـ يحق لى ان احمد الله على ان امنا تجلس فيما يشبه الظلام .
ـ ماذا حدث ؟
هل يخبره بما حدث ؟. ولكن هل يلقى منه الا زجرا ؟ . قال :

– لم يحدث شيء ؟

– واضطرابك ؟ !. انك اذا اضطربت توتر انفك كالحمار .

قال حسين ذلك ثم تساءل فى نفسه هل يتوتر انف الحمار حقا ، كيف اختار هذا التشبيه ؟ ولكن الآخر تضاحك قائلا :

– هيجان شعور ، هذا كل ما هنالك . . .

– وبعد ؟

– ولا قبل !

فقال حسين بجد واهتمام :

– اريد ان اعرف مقصدك .

– لا افهم ما تقول .

– لا تتجاهل ما اعنى انت تفهم كل شيء . لماذا لا تتركها وشانها ؟ الا تخاف ان يفطن فريد افندى الى عبثك او ان يبلغه امرك عن طريق الفتاة نفسها ؟ . سترمى بنا الى مركز حرج . .

فقال حسنين مبتسما :

– والله يا اخى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على ان اتركها ما تركتها او اهلك دونها . .

فضحك حسين على رغمه ، ثم قال وهو يستعيد مظهر الجد والرزانة :

– ماذا تريد منها ؟

يا له من سؤال !. يبدو غاية فى البساطة ولكن من له بأن يجيب عليه ، ولم يكن طرح على نفسه هذا السؤال فلم يدر له جوابا . كان اندفاعه بوحى من عواطفه وغرائزه دون حاجة الى تفكير . ثم قال فى حيرة :

– فى مثل حالتى لا تفريق بين الباعث والغاية .

– لا افهم ما تقول .

– ولا انا بفاهم !

– اذن دعها وشانها كما قلت لك .

ـ لن ازال وراءها حتى . . .

فتفحصه حسين بنظرة كئيبة وتمتم متسائلا :

ـ حتى ماذا ؟

ـ حتى تقع كما وقعت .

ـ ثم ؟!

فقال الشاب الحائر :

ـ حسبى هذا !

فهز حسين راسه فى حدة وقال :

ـ انت مخطىء . انها فتاة مهذبة ، ومن اسرة طيبة ، ولن ترضى عن سلوكك . .

ـ هى ما قلت واكثر ولكنى لن اتخلى عن املى . .

وقام الى المكتب فاخذ كتبه وكراساته وعاد الى الفراش ثم وضعها على حافة النافذة المغلقة التى تلى فراشه مباشرة ، وجلس متربعا حيالها كانه جالس الى مكتب ، فساله حسين متعجبا :

ـ لم لا تجلس الى المكتب ؟

ـ اريد ان اتربع لادفىء ساقى .

وكان يفكر فى امر ذى بال ففتح كراسة واقتطع منها صفحة وامسك بالقلم وراح يعمل ذهنه فى اهتمام ووجد واضطراب . « ساكتب لها كلمة . لن تتاح لى فرصة لمخاطبتها فلا حيلة لى الا هذه . ولكن ماذا اكتب ؟ » . وركز فكره مستعينا بالسكون الذى يغشى الحجرة لا يخدشه شىء الا خشخشة اوراق الكراسة اذا قلبها حسين ، ولكن اخذت اذناه تستبين صوت راديو يتسلل من النافذة المغلقة وانيا من بيت من بيوت العطفة . وقطب متظاهرا بالضجر ولكنه ارتاح الى سماعه هربا من حيرة افكاره . واصغى الى « عادت ليالى الهنا » فسلم سريعا بمجامع نفسه وجاش صدره بالحنان وندى بالعطف وهفا قلبه نشوة للحب والحياة . وغمرته موجة حماس فامتلأ نشاطا وتمنى لو ينطلق

الى الخلاء متلفعا بالظلماء . وجعل يغيب عن النغم رويدا بعد ان فتح لروحه أبواب جنة عامرة بالأحلام والرؤى . « يجب أن اكتب كلمتين ، جملتين فحسب ، حتى لا اسود الا ورقة صغيرة اذا رميت بها عند قدميها لم يستبنها احد » . وحرك القلم كاتبا : عزيزتى بهية انى آسف جدا لانى اغضبتك . « اليس الأفضل ان أقول : لا تغضبى يا عزيزتى ؟ . . سيان . ثم ماذا ؟ ينبغى أن أعترف لها بحبى . اريد جملة غير مبتذلة . اللهم عونك . » . وقطع حسين عليه تفكيره متسائلا :

ــ ماذا تكتب ؟

ــ موضوع انشاء .

ــ ما هو ؟

فقال بلا تردد :

ــ اثر الموسيقى فى نهضة الأمم . .

عزيزتى بهية ، انى آسف جدا لانى اغضبتك . أيحق لك الغضب لانى احبك ؟ . « يكفى هذا فخير الكلام ما قل ودل . كلا لا يكفى . النغمة ناقصة . استشهد ببيت من الشعر . كلا فهذا يثير الضحك عادة . وضحكة واحدة خليقة بأن تفوت على الغرض . جملة أخرى مؤثرة . يا رب يا معين ! . » ووثبت الى ذهنه عبارة لا بأس بها فشرع يكتب : والله ما فعلت ما فعلت . . ولكن حسين قاطعه مرة أخرى قائلا :

ــ هل انتهيت من نقط الموضوع ؟

فانزعج حسنين وقال فى غيظ مكتوم :

ــ تقريبا . . عن اذنك ، لحظة واحدة !

وعاد الى الخطاب فى تصميم من يريد الفراغ منه فكتب : والله ما فعلت ما فعلت الا لانى احبك . وساحبك ما حييت ، ولا حياة لى الا برضاك عنى .

وأعاد قراءتها بعناية ، ثم تنهد فى ارتياح عميق ، وطواها وثنى

طرفيها ثم أودعها جيبه . « سأنتهز فرصة اقترابها من البـاب ، أو مروری بها فى الصالة ، ثم ارمى بها اليها ، وليكن ما يكون » ..

١٩

وجدت نفيسة نفسها فى حجرة متوسطة الحجم ، قامت على جانبيها كنبتان كبيرتان وبضعة مقاعد ، اما ارضها ففرشت ببساط اسيوطى ، وفى جدارها المواجه لمدخلها شرفة تطل من الدور الرابع على شارع شبرا . كان الأثاث قديما والظاهر ان الحجرة كانت معدة لجلوس الأسرة فى اوقات الفراغ كما يمكن ان يستدل عليه من وجود الراديو بداخلها على كثب من البـاب . وقد لاحظت الفتاة مذ وطئت قدماها الشقة انها على قدر وافر من الجاه يبدو فى الصالة الصغرى التى اثثت كمدخل للبيت ، والصالة الكبرى الفاخرة المعدة للسفرة ، فحق لها ان تصدق صاحبة بيتهم بعطفة نصر الله حين قالت لها « جئت لك بزبونة ملآنة ، عروس ، ومن اسرة كريمة ، فارجو ان تخيطى ثيابها بما تستحق من عناية علها تفتح لك مغلق الأبواب » . وكانت نفيسة مضطربة لدخولها بيتا غريبا للعمل اول مرة . وجلست على مقعد قريب من الباب تنتظر . وكانت ترتدى ثوب الحداد وقد ارسلت شعرها الأسود فى ضفيرة قصيرة فبدا وجهها العاطل من الزواق والحسن شاحبا بائسا . « بيت غريب واناس غرباء . خطوة جديدة فى سبيل المهنة . لست الا خياطة . ليست كرامتى التى تعز على ولكن كرامتك انت يا ابى » . ولم يطل بها الانتظار اذ جاءت الحجرة فتاة فى العشرين على حسن ورشاقة ، فقامت تستقبلها ، وسلمت عليها القادمة وهى تلقى عليها نظرة متفحصة ثم قالت :

- اهلا وسهلا . حضرتك الست نفيسة التى ارسلتك ست زينب ؟

فقالت الفتاة فى حياء :

- نعم يا هانم . وحضرتك العروس ؟

فاومات بالايجاب مبتسمة ، ثم جلستا ، وهى تقول :

- ست زينب تثنى عليك جميل الثناء . وانى اتوسم فيك الخير . .

فابتسمت نفيسة ابتسامة باهتة وانفرجت شفتاها دون أن تنبس بكلمة . « لعلها قالت انى خياطة ماهرة . هـذا حسن . امدح ام ذم ، لا ادرى . ترى هـل قصت عليك نبا اسرتنا ؟ . كان ابى كابيك . وكنت سيدة مثلك . وطالما انتظرت العريس ولـكنه لم يات . ولن يأتى » . وسألت العـروس فى رقة وهى تعلم الجواب :

- لماذا ترتدين السواد ؟

فأجابتها فى حزن :

- توفى والدى منـذ شهرين . وكان رحمه الله موظفا فى وزارة المعارف .

- حدثتنا بذلك ست زينب . البقية فى حياتك .

- حياتك الباقية . نحن من بنها ، وخالتى تقيم هناك مع زوجها الذى يملك محلجا للقطن .

ودخلت عند ذاك خادم حاملة بقجة فوضـعتها الى جانب سيدتها وذهبت . وحلت العروس عقـدتها فانحسرت عن كوم من الحرائر مختلفة الوانها . وادركت نفيسة من النظرة الأولى انها أقمشة للثياب الداخلية . ولعلها ارسلت بالفساتين الى خياطة كبيرة ، وارتاحت لهذا لانها كانت تشفق من أن تعرض سمعتها لتجربة شـاقة لا قبل لها بها ، عمـل فى حـدود طاقتها وربح

مضمون . وقامت الى مجلس العروس وراحت تتفحص الاقمشة وتتجسسها قائلة :

ــ مبارك عليك . يا له من حرير نفيس .

فافتر ثغر العروس عن ابتسامة سعيدة وقالت :

ــ تبدأ الآن بالقياس ، وعلى فكرة اعندك مانع من مباشرة العمل هنا فى بيتنا ؟ عندنا ما تحتاجين اليه من الأدوات كلها ، وليس ثمة أطفال فى البيت ، وفضلا عن هذا كله فبيتنا غير بعيد من عطفتكم فتستطيعين الحضور كل يوم فى غير مشقة .

ولم تر نفيسة بدا من ان تقول :

ــ لك ما تشائين يا هانم . .

وقامت الفتاة ووقفت امامها ، وجعلت نفيسة تقيس الاقمشة عليها . امتلأ انفها الغليظ برائحة الحرير الجديد ، وشعرت لمسه وهو ينزلق بين اصابعها باحساس غريب ، فيه اشتهاء وفيه الم . بيد انها احست كذلك ، حيال استسلام الفتاة وما تعقده على مهارة يديها من رجاء بنوع من السيادة ، فكانها ظفرت بأمل فى العزاء ، ولكنه سرعان ما فتر واخلف وراءه يأسا قاتما « عروس وحرير . احقا اخيط هذه الثياب لهذه العروس ؟ . كلا هذه الثياب الداخلية تهيأ للعريس قبل العروس ! . ستداعب انامله أهدابها الناعمة ومادتها اللطيفة . انى اشارك فى هذا الزواج . وساشارك فى زيجات كثيرة دون أن اتزوج ، قانعة من هذا كله بأحلامى المحرقة . يا لها من فتاة مليحة وسعيدة . تكاد السعادة تتوهج فى عينيها ، اليوم تجهز الحرير ، وغدا تنتظر الحبيب ، وتتنسم انفاس الأمومة الحارة تهفو عليها من افق وردى . طالما حلمت بهذا وأبى يقول لى ان الخفة انفس من الجمال ، ثم بلغت الثالثة والعشرين بين الاشفاق والرجاء ، وبموته مات الرجاء . لماذا خلقت هكذا دميمة ؟ . لماذا لم اخلق كاخوتى الذكور ؟ ما اجمل

حسنين ، وحسين ، حتى حسن ، انى ميتة كابى ، وهو فى باب النصر وانا فى شبرا » وسمعت العروس تسألها :

ــ اتحبين ان تتسلمى بعض اجرك مقدما ؟

فقالت بعجلة :

ــ لا داعى لذلك مطلقا .

ثم عضها الندم على ما قالت فتضاعف حنقها ويأسها . وسمعت اطيط حذاء يقترب فرفعت راسها نحو الباب فرات شابا يدخل الحجرة هاشا ، واقبل على العروس فالتحمت يداهما ، وتبادلا ابتسامة سعيدة ، ثم سالها :

ــ أين والدتك ؟

ــ فى حجرتها .

ثم التفتت الى نفيسة وقالت تقدم لها الشاب :

ــ حسان خطيبى .

ثم عطفت راسها اليه قائلة :

ــ ست نفيسة الخياطة . . .

٢٠

وغادرت بيت العروس قبيل الأصيل متعبة . وكانت عطفة نصر الله تبعد عن البيت محطتين فشقت طريقها بين السابلة على مهل وتراخ . وانعشها الهواء البارد فحثت خطاها . ووجدت ذكريات مما مر بها فى بيت العروس تنثال على مخيلتها فى لذة والم معا : كانت تجلس على كنبة وقد جلس الخطيبان على الكنبة المقابلة . كانا ملتصقين . وكانا يتحدثان فى صوت مسموع حينا . وينخفض حينا فيصير مناجاة وهمسا . وكم ودت وقتذاك أن ترفع راسها عن الماكينة اليهما ولكنها خافت وعقلها الحياء ان

تلتقى عيناهما بعينيها . ومرة رفعت عينيهـا من تحت راسـها المنحنى فوقع على ساقين ملتصقتين ، ثم انتبهت على العروس وهى تضربه على يده قائلة فى لهجة تنم على الدلال والوعيد :

ـ حذار !

استغرقها الخيـال حتى كادت تصطدم بالمارة ، ثم دخلهـا احسـاس نهم بالتحرق الى الحب . لم تحظ طوال حياتها بقلب يحبها ويعطف عليها ، ولم تجد من متنفس عن توتر اعصابها الا فى الضحك والسخرية من نفسـها واخوتها والنـاس فاشتهرت بالعبث الضاحك الذى تتوارى خلفه مرارة فى الأعماق . ولم تكن لها حيلة فى احسـاسها فالواقع ان غريزتها الانثوية كانت الشىء الوحيد بها الذى سلم من النقص والضعف واستوى ناضجا حارا ، فلم يخل صـدرها من عذاب سجين وقفت له تربيتها وكرامتها واسرتها بالمرصاد . ولكن منظرا كالذى راته اليوم ببيت العروس كان خليقا بان يهزها هزة عنيفة قاسـية . ولمـا تخايلت لعينيها عطفة نصر الله عابثها امل جديد داعبها كثيرا فى الأيام الأخيرة . هنالك بقالة عم جابر سلمان التى تقع قبل عمارتهم بقليـل ، او هناك سلمان جابر سلمان ابن عم جابر وصبيه . ولقد اعتادت التردد على البقالة بعد طرد الخادم لابتياع ما يلزمهم فعرفت الفتى معرفة اخذت تزداد بكرور الأيام . واستحضرت صـورة الفتى بقامته الطويلة المائلة للامتلاء ووجهه البيضاوى الأسمر ، وعينيه الضيقتين ، وتساءلت ترى هل حقا يبدى نحوها اهتماما او انها واهمة ؟ . خيـل اليها كثيرا انه يبتسم اليهـا فى تردد ولعله لم يستطع ان ينسى بعد انها كريمة كامل افندى على . وكانت على جفوة طلعتها تحظى بمظهر الفتيات المحترمات ، اما سلمان فما هو الا ابن بقال بسيط ، ولا تعـلو منزلته فى دكان ابيه عن صـبى . وكانت تعلم بهذا كله ولكن لم يكن بوسعها ان تنفر من انسان ايا كان اذا ابدى نحوها ميلا . لا يسعها الا ان تحب من يحبها . بيد

انها ردت فجاة الى فتور وامتعاض واطبق عليها شبح اليأس القديم ؟ وكان قلبها يقول لها : لا تغرري بنفسك ولا تسمحي لكواذب الآمال أن تعبث بعقلك . ارتضى اليأس ، واقنعى منه بالراحة وهى السلوى الوحيدة لفتاة مثلك لا مال ولا جمال ولا اب لها . ولكنها كانت تعلم انها لن تطيع قلبها أو — على الأصح — صوت مخاوفها . وكانت تزداد استسلاما كلما قربت من عطفة نصر الله ، وعاودها الأمل والحنان . « الله قادر على كل شيء . وكما يقضى عليها بالأحزان يهب اذا شاء الأمل والعزاء ، ما لى من رجاء سواه . ولن يخيب عنده الرجاء . لم اجن ذنبا استحق عليه الهوان . ولم تجن اسرتنا ذنبا . فلا بد ان تنكشف هذه الغمة . ولكن من سلمان ؟ هل يرضى به حسنين ؟ انهم جميعا ذوو كبرياء ولا اظن الفقر يغالب على كبريائهم . وحسن ليس له من الأمر شيء . حسن ! ! ليته يغير من طبعه وينتشلنا مما نحن فيه . لا معاش ابى ولا عملى بكافيين فماذا صنع هو ؟ . لن يرضى احد بسلمان ولن ياتى من هو خير منه . ومن ادرانى انه يفكر فى حقا ؟ ! » . ومالت الى العطفة تسبقها عيناها الى بقالة عم جابر سلمان حتى بلغتها . وخطر لها ان تمضى اليها لتبتاع شيئا ، اى شيء ، ومضت اليها دون تردد . كان عم جابر سلمان العجوز جالسا الى مكتبه الصغير عاكفا على دفتر الحسابات ، بينا وقف ابنه الشاب جابر سلمان وراء الطاولة التى تعترض مدخل الدكان . وانتبه الفتى اليها حال وقوفها امامه فنظر اليها متهلل الوجه وقد لمعت عيناه الضيقتان . كانت قسماته تشى بالغباء والحيوانية والجبن ، وكان شاربه الصغير الشيء الوحيد الذى يمكن ان يتصف بالجمال فى وجهه . وابى الا ان يبادرها بالكلام فقال :

— اى خدمة يا ست نفيسة ؟

فقال الفتاة وهى ترمش ارتباكا :

— حلاوة طحينية بقرش .

فتناول السكين وقطع لها قطعة وافيــة ، ثم قشط قطعــة صغيرة وهو يقول بصوت منخفض :

- هذه الزيادة اكراما لك يا ست نفيسة .

ولف الحلاوة فى ورقة وقدمها لها ، ثم اخذ القرش وهو يلحظ اباه بطرف خفى ، ولمــا وجده مكبا على الدفتر ، تشــجع وقال همســا :

- ساحتفظ بقرشك بركة !

فابتسمت ابتسامة خفيفة وذهبت . ابتسمت عمــدا كانها تشجعه وترحب به ، وقد كلفها هذا جهدا كبيرا . « لم يعد يقنع بلغــة العيون فتكلم ، وحسنا فعل » . وعلى رغم ضآلة شــانه ومنظره اهتز قلبها سرورا ، وجاش صدرها بالانفعال . وكانت تخيلت هذا الموقف - قبل ان يحدث - وهى عاكفة على عملهــا بيت العروس فلم يفترق الواقع عن الخيــال الا قليلا . تخيلت نفسها واقفة امامه لتبتاع الحلاوة فجعل يلتهمها بعينيه ثم قال لها وهو يتناول القرش « انت احلى من الحلاوة » . حقا لم يقل هذا ولكنه قال قولا يضاهيه . وتنهدت بارتياح ثم طار خيــالها الى ذكريات عشاقها الغــابرين ! . كان اولهم وزيرا . وقد راته فى صفحة من مجلة المصور ثم راحت تنسج حول صورته وشيا من احلامها حتى انجبت له غلاما فريدا . وكان فريد افندى محمد نفسه العاشق الثانى ، وبسببه خاصمت فى الخيال زوجه واسرته . اما سلمان فهو اسواهم حالا ولكنه العاشق الوحيد الحقيقى . ولما بلغت منتصف الفناء خافت ان تلومها امها على قضاء النهار خارج البيت فضاق صدرها وقالت كانما ترد عليها :

- كفى عن لومك فما عدت احتمل اكثر مما بى .

وعلا صوتها ورن فى بئر السلم فنظرت فيما حولها بحــذر ، وكتمت باصابعها ضحكة كادت تفلت من شفتيها !!

٢١

غادر حسنين شقة فريد افندى محمد ، واغلق الباب وراءه .
كان من الكآبة فى غاية ، واتجه نحو السلم طاويا صدره على اليأس والقهر ولكنه توقف ويده على الدرابزين ، ورفع راسه متتبعا حفيف ثوب ، فراى طرف فستان او معطف وقد عبر صاحبه بسطة السلم الأخيرة المفضية الى سطح العمارة . من ؟! . من عسى ان يرتدى هذا اللون الأحمر من سكان العمارة الذين يعرفهم حق المعرفة ؟ . ودق قلبه بعنف وشعر بقوة تدفعه الى أعلى فالقى على الباب المغلق نظرة حذرة وانصت فى انتباه وقلق ، ثم تحول عن موقعه وقطع الردهة امام الشقة على اطراف مشطه متجها صوب السلم الأخير الصاعد الى السطح : لعلها هى . لم يعد يراها منذ القى برسالته المطوية تحت قدميها ، لا فى الحجرة ولا فى الصالة . اختفت غاضبة ولاشك غيرعابئة برسالته وعواطفه ، ولم تعد ساعات الدرس بعدها الا عذابا وضجرا . وقد ارتقى السلم دون أن يحدث صوتا حتى بلغ البسطة الأخيرة فراى شعاع الشمس المائلة للغروب فى مستوى عينيه ، ونسمت على جبينه موجات لطيفة من الهواء ، والقى على السطح نظرة شاملة ما بين سوره المطل على عطفة نصر الله وسوره الخلفى فلم يجد اثرا لانسان ، ولم يكن به من قائم الا حجرتان خشبيتان للدجاج ، احداهما فى مواجهة باب السطح ، والأخرى فى ركن السطح عند طرف السور الخلفى وهى الخاصة بأسرة فريد افندى ، واقترب من الحجرة البعيدة فى سكون ووقف قريبا من بابها مرهف السمع .
ولم يسمع بادىء الأمر الا قوقأة الدجاج ، ثم سمع صوتا يدعو الدجاج «ك ك ك ك» فلم يستطع ان يتبين حقيقة صاحبه ، وخاف

ان تكون الام التى بالداخل فتراجع خطوة مضطربا ، وهم بالهرب ، ولكن فتح الباب وبدت على عتبته بهية فى معطف احمر . واتسعت عيناها الزرقاوان دهشة ، وثبت بصرها عليه فى ذهول ، ثم تضرج وجهها بحمرة شديدة كان صفحته استحالت رفعة من مخمل المعطف . ولكن لم يدم هذا الا لحظات ، ثم تمالكت نفسها فجازت العتبة واغلقت الباب ، وابتعدت عن موقفه متجهة الى الباب . ولم يسمح لها بالافلات فوثب خطوتين ووقف معترضا سبيلها ، فحدجته بنظرة غضبى واستقام راسها فى حدة وقالت مستنكرة :

ـ هذا كثير !

فقال الشاب بجراة ورقة معا :

ـ دائما غضبى !.. انى اعجب لحظى فما اجد منك غير الغضب!

فلاح فى وجهها الضجر وقالت باستياء :

ـ دعنى امر من فضلك ...

فبسط ذراعيه كانه يريد سد الفراغ كله وقال :

ـ هذه فرصة لم يكن بوسعى أن أحلم بها فلا يمكن أن ادعها تفلت من يدى . ويحق لى ان استبقيك بعض الوقت بعد اختفائك المتعمد الذى عذبنى أشد العذاب ، لماذا تختفين ؟ او دعينى اسالك ماذا وجدت برسالتى ؟

فقطبت فى استياء وقالت بحدة :

ـ اتذكر هذه الورقة !. يا لها من جراة غير محمودة لا اوافق عليها .. !

وكان يرنو اليها بين الامل والخوف . «هل اصدق هذا الغضب الظاهر ؟.. قلبى يحدثنى بأنه مبالغ فيه . لعله عرض من أعراض الحياء . انه كذلك حتما . لو ارادت ان تشق طريقها ما وسعنى منعها . لا اريد ان اصدق . ولكن لماذا اصرت على الاختفاء ؟ » .

وقال باستعطاف :

ـ جراة حملت عليها بعد ان اعيانى الصبر !

نهزت راسها متبرمة وتمتمت :

ـ الصبر ! لا تعبث بهذه الالفاظ ، ودعنى اذهب من فضلك .

فقال فى صدق وحرارة :

ـ ما قلت الا الصدق . والصدق وحده كان محرضى على كتابة رسالتى الصغيرة ، فكل ما بها صدق . وانه ليسوءنى كل الاساءة الا تلقى عواطفى منك الا الغضب والنفور !

وازدرد ريقه وهو يلهث ثم استدرك قائلا بصوت متهدج :

ـ اجل انى احبك . . .

وادارت وجهها جانبا وهى لا تزال مقطبة كما بدا من انقباض حاجبها وزمة شفتيها ، ولكنها لاذت بالصمت قليلا ـ مما بعث فيه روحا جديدا من الامل ـ ثم قالت بصوت بدا الطف موقعا مما سبقه :

ـ دعنى اذهب . الا تخشى ان يقتحم السطح علينا احد ؟ !

رباه ! الم يعد يضايقها شيء الا ان يقتحم السطح عليهما احد ؟!

وتمشت فى جوارحه نشوة سرور ، فقال بحماس وعيناه العسليتان تضيئان بنور بهيج :

ـ دعينى أفصح لك عن شعورى . انى احبك . احبك اكثر من الحياة نفسها . بل ليس فى الحياة من خير الا انى احبك . هذا ما كتبته . وما اقوله وما اعيده . صدقينى ولا تلزمى السكوت فما أطيق هذا السكوت . .

فعطفت وجهها نحوه ،فطالع فى صفحته النقية الرزانة والجد ولكن خيل اليه انه يرى نوعا من التاثر لعلها بالغت فى كتمانه . ثم سمعها تقول بصوت منخفض كالهمس :

ـ حسبك !. . . هلا تركتنى اذهب ؟!

تابى ان تجلو هذا القناع !. لشد ما تستكين لحيائها . وتنهد بصوت مسموع وتمتم :

ـ لا اريد ان اعود لعذابى بغير نفحة امل . لقد فتحت لك

صدرى واريتك قلبى ولا اطمع فى اكثر من كلمة طيبة ترد الى روحى . . .

ولكنها بدت اعجز من ان تقول هذه الكلمة ، واشتدت عليها وطأة الارتباك فندت عنها هذه العبارة :

ـ رباه !. . . كيف اغادر هذا المكان !

فغلبه التأثر ، ولكن زاده التعلق بالأمل عنادا والحاحا فقال بحرارة :

ـ لا تجزعى هكذا ؛ انى احبك . الا يثير هذا الاعتراف فى نفسك الا الضيق ؟!. لن اعود يائسا الى العذاب . لن . لن . .

ـ وبعد ؟ !

وتفحص وجهها المورد فى سمرة المغيب الهادئة فاستفزته عاطفة هيام جامحة فشعر بان الهلاك اهون من التراجع وقال باستعطاف منبعث من الأعماق :

ـ كلمة واحدة !. اذا لم تستطيعى فايماءة . واذا تعذر هذا فحسبى صمت استشف منه الرضى !

فتحركت شفتاها دون ان تنبس ، ثم التصقتا ، ثم عطفت عنه وجهها وقد اشتد تورده عمقا . ووثب قلبه فى صدره من حرارة النشوة ، وهتف فى طمع متزايد :

ـ أهذا الصمت الذى اريده ؟!. . انى احبك ، واعاهدك ان اكون لك حتى الموت . . .

ومال وجهها الى الوراء اكثر دون ان تخرج عن صمتها المحبوب فسرت فى جسده هزة سرور طاغية حتى سكر بصره ، وما يدرى الا وهو يهفو اليها ، ولكنها تراجعت فى جفول كمن يستيقظ من حلم عميق على هزة عنيفة ، وتفادت منه فيما يشبه الوثب ، ثم ولت مسرعة . وتسمر فى مكانه مرسلا وراءها بصرا هائما حنونا حتى غيبها الباب . وتنهد من القلب واطلق بصره بعيدا فى سمرة المغيب ، والأفق اطياف وشيات ، فاحس بروحه تذوب فى الكون

وتفنى فى بهائه . ثم تحـرك فى بطء مخمورا متوهجا حتى شارف الباب ، ولكنه شعر وهو يمر بالحجرة الخشـبية الأخرى بشىء يجذب احساسه فلاحت منه التفاتة الى يساره فرأى أخاه حسين واقفا وراء جدار الحجرة . . .

٢٢

وقال بدهشة :

ـ حسين !

وسرعان ما لاحظ تغير لونه . كان الشـاب غاضـبا مكفهر الوجه . وكان يبذل غاية جهده ليضبط أعصابه ويتمالك نفسه . وتساءل حسنين عما جاء به الى السطح ورجح أن يكون ـ حين صعد لاعطاء درسه ـ لمحه وهو يرتقى السلم محاذرا الى السطح فشك فى الأمر وتبعه !.. هـذا هو التفسـير المعقول . بيد أن التوارى وراء الجدران لاستراق النظر والسمع ليس من شيمه!.. ولم يدر له بخلد أن يسأله عما جعله يقف هـذا الموقف ، وعلى العكس من هـذا تولاه الحياء والارتباك . ولم يكن الآخر ـ على تغيره ـ بأقل منه حياء وارتباكا . ولعله أراد أن يدارى حياءه وارتباكه بالتمادى فى الغضب فقال :

ـ رأيت أمورا ساءتنى كثيرا . كيف تطارد الفتاة هذه المطاردة الوقحة ؟! هذا سلوك شائن لا يليق بجار يحترم واجبات الجيرة !

ووجد حسنين فى لهجة أخيه القاسـية ما أنقذه من حيائه وارتباكه فقال عابسا :

ـ ما أتيت منكرا !!. ولعلك سمعت ما قلت !

فأغضى حسين عن ملاحظته الأخيرة وقال بحدة أشد :

ـ وهل من منكر وراء اعتراضك لسبيلها على هذا النحو غير اللائق ؟!

ـ لا احسبها تعده كذلك !

فقال حسين :

ـ ستخبر اباها ....

ـ لن تخبره ... !

فتناهى الحنق بحسين وقال بحدة :

ـ لشد ما خفت أن تتهجم عليها ، ولو فعلت لأدبتك تأديبا قاسيا !...

ودهش حسنين لهذا الوعيد المتأخر فكاد يطيح الغضب براسه ، ووثبت كلمات شديدة الى طرف لسانه ولكنه نجح باعجوبة فى القبض عليها . وصمت مليا حتى ذهبت عنه وقدة الغضب ثم قال :

ـ ما كان لك ان تخاف حدوث شيء كهذا ..

فتفكر حسين قليلا ثم قال متراجعا :

ـ يسرنى على اية حال ان اسمع هذا القول . واذا حق لى ان انصحك فنصيحتى اليك أن تلزم دائما جادة الشرف .

فقال الآخر ببرود :

ـ لست فى حاجة الى مثل هذه النصيحة ...

وغادر موقفه فتبعه حسين ، ونزلا معا دون أن ينبس احدهما بكلمة . ولم يذهب حسين الى شقة فريد افندى ، ولاحظ حسنين هذا دون تعليق . اما الأم فقالت لحسين متسائلة :

ـ ما الذى عاد بك سريعا ؟

فقال حسين :

ـ لم يحفظ سالم درسه السابق وساعود اليه غدا ..

وذهبا الى حجرتهما فجلس حسين الى كرسيه من المكتب ، ومضى حسنين الى النافذة ففتحها وجلس على حافة الفراش .

« أسوا نهاية لأحسن بداية : ما احمقه ! كيف سولت له نفسه

التجسس على . افسد على شاعرية الموقف السعيد . كلا لا يمكن ان يفسدها شيء . سيزول كل شيء وتبقى هى وضيئة سعيدة باهرة . هيهات ان انسى لحظة الصمت الناطق . قالت كل شيء دون ان تنبس بكلمة ... » .

ــ اغلق النافذة هل انت مجنون ؟!

افزعته صيحة اخيه ، ثم ركبه الحنق والعناد فقال :

ــ الجو محتمل ولطيف ..

فصاح به حسين :

ــ اغلق النافذة بلا مكابرة ..

فحملته لهجة اخيه على التمادى فى العناد فقال :

ــ انتقل الى الكرسى الآخر تبتعد عن تيار الهواء ان كان ثمة تيار!

فنفخ حسين متغيظا وقام الى النافذة .فاغلقها بشدة ففرقعت فى السكون طقطقة مزعجة وتحطم لوح من الزجاج . وساد صمت ورعب ، وسرعان ما اعماه الغضب فلطم حسنين صارخا :

ــ انت السبب ! .

وجن جنون حسنين فضربه بقبضة يده فى راسه ، ثم اشتبكا فى عراك . وما لبثت الأم ونفيسة ان هرولتا الى الداخل . وبحضور الأم كف كلاهما وهو يدمدم ويهينم . ووقفت الأم حيالهما تردد بينهما بصرا غاضبا ، ثم استقرت عيناها على الزجاج المحطم . وتساءلت فى هدوء ينذر بالعاصفة :

ــ ما خطبكما ؟

فقال حسنين بعجلة ولهوجة :

ــ كان يغلق النافذة بقوة فتحطم الزجاج ثم لطمنى ..

وقال حسين بصوت متهدج :

ــ فتح النافذة فى هذا الجو البارد فطلبت اليه ان يغلقها فأبى بوقاحة فقمت لأغلقها بنفسى وحصل ما حصل ..

فنفرت الأم قائلة :

- رحماك يا ربى الا يكفينى ما بى !

وقبضت بيديها على منكبيهما وجذبتهما الى وسط الحجرة ، وصاحت فى وجه حسين قائلة :

- الا تخجل من نفسك وانت فى سن الرجال .

ودفعته فى صدره بقبضة يدها مرتين ، ثم لطمته ، وانقضت على حسنين الذى تراجع وهو يصيح :

- هو البادىء بالضرب ، وهو الذى حطم الزجاج ..

ولكنها هوت بكفها على فمه ، ثم كيلت له الضربات على راسه ووجه حتى حالت بينهما نفيسة . وصاحت المراة :

- حذار ان اسمع لأحدكما صوتا . اما النافذة فستبقى مكسورة حتى تصلحاها بنفسكما ..

وغادرت الحجرة منكفئة الوجه تملأها تعاسة لا حد لها . ولبثت نفيسة بينهما برهة محزونة ثم تمتمت :

- زمن العراك انتهى . انتما رجلان الآن !

ثم خاطبت حسين مبتسمة :

- ضقت بالهواء لحظة فماذا انت فاعل الآن وقد فتحتها الى الابد ؟!. الصقا جريدة مكان الزجاج والا فعليه العوض فيكما ..

ولما لم تجد لقولها الأثر الذى انتظرت غادرت الحجرة . وعاد حسين الى كرسيه صامتا على حين ارتمى حسنين على الفراش منفعلا . كثيرا ما ينتهى الشجار بينهما بتدخل الأم على هذا النحو . ولم تكن حياتهما تخلو من ملاحاة وشجار على صداقتهما الوطيدة ، وصحبتهما التى لا غنى لأحدهما عنها . وكانت الغيرة كثيرا ما تعكر عليهما صفوهما ولكنهما ظلا رغم هذا صديقين يتبادلان الأخوة والحب ولا يستغنى احدهما عن صاحبه . وكان حسين اعقل الأخوين وحسنين اقواهما ، فكان الاول يقوم بمهمة الارشاد والتوجيه فيما يعرض لهما من مشكلات يتعلق اغلبها باللعب والمسائل الاقتصادية الصغيرة ، وكان الآخر يحمل عبء

الدفاع الاكبر فيمـــا يشتجر بينهما وبين الآخرين من عراك ، خصوصا وانهما كانا يتفاديان من الاستعانة بحسن اذا اشـــتد الخصم عليهما أن يتحول النزاع من عراك بين تلاميذ متخاصمين الى معركة حقيقية دامية وخيمة العواقب . بيـد انه اصبح من النادر جدا ان يتشاجرا فى الأعـــوام الأخيرة ، وندر بالتالى ان تؤدبهما الأم بالضرب ، وقد سبقت المعركة الأخيرة بفترة سـلام طويلة كادت تقارب العام . ومهما يكن من امر فلم يكن اثر الخصام ليحول بينهما اكثر من يوم ، ثم يبدأ المعتدى بمخاطبة اخيه فى شيء قليل من الارتباك ، ولا يلبثان ان يتناسيا العراك كأنه لم يكن . شخص آخر كان يعانى من شجارهما اكثر مما يعانيان ، هى الأم ، فكان يترك فى نفسها ألمـا عميقا ونكدا متغلغلا . ولم تجـد من وسـيلة لتاديبهما خيرا من الضرب لعله يصلح ما افســد الأب بتدليله لهما . ولم يكن ابغض لنفسها من ان يشذ احـد ابنائها عن حدوده ، او ان يبدر منه ما يعد افتئاتا على رابطة الأسرة المقدسـة . وكان لها من حسن عبرة بذل الحياة اهون عليها من ان تتكرر . وحسن نفسه لم ينج من لكماتها ولكن بعد فوات الأوان وضياع الفرصة . وكانت لا تفتأ تلوم نفسها واباه على تلفه ، ويعذبها اشد العذاب انه كان ضحية للتهاون والفقر . ومر شطر من الليل والشقيقان صامتان جامدان ، واشتد السكون بعد أن آوت الأم ونفيسـة الى حجرتهما . ثم بدا حسين يطالع فى كتاب محاولا ان يركز انتباهه المشتت . وراح حسنين يراقبه اختلاسا وهو يتساءل ترى ماذا يجد نحوه ؟ وكان يحظى بذكريات جميلة خليقة بان تعزيه عما اصابه ، وبان تثيبه الى طمأنينته . وسرعان ما رفت على شـفتيه ابتســامة . « كل شيء حسن . لاذت بالصمت ، ومعناه انها تحبنى . حقا !؟. لشــد ما يشوقنى ان اسمعها قولا تتحرك به الشفتان الشهيتان . رويدك . كل آت قريب . الصمت بداية اما النهاية ؟!. . » ولاحت منه التفاتة نحو

أخيه فعاوده الابتسام . « ما كان ضرنى لو اغلقت النافذة ؟!. يبدو أنه لا يستطيع متابعة القراءة . لو وهب مثل حظى السعيد لما أعياه النسيان ! » وداخله نحوه شيء من العطف .

٢٣

عادت نفيسة الى عطفة نصرالله عند الغروب ، كعادتها فى هذه الأيام الأخيرة . وكان يبدو عليها أنها أخذت تعير نفسها اهتماما وعناية ، وهو ما أهملته طويلا حدادا على وفاة والدها ، فكحلت عينيها وصبغت خديها وشفتيها بحمرة خفيفة . شيء خير من لا شيء . بل ان دأبه على التودد اليها ومغازلتها خلق بها بعض الثقة بنفسها ، والطمانينة والأمل . ولم تعد تذكر انه ابن بقال وانها ابنة موظف فاهتمامه بها أنزله من نفسها منزلة أثيرة رفعته فوق مقام أفضل الناس فى نظرها . وانساقت الى تشجيعه بدافع من عواطفها المشبوبة المكبوتة ، ويأسها الخانق ، والرغبة فى الحياة التى لا تموت الا بالموت . وبات مع الأيام صورة مألوفة ، بل محبوبة ، أنبتت لها فى جدب الحياة زهرة مترعة بالأمل ، فلم تعد تستقبل يومها بعين خابية لا تنتظر جديدا . وها هى تنقل خطاها فى عطفة نصر الله بعد نهار حافل بالعمل فيهزها سرور حار دافق يسرى من القلب وينتشر مع دمها فى الأعصاب والأعضاء . قال لها مرة « تريدين حلاوة ؟ ما الحلاوة الا انت ! » . وغزا قوله نفسها فابتسمت فى بهجة ومرح . وقد حدثتها نفسها أن تقول له « لا تكذب ، لست من الحلاوة فى شيء » ولكنها امسكت فى حيرة وشك ، وذكرت نفسها بقول القائل « لكل فولة كيال » من يدرى فلعلها ليست بالقبح الذى تظن . وجعلت تطوى الطريق وعيناها

الى الدكان حتى وقفت امامه وجها لوجه . ولاح السرور فى وجه سلمان فقال :

ـ اهلا وسهلا كنت أتساءل متى تاتين ؟

ورمت بنظرة الى مقعد الأب فوجدته خاليا ، ثم لمحته يصلى وراء العمود القائم وسط الدكان محملا بالعلب والبطرمانات فداخلتها طمأنينة وقالت فى دلال :

ـ ولماذا تتساءل ؟

فضيق عينيه الضيقتين وقال مبتسما :

ـ حزرى !.. اسالى قلبى ..

فرفعت حاجبيها المزججين وقالت :

ـ اسال قلبك ؟؟.. ماذا وراءك يا قلبه ؟!

فقال الشاب همسا :

ـ يقول قلبى انه يسر لرؤياك وينتظره على لهفة !

ـ حقا ؟!

فاستدرك فى جد اكثر من ذى قبل :

ـ ويقول أيضا انه يرغب فى ان يلقاك الآن فى الشارع ليفضى اليك بأشياء هامة ..

والتفت صوب ابيه فسمعه يقرأ التحيات فقال لها بعجلة :

ـ فى وسعى أن اغيب عن الدكان دقائق فاسبقينى الى الشارع العام !

ونظرت اليه فى اضطراب وحيرة . وجدت فى نفسها رغبة الى ملاقاته ، ولكنها ابت أن تذعن دون ممانعة من جانبها والحاح من جانبه فقالت :

ـ اخاف ان اتاخر ...

فقال بجزع وهو يومىء صوب ابيه محذرا :

ـ دقائق معدودات . اسبقينى قبل ان يختم الرجل صلاته.

ولم تجد فى الوقت متسعا للتمنع والدلال فتحولت عن موقفها

وقلبها يدق ثم اتجهت بعد لحظة تردد الى شارع شبرا . ركبها الاضطراب والقلق والخوف ، ولكنها امعنت فى السير دون ان تفكر فى العدول . خطوة جديدة هون من وقعها طول ما حلمت بها . وما لبثت ان تغلبت على الخوف فارغة للأمل الحلو الذى يتخايل لعينيها فى نهاية الطريق . ولما انتهت الى الشارع نظرت وراءها فراته يحث خطاه وقد ارتدى جاكتته على جلبابه ، فمالت الى اليمين واوسعت خطاها مبتعدة عن حيها . ولحق بهامهرولا فقال بسرور :

ــ استأذنت من ابى دقائق . . .

والقت على زيه نظرة لم يخف عنه معناها فقال كالمعتذر :

ــ لا يمكن ان ارتدى البدلة الا ساعات العطلة !

وكان يبدو فرحا مسرورا . لم تكن عينه العاشقة من العمى بحيث تراها جميلة ولكنه كان من ابيه المستبد فى ضيق وحرمان فرحب بهذه الفرصة التى تتيح له الممكن من الحب . فتى فى مثل حالها من اليأس والدمامة والعجز ، ووجد فيها ــ مهما تكن ــ انثى تنتسب للجنس المحبوب العزيز المنال . وخاف أن تمضى الدقائق دون ان يقول ما يريد قوله فقال بعجلة :

ــ الدكان يغلق عادة عقب ظهر الجمعة ، فقابلينى عصر الجمعة ومن ثم نذهب معا الى روض الفرج .

فقالت باستنكار :

ــ نذهب معا ؟! . . هذه طريقة لا ارضاها .

ــ ماذا علينا لو فعلنا ؟

ــ لست من اولئك الفتيات !

ــ حاشاى ان اظن بك السوء . ولكن ينبغى ان نجد مكانا آمنا للحديث .

ــ اخاف ان يرانا أحد من اخوتى .

ــ من السهل ان نتفادى من هذا !

فهزت رأسها وقالت فى حيرة :

ـ لا احب هذه الحياة المليئة بالمخاوف .

ـ ولكن ينبغي ان نتقابل .

فتفكرت مليا ثم تساءلت :

ـ لماذا ؟

فنظر اليها فى دهشة ثم قال :

ـ كى . . . كى نتقابل !

فقالت بقلق :

ـ لا . . . لا . . . لست لهذا !

ـ اليس لدينا ما نقوله ؟

ـ لا ادرى .

ـ لدى الكثير .

ـ فما هو ؟

ـ ستعلمينه فى حينه . ليس لدى الآن متسع من الوقت .

فساورها الشك حينا ثم قالت وقد تورد وجهها :

ـ قلت لك انى لست من اولئك الفتيات !

فقال الشاب بلهجة تنم عن الأسف :

ـ ياسلام يا ست نفيسة ! انا رجل سوق وافهم الناس !

فداخلها الارتياح ، وان تساءلت لماذا لا يقول الكلمة التى تتلهف على سماعها ويريح قلبها ؟ وعاد وهو يسأل :

ـ هل نتقابل اذن يوم الجمعة القادم ؟

فترددت قليلا ثم غمغمت :

ـ ان شاء الله . .

وعادت الى البيت كثيرة الفكر . هذا بدء الحب الذى طالما تلهفت عليه . نفض قلبها الغبار عن جوهره ودبت فيه حياة مفعمة بالنشوة والحرارة والأمل . كل هذا حق . بيد انها قلقة متحيرة لا تدرى شيئا عما يمكن ان يتمخض عنه ، ولا عما يمكن ان يقابل به نباه فى اسرتها !

٢٤

انتهى حسنين الى باب السطح ثم تنهد بصوت مسموع ليبلغها صوته ولكنها تجاهلته وسارت متمهلة صوب الحجرة الخشبية ، فتنحنح ، ثم اندفع نحوها بجسارة والشمس تلقى عليها أشعة الوداع ، فدارت على عقبيها وطالعته بوجه كتوم يأبى ان يعلن عن غضب أو رضى ، ثم تمتمت :

ـ اما لهذا من آخر ؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال :

ـ انك تؤدبيننى أدبا لن انساه . .

فقالت وهى تحافظ على سكون وجهها :

ـ ليتك تزدجر .

ففرقع بأصبعه وهتف :

ـ هيهات !

ثم تنهد بصوت مسموع وكان يتطاير من الفرح لما آنسه من رغبتها فى محادثته .

ـ هيهات ان انثنى عن حبك .

فتورد وجهها ، وعبست قائلة :

ـ لا تردد هذه الكلمة .

فقال بعناد وهدوء وتوكيد :

ـ أحبك !

ـ اتروم اغاظتى ؟

ـ لا اروم الا حبك .

فقالت بحدة :

ـ سأصم اذنى .

فرفع صوته قليلا قائلا :

ـ احبك . احبك . احبك !

فلاذت بالصمت ، وجعل يلتهم وجهها بعينيه فى شوق وانجذاب حتى لم تعد تحتمل وقع نظراته فولته ظهرها مبتعدة ، ولكن اندفع وراءها فالتفتت نحوه مقطبة ، وقالت :

ـ ارجو ان تدعنى وتذهب .

فقال بدهشة :

ـ لا محل لهذا القول الآن . مضى زمنه وبات قديما . نحن الآن فى « احبك » !

ـ وماذا تريد ؟

ـ ان احبك !

وهمت بانتهاره فغلبها الابتسام الذى اعياها كتمانه ، ثم ضحكت ضحكة مقتضبة مكتومة خرجت من انفها نفخة لطيفة ، ولم تملك ان خفضت راسها فى حياء . وهزته هذه الحركة فهاجت صبوته واقبل نحوها متشجعا طامحا ومد يده ليمسك يدها ، ولكنها تراجعت فيما يشبه الرعب ، وخاطبته بلهجة جادة لا تترك ريبة فى جديتها :

ـ لا تمسنى !

ففاضت ابتسامة الظفر فى شفتيه ولكنها لم تباله واستطردت قائلة بنفس اللهجة الجدية :

ـ لا تحاول أن تمسنى ابدا . لا اسمح بهذا ولا اتصوره !

فوجم قليلا ثم قال بدهشة :

ـ انى آسف . ما قصدت سوءا . انى أحبك بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى صحيح . .

فقالت وهى تنظر الى قدميها وقد نم مظهرها على شعورها بخطورة ما تقدم على قوله :

- انى شاكرة لك هذا ، ولكن ليس « أنا » الذى املك الرد عليه !!. . .

ووقع قولها من نفسه موقع المفاجاة والدهشة . كان يجرى وراء عاطفته مستغرقا فيها دون ان يفكر فيما عداها . كان يحب ولا يرى الا الحب ، فأعاده قولها الى رشاده . وفهم ما فاته فهمه ، وادرك ان الأمر جد لا لهو ولعب . ولم يأسف على هذا بل زاد سرورا ولكن غشيته غاشية خوف وقلق لم تخف عليه دواعيها . وخرج من حيرته بأن قال :

- انى ادرك وجاهة رايك ، واوافق عليه ، ولكن ليس هذا كل شيء . انى اسال قلبك أولا . . ؟

ولانت ملامحها ولكنها لم تفقد السيطرة على ارادتها ، فقالت :

- ارجو الا تستدرجنى لحديث لا احبه !

- لا تحبينه !

ولم تكن تعنى ما قالت بالضبط ولكنها لم تر بدا من ان تغمغم قائلة بصوت ضعيف :

- اجل . .

فقال حسنين بارتياع :

- هذه طعنة دامية فى قلبى !

فقالت بحيرة وارتباك وحياء :

- لا أحب ان اسلك سلوكا أو اقول قولا يستوجب الاخفاء !

فلم يملك ان ابتسم قائلا :

- ولكن هذه ضرورة لا بد منها ، وما فيها من عيب !

فلم ترتح لقوله ولا لابتسامته واشتد تورد وجهها فقالت بشيء من الحدة :

- كلا !. لا احب المداعبات ولا الغزل !

- ولكنى أحبك حبا صادقا . .

- اف . لا تقسرنى على سماع ما لا أطيق سماعه !

فتساءل مبتسما :

ــ هل اقتل نفسى ؟

فابتسمت افكارها دون ان يبدو شيء على وجهها وقالت :

ــ لا داعى مطلقا لقتل نفسك . لقد قلت ما عندى !

واعادته العبارة الأخيرة الى حيرته وخوفه ، فقال بعد تردد :

ــ لست الا شابا فى السابعة عشرة ، وتلميذا بالسنة الثالثة الثانوية ، فكيف افتح هذا الحديث ؟

فنحت عنه وجهها قائلة ببرود :

ــ انتظر حتى تصير رجلا !

فقال فى دهشة ممزوجة بالاستنكار :

ــ بهيــة !

فقالت فى هدوء :

ــ ما من سبيل الا هذا . . .

شعر بغيظ ، وضاق بما تلقاه به من حزم ، ولكنه احس فى الوقت نفسه بحبها يغلبه على امره ويطيح بخوفه وقلقه ، فقال باستسلام :

ــ لك ما تشائين . ساحدث من بيدهم الأمر . .

فرفعت اليه عينيها لحظة ثم خفضتهما ، وبدت حينا كأنها تهم بالكلام ولكن غلبها الصمت فقال :

ــ ساحدث فريد افندى .

ــ انت !

ــ نعم .

فلاح فى وجهها الاعتراض دون أن تنبس ، فتساءل :

ــ هل من الضرورى ان تقوم امي بهذه المهمة ؟

فترددت قليلا ثم قالت بصعوبة ووجهها يتضرج بالاحمرار :

ــ اظن هذا !

وضاق صدره بهذا القول الصريح الذى يســاوى الاعتراف

فى قلقه . تخايلت لعينيه صورة أمه الحزينة وهى قابعة فى الصالة التى لا يضاء مصباحها توفيرا للنفقات فاضطرب صدره ، وقال بصوت منخفض :

ــ ساحدثه واقنعه بمفاتحة امى فى الأمر . .

فتساءلت الفتاة فى دهشة :

ــ ولماذا لا تحادثها بنفسك ؟ !

اوشك ان يقول « لا استطيع » ولكنه اطبق فاه ، ثم قال متجاهلا سؤالها :

ــ لشد ما أخاف ان يسخر منى ، او ان يعترض على استبقائك فى الانتظار حتى اتم مرحلة التعليم الطويلة .

وقالت بصبر نافد وبلا وعى تقريبا :

ــ سيوافق على الانتظار ما دمت اوافق عليه !

وعضت على شفتيها فى حياء والم فتطلع اليها فى لهفة وشغف ، ومد اليها ذراعيه وقلبه يضطرم اضطراما ، ولكنها تراجعت عنه ، مقطبة لتخفى تأثرها ، وتمتمت :

ــ كلا ، كلا ، أنسيت ما قلت لك ؟ !

٢٥

كان الشقيقان يجلسان حول المكتب كعادتهما كل مساء . وكان حسنين يعتمد وجهه بيده غائبا فى افكاره تنم نظراته وقضمه لأظافره من آن لآن على قلقه وتوتر اعصابه . وحسنين نفسه لم يبد عليه أنه يجنى ثمرة تذكر من نظره فى كتاب مفتوح امامه ، وكان يختلس من وجه اخيه نظرات متقطعة فلا يتمالك نفسه من التبسم ، وعواطف شتى تتناوب قلبه . وضاق بالصمت فقال بلهجة ذات معنى :

- طالت المفاوضات !

فانتبه اليه حسنين فى فزع ثم تنهد قائلا :

- مرت ساعة ، بل اكثر . ترى ماذا هناك ؟

فقال حسين ساخرا :

- انقلبت الآية ، فالمتبع ان يذهب آل الشاب لطلب يد الفتاة ، ولكن فى حالتك يجىء والد الفتاة لطلب يد الفتى !

فقال حسنين بنرفزة وحنق :

- يحق لك ان تسخر منى فلا خوف عليك . ترى ماذا يقال الآن فى حجرة الاستقبال ؟ ماذا تقول امى ؟ !

فقال حسين فى هدوء :

- عما قليل ستعلم بكل شىء !

- اتظنها ترفض رجاء رجل كفريد افندى ؟

- من يدرى ؟ الذى اعلمه علم اليقين اننا سنخسر - فى حالة الرفض - مرتبنا الشهرى الذى لم نكن نحلم به !

فرماه حسنين بطرف حائر ثم تساءل :

- الام يطول هذا الانتظار الموجع !

وعادا الى الصمت وكانا قلبا المسألة على جميع وجوهها ، وطال حديثهما عنها فى اوقات متقطعة منذ افضى حسنين الى شقيقه بما كان من حديث بينه وبين فريد افندى محمد . وقد رحب الرجل بطلب الشاب ترحيبا وقع من نفسه موقع الدهشة ، فلم يكن ينتظره ، ولم يكن ينتظر بعضه ، ثم وعد بمخاطبة الأم ، وتذليل اية عقبة مهما تكن خطورتها ! ولمح حسين - تفسيرا لهذا - الى ازمة الزواج من ناحية ، وطيبة فريد افندى وحبه المأثور لأسرتهم من ناحية اخرى . ولم يبق الآن الا ان ينتظرا النتيجة الوشيكة الظهور ! وجعل قلق حسنين يتزايد بمرور الوقت . « بعد دقائق أعلم كل شىء . هل تكون بهية لى أو ادفن هذا الأمل الوليد ؟ . لا سبيل اليها الا بهذا . انى أريدها ولا غنى لى عنها .

ترى فيم تفكر هى فى هــذه اللحظة ؟ . الا يتوزعهــا القلق على مصيرنا ؟ . انها تحبنى بلا ريب . حسبى هذا من الدنيا جميعا . تبا له انه يطالع فى هدوء ، ويستمتع بمراقبة المعركة من بعيــد لا حب ولا قلق . لشد ما تسومنا هذه العاطفة الطاغية من عناء . من قال انها تقيم فى القلب ؟ الأرجح انها تعشش فى العقل ؟ ، وهذا سر الجنون ! . » واستيقظ على صوت حسين وهو يقول :

ـ انهما خارجان !

وارهف حسنين السمع فبلغه ما يتبادل الرجل وزوجه وامه من عبــارات المجاملة المألوفة . ومضوا الى البــاب الخارجى الا نفيسة قد جاءت الى باب الحجرة ووقفت تنظر الى اخيها بغرابة ثم قالت :

ـ يا ما تحت الساهى دواهى ! اتريد حقا ان تتزوج ؟ !

وغمغم حسين :

ـ اول الغيث قطر !

وانتقل حسنين مدفوعا بغريزة الدفاع عن النفس من كرسيه الى فراشه فى اقصى الحجرة لصق النافذة التى حل ورق الصحف محل زجاجها المفقود . ثم سمعوا وقع اقدام الأم وهى قادمة ، ودخلت تســير فى خطا ثقيلة صلبة القســمات جامدة النظــرة ، وبحثت عيناها عن حسنين حتى استقرتا عليــه فى آخر الحجرة ولبثت تنظر اليه حينا ثم مضت الى الكرسى الذى تركه وجلست عليه فى شبه اعياء . وساد الصمت مليا فلم يجرؤ احد على خرقه حتى نظرت المراة الى حسين وسالته فى هدوء :

ـ الا تدرى فيم كان يحادثنى ،فريد افندى وزوجه ؟

فارتبك الشــاب الذى لم يكن يتوقع اســتجوابا وظن انه بالنسبة للمسالة كلها ـ من المتفرجين ، فلم يحــر جوابا ، حتى قالت له الأم بخشونة :

ـ اجب . . .

فتحول بصره صوب حسنين فى حيرة واستغاثة ، فاقتنعت الأم بهذه الحركة وسألته :

ــ متى علمت ؟

فقال فى اشفاق :

ــ اول امس !

ــ ولماذا اخفيت عنى ؟

فلاذ بالصمت لاعنا اخاه وحظه اللذين اورطاه فى المسئولية بلا ذنب جناه ، وتنهدت الأم عند ذاك وقالت بأسى :

ــ الأمر لله فان شقائى بكما فاق ما الاقى من زمانى الأسود !

وكانت نفيسة تكره جو الشقاق بطبعها فارادت ان تلطف من حدته . ولا يعنى هذا انها كانت تشجع اخاها على رغبته ، ولعلها كانت اشد غضبا من امها ، بل انها عدت الأمر كله تدبيرا دنيئا لاختطاف شقيقها ، ولكنها رغبت صادقة فى تحامى نزاع لم يعد يجدى ، فقالت مخاطبة امها :

ــ لا تهيجى دمك . ما كان كان ، فارحمونا من وجع الدماغ .

فانتهرتها امها بحدة قائلة :

ــ اخرسى !

والتفتت الى حسنين قائلة بازدراء :

ــ لعلك ملهوف على معرفة ما انتهى اليه مسعاك الذى دبرته بليل ؟ . . .

وهزت راسها فى اسى ثم قالت :

ــ لك قلب تحسد عليه ، فانه يستطيع رغم فجيعتنا وتعاستنا ان يعشق ، وان يستهين بنا جميعا فى سبيل سعادته ، والحق انى ذهلت حين حدثنى فريد افندى عن آمالك الواسعة ، وهيامك العجيب . ولكنى حدثته بدورى عن كفاحنا وتعاستنا . حدثته عن اثاثنا الذى نبيعه قطعة قطعة لنحصل على الضرورى من القوت ، وعن شقاء اختك التى تمتهن الخياطة وتقطع النهار بين هذا البيت

وذاك . ثم صارحته بان احدا من ابنائى لن يتزوج حتى ينهض بأسرته المنهارة .

وسكتت المراة وعيناها لا تتحولان عن وجهه وهو خافض العينين تعلوه كآبة وقنوط ، ثم استطردت قائلة بحزن :

— ومهما يكن من امر فلا يسعنى الا ان اشكر لك عطفك وانسانيتك !

وقامت المراة وغادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الغضب والحزن وخلفت وراءها صمتا ثقيلا . وبلغ التأثر من نفيسة فتناست غضبها الدفين واقتربت من حسنين وقالت متظاهرة بالمرح :

— نينة لم تقل كل شيء . واؤكد لك ان ليس ثمة ما يدعو حقا لحزنك . وما كان بوسعها الا ان تبقى على صداقة فريد افندى ومودته ، ومنذا يستطيع ان ينسى جميله ومروءته ؟ ! . قالت له انها تعد موافقته على طلبك شرفا كبيرا بيد انها ذكرت له حالنا الذى يعرفه حق المعرفة وسألته ان ينتظر حتى تنهض اسرتنا من عثرتها مكتفيا بكلمتها على أن تعلن الخطبة فى حينها اذ انت رجل مسئول . وقالت له ايضا انه يسعدها ان تختار بهية زوجا لابنها ، فلا داعى للحزن على الاطلاق . . .

ونظرت الفتاة الى وجه أخيها والاشراق يعاوده فدخلها غيظ مفاجىء ولكنها احسنت كتمانه وقالت بلهجة لم تخل من حدة :

— اعذر نينة فهى مسكينة حزينة ، ومما يعزيها ولا شك ان نشاركها همومها اما اذا وجدت منا ، . . . ما علينا ! لا احب ان أعود الى هذا . وحسبى ان اقول لك ان الأمور ستسير كما تحب (ثم ضاحكة) لعنة الله عليك وعلى الحب معا . . !

٢٦

قال سلمان جابر سلمان :

ـ فلا يداخلك شك فى هذا . سنتزوج كما قلت لك . وهذا عهد منى أمام الله .

فانصتت نفيسة باهتمام وقلبها يتابع ضرباته ، لم يعد جديدا ان تسير متابطة ذراعه فى شارع من الشوارع المتفرعة عن شارع شبرا حيث يغلب الظلام على جنباتها ويقل المارة . وكان يبدو لها دائما ، على دمامته وحقارته ، فتى رائعا لحرارة عاطفته وشدة انكبابه عليها ، وكانت لهذا تحبه من أعماقها ، بل باتت مجنونة به .

واعتقدت انه الحبيب الاول والأخير ، ليس لها سواه ، ولن يكون لها سواه ، فتعلقت به بقوة الأمل ، وبقوة الياس ، واحبته بأعصابها ولحمها ودمها ، ووجدت فيه غرائزها المشبوبة العارمة اداة نجاة تنتشلها من الأعماق .

كان اول رجل بعث فيها الثقة ، وطمانها الى انها امراة كبقية النساء ، وكان اذا قال لها « احبك » تخلق خلقا جديدا فترى الدنيا ـ على كثافة الظلام المحيط ـ نورا وبهاء . بيد أنها لم تقنع بكلمات الحب ، تلهفت الى شىء آخر ليس دون الحب منزلة ، او لعلهما شىء واحد فى نظرها ، فلم تفتأ تستدرجه حتى قال ما قال ثم تشجعت بالظلمة وتساءلت :

ـ وماذا أنت فاعل ؟ !

فقال بلا تردد :

ـ كان من الطبيعى ان اعلن ابى برايى ثم نذهب معا الى والدتك لنطلب يدك ، أليس كذلك ؟

ـ اظن هذا . .

فتنهد بصوت مسموع وقال :

ـ ياليت ! هذا أمل بعيد المنال فى الوقت الراهن . .

فانقبض قلبها وتساءلت فى انزعاج :

ـ لماذا ؟

فقال بغيظ :

ـ ابى ! . . لعنة الله عليه . رجل عجوز احمق عنيد . ويطمع أن يزوجنى من ابنة جبران التونى البقال عند تقاطع شبرا بشارع الوليد . ولست فى حاجة الى ان اقول لك اننى لم اوافق ، ولن اوافق ، ولكننى لا استطيع أن اقترح عليه الزواج من أخرى فى الوقت الحاضر ، والا كان جزائى الطرد . .

واحست جفافا فى حلقها ، ورمقته بازدراء ، ثم تساءلت فى قلق :

ـ والعمل ؟ !

ـ نصبر ، ثم نصبر . ولن تحولنى قوة فى الأرض عن غايتى ، بيد انه يجب ان نأخذ حذرنا ان يفطن الرجل الى علاقتنا . .

ـ والام نصبر ؟

فتردد فى حيرة ثم تمتم :

ـ حتى يموت !

فهتفت بانزعاج :

ـ يموت ؟ ! هبنا متنا قبله !

فضحك ضحكة جافة فى ارتباك وقال :

ـ دعى هذا لى وللزمن . لم تضق بنا الحيل بعد !

كلام عائم لا يروى غلة . « لا استطيع ان اقول له انى اخاف ان يتقدم لى احد فى اثناء الانتظار لطلب يدى . هذه حجة وجيهة فى يد غيرى ممن يحظين بقسط من الجمال أو المال . اما انا فمن عسى أن يتقدم لى فى هذه الأيام التى لا يتزوج فيها احد . رضيت بالهم ولكن الهم لا يرضى بى . ابن بقال ! . ان البدلة تبدو على جسمه قلقة نابية » . وشعرت بيد القهر تقبض على عنقها .

وزادها الخوف تعلقا به فلو وزن فى هذه اللحظة بالدنيـا كلهـا لرجح بها فى قلبها . انها لا تدرى على وجه الوضوح كيف يمكن ان تتزوج منه حتى ولو ذلل ما يعترضه من عقبات ، فان امهـا لاتستطيع أن تقدم لها شيئا ، فضلا عن ان الأسرة باتت لاتستغنى عن القروش التى تربحها لها ، ولكنها تريده ، تريده من الأعماق ، وباى ثمن . وتجهم وجهها ، وفتحت فاها لتتكلم ولكن لاحت منها التفاتة الى شبح قادم فجمد الدم فى عروقها ؛ وشهقت شهقة فزعة وكادت تطلق ساقيها هاربة لولا ان مر القادم تحت المصباح فتنور وجهه وتنهدت تنهد الأمان بعد الرعب ، وعجب سلمان لشانها فسالها :

ـ مالك ؟

فقالت وهى تلهث :

ـ حسبته اخى حسن !

وانتهز الشاب الفرصـة ليفصح عن رغبة طال احتضانه لها فقال :

ـ لن نامن الخـوف ما دمنا نخبط على وجوهنا فى هذه الطرق . اصغى الى ، لماذا لا نذهب الى بيتنا فنمكث فيه قليلا بعيدا عن الأنظار ؟

فصاحت به فى دهشة :

ـ بيتك ؟ !

ـ نعم . ابى يقضى مساء الجمعة حتى منتصف الليـل عند شيخ الطريقة الشاذلية ، وامى فى الزقازيق عند اختى التى جاءها المخاض اليوم ، وليس فى البيت أحد !

فقالت فى ذهول وقلبها يدق بعنف :

ـ كيف اذهب معك الى البيت ؟ . . اجننت يا هذا ! ؟

فقال بضراعة حارة :

ـ اني التمس مكانا آمنا . بيتى آمن ودعوتى بريئة . اريد ان

اخلو اليك فى امان فنعالج همومنـــا فى روية بعيـــدا عن المخاوف والعيون . .

كان يتكلم وكانت تصغى مقطبة . وكانت تتخيل على رغمها البيت الخالى فى قلق وخوف ، وحاولت ان تطمس خياله بالتمادى فى الغضب ولكنه ظل قائما فى راسها . وقالت فى حدة :

ــ ليس فى بيتك . . .

فقال الشاب باستعطاف وهو يشد على راحتها :

ــ لم لا ؟! ظننتك ترحبين بدعوتى . اليس لك ثقة فى ؟ اليس لك ثقة فى نفسك ؟ اريد ان نخلو لذاتنا ، وان نتحدث ، وان اطلعك على مدى حبى وآمالى وخططى . ليس فيما ادعـوك اليه من عيب ولن يدرى بنا أحد .

فهزت راسها فى عناد وقلبها يوالى ضرباته الشديدة . ودت لو تستطيع ان تخلو الى نفسها لتتفكر طويلا ، وشعرت برغبة فى الهروب . ولكنها لم تبد حراكا ، وسارت الى جانبه وراحتها فى يده وعبثا حاولت أن تبعد خيالها عن البيت الخالى المنتظر . ثم جاءت لحظة فشـــعرت بان باطنها ينقلب راســا على عقب وانها تغوص فى اعماق ما لها من قرار . وازدادت اضطرابا وقلقا فقالت فى ضيق :

ــ ليس فى بيتك !

فشد على يدها بيد مرتجفة وقال :

ــ بل فى بيتى . فكرى قليلا . ماذا تخافين ؟ انى احبك وانت تحبيننى ونريد أن نتحـــدث عن حبنا ومســـتقبلنا فى امن من العيون . هذه فرصة وهيهات ان نجد البيت خاليا مرة اخرى . انى أعجب لترددك . . .

وانها تشاركه عجبه من ناحية اخرى . انها تتردد حقا . ولو ارادت أن ترفض رفضا حاسما لما اعياها البيان . ولكنها يبـدو انها تداب على الرفض المتردد الذى لا يحكم أغلاق الباب . انها

فى الغالب خائفة وخجلة ولكن لم تعد تستطيع تجاهل الانقلاب الذى حدث فى باطنها . وفاضت نفسها بالقلق والاضطراب والتوتر ، ثم قالت بصوت ضعيف :

ـ الأفضل ان نواصل المشى . .

فجذبها باغراء وهو يقول :

ـ قد تنشق الأرض فى اى موضع وفى اية لحظة عن اخيك حسن !

فوجدت نفسها تجاريه فى تخوفه قائلة فى استسلام :

ـ انى اخاف هذا !

فقال وهو يتنهد فى ارتياح زافرا من صدره شواظا من نار :

ـ لنذهب الى البيت . .

فقاومت يده فى وهن وهى تقول :

ـ كلا . . لن أذهب .

ـ دقائق معدودات . عطفتنا معتمة ولن يرانا احد .

وسار بها وهى تتبعه فى تثاقل قائلة :

ـ كلا . .

وكان قلبها يدق بعنف يكاد تصدع له الضلوع . .

٢٧

وفتح الباب بمفتاح معه وهمس فى اذنها « تفضلى » فقالت بتوسل :

ـ لنعد . .

فدفعها برقة وهو يقول :

ـ لابد ان تشرفى البيت . .

ودخل وراءها وأغلق الباب فوجدت نفسها فى ظلام دامس ، وارتفع وجهها الى السقف فى انتظار النور ، ولكنها شعرت بيده تتحسس منكبها فسرت بها قشعريرة وهمست فى خوف :

ـ النور .

فقال معتذرا :

ـ مصباح الصالة تالف . .

فقالت بضيق :

ـ اشعل اى مصباح نستضىء بنوره .

فأحاط خاصرتها بذراعه وجذبها معه وهو يقول :

ـ انى اعرف الطريق الى حجرتى . .

وحاولت أن تتملص من ذراعه ولكنه شد على خاصرتها فلم يتخل عنها وسار بها ببطء وجنباهما ملتصقان ، فجثم على صدرها ضيق خانق وجعلت تتساءل فى نفسها « ماذا فعلت بنفسى ؟ » ثم اخذت تألف الظلمة رويدا فلاحت لها فى الظلام أشباح كراسى وصوان واشياء اخرى لم تتبينها . وقطعا الصالة فى بطء وحذر ، ثم مد يده الأخرى ففتح بابا مزق صريره الصمت المخيف ، ودفعها امامه من خاصرتيها ثم رد الباب بقدمه ، وسرعان ما تخلصت من يديه وقالت بحدة :

ـ أشعل المصباح فقد ضقت بالظلمة . .

فجاءها صوته يقول برقة وحذر فى لهجة تنم عن الاعتذار :

ـ آسف يا ستى فان شقة عمى ملاصقة لشقتنا ولا آمن اذا رأوا نورا بها ان يطرق أحد منهم بابنا !

فسألته فى دهشة واستنكار :

ـ هل نبقى فى الظلام ؟

فقال متوددا :

ـ فى نورك الكفاية . .

فقالت فى توسل :

ـ دعنى أخرج . . .

فتلمس يدها فى الظلام حتى عثر بها ورفعها الى فمه فقبلها مرة مرة ثم قال بصوت مضطرب :

ـ بل تجلسين لتستريحى ، وستالفين الظلمة فلا تزعجك .

ومال نحوها ـ فيما يشبه الانقضاض ـ فرفعها بين يديه ، وسار بها الى نهاية الحجرة واجلسها على كنبة وجلس لصقها وهى مستسلمة من شدة الاضطراب والذهول ، ثم قال :

ـ دعينا من الأخذ والرد . ينبغى ان نجلس فى هدوء وان نتحدث . لقد تجشمنا مشقة كبيرة فى سبيل المجىء الى هنا وسيان أن نمكث فى الظلام او فى النور . ليس هذا بذى بال ولا يصح أن يكدر صفونا ..

وتناول ساعدها وامطره قبلات من شفتيه الغليظتين وهى ترتجف وتحاول عبثا أن تجمع شتات افكارها . ثم تزحزحت بعيدا عن جنبه الملتصق بها لتسترد انفاسها فمال نحوها ولكنها حالت دونه بيديها وهى تقول لاهثة :

ـ دعنى وحدى ، انى تعبة ..

فاسترد انفاسه وقال ضاحكا :

ـ تشجعى . مالك خائفة مرتجفة !!.. انت فى بيتك فى بيت زوجك !

وكانت نبضات قلبها تدق فى اذنيها وتقرع راسها ، فتنفست من الأعماق . وشعرت بيده تتناول يدها فهمت بجذبها ولكنها عدلت عنه وكانها استخفت نفسها ، فأبقاها بين يديه وقال بصوت تغيرت نبراته :

ـ كل شيء هادىء ولطيف . انى أرى جمالك رغم هذه الظلمة.

فقالت بلا وعى تقريبا :

ـ لست جميلة ..

فدلك يدها براحتيه وقال :

ـ دعى تقدير هذا لى ، انى لا اجن للاشىء ...

وساد الصمت مليا فتركز انتباهها وهى لا تدرى فى راحتها التى تلتهمها كفاه ، وسرت فيها دغدغة بثت فى ساعديها وذراعيها

وصدرها تخديرا فاقشعر بدنها وهمست :
ــ حسبك . .
فقال بصوت متهدج :
ــ اعطنى شفتيك اقبلهما ، ساقبلهما كثيرا مائة قبلة او الفا ، ساقبلهما حتى اموت . .
واندلق عليها وقبل شفتيها قبلة طويلة شرهة حتى مال راسها الى مسند الكنبة ثم امطرهما قبلا نهمة حامية ، ورفع وجهه عن وجهها انملة وهمس :
ــ قبلينى . . أريد أن اشعر بشفتيك تأكلان شفتى . . هه .
وكانت بحال من الاعياء لم تدع لها قدرة على العصيان فرفعت وجهها قليلا وقبلته ، ثم غمغمت :
ــ لم نجىء هنا لهذا . .
ــ اذن لماذا ؟
ــ لنجلس ونتحدث !
فاطبق شفتيه على شفتيها ، ثم عطف وجهه فجعل خده على فيها وهمس فى اذنها :
ــ هذا أفضل . لقد تكلمنا كثيرا . وأعيد عليك انك زوجى . زوجى ولو ناصبتنى الدنيا العداء . هى مسألة وقت لن يطول . .
لعله يظن انها جزعة متعجلة . فلندعه فى وهمه . ولعل الانتظار أوفق لحال أسرتها التى لا ترحب بزواجها الآن ، ولا تستطيع ان تعد العدة له . ليس فى الانتظار ضرر ولكنها لن تعلن عما فى ضميرها . وعاد سلمان يقول :
ــ مسألة وقت . ولكن ماأحوجنا فى فترة الانتظار الى الترفيه .
ومد يسراه وراء ظهرها ، ويمناه حول صدرها ، فشعر بثدييها تحت ساعده ناهدين صلبين ، فغلى دمه وضمها اليه بوحشية ، وانهمرت أنفاسه على خدها وعنقها . وعاودها الذهول والتخدير والرغبة والخوف ، وامتزج فى صدرها القلق واللذة واليأس ، ثم

اشتدت الظلمة ، ظلمة عميقة غريبة ، كانما تنشر اجنحتها على فضاء لا نهائي ، فلا مكان ولا زمان . .

***

قالت لها امها :

ــ تأخرت اكثر من كل يوم .

فقالت واجمة :

ــ أردت ان انتهى من عملى وقد انتهيت . .

ثم وضعت فى يد الأم خمسة وسبعين قرشا واستطردت قائلة :

ــ اعطونى الحساب كله وساحتفظ لنفسى ببقية الجنيه .

وسكتت الام فمضت الفتاة الى حجرتها واخذت تخلع ملابسها . وفى السكون الشامل ترامى اليها صوت حسنين وهو يطالع فترك فى نفسها اثرا عجيبا لم تدر ان كان خوفا أم حزنا خالصا . .

٢٨

ــ بهية ولطافة المغيب هما شيء واحد فى نفسى . .

قالها وهو يومىء الى الشمس الغاربة ، رانيا الى وجهها الابيض البدرى ، وقد افتر ثغرها عن در ، فقالت :

ــ لن تفتأ تتبعنى الى هنا حتى يرانا أحد !

فقال حسنين بزهو :

ــ انى خطيبك ، ولى الحق فى كل شيء !

ــ لا حق لك على الاطلاق !

فضحك من قلب جذل ضحكة من لا يصدق قولها ، وملأ عينيه العاشقتين من منظرها . كانت ملتفة فى معطفها الأحمر ، ينحسر جيبه فى اعلى الصدر عن فستان رمادى ، وتنهدل على ظهره ضفيرتان مكتنزتان . وكان عمق حمرته يضفى على بشرتها البيضاء وعينيها الزرقاوين نقاء وبهاء . « هى ميالة الى القصر ، فلو التصقت بها لمس مفرق شعرها ذقنى . ولكنها بضة ريانة

فتبا للمعطف الذى يخفى قسمات هذا الجسم وثناياه ، حريصة محافظة . تعجبنى بقدر ما تغيظنى ! » . وقال متعجبا :

ـ لا حق لى على الاطلاق !!

فقالت فى هدوء ينم عن القوة :

ـ طبعا . .

أتعنى ما تقول حقا ؟!. يا لها من جميلة . لقد سما بها هذا السطح عن الدنيا وجعل من آفاق السماء اطارا لصورتها . وما من شىء يشابهها كهذا الاطار فى هدوئه وحشمته وتنائيه . تقول نفيسة عنها انها ثقيلة الدم ، وما هى بالخفيفة ، ولكن هيهات أن يقلل هذا من قيمتها . انه يحبها بعقله وجسمه ، او لعل احساسه غالب عما عداه . اتعنى حقا الا حق له ؟! عجبا ، لقد حسب أن الخطبة ستملكه حقوقا وحقوقا !. قال بدهشة :

ـ يخيل الى فى بعض الأحيان انه لا قلب لك !

فتورد وجهها ، وخفضت عينيها فى حياء ، ثم رفعتهما قائلة فى خشونة :

ـ ما دليل القلب عندك ؟

فقال فى حماس :

ـ أن تصرحى لى بأنك تحبيننى ، . . وأن . .

ـ وأن . . . ؟

ـ وأن نتبادل قبلة حارة . .

فقالت بحدة :

ـ اذن حقا لا قلب لى .

ـ يا عجبا الا تحبيننى يا بهية !!

فلاذت بالصمت فى ارتباك وضيق .

ـ الا تحبيننى ؟

فتنهدت قائلة :

ـ اذن لماذا تم ما تم ؟!

فابتل صدره المحترق وهتف برجاء :

ـ احب ان اسمعها بأذنى . .

ـ لا تكلفنى ما لا اطيق !

فتنهد بدوره فى شبه يأس ، ثم قال بلين :

ـ اذا اعياك الكلام فلن تعييك قبلة .

ـ يا خبر اسود . .

ـ يا خبر وردى كالشهد ! من غير هذه القبلة اموت كمدا .

ـ اذن فليرحمك الله !

ـ لا تطيقينها ايضا ؟!. لن تكلفك شيئا . ابقى كما انت ثم اتقدم خطوة واضـع شـفتى على شـفتيك فتكون الحياة التى ما بعدها حياة . .

ـ او الفراق الذى ليس بعده تلاق !

ـ بهية !

ـ افندم !

ـ انت لا تعنين ما تقولين . .

ـ اعنى ما اقول تماما .

ـ ولكنها قبلة وليست جريمة !

ـ جريمة فى نظرى . .

ـ ما سمعت هذا قبل الآن . .

فتفكرت قليلا ثم تمتمت :

ـ ولكنى سمعته كثيرا . .

ـ اين ؟

فعاودها التفكير ، وترددت مليا ، ثم قالت بصراحة وسذاجة :

ـ الم تقرا ما تنشره الصـباح عن فتيـات مهجـورات لاستهتارهن ؟ الا تسمع الراديو ؟

ففغر فاه ، وندت عنه ضحكة ، ثم صاح :

ـ من يقول ان القبلة استهتار ؟ الم تقرئى ماقال المنفلوطى.

فى القبلة وهو الشيخ المعمم ؟ انك تحرمين على نفسك ما احل الحب الطاهر لنا . الصباح ؟.. الراديو ؟.. كلام فارغ !

فرمقته بريبة وحذر وقالت :

ـ لا تضحك منى . هو الحق . قالت امى لى مرة « ان الفتاة التى تتشبه بالعشاق كما يظهرون فى السينما فتاة ساقطة خائبة الأمل » . . .

بنت الكلب !.. اهى التى قالت لك هذا ؟.. القصيرة الماكرة . افسدتها على وافسدت حياتنا . ان الغيظ يقتلنى . ماذا افدت من الخطبة التى تجرعت بسببها تقريعا ولوما مرا ؟ ! لا شىء . فتاتى عنيدة مجنونة . السبب امها بنت الكلب « حمالة الحطب ! »

وتساءل فى يأس :

ـ اتأخذين نفسك بهذا التقشف حقا ؟

ـ طبعا .

ـ اذن هو حب اسمى فحسب ؟

ـ ليكن .

وتفحصها بنظرة طويلة فرآها ثابتة عنيدة قوية . وجرى بصره مع عنقها الرقيق ، وتخيل اصله المتوارى تحت الفستان ، والمنكبين ، والصدر الناهد ، فركبته عاطفة جامحة حارة ، وافلت زمامه من يده ، فانقض عليها وهو يسدد ثغره صوب شفتيها . ولم تكن تتوقع انقضاضه فتقهقرت فزعة وتلقته براحتيها ثم هتفت به لاهثة :

ـ حسنين ، اياك . . .

لمح فى عينيها غضبا يتقد فخمدت حدته ، وارتد خجلا مرتبكا ، فغمغمت :

ـ احذر ان اغير رأيى فيك . . .

ثم استدركت فى جزع :

ـ اظن آن لك ان تعود . .

وداری ارتباكه بضحكة قصيرة وتمتم :
ــ على شرط الا تكونى غاضبة . . . ؟
فسكتت هنيهة قبل ان تقول بلهجة رقيقة :
ــ وعلى شرط الا تعود لهذا مرة اخرى . . .
وتحول فى خطوات ثقيلة ، يلوح فى مظهره الارتباك واليأس ، فرق قلبها له وقالت وهى لا تدرى :
ــ ان سعادتى فى ان أصون لك . . .
وكأنما تنبهت الى نفسها فعضت على شفتها ولم تنبس بكلمة .

٢٩

وجاء عيد الأضحى فجذب افكار الأسرة وعواطفها الى واد واحد تلتقى فيه ذكريات الأمس واليوم ، واجتمعت الأسرة ليلة الوقفة فى الصالة حتى حسن كان بينهم ، واستعرت فى الصدور رغبة كظيمة فى الاحتفال بالعيد . وطافت برءوسهم ذكريات الأعياد الماضية فى حنين دافق لم تعلن عنه ألسنتهم . كان الخروف ــ فى مثل هذه الليلة ــ بمربطه فى شرفة شقتهم الأولى يشرئب بعنقه بين قضبانها ثائجا ، مذيعا بثؤاجه فى عطفة نصر الله احتفـال الأسرة بالعيد . ولم يكن الشقيقان ليفارقانه ، فهما أما يعلفانه ويسقيانه ، أو يناطحانه او يحلمان بالغد القريب فى أمل وفرح .
وفى الصباح وعقب ذبح الضحية يبدأ سباق الى شى اللحوم والتهامها ، والأم مشغولة بهذا وبتوزيع الصدقات على بعض الفقراء كالكناس وصبى الفران وغيرهما ، أما الأب فيتناول فطوره من الشواء على السفرة ثم يأوى الى حجرته فى انبساط فيضم عوده الى صدره ويمضى فى مداعبة أوتاره . وهناك ــ غير هذا ــ العيدية والملابس الجـديدة ونزهة الصباح فى الخلوات وفسحة الليل فى

السينما وما بين هذا وذاك من الوان الحلوى واللعب والمفرقعات . وهاهى الأسرة مجتمعة ولكن بلا اب . وانهم لينظرون فيما حولهم فلا يجدون بشيرا بمقدم العيد ولا املا فى بهجته ، ثم يسترقون النظر الى امهم المتلفعة بالسواد باعين مستطلعة والسنة قلقة مشفقة . كلا ، لا عيد ، ولا بشيرا به . وتساءل حسنين فى سره «ترى هل يمكن أن يمضى العيد كما كان يمضى غيره من الأيام ؟!» . وقال حسين لنفسه « لاعيد . انى اعلم ذلك . انتهى ، انتهى » . حسن وحده كان ادناهم الى التفاؤل . ولعل كثرة تغيبه عن البيت جعلته بمنأى بعض الشىء عن نوع الحياة التى يحياها اهله . وكان الى هذا - شانه شان بقية الاخوة - يعد امه قادرة على كل شىء ، وكثيرا ما يتعزى عن كسله وتلفه فيقول لنفسه « لديهم المعاش وارباح نفيسة ! » . وقد اعتاد دائما اذا رجع الى البيت أن يخلو الى نفيسة فيسألها « كيف الحال ؟ » فكانت تجيبه بالشكوى المرة ولكن قلبها لم يكن يطاوعها على تجاهل يده اذا مدها لها طامعا فى بضعة قروش . كان متفائلا رغم ما يحدق به من تجهم ، ومنته نفسه بنصيب هائل من اللحم يعوض عليه أياما طوالا انقضت دون ان يذوق للحم طعما ، وضاق بالجو الكئيب الصامت فمال على اذن نفيسة وسألها همسا :

- ماذا أعددتم للعيد ؟!

وفطنت الأم الى همسه فعاجلته متسائلة :

- ماذا أعددت للعيد يا رجل الأسرة ؟

فضحك قائلا :

- لنا أم نحسد عليها ! خفيفة الروح وبنت نكتة ولطيفة . ماذا اقول يا أماه ؟ لم يأمر الله بالرزق بعد . وحسبكم انى كفيتكم شرى فلم آكل لقمة فى بيتكم منذ وفاة ابى الا مرات معدودة ...

وكانت يئست من نصحه ولومه معا فتنهدت صامتة ، وتشجع حسنين بفتح باب الكلام فتساءل :

ـ ماذا سناكل فى العيد ؟

فتطوع حسن بالاجابة قائلا :

ـ لحما طبعا . هذا امر ربنا ولا حيلة لنا فيه !

وندت عن نفيسة ضحكة ولكنها لم تسترسل خشية ان تتهم بتشجيعه وقالت الأم بحزن :

ـ هذا امر ربنا حقا ولكن كيف لنا بتحقيقه ؟

فقال حسن فى ملق بارع :

ـ نحققه بفضلك انت . انت الخير والبركة . انت الحزم والتدبير . ثم انك اعظم طاهية فى الدنيا . كيف يمضى العيد دون ان نشبع من المشوى والمسلوق والمحمر والكفتة والكستليتة والمبار والموزة ؟ . سفرة الست ام حسن ، انعم بها واكرم . .

وسرى فى الجو القاتم نسيم مرح لطيف ، وجرت على فم الأم الجاف بسمة خفيفة ، ولكنها قالت باسف :

ـ طاهية ماهرة ولكنها مقطوعة اليدين !

ونظرت نفيسة الى امها نظرة ذات معنى ثم قالت لاخوتها :

ـ اسمعوا ، علمنا ان فريد افندى سيهدى الينا نصف خروف!

وتطلعت اليها الأبصار فى دهشة ووجوم . ولم يعد فى وسع المراة السكوت فقصت عليهم كيف حادثها فريد افندى فى الأمر بلباقة وكيف رفضت شاكرة فثار الرجل لحد الغضب وذكرها بانهم اسرة واحدة . الخ . وكانت تلوح فى عينى حسين نظرة كئيبة ، وبدا حسنين وهو يزدرد ريقه بصعوبة اما حسن فقال :

ـ يا له من رجل فاضل وفى !

فهتف حسنين فى ضيق والم :

ـ مستحيل . . لن يقع هذا . . .

فبادره حسن قائلا :

ـ ليس فى الأمر ما يمس الكرامة ، ان هى الا تقاليد مرعية ، وليس فريد افندى بالرجل الغريب . .

وخافت نفيسة ان يفضى تصريحها الى فتنة فقالت :

ـ لا داعى للنزاع ، فاذا ابيتم قبول الهدية فلنشتر بضعة ارطال من الضأن .

فتساءل حسن فى حدة :

ـ كم رطلا ؟

ـ ما يسعنا شراؤه . عشرة ارطال مثلا !

فصاح حسن فى انزعاج :

ـ عشرة ارطال على اربعة ايام !. اياكم وان ترفضوا الهدية . النبى قبل الهدية يا هوه . ام تريدون ان تغضبوا اسرة تود مصاهرتكم !

فصاح به حسنين :

ـ هذه شحاذة !

فقال حسن بيقين :

ـ كلا . الشحاذة شىء آخر اسالنى انا عنه . اما هذه فهدية ، هدية ، هدية !

وتكلم حسين لاول مرة فقال :

ـ هدية من النوع الذى كنا نهديه فى الأعياد الى الكناس وصبى الفران . . .

وغضب حسن لانه كان يطمع ان يضم حسين الى رايه او ان يبقى على الحياد فى الأقل ، وقال محتدا :

ـ لا تخلط بين الهدية والصدقة ، اذا اعطيت الكناس فهى صدقة ، اما اذا اعطيت صديقا فهى هدية . . .

وكان حسنين يعلم بأن مناقشة حسن هذر غير مجد فخفض عينيه وقال فى حياء والم :

ـ الواجب ان يكون المهدى هو الخطيب لا الخطيبة . . .

فقال حسن ساخرا :

ـ هذا اذا كان هو الذى طلب يد الخطيبة ، اما اذا كانت هى التى طلبت يده . . .

ـ حسن ! . .

ـ ارحنا من الفلسفة التى لا تشبع من جوع . لا عيب فى قبول هذه الهدية . كانت هدايا احمد بك يسرى تحمل الينا فى المواسم ، وعلى فكرة ما باله قد نسينا هذا العام ابن الكلب ؟ ! . هذا رجل غير وفى . فريد افندى رجل الوفاء حقا . ومن حسن الخلق ان نقبل هديته . ثق بانه اذا كان فى القبول ما يمس الكرامة لكنت اول الرافضين .

فقال حسين بكآبة :

ـ تصور ماذا يقولون عنا !

ـ تصور الشواء وانت تقلبه على النار والرائحة الشهية تملأ البيت .

والتفت حسنين الى امه وسألها :

ـ علام نويت ! ؟

فقالت المراة دون ان تنظر اليه :

ـ لم يسعنى الا القبول . . .

وساد الصمت ، لا لأن احدا لم يجرؤ على الاحتجاج فحسب ولكن لان هذا القبول انقذهم من النزاع القائم فى صدورهم بين غضبة ضمائرهم ورغبتهم فى الاستمتاع ببهجة العيد ولذائذه . وهم الى هذا كله كانوا يؤمنون بامهم ايمانا كبيرا ، كانها لا يمكن ان تخطىء ، فاذا كانت قد ارتضت قبول الهدية فلا ضير من قبولها . هذا ما قالوه لأنفسهم ، او هذا ما قاله لنفسه الحائر منهم لينجو من حيرته . وكانت الأم أسوا حالا منهم . ولم تجد من عزاء الا فى هذه الحقيقة وهى أن فريد افندى اضطرها الى القبول بالحاحه وحرارة صداقته وقد رحبت باثارة نفيسة للموضوع لعلها تجد فى قبول الأبناء عزاء ، فلما انست من الابنين المهمين معارضة تضاعف ألمها وصرحت بالحقيقة فيما يشبه الاعتراف بالذنب ، وضاعف من آلامها انهم باتوا لا يشبعون الا فى الأعياد شأن المساكين

الذين كانوا يقصدونهم فيمن يقصدون من اهل الخير . انحدار يعقبه انحدار ولا تدرى أين يقف . اما حسن فقد اطمان . ولم ير باسا فى ان يتفلسف فقال بلهجة الوعظ :

— قبل النبى مرة هدية اهداها اليه يهودى فهل يكون فريد افندى شرا من اليهود ؟!

فتساءل حسين فى دهشة :

— من قال هذا ؟

— التاريخ !

— اى تاريخ !

فصاح به حسن :

— احسبت انهم يقولون لك كل شىء فى المدرسة ؟

فقال حسنين بحدة :

— حدثنا عن التاريخ الذى تعلمه الشوارع . . !

فتظاهر حسن بالغضب وقال :

— قسما برب العزة لولا انك سبب هذه الهدية لكسرت راسك.

ثم استدرك قائلا :

— وعلى هذا كله كان الواجب يقضى بان يهدوا الينا خروفا كاملا لا نصف خروف (ثم ملتفتا الى نفيسة) احذرى ان تقبلى الهدية الا اذا كان فيها نصف الكبد ايضا . .

٣٠

وقفا متقابلين ينتظران الترام . هى فى معطفها القديم الذى تود أن تستبدل به احسن منه ولو نصف عمر ، وهو فى البذلة التى تبدو عليه قلقة جافية . وكان يلوح فى وجهه التردد ، والرغبة المعذبة فى الافصاح عن شىء يثقل عليه الافصاح عنه ، ثم خاف ان يجىء الترام قبل أن يتكلم فقال فى ارتباك :

ـ نفيسة ... يخجلني جدا ان اصرح لك بامر ...

فتساءلت الفتاة :

ـ ماذا بك ؟

فقال همسا :

ـ امرني ابي ان اصحبه اليوم الى حضرة شيخ الشاذلية فرفضت حتى اثرت غضبه ..

وشعرت بخوف لم تدر كنهه ، لعل ذكر ابيه الذي هيجه ، وتوقعت خبرا غير سار ، فرمقته بعين متسائلة دون ان تنبس ، فقال بصوته الهامس :

ـ ثار غضبه لعنادي وحرمني اجرة يومي !

وحلت الدهشة محل الخوف وسألته :

ـ اليس معك نقود ؟

ـ كلا . ابي رجل جبار ، ربنا يأخذه ..

فقالت لنفسها « آمين » ثم تمتمت :

ـ معي بعض النقود ..

فسكت لحظات في قلق ثم سالها في خجل :

ـ هل تدفعين ثمن التذكرتين امام الجالسين ؟

وفطنت الى ما يريد ، فرقت له ، وفتحت حقيبتها وتناولت شلنا واعطته اياه فأخذه وهو يلحظ الواقفين بحذر ثم قال :

ـ شكرا لك . سارده اليك في اللقاء الآتي ...

ثم قال مستطردا بعد تردد :

ـ او خذي اذا شئت به حلاوة او جبنا .

فتساءلت مدفوعة بغريزة الحرص :

ـ الا تخاف ان يلاحظ ابوك انني لا ادفع ثمن ما آخذه ؟

فضحك قائلا :

ـ انه لا يرى أبعد من موضع قدميه ..

وجاء ترام روض الفرج فصعدا اليه وجلسا متجاورين .

« كيف أبذر نقودى على هذا النحو ؟ . البيت فى شديد الحاجة الى كل مليم مما أجنى من عملى الطويل . امى لا تفتأ تبيع قطع الأثاث . حتى أخى حسن أحق بهذا الشلن من هذا المفلس . ماذا أفعل بنفسى ؟ . انى أبعثر نقودا أخرى لابتياع البودرة والأحمر . أواه . انه ليس رجلا . لو كان رجلا لما تعلق بابيه هذا التعلق المضحك ، ولما خافه هذا الخوف . حرمه الرجل يوميته كما يحرم الطفل مصروفه . بيد انى احبه واريده . انى له نفسا وجسدا . ليس لى سواه . من اين لى هذه النفس التى تسيمنى هذا كله ؟ ! » وسمعته يهمس فى اذنها :

— من المؤسف حقا أن امى عادت من بلدة اختى فلم يعد البيت خاليا . .

ليست بحاجة الى من يذكرها بهذا . فهى تعلمه حق العلم . بيد أنها سرت فى اعماقها بفتحه هذا الباب . ودبت فى جسمها يقظة فنشط خيالها وتذكرت الظلمة الشاملة والأصوات الهامسة ، تذكرت هذا فى حرارة مشوبة بخوف . ولم تشأ ان تعلق على قوله فتجاهلته عن حياء ، وتورد وجهها الذى جعله الزواق مثيرا للنظر . أمى عادت ، وأبى لا يرضى ! ، متى ينتهى هذا كله ؟ ! . متى تملكه بلا خوف ، وبشرع الله ؟ ! . آه ثم آه ، لشد ما يركبها الخوف أحيانا فتود الموت نفسه والراحة من الحياة جميعا . وعاد صوته الهامس يقول :

— ولكنى سأخلق الفرص بنفسى . لا بد أن تعاد الفرصة ، وأن يخلو البيت . .

فقالت بصوت بارد :

— لا . . لا . . لا داعى لهذا . .

— الله يسامحك . . أنسيت ؟ . . أنسيت حقا ؟ ! . لا يجوز أن نموت فى فترة الانتظار . لا أحب الانتظار . .

أليس الانتظار خيرا مما فعلت بنفسها ؟ . بلى . كلا . بلى .

كلا . بلى بلى . كلا كلا . بلى بلى بلى . كلا كلا كلا . وتنهدت فى حيرة ، وعاودها شعور اليأس الذى ألفته ، ولكنها قالت :

ـ لا احب الانتظار مثلك ، ولكنى لا احب هذا أيضا ..

فقال بمكر :

ـ كاذبة . تحبينه وتحبينه . هل نسيت .. ؟ محال ..

ـ لا أذكر شيئا ..

ـ لن انسى ما حييت ! .. انت غاية فى الحرارة والحياة كأن حرارتك لا تزال تلفحنى ..

ـ هس . انت مجنون ولا شك !

ـ مهما يكن من أمر فسنجد حتما طرقات خالية مظلمة ..

ـ حذار . بصرك ضعيف كأبيك ، وقد تحسب الطريق خاليا والشرطى امامك !

ـ البركة فى عينيك انت ..

ثم قال متنهدا بعد لحظة صمت :

ـ متى يتاح لنا الزواج ؟ !

فآلمها تساؤله واغاظها ، واخجلها فى الوقت نفسه ، ولازمها فتور ووجوم بقية الطريق .

٣١

انتصف الليل ولم يكد يبقى فى قهوة الجمال الا نفر قليل ، وكان حسن يجلس الى مائدة خالية بعد ان فارقها اصحابها تاركين فى جيبه ما استطاع ان يظفر به من قروشهم . كان يجلس كالمتفكر ملقيا على المقهى نظرة خامدة من عينيه المتعبتين . هذا صاحب القهوة وقد اخذ يراجع حساب اليوم مكوما الماركات فى طبق صاج كبير ، على حين وقف النادل مستندا الى احدى ضلف الباب

واضعا احدى يديه فى جيب المريلة يعبث بالقروش فيتصاعد وسواسها فى اغراق شهى . « رحمك الله يا ابى ، الا تعلم بانى تعبت كثيرا بعد موتك ؟ . كان نزاعنا لا يهدأ ، وكنت اشعر احيانا بانى امقتك ، ولكن اين ايامك ؟ فيما عدا أيام العيد لم أتناول لقمة فى بيتنا . وماذا يأكلون ؟ . الفول غذائى الوحيد ، فول ، فول . الحمير تجد شيئا من التنويع . » لماذا لا يبحث جادا عن عمل ؟ . جرب حظه مرتين فانتهى فى كل مرة بمعركة كادت تودى به الى السجن : كلا ، ليست هذه الأعمال التافهة بمبتغاه . ولا يزال يؤثر عليها حياة التسكع والمقامرة الحقيرة . الواقع انه يتعيش من السرقة ، انه ورفاقه يعلمون ذلك حق العلم . انهم يتصيدون الزبائن الأغراب ويوهمونهم بانهم يلاعبونهم على حين انهم يسرقونهم . حياة شاقة محفوفة بالمخاطر فى سبيل قروش ، كيف يستنيم الى هذه الحياة ! . لم يكن لا سعيدا ولا راضيا ، وكانه كان ينتظر معجزة تنتشله من وهدته الى حلم من الاحلام . كانت حياته عادة ضارية كالمخدر المهلك ، اعتاد ان يعيش بلا عمل حقيقى حائزا — رغم هذا — مركزا مرموقا مرجعه الرهبة والخوف فلم يحتمل أن يبدأ من جديد صانعا بسيطا او عاملا مطيعا ولم يكن يغيب عنه مدى حاجة أمه الى جده ، ولا تزال تطن فى اذنيه شكاتها المكروبة ، تطارده كلما أفاق الى نفسه . انه يحب امه ويحب أسرته ، ولكنه ينتظر ، وينتظر ، دون ان يحرك ساكنا . لا أزال فى البداية . عمل حيوانى طويل بقروش . حماقة خير منها ..

— مساء الخير يا سى حسن .

ورفع راسه منفتلا من سحابات أفكاره فرأى الأستاذ على صبرى يجلس قبالته فى هدوء وكبرياء فاهتز صدره فرحا وهتف به :

— مساء الخير يا أستاذ .

ونادى الأستاذ النادل وطلب نارجيلة ثم التفت الى حسن وقال دون تريث :

ـ قررت ان نعمل معا ! .. اعنى ان اضمك الى تختى .. !

واتسعت عينا حسن ولاح فيهما بريق خاطف . ان التخت هو العمل الوحيد الذى يحبه ، لا لميل فنى مركب فى طبعه ، ولكن لأنه يسير ولذيذ ويتسم جوه عادة باريج الخمر والمخدرات والنساء . ومع ان امله فى على صبرى كان دائما محدودا الا انه كان يراه شيئا خيرا من لا شىء ، ولعله عتبة لما بعده ، اجل من يدرى !؟ قال :

ـ حقا يا استاذ ؟

ـ بدون شك .

ـ هل نعمل فى صالة او قهوة ؟

فتخلل الأستاذ شعره الثائر باصابعه الطويلة النحيلة وقال :

ـ سترسى الى هذا يوما قريبا . وربما غزونا الراديو نفسه . ولكننا سنقتصر بادىء الامر على الأفراح ..

وسرعان ما خمد الحماس . ولو كان على صبرى شخصا لا يعقد به رجاء ولو ضئيلا لصعقه بضربة تجعل عاليه سافله . لقد عمل معه بالفعل فى بعض الحفلات العائلية نظير ريال والعشاء ، وما كان هذا ليحدث الا مرات فى العام ، فما الجديد فى هذا ؟ ! . وشعر بان وراء هذه الدعوة امرا ، وداعبه امل جديد ، فتظاهر بالسرور وقال :

ـ ستحتل المكانة التى تليق بك يوما بلا شك . انت لك بحة ليست لعبد الوهاب نفسه .

فانبسطت أسارير وجهه ، ثم سأله :

ـ ماذا تختار من آلات التخت ؟ .. كنت حدثتنى عن المرحوم والدك كعواد بارع ؟

ـ لم أتعلم آلة على الاطلاق ..

– ولا الدف ؟

فقال حسن بقلق :

– سبق أن جربتني كسنيد ، واظنني انفع « سنيدا » ..

فهز الأستاذ راسه قائلا :

– كما تشاء . هل تحفظ ادوارا كثيرة ؟

– مووايل وأدوار وطقاطيق ..

– احب ان اسمعك منفردا ..

وشعر حسن فى أعماقه بسخرية . نفخة كذابة وامتحان لحساب امل ضعيف !. ولكنه كان مصمما على مجاراته الى النهاية . كان يحلم بان يغنى لحسابه الخاص يوما ولو فى المقاهى البلدية . وانتظر حتى جاء النادل بالنارجيلة واستمتع الأستاذ بالأنفاس الأولى ، وتنحنح ثم سأل الأستاذ :

– ما رايك فى موال : يا عينى ليه بتبكى ؟

– عال ...

وراح حسن ينشد الموال فى صوت غير مرتفع ، مجيدا ما وسعته الاجادة ، والآخر يذهب معه براسه ويجىء متظاهرا بالاستغراق ، حتى انتهى حسن ، فقال :

– هذا فوق الكفاية بالنسبة لسنيد . احب ان اسمعك فى الهنك أيضا ، هل تحفظ « فى البعد يا ما كنت أنوح ؟ » .

فتنحنح الشاب مرة اخرى وقد حميت حنجرته واشتعل حماسه وتدافع يغنى الدور حتى أتى عليه ، فقال الأستاذ :

– عال ، عال ، هل تعرف أصول النغم ، السيكا والبياتى والحجاز وغيرها ؟

وكان لا يداخله شك فى جهل الأستاذ بهذه الاصول فقال بجراة ندر ان توجد فى غيره :

– طبعا .

– أسمعنى ليالى رست ..

فانشد بعض الليالى كيفما اتفق ، فهز على صبرى راسه قائلا :
ـ برافو .. هات اخرى نهاوند ..
وانطلق يغنى وهو يغالب سخريته القلقة فى صدره والآخر يتابعه باهتمام ظاهرى ، ثم لاح فى وجهه التفكر فجاة وبدا كانه يريد الافصاح عن شىء هام . وكان حسن ينتظر هذه اللحظة بغريزته فتساءل متحيرا ترى هل يريد ان يندبنى الى معركة ؟ .. ماذا يريد على وجه التحقيق ؟ . وقال الأستاذ :
ـ صوتك حسن . بيد ان العمل فى التخت يتطلب مهارة اخرى . ينبغى ان نتفاهم تماما . وعلى سبيل المثال اقول لك انك يجب ان تاخذ بقسط وافر من اساليب الدعاية ..
ـ الدعاية ؟!
ـ نعم . كأن تنوه بفنى فى المناسبات . أن تسعى لاغراء البعض بطلبى لاحياء الأفراح ولك جزاء طبعا . أن تكون فى حفلة يحييها مغن ما فتعلن نقدك لصوته وتقول لمن حولك آه لو كان على صبرى فى مكان هذا المغنى . وهكذا ..
فابتسم حسن قائلا :
ـ هذا هين ، واكثر منه ..
فقال على صبرى بعد فترة تفكر :
ـ ثم انك شاب قوى وجرىء وينبغى أن تستغل مواهبك الى اقصى حد . ولكن دعنى اسالك سؤالا قبل كل شىء : اى المخدرات أحب اليك ؟
ما الذى يدعوه الى هذا التحقيق ؟ ايريد أن ينفحه بهدية ؟! انه يجيد قبول الهدايا ، اما الجود بها فهذه عادة لم يمارسها . ام يرمى الى اشراكه فى عمل هام ؟ ودق قلبه لهذا الخاطر . طالما حلم بتجارة المخدرات . على انه آثر الحرص والحذر فقال بمكر :
ـ اظن أن المخدرات تؤذى الحنجرة ..
فضحك على صبرى ، ثم انطلق يغنى من الليالى ما شاء فى

صوت كالرعد وفى نفس طويل قوى ، ثم تساءل :

ـ ما رأيك فى هذا ؟

ـ لم اسمع له مثيلا !

فقال ساخرا :

ـ هذا نتيجة خمسة عشر عاما من تعاطى الحشيش والأفيون والمنزول ، منها خمسة اعوام ادمنت فيها الكوكايين ..

ـ يا سلام !

ـ المخدرات دم الغناء ، وما من مغن يستحق هذا الاسم الا وقد تعاطى من المخدرات مثلما التهم من الملوخية والفول المدمس ..

فضحك حسن وقال بلهجة تنم عن التسليم :

ـ هذا لو تيسرت ..

ـ صدقت ، وهذا ما خمنته . انك لا تكره المخدرات ولكنك لا تستطيعها . واذن فاعلم انه من اليسير ان نجعل الانهار خمورا والجبال حشيشا . انك جرىء قوى ولكنى لا اخفى عليك بانى خفت كثيرا ..

ـ خفت ماذا ؟

فضحك على صبرى ضحكة قصيرة كشفت عن اسنانه الصفر وقال :

ـ اكره الناس الى من يقول « اخلاقى لا تسمح لى بكيت وكيت » أو من يقول « اتق الله » او من يتساءل فى خوف « والبوليس ؟ ! » .. فهل انت احد هؤلاء ؟

فقال حسن مبتسما وهو يشعره بأن صبره الطويل يوشك ان يظفر بحسن الجزاء :

ـ انى أعيش فى هذه الدنيا على افتراض انه لا يوجد بها اخلاق ولا رب ولا بوليس ..

فضحك على صبرى بقوة زلزلت القهوة كغنائه وقال :

ـ فلنقض بقية الليل فى بيتى فما زال فى الحديث بقية ..

ولبث حسن متفكرا دون ان تخونه ثقته بنفسه لحظة واحدة . كان قليل الثقة فى محدثه ولكنه لم يكن يائسا منه كل اليأس . وكان يشعر فى اعماقه بان ثمة انتظار طويل لا يزال امامه قبل ان تثبت الأرض القلقة تحت قدميه .

٣٢

كانت الأم ونفيسة جالستين بالصالة قانعتين من النور بما يشع من حجرة الاخوة حين زارتهما صديقتهما صاحبة البيت . ورحبا بها ترحيبا يليق باياديها البيض على نفيسة . وجلست المرأة بينهما على الكنبة ، وابت حتى ان يضيئا مصباح الصالة ، وجعلت هى والأم تتسليان بالحديث على حين ذهبت نفيسة الى المطبخ لاعداد القهوة . وكانت الأم تنتظر دائما من وراء زيارة صديقتها عملا مربحا لنفيسة ، وقل ان خيبت لها رجاء . لم يكن عقلها يخلو ابدا من هموم العيش ، خاصة بعد ان استدار العام واقتربت العطلة المدرسية ، وبات من المتوقع قريبا ان يضاف الى واجباتها واجب جديد هو تغذية ابنيها بدلا من المدرسة . كانت تشكو الى صاحبتها ما عانت من حياتها فى الأشهر المنقضية والمرأة تواسيها وتشجعها ، حتى عادت نفيسة بالقهوة . وارادت المرأة ان تعلن عما دعاها الى هذه الزيارة فقالت وهى تبتسم ابتسامة حلوة تنم عن طيبة قلبها :

ـ جئتك بعروس جديدة ..

فضحكت نفيسة ضحكة سرور وقالت :

ـ يحق لى ان اطلق على نفسى خياطة العرائس !

ـ أسأل الله ان تعدى ثياب عرسك بنفسك قريبا .

فتمتمت الأم قائلة :

- آمين .

وامنت نفيسة على الدعاء بقلبها ، على ما اثار فى نفسها من قاتم الذكريات . « متى يمكن ان اكون عروسا ؟ ليس قبل ان يموت عم جابر سلمان . يا للسخرية . امل كلفنى نفسى وجسدى . هل يدور هذا لأمى فى خلد ؟ ! . انها تحسب أن هموم المعيشة اكبر الرزايا . يا لها من جاهلة بائسة . » . وتساءلت الأم :

- من تكون الزبونة الجديدة ؟

- العروس الجديدة هى كريمة عم جبران التونى البقال . .

وتنبهت حواس نفيسة لهذا الاسم الذى لا يمكن ان تنساه، فدق قلبها بعنف وقالت متسائلة :

- دكانه عند تقاطع شارعى شبرا والوليد ؟

- بالضبط .

وضحكت الأم قائلة :

- اصبحت جوالة يا نفيسة كشيخ الحارة . . .

فضحكت الفتاة ضحكة آلية وقالت لنفسها « هى دون غيرها » . هى الفتاة التى كان عم جابر سلمان يرغب فى ان يزوجها لسلمان كما قال لها الفتى . فلتتزوج ولترفع عن صدرها كابوس ذكراها . وتساءلت الأم :

- وهل جبران التونى هذا غنى ؟

- على جانب من اليسار لا باس به . . .

- ومن العريس ؟

فضحكت المراة وقالت :

- انه اقرب مما تتصورين . هو سلمان ابن عم جابر سلمان البقال .

- سلمان !

ندت عن نفيسة كالصرخة ، فالتفتت المراتان صوبها فى

دهشة . وظنت الضيفة انه كبر على الفتاة ان يحظى بمثل هذه العروس شاب تافه كسلمان فقالت :

ــ نعم سلمان . والظاهر ان عم جبران لم يمانع لصداقته لعم جابر سلمان . وربك يعطى الأرزاق بلا حساب . .

ادركت رغم هول الصدمة انها كادت تفضح نفسها فتماسكت فى جهد شديد . لقد انفجرت الصرخة فى صدرها بلا وعى وانطلقت من فيها دامية . ولم تعد تستطيع ان تتابع حديث المرائين وشعرت بانها تموت موتا سريعا منقضا . وساعدتها الظلمة على اخفاء معالم وجهها فشدت على اصابعها حتى لاتصرخ مرة اخرى. ماذا قالت المرأة ! . ليس ما بها كابوس أو جنون ، انه حقيقة بلا ريب ، سلمان جابر سلمان ، دون غيره . وعاودتها ذكرى مخاوف قديمة كانت تنتابها من حين لآخر فى ساعات انفرادها ، مخاوف غامضة احيانا كقلق ينشب اظافره فى صدرها ، او واضحة احيانا اخرى تتبدى فى صورة بشعة يقشعر لها البدن . وخالت فى ذهولها لحظة ان ما بها ليس الا حالة مرعبة من هذه الحالات ، ولكن لم تكن الا لحظة واحدة ثم عاودها هذا الشعور الثقيل الرهيب بانها تموت . لقد ذاقت قساوة الدنيا مع أسرتها جميعا ولكنها لم تصدق انها قاسية الى هذا الحد ، وعضت على شفتها وهى لاتدرى كيف تقاوم هذا الانحلال ، والتهدم السارين فىروحها وجسدها . ما هى بخيبة الحب ، هى خيبة الحياة كلها ، ولكن يجب أن تتمالك نفسها ، وعسى أن تدعوها الضيفة الى الحديث لأية مناسبة فلا يصح أن ترتعش نبرات صوتها ، أو تختنق من شدة التأثر . ولعله من الخير أن تلوذ بالفرار الى حين . ولم تن عن تحقيق نيتها فتناولت قدح القهوة ومضت الى المطبخ . هنالك زفرت من الأعماق ، وشدت بيديها على ضفيرتيها القصيرتين بشدة وهى تحملق فى سقف المطبخ الملوث بالهباب وقد عشش العنكبوت بأركانه ، ولبثت فى جمود كالذاهلة . ولم يكن أملا ، ولكن خدعة ،

كذبة مفزعة ، ضربة قاضية ، سرقة ، لطخة ، جرحا لا يندمل ، وحلا ، لقد انتهت . انتهت بلا ادنى ريب . لا يمكن ان تتخيل امها هذا ، اما حسين وحسنين فهيهات . رباه كيف استطاع خداعها الى هذا الحد ؟ كانا معا يوم الجمعة الماضى فاى مجرم هـذا واى اجرام . ماذا يجدى الغضب او الحقد ، او الكراهية ؟ .. شعرت نحوه بالكراهية تقتل اى اثر للخير فى النفس . ما اشد حاجتها الى التفكر والتدبر ، انها تتلهف على مكان قصى خال ينأى بها عن هذا المحيط الذى باتت تضمر له البغض اشد البغض ، مكان تستطيع ان تسال فيه نفسها كيف هوت بمثل هـذه السهولة ، وبمثل هذه السرعة ، وبمثل هذا الهوان ...

ـ نفيسة ... !

بلغ نداء امها مسامعها فانتفضت فى ذعر ، ثم حنقت عليها حنقا شديدا كانه المقت ، ولم تات حراكا فاعادت الأم النداء فذهبت وهى تعض على نواجذها ، ووجدت الضيفة متأهبة للذهاب وامها تودعها عند الباب الخارجى . وقالت لها وهى تسلم عليها :

ـ تعالى الى بعد غد فنذهب معا الى بيت العروس ..

فاومات براسها بدلالة الايجاب دون ان تنبس ، ولما اغلق الباب قالت الأم :

ـ سلمان ! . والله ما يستاهل هذا الحظ ...

فشعرت بخنجر ينغرس فى شغاف قلبها ، ولم تعلق بكلمة . وضاق صدرها بالمكان والجو وايقنت بانها اعجز من ان تتحمل المكث الى جانب امها ، وخطر لها خاطر كلسان من لهب انشق عنه صدرها فمضت بقدم ثابتة الى حجرتها ، ثم عادت وقد ارتدت معطفها فسالتها امها بدهشة :

ـ اذاهبة الى الخارج ؟

فقالت وهى تتوجه صوب الباب :

ـ نعم سأشترى شيئا للعشاء وربما ذهبت الى شقة فريد افندى ساعة . . .

٣٢

ومالت نحو فناء البيت وانفاسها تتردد فى ثقل وصعوبة ، كانت السماء صافية ، مرصعة بالنجوم ، والجو باردا بعض الشىء تتخلله نسمات لطيفة من طلائع الربيع . وسارت الى الباب الخارجى ثم عرجت غير هيابة الى دكان عم جابر . كان الرجـــل العجوز عاكفا على مراجعة الحساب الختامى لليوم ، على حين وقف سلمان مرتفقا الطاولة ناظرا فيما بين يديه فى شرود . واقتربت منه وهى تلقى عليه نظرة حادة ملتهبة فرفع اليها عينيه الصـــغيرتين ولم تلبث ان لاحت فيهما نظرة جفول وارتباك ثم قال ببلاهة :

ـ اى خدمة يا ست نفيســة ؟

فقالت بعزم وثبات :

ـ الحق بى فى الحال . . .

فأومأ لها بالايجاب وهو يتظاهر بانه يقدم لها شيئا من الدكان. ومضت الى الشارع ووقفت تنتظر عند راس عطفة نصر الله وهى تتفحص ما حولها بعناية وحذر . وطابت نفسها بما فعلت ، فما كان فى وسعها ان تصبر دون حراك حتى مطلع الصباح . وجعلت تنظر داخل العطفة حتى راته قادما بجلبابه وجاكتته مسرعا فى خطاه الملهوجة . حقير تافه ، شىء تعافه النفس ، مخادع مخاتل كذاب . ما احقر هذا . ماذا هى فاعلة به ؟ . أترتمى على قدميه باكية مستعطفة ! هل تضرع اليه ان يظل لها وحدها ؟ بدا ان هذا كله شىء فظيع مستنكر ، وعلى هذا فقد وشى بمشاعر عميقة صادقة لا تدرى كيف تفصح عن نفسها ، فقبل ساعة واحدة كانت

تعده رجلها وتعد نفسها امراته ، والهلاك اهون من ان تنفصم هذه العروة بين يديها . كانت شيئا وليست الآن شيئا على الاطلاق . عدم مخيف ويأس قاتل . واقترب منها فى حذر وغمغم دون أن يلتفت اليها :

ـ خير ؟

واثار صوته حنقها ولكنها كظمت نفسها وقالت وهى تسير :

ـ اتبعنى الى شارع الألفى .

ومضت الى الشارع الجانبى بعيدا عن الأعين المستطلعة ، ثم ابطات الخطو حتى لحق بها ، وبادرته قائلة وقد نفد صبرها :

ـ اليس عندك ما ترى اخبارى به ؟

فتساءل متجاهلا فى قلق وخوف :

ـ عم تسالين ؟

فغاظها تجاهله لدرجة الجنون وقالت بحدة مخيفة :

ـ الا تدرى حقا عما اسال !.. هات ماعندك وكفاك خداعا !

فتنهد فى تسليم وغمغم فى خوف :

ـ تقصدين مسالة الزواج ...

فقالت فى سخرية مريرة :

ـ اظن هذا . الا تراها مسالة تستحق السؤال !؟

فقال بصوت شاك :

ـ ابى ...!

فصاحت بحدة وجسمها ينتفض غضبا وهياجا :

ـ ابى ، ابى ، ارجل انت ام امراة ؟!

فقال بذل وخنوع وتسليم :

ـ رجل ولكن كعدمه !

ـ يعنى امراة !

ـ سامحك الله . لا أسمع الا نهرا وتقريعا سواء منك او منه . ماذا أصنع ؟

ورمته بنظرة حامية وصدرها يستعر حنقا وغيظا . امرأة ، جبان ، حقير . كيف احبته ، كيف هانت عليها نفسها فسلمت له ! ان سعيها اليه ، وتعلقها اليائس به ، وحرصها الذليل على استرجاعه ، هى شر ما تسيمها الدنيا من بؤس وعذاب . وصاحت به :

ـ يا لك من شاك باك حقير . كيف سولت لك نفسك الغدر بعدما كان . كيف اخفيت عنى الأمر ؟ اجب . . .

فنفخ قائلا :

ـ مضى ابى الى هدفه على رغمى ، غير مقيم لرايى وزنا حتى وجدت نفسى بين امرين لا ثالث لهما : فاما النزول عند ارادته ، واما الموت جوعا .

ـ لماذا لا تبحث عن عمل فى غير دكان ابيك ؟

فتمتم فى نبرات يائسة :

ـ لا استطيع ، لا استطيع . .

فاحتدم الغيظ فى صدرها وقالت :

ـ يا لك من جبان حقير . الا تعرف ماذا يعنى هذا بالنسبة الى ؟! . .

فقال بلهجة تقطر اسفا وحزنا :

ـ اعرف وا اسفاه . الله وحده يعلم بحزنى واسفى . .

فالقت عليه نظرة حامية وقد اثارتها لهجته الأسيفة لحد الكراهية القاتلة وقالت بصوت مرتعش :

ـ حزين وآسف ، يا لك من مسكين ! وماذا تظننى صانعة بحزنك واسفك ؟!. ان الحزن وحده لا يصلح الخطا ، فماذا تظننى صانعة بحزنك ؟ لقد اوقعتنى فى ورطة قاتلة فلا يجوز أن تدعنى وحدى وتهرب ، الا تفهم هذا ؟

وبدا وكأن الحيرة تمسك بلسانه ، ونظر صوبها فى خوف دون

أن يحرى جوابا . واثارها صمته كما أثارها تظاهـــره ـ كانت متأكدة من هذا ـ بالأسف ، فقالت بحدة :

ـ ما عسى أن أصنع ؟!

فازدرد ريقه وقال بصوت متقطع منخفض :

ـ وا أسفاه ... انى أدرك حرج موقفك ... لشد ما يؤلمنى هذا ... ولكن ... اعنى .. ما عسى ان اصنع أنا ؟!

فقالت بحقد وهى تكظم عواطفها الثائرة :

ـ ارفض هذا الزواج . لا نجاة لى الا بهذا ..

فقال بعجلة ضاعفت حنقها :

ـ أرفضه ؟!.. فات الوقت ...

ـ يجب أن ترفضه . لم يفت الوقت بعـد . يجب ان تفكر فى .. لا نجاة لى الا بان ترفضه ...

وقال بلهجة اليائس وهو يشعر بخوف :

ـ ليس فى وسعى هذا ...

وتولاها القنوط ، ولم يوح لها الشخص الخائر الماثل امامها باقل رجاء . وصاحت بانفعال :

ـ كان فى وسعك ان تفعل ما فعلت . وكان بوسعك ان تقبل الزواج من هذه الفتاة . ولكن ليس بوسعك ان تصلح الخطأ ، ليس بوسعك ان تمد يدا لانقاذى ...

ـ ما اشد ضيقى . ان اسفى لا حد له ...

ـ ماذا يفيدنى هذا الأسف ؟

ولما وجدته صامتا صرخت فى وجهه :

ـ ما يفيدنى اسفك ؟

فغمغم :

ـ ماذا عسى ان اصنع ؟

وركبها شيطان الغضب واليأس فالتفتت نحوه ، وانقضت

عليه بسرعة البرق وامسكت بتلابيبه وهى لا تدرى ماذا تفعل ، وصاحت فى وجهه :

ــ اتسالنى عما تصنع !. هل حسبتنى لعبة تلهو بها حين تشاء وتحطمها حين تشاء ؟!

فقال وهو يحاول عبثا ان يخلص سترته من يديها :

ــ نفيسة ، اعقلى ، نحن فى شارع . . .

فصاحت به وقد فقدت وعيها :

ــ جبان ، سافل ، وغد ، غادر . . .

وسحبت يدها بسرعة وهوت بقبضتها على وجهه بقسوة جنونية ، مرة ، واخرى ، حتى رات الدم يسيل من انفه ، وجعلت تلهث وصدرها يضطرب فى عنف وعدم انتظام . وتحسس سلمان انفه بيده وبسطها امام ناظريه فى صمت ، ثم اخرج منديله من جيبه ووضعه على فمه وانفه . وبدا هادئا ساكنا على غير ما كانت تنتظر . شعر بادىء الأمر بخوف ، ثم حل محل الخوف ارتياح غريب ، كأنه جاز منطقة الخطر ، ولم يعد ثمة ما يخافه . انفرجت الأزمة ، وزال الخطر ، وسقط ما كان لها من شبه حق عليه بعد هذا الدم المسفوح ، وقال فى هدوء وصبر :

ــ سامحك الله يا نفيسة ، انا عاذرك .

وهيجها حديثه فجاة فعاودها الجنون ، وانقضت عليه مرة اخرى بدافع غريزى ، ثم أمسكت بتلابيبه كشىء يريد الافلات وتابى عليه ــ بكل قواها ــ ان يفلت . وركبه الذعر فانحل تماسكه ، ونتش سترته فجاة فخلصها من يدها وتراجع صارخا :

ــ اياك وأن تلمسينى . ابعدى عنى . ابعدى لاحق لك على . .

وهجمت عليه ولكنه دفعها فى صدرها وصاح بها فى هياج احدثه الذعر :

ــ لا تلمسينى . لم اجبرك على شىء . لقد ذهبت معى الى البيت راضية . لا تلمسينى والا ناديت الشرطى !

وواصل تراجعه حتى ابتعد عنها مسافة غير قصيرة ثم دار على عقبيه ومضى مهرولا كانه يفر فرارا ...

وتسمرت فى مكانها وجسمها ينتفض انتفاضا . فقدت سلطان الارادة على جسدها وروحها وعواطفها . وبدا لها الأمر كحلم ، او هذيان مرض ، او حال لا تمت بصلة الى عالم الحقيقة . هذا شارع وهذه شجرة وهذا مصباح وهؤلاء بعض السابلة ، اشياء هذه ام اشباح ؟! انها لا تدرى . بدا كل شىء بعيدا عن الواقع والحقيقة . ولعلها لم تثب الى وعيها الا حين انفجرت باكية بدموع حارة ملتهبة صاعدة من اعماق صدرها ...

٣٤

كان سلمان يمسح الطاولة حين راى ظل شخص ينعكس عليها فرفع راسه فراى حسن واقفا حياله . وسرت فى جسده قشعريرة رعب فكان صاعقة انقضت على راسه . وكان حسن يقف بقامته الطويلة ، منفوش الشعر ، وقد حال لون بدلته من كثرة الاستعمال ، ينبعث من عينيه نور حاد ينم عن العنف والجراة . وقال سلمان لنفسه « انى هالك . اذا كانت نفيسة قد افضت اليه بسرها فساعتى قد دنت ولا شك » ونظر اليه كما ينظر الفار الى القط دون ان ينبس . وقال حسن بصوت مرتفع رن فى اذنيه رنينا مؤلما مخيفا :

ـ السلام عليكم ...

ورد عم جابر سلمان من وراء مكتبه قائلا :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . كيف حالك يا سى حسن ؟...

وذهل سلمان فى خوف عن رد التحية وقال لنفسه « ماهذه

بتحية ، هى نذير . رباه كيف تعرضت لفتاة لها مثل هذا الأخ ؟!» .

وقال حسن :

ــ الحمد لله . لقد جئتكم لأحدثكم فى أمر هام جدا . . .

انه يعلم بهذا الأمر . وعما قليل يعلم أبوه بالفضيحة . هاهو الشيطان يقترب . لقد رفع طرف الطاولة ومرق الى الدكان . لا يفصله عن قبضة يده شبر . اية حماقة جعلته يعتدى على نفيسة ؟! ليته يمهله حتى يرفض الزواج ويصلح خطاه . ومال حسن على المكتب معتمدا حافته بكلتا يديه ، وردد بصره بين الأب والابن ، وسلمان مطرق فى توقع مروع للضربة المتجمعة .

وقال حسن :

ــ علمت ان زواج سلمان قريب ؟

فقال عم جابر :

ــ ان شاء الله . العقبى لك . . .

ــ وليلة الفرح ؟

ــ قريبة جدا ان شاء الله .

فنقر حسن باصابعه على المكتب وقال بجراة :

ــ نحن جيران ياعم جابر واحسبنى خير من يحيى هذه الليلة .!

واتسعت عينا سلمان الصغيرتين . انه لا يصدق اذنيه . . ألهذا الغرض جاء ؟! كيف غاب عنه أن نفيسة تفضل الموت نفسه على البوح بسرها لهذا الأخ الجبار ! وندت عنه ضحكة . واردفها باخرى . ثم انفجر ضاحكا ضحكا عصبيا لم يتمالك معه نفسه حتى التفت حسن وأبوه نحوه فى دهشة وانكار ، وسرعان ما أمسك . ثم خاطب حسن قائلا فى اريحية وسرور :

ــ لا كانت الليلة ان لم تحيها انت . . .

وابتسم حسن فى رضى وخاف الأب عواقب هذا الوعد الأحمق فقال :

- على العين والراس يا سى حسن . لا يمكن ان يوجد مانع من ناحيتنا ، ولكننى اخشى ان يكون لوالد العروس راى آخر ..

فرمقه حسن بريبة ثم قال :

- الراى راى والد العريس .

فقال عم جابر برقة :

- انت من نفضل يا سى حسن ، ولكن امهلنى حتى اشاور عم جبران التونى ...

فتفكر حسن مليا وقد اخذ دم الغيظ يجرى فى عروقه ، ثم قال بلهجة ذات معنى :

- شكرا لك يا عم جابر . ولكنى احب أن اذكرك بالفوائد التى تقترن باحيائى ليلة الفرح . واهم هذه الفوائد فى نظرى ان شخصا مهما بلغ من القوة والشر لن تحدثه نفسه بالاعتداء على الحفلة كما يحدث كثيرا .

فلاح الاهتمام فى وجه الرجل العجوز ، وادرك بسهولة ماوراء هذا الكلام الطيب من الوعيد ، ونظر فى وجه الشاب المخيف مبتسما وتساءل فى لين ورقة وابنه يتابعه فاغرا فاه :

- لا تخلو ليلة من حفلة فرح تمر بامن وسلام .

فضحك حسن ضحكة غريبة وقال :

- يوجد كثيرون لاهم لهم الا الشر والاعتداء ، وهم يتصيدون الأفراح عادة للنهب والاعتداء ..

فقال العجوز بحذر :

- كان هذا فى الزمن الغابر ، اما الآن فلعلهم يخافون الشرطة .

فقال حسن وهو يهز راسه مبتسما :

- انهم لا يحسبون للشرطة حسابا . وينتهون من عدوانهم عادة قبل حضور الشرطة . وما ايسر عملهم الذى يتوجه بادىء الأمر الى تحطيم المصابيح ، فاذا انقلب الفرح ظلاما وركب الخوف

النفوس اتم المدعوون عملهم وهم يتخبطون فى الظلام لا يدرون اين تقع ارجلهم ، فتنهار الزينات وتنقلب المقاعد ويندلق الطعام وتسرق الملابس ويصاب اهل العروسين بجروح خطيرة . واذا انجابت موجة الشر يجد القوم انفسهم اشد حاجة الى رجال الاسعاف منهم الى رجال الشرطة . واين الفاعل ؟.. مجهول .. واذا أرشد اليه احد عرض نفسه لخطر اكبر يحول القضية من محكمة الجنح الى محكمة الجنايات . واعطنى عقلك ما جدوى العقاب على فرض نزوله بالجانى بعد ضياع الأنفس والأموال ؟ !

وانصت عم جابر بانتباه ، وفى تشاؤم ثقيل ، وشعر بعجزه حيال الشر الماثل امامه الذى يعرف من سيرته ما يعرف الجميع . ولم يدر كيف يدفعه فتعزى قائلا انه على اية حال يحسن الغناء لدرجة لا بأس بها ، وابتسم الرجل ابتسامة باهتة وقال :

ـ مهما يكن من امر هؤلاء الأشرار فلن تسول لهم نفوسهم الاعتداء علينا وانت مطرب ليلتنا !

فابتسم حسن فى ارتياح وقال :

ـ انك رجل كريم يا عم جابر ، ولعل الايام تسعدنى باحياء فرحك انت اذا نويت الزواج مرة اخرى .

فضحك سلمان ضحكة من ينعم بلذة النجاة بعد الخطر المحقق . اما الاب فابتسم ابتسامة صفراء وغمغم :

ـ عفا الله عنك ..

وسعل حسن سعالا مصطنعا وقال بلهجة جديدة ودون تلعثم :

ـ لا احب ان اطيل عليك . آن لى ان اذهب شاكرا بعد قبض مقدم الأتعاب ..

فقال العجوز بجزع :

ـ الآن .. ؟!

ـ خير البر عاجله . لست الا مغنيا متواضعا لاتتعدى اتعابه ـ هو وتخته ـ الخمسة جنيهات ، واقنع الآن بجنيه واحد ..

وصمت الرجل متحيرا حينا . ثم قال لنفسه « الأمر لله من قبل ومن بعد » وفتح درج المكتب وتناول جنيها ووضعه على المكتب فاخذه حسن وذهب وهو يقول :

ـ ربنا يتم بالخير ...

٣٥

جاء الترام فركبت نفيسة وتبعتها على الأثر صاحبة البيت. ارادت المراة ان تصحبها الى بيت عم جبران التونى لتقدمها الى آله بنفسها وقد اخذت نفيسة زينتها وصنعت من وجهها خير ما يمكن أن يصنع منه وارتدت احسن ما عندها من الثياب . ولم يكن يغيب عن شعورها لحظة واحدة ما فى رحلتها من غرابة . وقد قالت لنفسها كثيرا انه من الجنون ان تذهب الى هذا البيت ولكنها لم تدر كيف تنبذ هذه الفرصة السعيدة التى فرحت بها امها ايما فرح . والحق الذى لا مرية فيه ان حديثها لنفسها هذا لم يعبر عن حقيقة رغباتها ، أو انه دارى هـذه الرغبات مداراة لم تخف عنها . كانت تود رؤية العروس مهما كلفها هذا من عناء ، وكانت رغبتها من القوة والتغلغل بحيث لايمكن مقاومتها . وليس يمكن القول بأنها كانت تريد ان تقيس جمالها بجمالها ، فهى تعلم بالبداهة انها ـ العروس ـ أجمل منها ، وليس فى هـذا من جديد ، ولكن على رغم وضوح هذه الحقيقة ظلت رغبتها فى رؤية الفتاة مشتعلة لا تقاوم ، وكأن رباطا وثيقا يصل اسبابها باسبابها ، ويقرن مصيرها بمصيرها . ولم تكن افاقت من اثر الصدمة العنيفة التى هرست نفسها وجسدها هرسا ، ولكن انقضاء ايام اخمد الثورة الهائجة ، فى ظاهرها على الأقل ، واحل محلها مرارة سامة ويأسا مميتا ، وشعورا معذبا بالوحشة ، كأنها غريبة بين اهلها ،

شاذة عن المخلوقات ، الى احســـاس بالظلم طاغ يعث فى نفسها رغبتين متناقضتين تناوبتاها تناوبا متواصـــلا ، رغبة فى التمرد والجموح ورغبة فى الاستزادة من الظلم والتعذيب حتى الموت ، وقد ركبت الترام وهى على هذه الحال ، وتلهفت على اللقاء القريب، وهاتان الرغبتان المتناقضـــتان تتعاورانها . وغادرتا الترام بعد محطات اربع ، واتجهتا الى شارع الوليد ، ثم مالتا الى عمارة كبيرة تقوم فى اسفلها بقالة عم جبران التونى . وصـــعدتا الى الدور الثانى ودخلتا شقة به . واستقبلتهما سيدة فى الخمسين متوسطة القامة مفرطة فى السمنة ، بيضاء البشرة ، فدخلن جميعا حجرة الاستقبال ، وما ان استقر بهم المجلس حتى قالت الست زينب صاحبة بيت نفيسة :

ــ هذه ست نفيسة ، وستشهدين لها بالمهارة والذوق .

فقالت السيدة :

ــ حدثتنا ست زينب عنك كثيرا . اهلا وسهلا ...

وآلمها الثنـــاء كانه سب وهجاء ، واغاظها واحنقها لسبب لا تدريه ، وتزعزعت ثقتها فى أعصابها ان يفلت زمامها من يدها . اما السيدة فمالت نحو باب الحجرة ونادت بصوت مرتفع «عديلة» ودق قلب نفيسة ، ورجحت انها تنادى العروس وخيل اليها انها تسمع سلمان وهو يهتف بهذا الاسم ، وخالته يضمها الى صدره، وقد أذهلته حـــرارة العاطفة وراح يقول لها بصـــوته المتهدج « عديلة .. احبك ، احبك اكثر من الدنيا والآخرة معا » ، فهذا قوله عادة اذا اذهلته حرارة الاحساس . وهو قول كاذب ، أو هكذا كان بالنسبة اليها ، والغالب أن الدنيا كذبة كبيرة . وتوجه راسها نحو الباب ، متألمة قانطة حانقـــة ، وعندما سمعت وقع اقدام آتية داخلها احساس آخر بالخوف فودت لو كان بوسعها ان تختفى ، ولعله كان احساسا عارضا سطحيا . وجاءت فتاة فى مقتبل العمر ، متوسطة القامة كامها بيضاء البشرة ، بيضاوية

الوجه ، كبيرة القسمات ولكن فى تناسق حسن ، بيد انها سمينة لحد الافراط . وتساءلت نفيسة فى نفسها كيف تصير اذن اذا تزوجت ! واضطربت فى أعماقها ضحكة ساخرة متوترة لم يتح لها التنفس . وذهب عنها الخوف العارض وشعرت باضطراب عصبى بذلت جهدا شديدا للتغلب عليه . وتم التعارف وتبادل السلام دون ان تنبس خشية ان تخونها نبرات صوتها . ولدغتها الغيرة بغتة فمزقت قلبها شر ممزق . هذه التى سلبتها رجلها ، رجلها دون غيرها بعد ما كان ، فلا توجد امرأة له امثل ما لها عليه من حقوق ، فكيف تكون هذه الجاموسة عروسة وتكون هى الخياطة التى تعد لها ثياب العروس ؟ ! . من اجل هذا تستحق الدنيا ان تكون طعمة للنيران ، ولن تكون أحمى من النيران التى تلتهم قلبها . رباه كيف تستطيع العمل بهذه الأعصاب المريضـــة ؟!. وغادرت المرأتان الحجرة تاركتين الفتاتين معا . وجاءت خادم بالأقمشة ووضعتها الى جانب نفيسة على الكنبة فوجدت فيها مهربا من افكارها وراحت تتفحصها باهتمام ظاهرى وعيناها المنكستان تسترقان النظر الى قدمى العروس . وسألتها العروس قائلة :

ـ هل سبق أن خطت ثياب عرائس ؟

ورفعت اليها عينيها فيما يشبه الدهشة كأنها لم تكن تتوقع ان توجه اليها خطابا وقالت باستهانة :

ـ كثيرا جدا . . .

ـ اظن هذا يجعل العمل يسيرا عليك .

ـ لا أجد فيه أثرا لصعوبة . .

كانت اجابتها تعبيرا عن احساس بالتمرد والثورة يتجمع فى أعماقها لم تعبأ معه بالحقيقة والواقع . وصمتت العروس هنيهة ثم عادت تسألها قائلة :

ـ هل تسكنين فى عمارة ست زينب ؟

فقالت مدفوعة بالاحساس نفسه :

- نعم . منذ أعوام طويلة . كان المرحوم ابى موظفا بوزارة المعارف . .

- اخبرتنا بهذا ست زينب . الا تعرفين ان بقالة العريس قريبة من عمارتكم ؟

ووجدت شكة دامية فى قلبها ، وخفضت عينيها ان ترى الاخرى ما ارتسم فيهما ، ثم تمتمت :

- تعنين بقالة عم جابر سلمان ؟

- هو نفسه . العريس ابنه ، الا تعرفونه ؟

« اعرفه اكثر منك !.. لن تعرفيه مثلى قبل اشهر ! .. وستجدينه حيوانا وغدا » . قالت :

- نعرفه حق المعرفة . الم تريه ؟

- قابلته هنا مرة واحدة . .

وسالتها بدافع لم تستطع مغالبته :

- هل اعجبك ؟

فضحكت ضحكة كرهتها على اثر سماعها اضعافا ، وقالت :

- كانت الحجرة مزحومة بالمدعوين ، وانت تعرفين هذا الموقف طبعا !

فقالت بلهجة باردة :

- لست اعرفه . .

فضحكت العروس قائلة :

- دعينى اسالك انت التى تعرفينه حق المعرفة ، مارايك فيه ؟

ودهمها السؤال . لم تكن تتوقعه . وانهارت القوة التى تغالب بها اعصابها . انهارت بغتة كانما انفجرت فيها قنبلة خفية . واجتاحتها موجة طاغية من التمرد والجموح والجنون ، فقالت بصوت غريب :

- ليس هو من النوع الذى يعجبنى . .

وغاضت آثار الضحكة من عينى العروس ، واتسعت عيناها

فى دهشة وانكار ، وجعلت تنظر الى نفيسة لحظة ساهمة واجمة كأنها لا تصدق اذنيها ، ثم تساءلت بغرابة :

ــ حقا ؟! ترى ما النوع الذى يعجبك ؟

فقالت ببرود دون ان تفارقها هذه الروح الجنونية :

ــ دعك من هذا . المهم ان يعجبك انت ، اليس كذلك ؟

فقالت ولما تفق من دهشتها :

ــ اظن هذا ..

ــ مبارك عليك ..

ولكن الفتاة لم تقبل ان ينتهى الحديث عند هذا الحد . افاقت من دهشتها وكبر عليها قول الأخرى فثار بها الغيظ وقالت متسائلة فى تهكم :

ــ وزبوناتك الأخريات من العرائس الم يكن ازواجهن من النوع الذى يعجبك ؟

وادركت نفيسة ما فى قولها من التهكم والتحدى فتمادت بها روح الشر التى ركبتها واندفعت قائلة وكأنها تلقى عبئا ثقيلا عن كاهلها :

ــ جميعهم جديرون بالاعجاب حقا ، فهم موظفون محترمون !

فاستنكرت العروس هذه الوقاحة التى لم تكن تتوقعها وتساءلت بغضب :

ــ الا يكون الانسان محترما الا اذا كان موظفا ؟

فقالت نفيسة بصوت مرتعش النبرات اعياها التحكم فيه :

ــ أعتقد هذا ..

فصرخت العروس قائلة :

ــ واذا كان خياطة ؟

فقالت نفيسة بحقد وغضب :

ــ لا على ان اكون خياطة . اخوتى طلبة مثقفون ، وكان ابى موظفا محترما ..

ـ حقا لا يستاهل الرحمة كل المساكين ما دام يوجد بينهم من هو فى قلة ادبك !

ـ لا يدهشنى هذا السباب من ابنة بقال ..

فهبت العروس واقفة وهى تنتفض غضبا وصاحت :

ـ يا مجرمة ، يا قليلة الأدب ، اغربى عن وجهى قبل ان ادعو الخدم ليرموك خارجا ..

ونهضت نفيسة فاقدة الوعى ، وتناولت بقجة الاقمشة وقذفتها فى وجهها فانتثرت الحرائر على كتفى العروس وتحت قدميها ، وتلوت على الأرض فى الوانها الزاهية ، ثم غادرت الحجرة مهرولة وصراخ الفتاة ينطلق وراءها هادرا باقذع انواع السباب ، وتركت الشقة فى لهوجة الفرار . وتراخت اعصابها المتوترة ودخلها ارتياح غريب . وكاد يغلبها الضحك ولكن هذا لم يدم طويلا فسرعان ما انقلبت واجمة متفكرة وبدا لها سلوكها على حقيقته . « ما هذا الذى فعلت ؟ . سيقولون كل شىء لست زينب وستقول هذه بدورها كل شىء لأمى . لا بد ان تغضب أمى ، وستحزن كثيرا على الربح الذى اضعت بحماقتى . ولكننى اقول لها ان العروس خاطبتنى بعجرفة ، واهانتنى بلا سبب حتى ثرت لكرامتى . واذا لم تقبل عذرى ابث شكواى بصوت مرتفع ليبلغ مسمعى حسنين فيغضب لغضبى ويثور لكرامتنا وينتهى كل شىء . هذا حسن . ولكن كيف اندفعت الى هذا !. اى جنون !. لم يكن فى نيتى شىء من هذا فكيف حدث ؟ . وضاع عمل مربح . ولكن لا داعى للأسف . لدى عمل لا باس به فى هذا الشارع نفسه . لست آسفة على ما وقع » . وانتهت الى شارع شبرا ولم يعد يرى من شعاع الشمس الا اثر خفيف فى اعلى الدور . وسارت على الطوار فى اتجاه المحطة فمرت فى طريقها بجراج لاصلاح السيارات ، وكانت غائبة عما حولها فى تيار افكارها ، فما تدرى الا وشخص يعترض سبيلها وهو يقول

« أهلا وسهلا » ورفعت راسها فرات شابا ذا بنطلون وقميص خاكيين ، مشمرا عن ساعديه ، يدل مظهره على انه من عمال الجراج ، فالقت عليه نظرة شذراء وتنحت عن موقفه ، ولكنه اعترض سبيلها مرة اخرى وقال :

ـ حلمك يا ست هانم ، انظرى الى يسارك ، هذه السيارة ملك العبد لله . وهى على قدمها تستطيع أن تحملنا الى اى مكان شئت ، محسبوك محمد الفل صاحب هذا الجراج ولا فخر !

فصاحت به :

ـ ابعد والا ناديت العسكرى . .

فضحك الشاب وقال :

ـ لا داعى لذلك . انا احب النسوان ولا احب العساكر . .

٣٦

فى الأسابيع التالية ادى الشقيقان امتحان النقل فى ختام العام الدراسى ، وكلل اجتهادهما بالنجاح فانتقل حسين الى السنة الخامسة ، وحسنين الى السنة الرابعة . كانا يعلمان انه لابد لهما من النجاح ، وان حال الأسرة لم يعد يحتمل العثرات ، فواصلا العمل بعزيمة صادقة وجاءت النتيجة كما يحبان . وبدات العطلة الصيفية التى تمتد حوالى الخمسة الأشهر فاستجدت متاعب جديدة للأم تتعلق بغداء الشابين . وكانت الأم وابنتها تقنعان عادة بأبسط الطعام ، وتعتمدان فى الغالب على ما تجلبان من السوق من طعام جاهز اقتصادا لنفقات اللحم والسمن والوقود ، فوجدت المراة نفسها مضطرة الى تعديل هذا النظام القاسى مهما كلفها الأمر من عناء وتدبير . وهكذا لم يسر احد بالنجاح الا قليلا ، وبدت الحياة وكانها تزداد مع الأيام تجهما وتطالعهم بعبوس بعد

عبوس . وفى ذات مساء جاء حسن بعد انقطاع دام ثلاثة أسابيع متواصلة ، واقبل على أسرته ضاحكا كعادته ، وكثيرا ما يدارى بضحكه حرجه وارتباكه ، وقال :

ـ مساء الخير يا امى ، مساء الخير يا أولاد . اوحشتمونى كثيرا . .

ورد اخوته التحية وهم يرمقونه بدهشة ، اما امه فلبثت تنظر فيما بين يديها معلنة على سخطها بالصمت والتجاهل . بيد انها عدلت عما كانت تلقاه به من التعنيف والحساب او الحث على العمل . هيهات ان يجدى الكلام بعد ما كان . والح عليها الحزن الذى يغشى نفسها كلما فكرت فى امره او وقعت عليه عيناها . حتى السؤال عن غيابه الطويل لم يخطر لها على بال ، وانها لتعلم سلفا بما اعد ـ طبعا ـ من جواب ، سيقول بصوت مؤثر انه يختفى حتى يوفر عليها نفقة اطعامه وايوائه ، وانه لا ينى عن البحث عن عمل الخ . اما اخوته فالحق انهم سروا برؤيته بعد اختفائه الطويل . كانوا يحبونه كما كان يحبهم ، وسألته نفيسة :

ـ حمدا لله على السلامة ، اين كنت طوال هذه الأسابيع ؟

وخلع الشاب سترته وطرحها على المكتب ، ثم جلس على الفراش وقال باسما :

ـ اكل العيش يحب التعب ! (ثم ملتفتا الى امه) . . ابشرى يا ست ام حسن . اخذت تفرج !

فرفعت الأم راسها ونظرت صوبه بريبة واهتمام معا ، ثم تمتمت فى شىء من الأمل :

ـ حقا ؟ !

فضحك سرورا باثارته لاهتمامها بعدما لاقى من تجاهلها وقال :

ـ سبق ان اخبرتكم بان الأستاذ على صبرى ضمنى الى تخته . .

فتنهدت الأم فى جزع وقالت :

ـ لا اعتقد ان هذا عمل جدى . .

ـ لقد دعى الأستاذ منذ اسبوع الى احياء ليلة فرح ببولاق وذهبت معه لقاء ريال غير العشاء طبعا . انى أعلم انه مبلغ تافه ولكن الرزق دابه التمنع بادىء الأمر . . .

فقالت الأم فى ضيق :

ـ اتوسل اليك للمرة الألف ان تبحث لك عن عمل جدى لخير نفسك ان لم يكن لخيرنا نحن . ما عسى ان اقول يا حسن ؟ الا تعلم باننا لا نكاد نشبع ابدا ؟

وخفض عينيه فى ارتباك . كان حب اسرته العاطفة الشريفة الوحيدة التى يخفق بها قلبه ، ولعلها الأثر الوحيد الذى تركته امه فى خلقه . وغمغم قائلا :

ـ صبرك ، لم افرغ من كلامى بعد . .

وهنا قاطعه حسنين قائلا :

ـ اتظن ان على صبرى هذا يمكن ان يكون يوما مغنيا حقا ؟ !

فرفع حسن حاجبيه الكثيفين فى انكار ، واراد ان يزيل اثر حديث امه فقال فى مرح :

ـ سفخس على هذا البلد الذى لا يقدر ! الأستاذ على صبرى فنان كبير . ان « يا ليل » منه شفاء ودواء . هل سمعته وهو ينتقل من البياتى الى الحجاز ثم يعود الى البياتى ؟ لم يفعل هذا الا الحمولى ، وسلامة حجازى مرة أو مرتين . اما محمد عبد الوهاب فاذا خرج من البياتى فقل أن يعود اليه الا فى حفلة تالية . وليس يعيبه انه أحيا ليلة بجنيهات معدودات فلا يزال فى أول الطريق ، والتاريخ يحدثنا بأن من كبار الفنانين من احيا اولى لياليه لقاء بضعة ارغفة . . !!

وضحك اخوته لهذره اما الأم فتنهدت قائلة :

ـ سلمت أمرك لله !

فالقى عليها نظرة من عل وقال :

- لندع حديث الفن جانبا . المهم ان تعلمى انى سأحيى حفلة عرس غدا ..

- فى تخت على صبرى ؟

- وحدى ! . سأحييها بنفسى !

ونظرت الأم نحوه بانكار ، وسألته نفيسة :

- اصبحت مطربا حقا ؟

- يحدث احيانا ان يختار احد أفراد التخت من المشهود لهم لاحياء حفلة كمطرب . خطوة لها ما بعدها ... !

وسألته امه بلهجة لا تخلو من تهكم :

- ومن الذى دعاك لاحياء ليلته ؟ !

- عم جابر سلمان لاحياء ليلة زفاف ابنه سلمان .

وخفضت نفيسة عينيها وقد خبا حماسها ، وران على نفسها كدر خانق ...

ودهشت الأم وخاطبت حسن متسائلة وهى تومىء الى نفيسة :

- بعد ما حدث ؟ !

فضحك حسن قائلا :

- تم الاتفاق بيننا قبل معركة ست نفيسة فى بيت العروس ، ولم يجرؤ الرجل على خرقه !

وساد الصمت قليلا والأعين تحدق فيه فى غير تصديق ، كان فى صوته حلاوة ولكن ليس للدرجة التى تجعل منه مطربا . واخيرا سألته امه فى حيرة :

- احقا ما تقول ؟

- نعم ورحمة أبى ...

- اجر ؟ !

- خمسة جنيهات ، لك منها جنيه كامل .

وسكت حتى يتغلغل اثر كلامه فى النفوس ثم ردد عينيه بين شقيقيه وتساءل :

- ما رايكما فى ان تعملا معى سنيدين فى التخت وكلاكما ذو صوت لا باس به ؟!

وانفجر الشقيقان ضاحكين ، وواصلا ضحكهما ، حتى قال :

- يا لكما من غبيين . هذه فرصة نادرة للاشتراك فى البوفيه الحافل بما لذ وطاب من المآكل والمشارب .

ولم يكف الشابان عن الضحك فى استهزاء ، ولكن تمثل لعينيهما منظر المائدة وقد صفت عليها الأطباق ، وراح خيالهما يثب من طبق الى طبق ، فى عجلة ، وبلا رحمة ، حتى صاحت به نفيسة بحدة وغيظ :

- اتريد ان تجعل من شقيقيك متسولين فى بيوت البقالين ؟

فقهقه الشاب قائلا لأخته :

- انى أدرك سر تغيظك يا ست نفيسة فان اعتداءك على العروس حرمك حق الدعوة الى هذه الليلة ، ولكن ما ذنب هذين المسكينين ؟! ليس الامر لهوا ولعبا ولكن طيورا ولحوما وفطائر وخضرا وفاكهة وحلوى ... ففكرا ثم فكرا ...

ولم يجد لدعوته من صدى فهز منكبيه استهانة ولم يعد الكرة . كان حسن النية واراد لأخويه خيرا ولكن حماقتهما ضيعت عليهما هذا الخير ، هكذا قال لنفسه فى اسف . ولم يشاركه الشقيقان اسفه ولكن نفسيهما اهتزتا فى حنان لذكر الطيور واللحوم والفطائر والخضر والفواكه والحلوى . ونشط خيالهما فى حسرة والم زاد من شدتهما اقتراب وقت العشاء الذى يندر ان تعترف به أمهما . لم يكن للأسرة عشاء عادة ، وكانوا يتحامون ان يجهروا بالجوع أن يضاعفوا من تعاسة أمهم وسخطها ، فلاذ الشابان بالتخيل دون ان ينبس احدهما بكلمة ، على حين عكفت نفيسة على افكارها ، وهى ابعد ما تكون عن لذة الطعام ، ولذة الحياة عامة . ردها حديث حسن الى اشجانها ويأسها ومخاوفها ، وتساءلت فى دهشة أحقا يحيى حسن - شقيقها - ليلة الزفاف .. ؟!

٣٧

وحوالى التاسعة من صباح اليوم التالى لليـلة الزفاف كان حسن يسير فى ميدان الخازندار متجها الى كلوت بك حيث دعاه الأستاذ على صبرى الى مقابلته . وكان متعبا عقب سهرة الأمس التى لا زالت ذكرياتها تدور برأسه . كانت ليلة . وكان جريئـا ليس كمثل جراته شىء . وقد شق طريقه فى السرادق الذى اقيم على سطح بيت عم جابر سلمان بقدمين ثابتتين حتى بلغ المنصة بين ايد تصفق وحناجر تهتف للمغنى الجديد ، ورد تحياتهم برزانة وجلس وسط تخته المكون من عواد وقانونجى وكمانجى عملوا معه كعازفين وسنيدة معا . ثم غنى « قد ما احبك زعلان منك » وما لبث أن لمس بنفسه الفتور الذى استحوذ على الجميع ، ولكنه واصل الغناء دون مبالاة ، واكثر من الشراب . وعند بدء الوصلة الثانية تصايح كثيرون يطلبون « فى الليل لما خلى » ولم يكن يحفظها فغنى « بستان جمالك » وسرعان ما انقطعت الأسباب بين المدعوين والمطرب ، هذا يذبح صوته بغناء لا غنـاء فيه واولئك يشربون ويضحكون ثم بلغ الحرج غايته حين وقف سـكران مترنحا وقال بلسـان ثقيل موجها خطابه للمطرب :

ــ والله لو لم تكن فتوة لقلت لك اسكت . . .

وعرفه حسن ، كان حدادا فى اول عطفة نصر الله ، وتوعده شرا ولكنه واصل غناءه « والله زمان ، زمان والله ، والله زمان ، زمان والله » . ذكر هذا ضاحكا وهو يحث خطـاه ثم قال لنفسـه : « ما كان كان . ولا داعى للأسف ما دمت قد انتزعت الخمسة جنيهات » . وليس هذا فحسب ، وهل يمكن أن ينسى البوفيه ؟ ، لشد ما ابلى فيه بلاء حسنا وقد بلغ القمة حين ازدرد حمـامة

بعظامها . لم يكن اكلا ولكن كان التهاما وخطفا وسلبا وعراكا ، وبلغت المعركة ذروتها حين فرغت صحيفة اللحم البقرى فما كان منه الا ان قبض على يد المدعو الذى يليه واستصفى ما فيها من شرائح . اما حسن الختام فكان عقب انتهاء الحفلة وقد التف حوله افراد التخت يطالبونه بأجورهم فقال لهم ببساطة :

ـ اليس حسبكم ما التهمتم من طعام ؟!

ـ والأجرة ؟!

فقال بوحشية :

ـ خذوها بالقوة ان استطعتم !

وانفصلوا عنه ساخطين غاضبين يائسين . شيء واحد اسف له اشد الأسف هو ان اسرته لم تشاركه طعامه الشهى ، امه ونفيسة وحسين وحسنين . وكان بوده ان يعطى امه فوق ما اعطى ولكن تشرده الطويل علمه الحرص . على الأقل ما دامت هذه الحال . وها هو يقصد كلوت بك ، بل درب طياب بالذات حيث ينتظره على صبرى الذى مناه بضروب من العيش توافق مزاجه وتلهب حماسه . وكان على صبرى قد اخبره بانه ينتظره فى قهوة وسط الدرب امام بيت زينب الخنفاء ، فارتقى السلم المفضى الى الدرب وحث خطاه بين بيوت مغلقة لم تستيقظ بعد . وجد الدرب كالمقفر حتى المقاهى الصغيرة كان عمالها ينفضون عنها رماد سهرة الأمس . وبلغ وسط الدرب وراى الأستاذ على صبرى جالسا امام باب القهوة فاتجه اليه وسلم وجلس على كرسى الى جانبه . لم تعد قهوة كما كانت يوما ما ، ولكنها باتت مشروع قهوة جديدة اذا صدق ظنه ، فبعض العمال يعكفون على تبييض الجدران واعدادها للحال الجديدة . قال على صبرى مزهوا :

ـ هنا حيث ترانى جالسا سنبدا حياة جديدة . . .

فتولت حسن الدهشة لانه لم يكن سمع عن هذا المشروع على كثرة ما سمع عن مشاريعه وتساءل :

- والتخت والأفراح ؟

فبصق الأستاذ بصقة أصابت جدران بيت زينب الخنفاء أمامهما - وكان لا يزال مغلقا - ثم قال :

- سيعمل التخت فى هذه القهوة . اما الأفراح فربنا يجعلها مآتم . انتهى زمان الأفراح ، ولا نسمع الآن الا عن « حفل عائلى اقتصر على آل العروسين » والراديو احتكرته ام كلثوم وعبد الوهاب وشرذمة من المطربين المختصين بالنشاز ، وهيهات أن يكون لنا عيش فى هذا البلد . . .

فقال حسن متظاهرا بالاستياء :

- صدقت يا أستاذ (وسكت لحظة ثم تساءل) ولكن ماذا يفعل التخت هنا ؟

فمد الأستاذ ساقيه فبلغتا منتصف الطريق الضيق وقال مشيرا الى القهوة التى يعدها العمال :

- اليك قهوة بالنهار ، وحانة بالليل وسيرقص فيها نسوان الست زينب الخنفاء - وهى على فكرة شريكتى - وبين ساعة وأخرى اغنى ، مجال العمل واسع ، والرزق مضمون . ولكن عليك بحفظ أغانى عبد الوهاب يا حلو . .

- لا أكاد احفظ منها شيئا !

- لا بد مما ليس منه بد . وطقاطيق ام كلثوم أيضا ، هذا حكم الزمان !

فقال حسن ضاحكا :

- ربنا معنا .

فقال على صبرى باطمئنان :

- انى متفائل خيرا . هذا المكان مبارك ، وهو اصل ثروة محمد العربى نفسه .

وتساءل حسن من أين للأستاذ الثروة التى يبدأ بها هذه الحياة الجديدة ؟ . . زينب الخنفاء ؟ ! . . هى فوق الأربعين على احسن

الفروض ، وليس بها من جمال فيما عدا جسمها البقرى ، ولكنها لقية وذات ساعدين مثقلتين بالذهب . لا داعى للحسد ما دام سيحظى بنصيبه من هذه الثروة . فرجت ، ولعل ليالى التسكع والجوع قد غارت الى غير رجعة . ثم سمع الأستاذ يقول :

— ولكن عملك كسنيد ثانوى بالقياس الى ما ينتظر منك !.

— وماذا ينتظر منى ؟

القى سؤاله بثقة وزهو كأنه عالم حقا بما ينتظر منه ، فقال الأستاذ :

— انك ادرى الناس بهذه الأحياء ، ففى كل متر مربع بلطجى او برمجى او سكير عربيد فمن لهؤلاء ؟ .. انت ! وهناك المخدرات وتجارتها فن هائل يتطلب مهارة وقوة وجراة فمن لها ؟ .. انت !

وابتسم حسن ابتسامة عريضة ، ظلت مرتسمة على شفتيه طويلا . وداخله سرور وحماس وفخار . هذه هى الحياة حقا ، حياة تدب تحت مهاوى النبابيت ومساقط الكراسى وفى دهاليز الفرز ، حيث السماء ذهب والأرض أشواك والطريق مسارب شتى يفضى بعضها الى اللذة والعزة وبعضها الى السجن والموت .. فهاهنا وطنه ومراحه ، وما هو بالغريب فى هذا الدرب المتعرج المتلاطم الشرفات ، حيث تختلط آهات الدلال بعواء العربدة ، وأريج البخور بعرف الخمور ، وسباب المتعاركين بقىء المخمورين ، الى غناء وعزف وقصف . بوسعه ان يقضى بين احضانه اعمارا دون ملل ، ياكل ويشرب ويربح ويسكر ويحشش ويغنى .. واشرق وجهه بنور الأمل والقى على ما حوله نظرة . كان السكون يتبدد تحت وقع اقدام القادمين ، فهذه ضحكات ممطوطة ، وأرداف متأرجحة ، ونظرات فاجرة عارمة . وفتحت الأبواب ، واحرق البخور ، وصفت المقاعد ، وطقطقت ضحكة ولعلعت اخرى .. صباح الخير ..

٣٨

قال حسنين بتأثر :

ــ شكرا للصيف !

فتساءلت فى حياء وهى تدرى ما يعنى :

ــ لماذا تشكر الصيف ؟

ــ لأنه جردك من معطفك السميك فتبديت فى فستان يجلو محاسنك ومفاتنك ..

فتورد وجهها ، وقطبت تدارى لمعة السرور الذى يبعثها الثناء ، وقالت :

ــ الم انهك عن هذا ؟ ! .. لا تفتأ تتمادى فيما يضايقنى ..

واصغى اليها وعلى شفتيه ابتسامة حائرة ، وعيناه تلتهمان جسمها البض بارتياح . فستان مؤدب محتشم ولكنه على تحفظه يكشف عن الساعدين وأسفل الساقين والعنق الرقيق الشفاف ، ويشى بقسمات الجسم اللدن المدملج . ثم علق بصره بالمشربية الدقيقة المكورة فوق الصدر صورتها الخياطة حقا لثديين ناهدين تكادان لشدة نهوضهما تطيران لولا ما يمسكهما من صدر أبيض صاف ، تخيل انه يدغدغهما بأنامله فانبعثت فى جسده قشعريرة الرغبة ، وتخيل انه يشد عليهما وانهما يقاومان الشد بصلابتهما فازدرد ريقه فى ظما . ولكنها لا تريد ولا تتسامح وتصر على عنادها بغير هوادة . وكان يظنها تلين مع الزمن ولكن لم يعد ثمة امل وقال بحزن :

ــ بهية ، انك تتكلمين بقسوة شان من لم يذق قلبه الحب ..

ولاحت فى عينيها نظرة اعتراض وقالت :

ــ انى انكر الحب الذى تريد ، وانك تسىء فهمى عمدا ..

- ولكن الحب واحد لا يتجزأ ..

فقالت باصرار وحدة :

- كلا ، كلا ، لا اوافقك على هذا الراى ..

فتنهد فى قهر والقى بنظره الى الأفق البعيد . كانت الشمس قد توارت مخلفة وراءها هالة حمراء مترامية ، اقصاها حمرة دامية ، تخف عند الوسط كانها تقطر من ورد مصفى ، ثم تشحب عند اطرافها الدانية حتى تبتلعها زرقة عميقة صافية تنمنمها هنا وهناك سحائب رقاق كتنهدات وانية . وارتد بصره الى وجهها وقال برجاء :

- انى احبك ، وانى خطيبك ، وما اريد الا ان يحظى حبنا بحقه من الحياة البريئة ..

فتجلت فى عينيها الحيرة . وبدت حينا وكانها تتعذب ، ثم قالت :

- لا استطيع ولا اريد ..

فابتسم ابتسامة لا معنى لها وقال :

- انك تدفعينني الى احضان وحشة غريبة لا اطيقها . انى اتحرق الى أن اطبع قبلة على شفتيك وان اضمك الى قلبى . هذا حقى ، وحق حبنا ..

- كلا ، كلا انك تخيفنى .

- الا تحبينني ؟

- لا تسال عما تعلم ..

- انى اعجب الا تودين حقا ان تنطبع شفتاى على شفتيك ؟

فنفخت فى غيظ قائلة :

- يسرك بلا شك أن تغيظنى !

- وان تستنيمى الى دقات قلبى وذراعاى تشدان على خاصرتك ؟

فأعرضت عنه عابسة ، فقال فى ضيق :

- اذا لم يكن هذا هو الحب فما هو ؟

ففمغمت فى توسل :

ـ كما كنا طوال العهد الماضى ..

ـ لقاء وحديث واحتراق ؟!

ـ لقاء وحديث فحسب .

ـ تكذبين على نفسك .

ـ سامحك الله .

ـ او تحبين بلا قلب !

ـ سامحك الله .

فضرب الأرض مغيظا محنقا وجعل يذهب ويجىء امامها فى حيرة وعبوس ، فبدا فى وجهها القلق وقالت :

ـ اعتقدت انك تناسيت طلباتك المزعجة وطبت نفسا بحياتنا الوديعة اللطيفة فما الذى ينزع بك اليوم الى الحاحك المخيف القديم ؟ . كن طفلا مهذبا وامسك عن الالحاح والطمع . الحب الحقيقى لا يعرف هذا العبث ..

فهز راسه فى قهر ويأس وعجب . وما ادراها بالحب الحقيقى ؟! اى لغز ؟ ! اتحبه حقا ؟ لا يسعه ان يشك فى هذا ، ولكنه حب لا يفهمه ، او انه لا يستطيع فهمها هى . يا لها من شابة رزينة هادئة . عينان زرقاوان صافيتان ، ليس فيهما ذرة من شيطنة او خفة ، ولا حرارة ، باردتان . ومن عجب ان يكون هذا الجسم الفتان لصاحبة هاتين العينين الهادئتين الباردتين . ان نار الحب لا تروى بالماء ولكن بنار مثلها او اشد منها . وهكذا يمضى اليوم كما مضى الأمس وكما يمضى الغد ، بلا أمل . وكثيرا ما يبدو له أن حديث الحب يزعجها ويقلقها ، وانها لاتسترد طمانينتها حتى يثوبا الى الصمت ، او الى حديث آمالهما البعيدة ، وهى لا تمل الحديث عن هذه الآمال ، وبه تنسى نفسها والزمان والمكان ، فتشع عيناها نورا بهيجا ، وتتدفق فى اطرافها حيوية جديدة . وفى هذه الساعة يحبها بجامع قلبه بيد انه حب لا يخلو من كدر ، أو من غيظ وحنق فى بعض الأحيان ، وينقلب متسائلا لماذا لا ينشرح

صدرها أيضا بالحب نفسه ؟ لماذا تخافه وتجفل من ذكره واشاراته ؟ والام يبقى هذا الحجاب قائما بينه وبينها ؟ . وتفرس في وجهها طويلا فيما يشبه الحنق ثم تساءل :

ـ هل اكابد هذا الحرمان الى الأبد ؟

وابتسمت ـ على رغمها ـ وقد زادت الابتسامة من حقده ـ وقالت :

ـ ليس الى الأبد . . !

وشعر برجفة في قلبه ، ورنا اليها لا يحول عنها عينيه ثم قال باقتضاب :

ـ الزواج ؟ !

فخفضت عينيها حتى لم يعد يرى الا جفنين مسدلين وخدين موردين ، وحينذاك شبت بنفسه رغبة في الانتقام والايذاء ولو باللسان فقال :

ـ واذا تم الزواج بذلت لى ما تتمنعين عنه بنفس راضية اليس كذلك ؟ تهبيننى شفتيك وصدرك وجسدك وتنزعين عنك ثوبك فتبدين عارية كالبللور . .

ولكنها كانت قد غادرته كأنها تفر وحثت خطاها نحو باب السطح . وكانت الكلمات تقذف من فيه بحرارة وحنق وتشف .

٣٩

أصبحت قهوة على صبرى ملهى صغيرا بما تحفل به من غناء ورقص وخمر ، وقد ركبت على هامتها لافتة كبيرة سطر عليها بالخط العريض « على صبرى » . واقيمت في نهايتها من الداخل منصة للتخت ، ونضدت الموائد والكراسى على الجانبين وبحذاء مدخلها . وكان الأستاذ على صبرى قد انتهى من الوصلة الأولى .

وآنس الجلوس بكئوسهم وسمرهم ، حين جاء زنجي - طويل رشيق مفتول العضلات يتطاير الشرر من عينيه - فوقف على عتبة القهوة وصاح بصوت وقح مرتفع :

- اين صاحب القهوة ؟

فجاءه الأستاذ على صبرى مداريا دهشته بابتسامة باهتة وتساءل :

- افندم ؟

فقال الزنجي بتحد :

- سمعت ان لديك اقذر خمر توجد فى هذه الناحية ، ولما كانت الخمر الجيدة لم تعد تؤثر فى . فقد قصدتك لأسكر .. !

وأزاحه عن سبيله بحركة غليظة واتجه صوب مائدة يجلس اليها نفر من الأفندية فالقى عليهم نظرة وحشية وقال بلهجة آمرة :

- اخلوا هذه المائدة !

ولم يسع الأفندية الا ان نهضوا صامتين وغادروا القهوة ، فجلس الزنجي على كرسى وطرح ساقيه على كرسى آخر وهو يتفرس فى الوجوه بتحد وقحة . واقترب صبى القهوة من الأستاذ على صبرى وهمس فى اذنه قائلا :

- محروس الزنجي ، فتوة رهيب يعرفه الحى كله ..

فساله الأستاذ بقلق :

- ترى هل يمكث طويلا ؟

- انه يرتاد ما يشاء من القهوات فياكل ويشرب دون أن يجرؤ احد على مطالبته بثمن شىء مما يلتهمه ، ولعله جاء ليعرفك بنفسه ، او لعل ..

وتردد الغلام قليلا فحثه الأستاذ قائلا :

- تكلم ..

- لعل احد اصحاب المقاهى فى الدرب اتفق معه على تخريب قهوتنا ! ..

واختلس على صبرى نظرة من الزنجى فرآه كالنـائم ، آمنا مطمئنا كانه فى بيتـه ، وقد اخلى الزبائن الموائد القريبـة منه ، فانقبض قلبه خوفا واشفاقا ، ثم تراجع فى سكون الى منصـة التخت حيث يجلس حسن مع بقية الافراد ، واوما اليه ثم انتحى به وراء المقصف ، وأسر اليه ما قال الفلام ثم سأله :

ـ الا يحسن بنا ان نستدعى المعلمة زينب الخنفاء لتعالج هذه المصيبة بحكمتها ؟

فقال حسن وهو يتفحص عن بعد الزنجى محروس :

ـ لا اوافق على ان نسـتفيث بامراة . لن تجـدى هـذه السياسة فى هذا الدرب ، دع الأمر لى . .

ـ يقولون انه فتوة شديد الباس .

فابتسم حسن قائلا :

ـ هذا ما يقال عنى ايضا ولكن اهل الدرب لا يعلمون ، دع الأمر لى . .

وخطر له خاطر فقال لنفسه ساخرا « ليست أمى وحدها التى تكابد من حياتها المر فى سبيل العيش ! » ثم قال للأستاذ :

ـ ستكون معركة شديدة ، ولكن هيهات أن يكون لنا عيش هنا بلا معركة ظافرة !

ـ واذا لم تكن ظافرة !

ـ اعتمد على الله وعلى . .

لن يفر من المعركة مهما تكن النتيجة ، وهل من سبيل الى رفع مكانته عند الأستاذ وفى الحى كله اذا تفادى من هـذه المعركة ؟ . ولعل على صبرى على حق فى تخوفه ، فالقهوة قهوته والمال ماله ، ولكن مستقبله هو يتوقف على نتيجة هذه المعركة ، وفى سبيل هذا فليذهب على صبرى نفسه الى الجحيم . ولا ينبغى ان ينسى الى هذا كله فتيات زينب الخنفاء فما من سـبيل اليهن الا بنصر ان آجلا أو عاجلا ، فحظه فى الحياة ، وربما حظ أسرته المنهارة ـ

خطرت له هذه الخاطرة كالمعنى المتداعى - يتوقفان على خوض المعركة .

وتحرك الزنجى محروس وهو يتمطى ويتجشأ ثم صاح بوحشية:

- اين الكونياك القذر الذى حدثونا عنه كثيرا ؟!

وغادر حسن موقفه فى ثبات وهدوء واقترب من الزنجى بخطو وئيد حتى وقف إمامه ، ثم قال بهدوء :

- سلام عليكم !

فرفع الزنجى عينيه الملتهبتين صوبه فى تكبر ، وتفحص جسمه الصلب وعينيه البراقتين بريبة وشر ، ثم عبس فى حنق فاستحال وجهه هيئة غير آدمية وصاح به :

- وعليك وعلى أمك اللعنة ، ماذا تريد ؟

وحافظ حسن على هدوئه الظاهرى ، وقال بنبرات واضحة :

- سمعتك تهتف طالبا كونياك فرايت من واجبى ان اخبرك بان الدفع هنا مقدم ...

فسحب محروس ساقيه من الكرسى امامه واغرق فى ضحك طويل مفتعل وهو يضرب على ركبته من شدة الانفعال ، ثم اخذ يهدىء من انفعاله حتى ذهب عنه الضحك ، ورمى ببصر هازىء الى الشاب ، وتساءل ساخرا :

- حامى القهوة ؟ .. هه ؟

فقال حسن بهدوء :

- واحب ان اقول لك ايضا ان هذه المعاملة خاصة بالزبائن غير المحترمين ...

ومرت ثوان ، وفى اثنائها كان الزبائن القريبون يتدافعون الى خارج القهوة ، وامتلأ الطريق فيمايلى مدخل القهوة بالمارة والنسوة من كل لون وسن ، على حين نشط عمال المقصف الى اخفاء القوارير وما يخافون عليه التلف من الاكواب والآلات الموسيقية وغيرها .

وجمد محروس وعلى شفتيه الغليظتين بسمة هازئة ، ثم دفع قدمه

بغتة بقوة فاصابت ساق حسن اليسرى فمال مترنحا الى الوراء.
كان يراقبه بيقظة وحذر بيد انه ركز انتباهه فى يديه متوقعا ان يقذفه بشيء او يشهر عليه خنجرا فلم يتنبه الى قذيفة قدمه حتى كانت منقضة عليه ، فانكمش متماسكا ، وتفادى بهذا من السقوط ، ولكنه مال الى الوراء مترنحا وهو يعض على نواجذه ليتغلب على الألم الذى بعث جنون الغضب فى دمه . ولم يدعه الزنجى ثانية واحدة فوثب عليه كمن يثب الى الماء ، وخاف حسن ان يؤخذ فريسة سهلة فامسك عن مقاومة الميل الى الوراء وقفز الى الخلف بسرعة عجيبة فاصطدم بجدار القهوة زائغا من خصمه الجبار .
ولم يسمح له الزنجى بثانية يتمالك فيها توازنه فانقض عليه موجها ضربة الى بطنه فحال الآخر دونها بيديه ، ولكنها كانت ضربة خادعة قصد بها محروس ان يكشف خصمه عن عنقه ، وبسرعة البرق قبض بيدين حديديتين على رقبته وضغط بوحشية ليكتم انفاسه.
وبدا للجميع ان المعركة فى حكم المنتهية ، ودارت الأرض بعلى صبرى . وابيضت وجوه رجال التخت والعمال ، وتبادلوا نظرات زائغة لاتخلو من دعوة الى العمل ، ولكن احدا منهم لم يحرك ساكنا ، اما الفتيات فشرعن فى الصوات استقبالا للجثة التى ستقع .
وتأكد حسن بعد تمكن خصمه من عنقه – وفى بدء غيبوبة – بانه لا قبل له بفك الحصار القاتل ، وانه مائت لامحالة اذا توانى ، فعض على نواجذه وشد على عضلات رقبته ليركز فيها قوته ، ثم ثنى ساقه اليمنى وطعن اسفل بطن خصمه بركبته بكل ما تبقى فيه من قوة . وشعر فى اللحظة التالية بتراخى قبضة الزنجى حول رقبته فاستطاع ان يتنفس وهو يرتجف حقدا وحنقا ، ثم ثناها بطعنة اخرى ، وحدث هذا كله فى نصف الدقيقة الأولى لمحاولة كتم انفاسه ، وانفك الحصار ، وتراجع محروس بوجه تنعقد فى عبوسته الضغينة وعينين تغشى نظرتهما الحمراء سحابة ذهول قاتمة . ولم يضع حسن وقتا مطمئنا الى سيطرته على الموقف

فانقض على خصمه الذى بذل مجهودا جبارا للتغلب على المه ونطحه بجبهته بقوة خارقة فى راسه ، مرة اخرى ، فكان لاصطدامهما طقطقة تقشعر لها الابدان ، دون ان يثنيه عن هدفه ما كال له الآخر من لكمات مزلزلة . وتفجر الدم من راس محروس وسال على وجهه كانه لهب ينبعث من قطران ، وبدا وكانه يترنح من دوار ، وتغلب حسن على آلام ساقه وعنقه وصدره ووجه لعنق خصمه المكشوف ضربة من حافة كفه - كالسكين - فشهق الزنجى وسقط على الارض غائبا عن الوجود . وقف حسن عند راس خصمه وصدره يعلو وينخفض ، تهزه نشوة الظفر ، وتهرس عظامه آلام قاسية اخذ صراخها الباطنى يتعالى بعد زوال الخطر . ولعله لو غابت الأعين لارتضى ان يرتمى الى جانب خصمه ولكن اقام ظهره الأبصار المتطلعة اليه فتجلد وتماسك ، وانثال على اذنيه صراخ وغوغاء وضجيج ، وشعر بحركة غريبة تسرى فى القهوة كلها ، ثم احس بيد توضع على كتفه ورای الأستاذ على صبرى يبتسم اليه بوجه تعلوه صفرة الموت ، وسمعه يهمس فى اذنه :

- تعال معى اقدم لك كاسا من الكونياك . .

فسار معه دون ان ينبس ، وجلس على كرسيه على منصة التخت وجاءه الرجل بكاس مترعة فتجرعها ، وطلب اخرى فاحضرها له ، ثم قال باشفاق :

- لشد ما تعبت !

فغمغم حسن بثقة :

- كانت معركة لا بد منها .

وجاء النادل يقول ضاحكا :

- أطلق الناس عليك لقب « الروسى » لأنك صرعته براسك !

وشعر حسن برغبة فى تحاشى الأنظار ، فقال لعلى صبرى :

- دعنا نمح أثر المعركة فابدأ الوصلة الثانية . . .

٤٠

استعاد حسن توازنه بفضل قوته وحيويته واعتياده العراك يوما بعد يوم . وكان الليل قد جاوز منتصفه بساعة او اكثر ، واخذت قهوة « على صبرى » تلفظ آخر المترنحين من روادها . وأطفئت الأنوار الخارجية فى الدرب فساده شبه ظلام ومضت البيوت تغلق ابوابها مفتتحة سهراتها الداخلية التى لا تنتهى عادة قبل الفجر ، على حين مر شرطيان يهزان الأرض بوقع اقدامهما الثقيلة . وكان حسن يجلس على كثب من على صبرى فى نهاية القهوة يعلقان على ايراد الليلة حتى قصدهما غلام يعمل نادلا ببيت زينب الخنفاء فحياهما ثم مال على اذن حسن وهمس باسما :

ــ بعضهم يريدك !.

وسمع على صبرى ما همس به الغلام فلاح الاهتمام فى وجهه وتمتم :

ــ امراة ؟!

فقال حسن بعدم اكتراث :

ــ اظن هذا ..

ــ الا تفضل مثلى الحب الطيارى ؟

فابتسم حسن ابتسامة ذات معنى وقال :

ــ ولكنه حب لا نفع فيه . انتظر وسنرى ..

وودع الأستاذ وقام ثم تبع الغلام الى البيت الذى يواجه القهوة، وطرق الغلام الباب ففتح عن شق فى حذر فمرق منه الغلام وتبعه حسن ، ثم أغلق الباب . وجد حسن نفسه فى مدخل البيت وقد انتثرت على الكنبات بأركانه فتيات ، انتحت كل برجل تشاربه وتداعبه ، وعلى كرسى فى الصدر جلس رجل ضرير ينفخ فى الناى،

على حين اتخذت المعلمة زينب الخنفاء مجلسها على أريكة عالية متلفعة بملاءتها السوداء وعلى وجهها برقع ذو عروس ذهبية كبيرة تخفى به انفها المتآكل . والقى حسن على الحاضرين نظرة متفحصة فلم ير فتاة خالية ، ولكن الغلام مال الى الستار المسدل على مدخل السلم وازاحه ودخل فتبعه ، وارتقيا الادراج معا فى سكون حتى تساءل حسن :

ـ من هى ؟

ـ الست سناء . . .

وذكرها لتوه ، امرأة عرفت بسمرتها العميقة وشعرها الجعد وجسمها المكتنز ، واشتهرت بشفتين غليظتين وعينين دعجاوين . وكانت تجلس سحابة النهار على كرسى عند مدخل البيت واضعة ساقها على ركبتها كاشفة عن فخذها حتى السروال الحريرى الأبيض . وانتهيا الى الدور الثانى وسارا فى دهليز طويل يفضى الى صالة صغيرة تحدق بها ابواب ثلاثة ، ومضى الغلام الى الباب الأوسط وطرقه ثلاثا فجاء صوت له رنين النحاس يهتف :

ـ ادخل . . .

ودفع الغلام الباب قليلا وتنحى جانبا فتقدم حسن الى الداخل وقبل أن يرد الباب وراءه شعر بيد الغلام تربت ظهره فالتفت صوبه فضحك الغلام وقال وهو يبتعد :

ـ اقرأ لنا الفاتحة . . .

وأغلق الباب فوجد نفسه فى ظلام دامس . وحدثته نفسه ان يتحسس موضع الزر الكهربائى ليضىء الحجرة ولكن سرعان ما عدل عن خاطره ، ووقف مستندا الى الباب منتظرا ان تألف عيناه الظلام . وساد صمت شامل حينا ، ثم مضت أذناه تلتقطان حس انفاس تتردد ، فصغى اليها مبتسما ، وتوقع قولا أو فعلا ولكن لم يحدث شىء . واتجه على مهل الى يساره متسمتا الأنفاس المترددة حتى مست ركبته شيئا صلبا ، جسه بيده ،

فأدرك انه حافة فراش خشبى ، ووقف ينظر الى اسفل بعينين براقتين حتى شفت الظلمة الشاملة عن كتلة مظلمة ممتدة لا تبين لها معالم . وهوى بابهامه رويدا رويدا حتى انغرست أنملته فى لحم طرى ثم انبعثت تحت اصبعه رجفة وندت عن الظلمة ضحكة مكتومة . .

***

ثم اضاء النور واخذ يرتدى ثيابه . واخرج من جيبه نصف ريال ووضعه على الفراش والمرأة تراقبه بعينين ضاحكتين ، ثم وثبت الى أرض الحجرة وسارت بجسمها العارى الى صوان ففتحته وعادت بورقة من ذات الخمسين قرشا وحطتها فوق نصف الريال دون ان تنبس بكلمة ، فتساءل ضاحكا :

ـ اهو الباقى ؟

فقالت بهدوء :

ـ اجرك !

وأتم ارتداء ثيابه فى هدوء متظاهرا بعدم الاكتراث ضابطا عواطفه حتى لا ينم وجهه عن فرحه ، ثم تناول النقود ودسها فى جيبه . وسألته وهى ترمقه بنظرة عميقة :

ـ ترافق ؟

فقال مستعينا بالكذب :

ـ لى رفيقة !

فتساءلت فى اهتمام بدا فى لمعة عينيها :

ـ فى هذا الدرب ؟

ـ فى الآخر .

ـ افرنجية ؟

ـ بنت عرب !

وساد السكون دقيقة ، ثم سالته :

ـ الا تزال لك فيها رغبة ؟

فلم يشأ أن يجيب بلا او نعم ، قانعا بابتسامة ذات معنى . فسالته ضاحكة :

ـ اين تقطن ؟

ـ شبرا .

ـ ما ابعدها عن مكان عملك ، هل ثمة ما يضطرك الى المبيت هناك ؟

ـ كلا . .

ـ مسكنى قريب فى عطفة جندب بكلوت بك . تعرفها ؟

ـ سوف اعرفها من الآن فصاعدا . . .

٤١

كانت الشمس تميل الى الغروب حين غادرت نفيسة بيت احدى زبائنها بشارع الوليد ، وكان يلوح فى وجهها الضيق ، وهى حال لا تفارقها اذا خلت الى نفسها ، ولكن زادها تعاسة انهالاتجنى من عملها الا مبالغ زهيدة تبتلعها حاجة اسرتها الشديدة فلا تكاد تبقى لها على شيء . وكانت الى هذا تبدو فى مظهر جديد ينم عن تغير ذى بال ، فتزيت فى فستان برتقالى مزخرف بأزهار البنفسج اعلن عن جسمها الطويل النحيل ، واخذت زينتها فى غير تحفظ . وسارت وشارع الوليد حتى انتهت الى شارع شبرا ، وانعطفت مع الطوار وهى ترمى ببصرها الى الجراج عن بعد فدبت فى قلبها يقظة وحيوية . وأعادها منظر الجراج ـ وصاحبه محمد الفل ـ الى ذكريات صراع عنيف نشب فىنفسها فى غير مارحمة ولا هوادة

طوال الأسابيع الماضية . وجعلت تقدم رجلا وتؤخر اخرى حتى توقفت عن السير تماما ، وعقل الخوف قدميها ، ومع انها كانت قد انتهت من ترددها المعذب الى نهاية ، الا أن الخوف ركبها وهى تخطو الخطوات الأخيرة . « الا يحسن بى ان استزيد من التفكر ؟ كلا ، كلا ، لن اجنى من التفكر الا وجع الدماغ . سيعترض سبيلى كما يفعل كل مساء . لا استطيع ان انكر اننى ابتسمت لدعاباته فماذا بعد هذا ؟ . فات اوان التراجع . وهو لا يخفى دواعيه ولا مقاصده ، ولست أجهلها ، انى ادرك كل شيء ، ادرك لماذا يدعونى الى سيارته ، لا يحاول خداعى كما فعل غيره ، فالأمر واضح ، فهل أقدم على هذا ؟. لماذا يتعلق بى ؟ لست جميلة ، وهيهات ان يغير هذا الزواق من الحقيقة شيئا . ولكن الدمامة نفسها سلعة لا بأس بها فى سوق الخلاعة ، وعشاق اللذة ـ او بعضهم ـ لا يرعوون عن مطلب . هذه هى الحقيقة . الزواج أمره مختلف اما اللذة فلا اختلاف عليها . هل ادع نفسى تهوى ! ولماذا امنعها ؟. لن أخسر جديدا . ليس ثمة ما اخاف عليه . ولكن الا يحسن ان امد لنفسى حبل التفكير ؟ » وعاودتها ذكريات اليأس الذى أمرت غصصه ريقها ، وكيف لم يعد ثمة امل على الاطلاق . على ان الأمر لم يكن مجرد يأس فحسب ، فهناك هذه الرغبة المشبوبة التى تشتعل فى دمها ولا حيلة لها فيها . وكلما استنامت الى قبضة اليأس شكتها فى الأعماق كشوكة مستعرة . هذه الرغبة وحدها تابى عليها ان تعتزل الحياة وتتوارى حتى كرهتها فيما تكره من حياتها . بيد انها لم تعترف بها امام شعورها ، وانكرتها ، وقالت لنفسها انها ترضى «الهوان» فى سبيل النقود التى تمس حاجة اسرتها اليها . ولم تكن فى هذا كاذبة ، فانه حق لا شك فيه ، ولكنها صارحت نفسها بحقيقة وتجاهلت الأخرى ، وسرها ـ ان كان ثمة سرور ـ أن تبدو لعينيها شهيدة ، وضحية لليأس والفقر . وبرز الفتى عند ذاك من

الجراح ووقف يحادث بعض العمال فخفق قلبها ولم تتحول عنه عيناها . وادركت بغريزتها انها لن تتراجع فسلمت ـ على البعد ـ وهو موليها ظهره ، سلمت تسليما نهائيا ، وانتهى فى تلك اللحظة الصراع العنيف المحزن الذى نشب فى قلبها منذ اسابيع . وزفرت فى يأس وحرارة وغادرت موقفها . واقتربت منه فى خطوات وئيدة متجاهلة اياه ، حتى احست به يعترض سبيلها قليلا بجراته المألوفة :

ـ الصخر نفسه يلين يا ست ، هاك السيارة عند منعطف الطريق تنتظرك منذ اجيال .

ثم سار الى جانبها متشجعا بابتسامتها وهو يقول :

ـ كفاك تدللا ، لو كان لى صبر أيوب لنفد . .

ما الذ الغزل ولو كذب . حال مخزية ولكنها ترد اليها اعتبارها وكرامتها كأنثى مهيضة الجناح . « ليته يدرى من انا ، ومن كان ابى » . ثم سمعته يقول بلهجة تنم عن وعيد :

ـ هاك السيارة فاذا لم تصعدى اليها رفعتك بذراعى أمام الرائح والغادى .

وكانا بلغا موقف السيارة فى العطفة الثانية فقبض على يدها وفتح بالأخرى باب السيارة ، وازدردت ريقها واندفعت الى الداخل فى حركة عصبية ، وجلست ، فأغلق الباب وراءها ، ودار حول السيارة ودخل من الباب الآخر وهى لا تكاد تدرى به ، ومالت الى الوراء لتباعد بين وجهها وبين النافذة المشرفة على الطريق ، ثم غشيتها غرابة . بدا لها كل شيء غريبا خياليا لايمت للواقع بسبب ، الطريق الذى تساقط عليه ظلمات المساء واشباح المارة ، والسيارة الهرمة المهلهلة ، ونفسها ، وأصوات الناس ، ودوى عجلات الترام ، واستعدت ارادتها بقوة لتعود الى وعيها واسترقت نحوه نظرة وهو جالس أمام عجلة القيادة بقوام فارع ووجه معروق صلب ووجنتين بارزتين وأنف ضخم صخرى

وفم عريض غليظ كفم البولدج فأعادها منظره الى عالم الحقيقة ، والوعى والأعصاب ، والدم والخوف . واستخرج الرجل قارورة من تحت مقعده وفض سدادتها ثم نظر فيما حوله فى شىء من الحذر ، ورفع فوهتها الى فيه وافرغ فى جوفه جرعات غزيرة ، والتفت اليها بوجه متقلص العضلات وسألها :

ـ لا تشربين قليلا من النبيذ ؟

فقالت بعجلة واضطراب :

ـ كلا ، لا أتعاطى الخمر . .

فرفع حاجبيه دهشة وهو يمصمص ، وأعاد القارورة الى موضعها ، وبدأت السيارة تتحرك وهو يقول :

ـ من الحكمة ان أشرب الآن حتى اذا بلغنا مقصدنا بلغته فى سلطنة . . .

وانطلقت السيارة مقرقرة تشق سبيلها بسرعة مستهترة ، وعجبت نفيسة من جراته وبدا لها قويا جسورا ، وفى الوقت نفسه غير اهل للثقة او الشرف . ولكن ما حاجتها الى الرجل الشريف ؟ لم تعد أهلا له ، ولم يعد ضالتها ، ولا تخاف شيئا فى الوجود قدر ما تخافه على نفسها . وسمعته يقول ضاحكا فى زهو :

ـ ما اطول نفسك فى التدلل !.. ولكن طالما قلت لنفسى مصير الحلو أن يقع ، وها هو قد وقع . .

ورحبت بالكلام لتهرب من افكارها واضطرابها ، فارتسمت على شفتيها ابتسامة وتساءلت :

ـ ومن أدراك انى وقعت ؟!

فضحك ضحكة ضخمة وقال :

ـ سنرى ما يكون فى صحراء الماظة . .

وتساءلت فى قلق :

ـ صحراء الماظة ؟.. هل نغيب طويلا ؟

ـ حتى منتصف الليل .. !

فتملكها فزع شديد تراءى لها خلاله وجه امها وشقيقيها ، وقالت بلهجة المستصرخ :

ـ يا خبر اسود ، يجب ان اعود الى البيت قبل العشاء ؟.. اوقف السيارة بربك ..

فقال بدهشة وفتور :

ـ حقا ؟!. لاتخافى ، سنعود قبل العشاء ، ولكن ماذاتخافين ؟

ـ اهلى ...

فلحظها بارتياب ساخر وسالها بلهجة ذات معنى :

ـ اهلك !.. الا يعلمون ؟!

ووخزها قوله حتى خـرم قلبها كالطعنة الحادة . اهلها يعلمون ؟ ، ماذا يظن بها ؟! واندفعت تقول :

ـ كيف يعلم أهلى !. اخوتى طلبة بالجامعة ، وكان أبى موظفا .

وهز راسه متظاهرا بالتصديق ، وقال لنفسه ساخرا : « لا ام غسالة الا امى . ، ولا اخوة صعاليك الا اخوتى ، الأمر لله » وضاعف من سرعة السيارة ليبلغ هدفه فى اقصر وقت ، ومضى يستشعر حميا النبيذ فطاب نفسا وسالها :

ـ ما اسمك ؟

ـ نفيسة .

ولم يعجبه الاسم فسالها :

ـ لماذا لم تنتقى اسما ارشق منه ؟

ولم تفهم قصده ، واساءت فهمه فقالت باستياء :

ـ انه يعجبنى !

ـ عاشت الأسماء يا ست نفيسة ، لا مؤاخذة ..

واخيرا مالت السيارة الى الطريق الصحراوى تغوص فى ظلمة شاملة ، ولاحت المدينة عن بعد فى انوارها الموصوصة كأنها مارد جبار ذو اعين نارية لا حصر لها ، واخذ يهدىء من سرعة السيارة

حتى أوقفها ، واطفأ مصابيحها ، وبغتة مد ذراعه حول خصرها وجذبها نحوه بعنف لم تتوقعه . فاندلقت عليه متاوهة ، ففغر فاه العريض واطبق على فمها حتى منتصف ذقنها ، وضمها الى صدره بوحشية وانفاسه تتردد فى انفه فى نخير محشرج ، فشعرت بادىء الأمر بالم وقلق ، ثم مضت آلامها تغيب فى ظلمة باطنية غريبة كما غاب شبحاهما فى الظلمة المحيطة الشاملة وآمنت بانها مدينة للظلام بالشيء الكثير ، فقد شجعها ، وفى الوقت نفسه اخفى عيوبها ، وبذلت قصارى جهدها ـ مدفوعة بحافز فطرى ـ لارضائه . ولعلها وجدت بادىء الأمر حياء الى ما تجد من قلق وخوف ولكن سرعان ما شملتها حرارة جنونية تذيب الخوف والقلق والحياء .

ثم قال لها باغراء :

ـ الا يحسن بنا ان ننتظر ثمرة اخرى ؟

فقالت بضراعة وهى تجفف العرق المتصبب من جبينها :

ـ لا استطيع ، ارجو أن نعود فى الحال . . .

وتناول القارورة وأروى ظمأه بجرعات متتابعات ، ثم انطلق بالسيارة بوجه جامد ، وظل صامتا حتى بلغا ميدان المحطة ، وقال بغلظة :

ـ توجد ثمرة دانية ، الا نعود ؟

فقالت برجاء وجزع :

ـ كلا ، كلا . . لا استطيع . .

وقطب ساخطا فجاة ، وقال بفظاظة لم تتوقعها :

ـ الله يقرفك ، هذه رحلة لاتستاهل البترول الذى احترق .

ووقع قوله من نفسها موقع السوط ، فانعقد لسانها ، وافعم فؤادها خيبة ومرارة وخجلا ، ونظرت نحوه فى ذهول ، ولكنه لم يلتفت اليها ، ودفع السيارة صامتا ساخطا الى شبرا . عسى أن تكون رغبته فى المزيد عذرا ولكن أما كان يجمل به ان يترفق

بها او فى الأقل ان يمسح خشونته بكلمة رقيقة ؟. وواصل انطلاقه صامتا ، ثم عرج الى شارع جانبى لينزلها فى امن من الأعين . واوقف السيارة الى جانب الطوار . وتساءلت وهى تغادر موضعها عما تفعل اذا سمى لها موعدا آخر انقبل رغم اهانته ام ترفض على رغمها ؟ وجابهتها حيرة لم تستعد لها ، بيد انه مد لها يده بنصف ريال وهو يقول :

ـ هذا يكفى لمرة واحدة ..

ولما راى جمودها ترك القطعة الفضية عند قدميها وانطلق بالسيارة مخلفا وراءه ذيلا من دخان خانق ، وقرقرة مزمجرة . وركبها جنون غضب اعمى فتسمرت فى موقفها وجسمها ينتفض . واتصل انتفاضها وهى تعض على نواجذها ، ثم مضت تزفر فى عجلة كانما تنفس عن صدرها أن ينفجر . لم يتكلف موعدا آخر . مرة عابرة . كاننى .. رباه ، مرة عابرة . ثم يرمى لى بنصف ريال ! وخطر لها خاطر فباخ غضبها وخمد ، وحل محله خجل وخيبة ، أجل ، الا يجوز انها لم ترق له ولم تعجبه ؟ ! هذا محتمل . هذا مرجح . هذا مؤكد ! . وامضها شعور اليم بالحزن والقهر ، ثم تنبهت لموقفها من الطوار فهمت بمغادرته ولكنها ذكرت القطعة الملقاة عند قدميها فنظرت اليها بغرابة دون أن تدرى ما هى فاعلة ، ثم ذكرت لتوها القطعة ذات الخمسة قروش التى اقترضها سلمان منها يوما على محطة الترام ، ثم يوم قادها الى مسكنه ، والظلام الدامس وشجارها معه فى الطريق ، وتغزل ابيها بخفة دمها ، ثم عاد انتباهها الى القطعة الفضية تحت عينيها ، فرنت اليها طويلا دون أن تتحول عنها . اى شىء ثمة يدعوها الى تركها ؟ ! ..

٤٢

وفى ذات ليلة زار حسن الأسرة زيارة غير متوقعة بعد انقطاع غير قصير ، وكانت الأسرة مجتمعة بحجرة الاخوة التى تتخذ منها مجلسا مختارا فى شهور الصيف . جاء هذه المرة وبيده قفة فوضعها وراء الباب واقبل عليهم مسلما ضاحكا فاستقبلوه بترحاب كالعادة ، اعلنه الاخوة فى غير تحفظ ، اما الأم فرمقت القفة بنظرة متسائلة وغمغمت ساخرة « ايش جاب الغراب لأمه » فقال ضاحكا وهو يتخذ مجلسه بينهم :

ــ لاتتعجلى . الصبر طيب ..

بيد انهم لم يلقوا بالا لقفته . ولم يكن من عادتهم ان ينتظروا خيرا منه ، قالت له نفيسة :

ــ لا نراك الا كالزائر !

ــ أخوك سائح فى ارض الله الواسعة ، يلتقط رزقه فى جهد ومشقة ، ولكن لا تعجبى اذا لم ترينى الا زائرا فقد وجدت لنفسى مسكنا !

وتطلعت اليه الأبصار فى اهتمام وسألته امه :

ــ هل هداك الله اخيرا ووجدت عملا ؟

ــ تخت على صبرى ولاشىء غيره ولكن الله فتح عليه وعلينا .

فقالت الأم بامتعاض :

ــ لا يدخل عقلى بحال ان هذا عمل بالمعنى الصحيح ..

فقال حسن مستنكرا :

ــ لم لا يا اماه ؟! ، انى فى التخت أغنى بينا فى المهن الأخرى اتشاجر كما تعلمين ..

وساله حسين :

ــ وهل وجدت لنفسك مسكنا حقا ؟ .. اين ؟

فسكت مليا ثم سأله :

ـ ولماذا تريد أن تعرف ؟

ـ كى نزورك بدورنا !

ـ كلا . ليس مسكنى معدا للزيارة ، وليس هو خاصا بى، اذ يقطنه افراد التخت جميعا ، دعونا من هـذا وخبرونى متى اكلتم اللحم آخر مرة ؟

فقال حسين ساخرا :

ـ الحق انا نسينا ، دعنى أتذكر قليلا ، .. تتخايل لعينى شريحة لحم فى ظلام الذكريات ولكن لا ادرى اين ولا متى ..

وضحك حسين قائلا :

ـ نحن اسرة فلسفية على مذهب المعرى .

فتساءل حسن :

ـ ومن يكون المعرى هذا ؟ . . . احد اجدادنا ؟

ـ كان فيلسوفا رحيما ، ومن آى رحمته انه امتنع عن اكل اللحوم رحمة بالحيوان . . .

ـ انى ادرك الآن لماذا تفتح الحكومة المدارس ، انها تفعل كى تبغض لكم اللحوم فتأكلها دون منافس . .

ونهض حسن وذهب الى حيث ترك القفة وعاد بها ووضعها امام امه ، ثم نزع عنها غطاء من الورق فبدت تحته فخذ خروف مكتنزة تتصل على سطحها حمـرة اللحم ببياض الدهن . والى جانبها علبة من الصفيح متوسطة الحجم . وصاح حسنين :

ـ لا أصدق عينى ، وما هذا داخل العلبة ؟

ـ سمن !

ودبت فى الاخوة حيوية ولمعت أعينهم ، وسرت عدوى الفرح الى قلب الأم فابتسمت وتمتمت :

ـ ضمنا للغد غداء فاخرا !

وهتف أكثر من صوت :

ـ بل عشاء فاخرا الساعة .

ـ متى ينتهى طهيه ؟

ـ ننتظر حتى الفجر . . .

ونهضت نفيسة فحملت القفة وسبقت امها الى المطبخ . وكفت الأم عن المعارضة وقامت أيضا فغادرت الحجرة وهى تومىء الى حسن ان يتبعها فتبعها على الأثر مبتسما ابتسامة ذات معنى ، فانتبذت به ركنا فى الصالة وسألته بلهفة :

ـ هل تيسرت سبل الرزق لك حقا ؟

ـ بعض الشىء ! لا ادرى ما يأتى به الغد . .

ـ هل اطمئن الى انك ستمد لنا يد المعونة ؟

ـ كلما واتانى الرزق . ارجو هذا . .

وصمتت لحظة ثم سألته :

ـ اين تقطن ؟

وكان يعلم أنها تفهمه فهما لا يجدى معه الكذب فقال :

عطفة جندب بكلوت بك رقم ١٧

فسألته بعد تردد :

ـ امرأة ؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال :

ـ نعم .

ـ زواج ؟

فضحك مرة اخرى وتمتم :

ـ كلا . . .

ولم ير فى الظلام ما ارتسم على وجهها من امارات الامتعاض ، ولكنها كانت قد يئست منه من زمن بعيد فأعفت نفسها من لومه أو نصحه ، بيد انها سألته باهتمام وحرارة :

ـ أليس رزقا شريفا ؟

فقال بلهجة مطمئنة وتوكيد :

- بلى ، لا تشكى فى هذا ... اننا نحيى افراحا كثيرة ونغنى فى المقاهى والصالات ...

٤٣

وانقضى عام آخر . وواصلت الحياة سيرها لا تلوى على شيء ، ومضى كل فرد من افراد الأسرة فى سبيله بما يلقى من خير وشر . ولو اتيح للأب ان يعود الى الحياة لأزعجته الدهشة لما طرأ من تغير على اسرته شمل الأرواح والأجساد والصحة ونظرات الأعين ، ولكن كان حتما سيعرفهم ، سيعرف ان المرأة هى زوجه وأن الأبناء ابناؤه ، أما الذى كان ينكره ، ولا يعرفه مهما اجهد ذاكرته فهو البيت . اختفى الأثاث او كاد ، فلم يبق بحجرة الاستقبال الا كنبة وبساط باهت ناحل كان مفروشا بحجرة نوم الأم ثم وضعوه بحجرة الاستقبال بعد بيع سجادتها ، واقتصرت غرفة الأم على كنبتين يستعملان نهارا للجلوس وليلا للنوم ، وخلت الصالة - حجرة السفرة قديما - فبيع البوفيه والمائدة والكراسى ، وانتهى بهم الحال الى تناول طعامهم على صينية مقتعدين الأرض ، بل بيع فراش حسن . ولولا الضرورة القصوى لبيع الفراشان الباقيان . كانت حياة شاقة عسيرة ، ولولا حزم الأم ، وحسن تدبيرها ، لما نهض المعاش وكسب نفيسة القليل بضرورة المسكن والمأكل . أما حسن فلم تتعد معونته لأسرته زيارات متباعدة كانت للأسرة بمثابة المواسم يطيب لها فيها الطعام والأمل ، وربما ابتاع لأمه من آن لآخر جلبابا او منديلا أو بعض الثياب الداخلية ، وفيما عدا هذه الأويقات فلم يكن يراه أو يسمع به احد . وكان يعتذر لأمه بمشاق الكفاح وقلة الرزق ، والم يكن فى اعتذاره غلو دائما . والحق انه وجد الحياة اشق مما كان يتصور . كان يغنى فى تخت

على صبرى ، وينبرى للعراك اذا دعا الداعى ، ويتجر بالمخدرات فى حدود ضيقة ، وفى حوزته امراة لا بأس بجمالها ونقودها ، ولكن ظل كسبه دون ما كان يحلم به بكثير افضلا عما أوجبته حياته عليه من الانفاق السخى ليظفر بقلوب أعوانه ، وليظهر بالمظهر اللائق به. وكان النزاع بين ضروريات حياته وانانيته من ناحية وحبه لأسرته من ناحية أخرى لا يهدأ بنفسه ، يتغلب ذاك حينا ، ويتغلب هذا فى أغلب الأحيان ، يمسك يده مستسلما لتيار حياته الجارف ، ثم يجود بما فى طوقه ، ويتمنى كثيرا لو يرد اسرته الى سابق عهدها بالحياة ، ثم ينسى أسرته فى خضم مغامراته ، ثم يعود الى تذكرها فى ندم والم ، وهكذا الى غير نهاية . ومهما يكن من امره فلم تجد فيه الأسرة الرجل الذى يقيل عثرتها أو يأخذ بيدها وان تنسمت فى زياراته نسائم الترفيه والراحة . الأم وحدها كانت عصب حياة الأسرة ، وفى سبيل الأسرة انهد حيلها وهرمت فى عامين كما لم تهرم خلال نصف قرن من الزمان ، فنحلت وهزلت حتى استحالت جلدا وعظاما . بيد أنها لم تسلم للمحنة ، ولم تعرف الشكوى ، ولم تتخل عن سجاياها الجوهرية من الصبر والحزم والقوة . وكانت تعمل النهار كله ، تطبخ وتغسل وتكنس وتمسح وترتق وترفو ، وترعى ابنيها خاصة ، تراقب لهوهما ، وتحثهما على العمـل ، وتفض نزاعهما التافه ، وتكبح من نزواتهما ، خصوصا طفلها المتقلب حسنين . وبين هذا وذاك تعكف على التفكير فى الحاضر والمستقبل، وتجتر كثيرا من الآلام التى تبعثها فى نفسها ابنتها نفيسة فى تجوالها الدائم بين بيت وبيت ، تعمل كثيرا وتربح قليلا وتواصل سعيها فى مشقة ويأس . لشد ما تتجرع غصص الألم فى سكون متجملة بصبر لا يهن ، لائذة بايمان لا يتزعزع ، متشبثة بأهداب امل لا بد ان يتحقق وان طال انتظاره . وبفضلها عرف الشقيقان سبيلهما . فلم يحد أيهما عن جادته ، وامكنهما ـ على ما يكتنفهما من تقشف وحرمان ـ أن يواصلا اجتهادهما فى مثابرة تدعو للاعجاب . وكان

حسنين يعد ما يلقاه من ظروف العيش اهون مما يجد فى حبه من حرمان ، ولكن فتاته لم تكن دون امه عنادا ، فارغمته على الرضى بحب طاهر متقشف لا يستسيغه طبعه الحامى . واوشكت الحياة الخاصة ان تلهى الشقيقين عما انتاب حياة الوطن فى تلك الفترة من التطورات الهامة . والحق ان حسين لم يبد اهتماما يستحق الذكر بالسياسة العامة ولعل حسنين كان اكثر اهتماما بالسياسة من اخيه ، ولكن ليس الى القدر الذى يجعل منه تلميذا سياسيا ، واقتصر اهتمامه فى الغالب على النقاش الحزبى أو الاشتراك فى المظاهرات السلمية . وكانت الأم ايضا الحائل بين ابنيها وبين الاشتراك فى الحياة السياسية ، فلم تكن لتفقه حرفا فى السياسة ، واستغرقت الأسرة مشاعرها فلم تترك نصيبا للوطنية . ولما ذاعت الأخبار المحزنة عن ضحايا المظاهرات من الطلبة اصابها الفزع وراحت تقول مخاطبة الشابين :

ـ قتلوا يا ولداه فهل تغنى عنهم السياسة او المظاهرات ؟!. فجعوا اهليهم وخربوا بيوتهم وضاعوا هباء . .

وقال لها حسنين منفسا عن شعور مكبوت لتخلفه عن الثائرين :

ـ ان الأوطان تحيا بموت الأبطال . . .

فرمته بنظرة صارمة فخفض عينيه وقد عدل عن مواصلة حديثه الحماسى . ثم جدت احداث فتكونت الجبهة الوطنية ، وشرع فى المفاوضات ، وانتهت المفاوضات الى الاتفاق ، وسرى فى البلد ارتياح عام ، وحينذاك عاد حسنين الى حديثه ، وكان أجرأ على امه من اخيه ، فقال لها يوما :

ـ ارايت ان الأرواح التى زهقت لم تذهب تضحياتها عبثا .

ولم تغضب هذه المرة لشعورها بأن الخطر قد زال وحل محله السلام ولكنها لم تنثن عن رايها فقالت :

ـ هيهات أن يعوض شىء عن هلاك روح شابة .

فقال حسنين ضاحكا :

- لقد عشت يا اماه نصف قرن فى ظل الاحتلال فلندع الله ان يمد لنا فى عمرك نصف قرن آخر فى كنف الاستقلال ..

فقالت الأم ممتعضة :

- احتلال ، استقلال ، لا ادرى اى فرق بينهما . خير لنا ان ندعو الله ان يكشف عنا الغمة وان يبدلنا من عسرنا يسرا ..

فقال حسنين بحماس وايمان :

- لو لم يكن الاحتلال لما تركت اسرتنا بعد موت ابى بلا معين ! (ثم مخاطبا حسين) اليس كذلك ؟

فقال حسين بأمل :

- اعتقد هذا !

ورددت الأم نظرها بينهما فى شك كثير . لم تكن تحفل بهذه الأحاديث العامة التى تساق اليها احيانا من حيث لا تدرى ، امر واحد يهمها ، وتنسى من أجله الدنيا وما فيها ، هو ان تبلغ بهذين الشابين اللذين تحبهما اكثر من الحياة نفسها بر لأمان ، وان تراهما رجلين ناجحين سعيدين قد امنا شر الحياة ، وآوت الأسرة منهما الى ركن ركين ..

٤٤

وفى نهاية العام حصل حسين على البكالوريا . وقد ذاقت الأسرة فى فترة الانتظار السابقة لظهور النتيجة مرارة الاشفاق والشك . ولم يكن أحد يجرؤ على ان يتكهن بما يجد فيما لو اخفق حسين وحرم من المجانية . ولم تكن الأم تتصور أن ينتهى صبرها هذه النهاية ، ولا ان تنكشف آمالها عن مثل هذا القنوط . وعندما تناول حسين الجريدة من البائع واجرى بصره الزائغ فى صفحاتها باحثا عن نمرته ، التف به أخوه واخته وامه بقلوب خافقة ينبض

فى اعماقها الأمل ويظلها الخوف والعذاب . فانطبعت اللحظة الرهيبة على نفوسهم الى الابد . ثم كان يوم سعيد ، أول يوم سعيد منذ عامين كئيبين ، فطابت النفوس ، ولهجت الألسن بالشكر لله ، وراحوا يفصحون عن سعادتهم بالحديث اللطيف حينا ، وبالصمت المطمئن الباسم حينا آخر . ثم وجدوا انفسهم يطرقون باب المستقبل ، ويفكرون فى الغد القريب والبعيد معا ، فنسوا سعادتهم وهم لا يشعرون ، وتخايلت لأعينهم مرة اخرى الصعاب التى تكتنف حياتهم ، فحل التفكير وهمومه محل السعادة الصافية العابرة ، وعرف حسين حقيقة جديدة فى حياته وهى ان السعادة قصيرة الأجل وانها لا تعمر فى النفس طويلا كالحزن او الحسرة . ولم يكن التفكير فى مستقبله بالأمر الجديد عليه ، كان بطبيعة الحال ذا آمال واحلام ، ولكن الحقائق لم تكن لتغيب عنه كذلك ، وكأنه اراد أن يستدرجهم الى اعلان آرائهم فتساءل :

ـ ماذا لديكم عن الخطوة التالية ؟

وكان للأم رغبة ، فهى تود ان تنتهى الحال التى يكابدونها بأى ثمن . وكانت تعلم ـ وقد خلا البيت مما يمكن الانتفاع بثمن بيعه ـ انهم لن يستطيعوا مواصلة هذه الحياة بعد الآن . بيد انها لم ترتح الى املاء رغبتها عليه ، ونفرت من التحكم فى مستقبله كما تحكم فى حياته . اجل لم يعد طفلا ، فاذا وافق على رأيها مختارا فبها والا فليقض فى امر نفسه بما هو قاض ، وليمدوا هم فى حبال التصبر والتجلد ، بل والجوع حتى يأمر الله بالفرج . لذلك قالت باقتضاب :

ـ فلنتدبر الأمر طويلا .

ولكن حسنين كان يفكر بسرعة مدفوعا بعواطفه كعادته ، وكانت أنانيته تتوارى خلف ما يظنه الصالح العام ، فقال :

ـ لم تعد الحياة تطاق . غذاؤنا سيىء ونحن فى حكم الجياع ، وثيابنا متداعية ممزقة أو مرفوة ، وبيتنا عار ، فلا يصح أن نطيل

أمد العذاب . لا سبيل الا ان نبدا حياتنا العملية . .

وكان حسين يفهم اخاه خير الفهم ، فادرك لتوه ما يرمى اليه ، وكان مقتنعا بما يريد ان يذهب اليه ولكن ساءه مكره فتغيظ عليه وقال :

ـ لماذا تقول « نبدا » ؟ . . لماذا تستعمل صيغة الجمع بينما الأمر يتعلق بى وحدى ؟

وأدرك حسنين ان اخاه نفذ كعادته الى ما وراء كلامه فقال باشفاق :

ـ انى اقرر مبدءا عاما يجوز عليك اليوم وعلى غدا .

ـ تعنى انه يجب ان اجد وظيفة ؟

فزاغ عن الجواب الصريح وتساءل :

ـ ما رايك انت ؟

فالتفت حسين صوب امه وسالها مبتسما :

ـ ما رايك انت يا اماه ؟

وأثرت ابتسامته فى نفسها تاثيرا عميقا ، وادركت انه يضع مصيره بين يديها . وانه يحملها وحدها مسئولية مستقبله . ولكنها لن تقضى عليه بما لا يحب ، لن تفعل ولو ذاقوا الهوان اربع سنوات أخرى . انه الوحيد الذى يذعن لمشيئتها بلا تردد او تذمر فهل يكون جزاؤه الفداء ؟ ! . وقالت الأم بوضوح :

ـ رايى رايك يا حسين . .

فابتسم حسين ابتسامة غامضة وقال مدفوعا برغبة عابثة فى مضايقة حسنين :

ـ ارى أن أكمل مرحلة التعليم العالى . .

فقالت نفيسة بسرور :

ـ احسنت . . .

وقال حسنين بعد تردد :

ـ أمامنا أربعة اعوام عجاف اخرى . .

فقال حسين مبتسما :

ـ عام واحد فحسب ثم تتوظف أنت فى نهايته ان شاء الله ..!

فضحك حسنين مغلوبا على امره وقال بلهجة المعتذر :

ـ لعلك تظن اننى اريدك على ان تتوظف لتتيح لى فرصة اكمل فيها تعليمى العالى فى هدوء وطمانينة ، ولكن الحقيقة اننى اود ان ارحم أسرتنا مما تعانيه ، وفضلا عن هذا وذاك فاذا كان على أحدنا ان يضحى بذاته ـ اذا اعتبرنا التوظف بالبكالوريا تضحية ـ فانت الذى يجب أن تبذل هذه التضحية ، لا لأنى اريد لك ما لا اريد لنفسى ، ولكن لأن اسرتنا تستطيع أن تنتفع بتضحيتك الآن على حين يجب ان تنتظر عاما آخر حتى يمكنها الانتفاع بتضحيتى انا .

فضحك حسين قائلا :

ـ منطق زائف . انى أعلم علم اليقين انك لن ترضى بالتضحية لا العام القادم ولا الذى بعده ..

وقالت الأم حسما للجدل :

ـ افعل ما تشاء يا حسين ، ولا اعتراض لنا ..

فابتسم اليها فى صفاء وقال :

ـ لم اعن مما قلت حرفا واحدا ولكنى اردت ان يعرف حسنين انى احسن فهمه . ولست الومه ايضا على تفكيره فله عذره . ينبغى أن يضحى احدنا ويرضى بالتوظف الآن ، وهذا هو واجبى انا ، انا اخوه الاكبر ، وانا صاحب البكالوريا . انى ادرك الحال على حقيقتها ، واعلم انه من القسوة الشريرة ان افكر فى تكملة تعليمى ، فلأرض بحظى ، ولندع الله جميعا أن يوفقنا الى ما نريد ..

وقرا الارتياح فى اعينهم جميعا رغم ما تنطق به السنتهم من عبارات الاسف ، فداخله شعور طيب بالسرور والارتياح على حزنه واسفه . « اسرتنا كادت تنسى معانى الارتياح والطمانينة . ها انا أعيد الى نفوسها بعض هذه المعانى . علام آسف ! . مدرس

أو كاتب سيان . لو كنا نقتصد فى احلامنا ، او كنا نستلهم الواقع فى خلق هذه الأحلام ، لما ذقنا طعم الأسف او الخيبة » . . .

٤٥

وقالت الأم :

- لدينا احمد بك يسرى صديق المرحوم والدكم ، وهو يستطيع ان يوظفك فى غمضة عين . .

وتفكرت الام مليا ثم واصلت حديثها قائلة :

- لن أستطيع الذهاب اليه بنفسى لأن معطفى لم يعد لائقا للظهور امام الناس المحترمين ، فامض اليه أنت ، وخذ معك اخاك تتشجع به . وما عليكما الا ان تقولا للبواب انكما ابنا المرحوم كامل افندى على . . .

وذهب الشقيقان عصرا الى شارع طاهر وقصدا بيت البك وطلبا مقابلته كما اوصتهما امهما فغاب البواب دقائق ثم جاء ليدعوهما الى حجرة الاستقبال . ودخلا يسيران فى ممشى الحديقة الوسط وهما ينظران الى شتى الأزهار التى كست الارض بالوان بهيجة بدهشة ، ثم صعدا الى السلاملك ، ثم الى بهو الاستقبال الكبير ، واتخذا مجلسهما بارتباك على كثب من الباب بالموضع الذى اختارته امهما قبل ذلك بعامين . وجرى بصرهما سريعا على البساط الغزير الذى يغطى ارض الحجرة الواسعة ، والمقاعدالكثيرة الانيقة ، والطنافس والوسائد ، والستائر التى تنهض على الجدران كالعمالقة ، والنجفة المتدلية فى هالة لالاءة من سقف عال انتشرت بجوانبه المصابيح الكهربائية . واشار حسنين الى النجفة وقال بسذاجة :

- مثل نجفة سيدنا الحسين !

وكان حسين يفكر فى أمور اخرى فقال :

ـ نعم ... دعنا من النجفة ، ما عسى ان تقول ؟ .. ينبغى أن تساعدنى بلسانك !

فقال حسنين هازئا :

ـ أتظن انك ستحادث شيطانا ؟ .. تكلم بشجاعة ، وسأتكلم أنا أيضا . ملعون ابوه !

وندت عنه اللعنة ـ لا لحنق ـ ولكن ليشجع اخاه ، وليتشجع هو نفسه . والقى نظرة ذاهلة على ما يحيط به من آى الثراء ثم تساءل بصوت منخفض :

ـ هل يثير موت رجل كأحمد بك حزنا فى نفوس ورثته ؟

فقال حسين بنصف وعى :

ـ اما كنا نحزن لو فاة والدنا لو كان غنيا ؟

فقطب الشاب متفكرا ثم قال :

ـ اعتقد هذا . ولكن لعل الحزن انواع ودرجات . آه .. لماذا لم يكن ابونا غنيا ؟!

ـ هذه مسالة اخرى ..

ـ ولكنها كل شيء . خبرنى كيف صار هذا البك غنيا ؟

ـ لعله وجد نفسه غنيا ...

فالتمعت عينا حسنين العسليتين وقال :

ـ يجب أن نكون جميعا أغنياء ...

ـ واذا لم يكن هذا ؟!

ـ اذن يجب أن نكون جميعا فقراء ..

ـ واذا لم يكن هذا ؟!

فقال بحنق :

ـ اذن نثور ونقتل ونسرق ..

فابتسم حسين قائلا :

ـ هذا ما نفعله منذ آلاف السنين ..

- يعز على ان اتصـــور ان ان تمضى حياتنا فى عنـــاء وقذارة الى الموت ...

فقال حسين مبتسما :

- لا قدر الله ...

وقبل ان يفتح حسنين فمه سمعا وقع اقدام آتية من الفراندا ، ثم دخل البك بجسمه الطويل العريض فى بذلة بيضاء حريرية ، وسلم عليهما مرحبا وهو يتفرس فى وجهيهما بعينين ضاحكتين ، ثم سالهما وهو يجلس :

- اهلا بابنى الحبيب المرحوم ، كيف حال والدتكما ؟

فشكرا له بلسان واحد ، وقد نسى حسنين فى طيب اللقاء حنقه على حين عاود حسين ارتباكه . وتوجس احمد بك خيفة من هذا اللقاء الذى لا بد ان يسفر عن بذل وعطاء ، وكان يسلم سلفا بأنه لن يستطيع ان يرفض لهما رجاء اذا سـألاه . والحق انه لم يكن بخيـلا ، بل كان جوادا ولكن لا عن طيب خاطر ، كان يجود فى برم وضيق دون ان يستطيع ان يقول « لا » . وتغلب حسين على ارتباكه وقال بصوت رقيق مؤدب تغنى نبراته عن الفاظ الرجاء والضراعة .

- حصلت يا بك على البكالوريا ، وظروف اسرتنا تضطرنى الى البحث عن وظيفة ، لذلك رات والدتى ان ترسلنى الى سعادتك لما لنا جميعا فيك من عظيم الرجاء ..

فجعل البك يعبث بشاربه الغزير المصبوغ ، ثم قال :

- وظيفة ؟! .. باب الحكومة ضيق فى أيامنا هذه ، ولكنى سأبذل ما فى وسعى يا بنى . لا أعتقد انى ســاجد لك وظيفة فى الداخلية ولكنى صديق لوكيل المعارف ، وكذلك وكيل الحربية ، جهز طلب استخدام وسأكتب لك توصية قوية ..

وشكرا له كرم أخلاقه ثم سلما وغادرا الفيللا ، والقى حسنين على الفيللا نظرة توديع وهما يبتعدان عنها ، وعاد ببصره الى وجه

اخيه فوجده راضيا حالما فساءل نفسه فى دهشة : ترى هل يفرح الآن بما عده بالأمس تضحية ؟ . ثم قال :

ــ ايقنت الآن فحسب ، وبعد أن تنسمت عبير الحياة الحقة فى هذه الفيللا ، انه من الظلم ان نعد انفسنا بين الأحياء . .

وكان حسين مشغولا بالتفكير فى طلب الاستخدام والتوصية القوية فلم يعن بالرد على اخيه ، فقال حسنين حانقا :

ــ انى اعجب لما تتحلى به من رضى وهدوء ! . . ولكنه تظاهر لا يمكن ان يخدعنى . .

فغمغم حسين مبتسما :

ــ وما جدوى الحنق ؟ . . لن نغير الدنيا !

ــ يجب ان تتغير . من حقنا ولا شك ان ننعم بالسكن النظيف والمأكل الصحى والمركز المرموق . ولكنى اراجع حياتنا جملة فلا اجد بها خيرا ابدا . .

فحدجه حسين بنظرة غريبة لم يفهم معناها وقال له :

ــ ولكنك تتمتع بالحب ، وستكمل تعليمك . . اليس هذا خيرا ؟

ونظر اليه ثم نظر فيما امامه ، ترى ماذا يعنى ؟ . وشعر بعدم ارتياح ، وتضاعف ضيقه . ثم روح عن صدره متسائلا :

ــ الم يكلفك هذا التضحية بنفسك ؟ . . ان لنا حقوقا بديهية ولا يجوز أن يضيع شىء منها ، فاين نحن من هذا ؟ . . كيف نعيش ؟ . . ماذا تكابد امنا ؟ . . اين اخونا حسن ؟ . . كيف انقلبت اختنا خياطة ؟ . .

وقطب حسين وقد تنغص عليه صفوه ، وتناسى جوهر الموضوع ووقف عند الصفة الأخيرة حانقا ، وصاح باخيه فى لهجة تنم على العتاب :

ــ خياطة . . .

فقال حسنين فى هياج وانفعال :

ــ نعم خياطة ، هل تكره هذا حقا ؟ . أتتمنى حقا لو كانت

تزوجت كأمثالها من الفتيات ؟ ! .. كذب . لو كانت تزوجت ، بل لو لم تكن خياطة لاضطر كلانا الى الانقطاع عن المدرسة والبحث عن مهنة حقيرة . هذه هي الحقيقة ..

واشتد الغضب بحسين ، لا لأنه لا يسلم بما قال اخوه ، ولكن لأنه يسلم به فى أعماقه ، ولأنه ما كان يرحب حقا بزواج الفتاة وسعادتها . « اننا ناكل بعضنا بعضا ، ينبغى ان نسر بتهريج حسن وعبثه ما دام يجيئنا كل شهر بفخذ خروف . وينبغى أن نسر باختنا الخياطة ما دامت تعد لنا لقمتنا الجافة . وهذا الشاب المتذمر ينبغى أن يسر بانقطاعى عن التعليم ما دام سيتم تعليمه هو . ياكل بعضنا البعض . اى وحشية . اى حياة ! لعلى لا اجد الا عزاء واحدا وهو ان قوة اكبر منا جميعا تطحننا طحنا وتلتهمنا التهاما ، واننا نصمد ونقاتل . » وتركز تفكيره فى الخاطر الأخير ، فيما سماه العزاء الوحيد ، فسكنت نفسه ، وسكت عنه الغضب وقال وكأنه يخاطب نفسه :

— نحن لا ياكل بعضنا البعض . لا تقل هذا (لم تكن هذه العبارة من قول شقيقه ولكنه لم يفطن لهذا) .. لا تقل هذا ابدا . نحن أسرة بائسة ولنا نظائر واشباه لا يحيط بهم حصر . وواجب كل واحد منا أن يجود بما يقدر عليه من البذل والتضحية .. !

ثم طلب الى أخيه فى حزم ان يمسك عن الجدل ، وكانا بلغا محطة الترام ..

٤٦

وتبين لحسين ان الوظيفة ـ اوالتضحية التى رضى ببذلها عن طيب خاطر ـ لم تكن منالا يسيرا ، فقد انصرمت ثلاثة أشهر وهو يتردد فى هم ويأس مابين ڤيللا احمد بك يسرى ووزارتى المعارف والحربية . واخيرا اخبره البيك بانه امكن الحاقه بوظيفة كاتب بمدرسة طنطا الثانوية ، وحثه على تقديم نفسه للقومسيون والاستعداد للسفر لتسلم عمله فى أول اكتوبر . وسر الفتى ، وسرت الأسرة ، ولكنه سرور لم يكن خالصا ، وشابته مرارة . كانت الأم تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر كى تنتشل الأسرة من وهدتها وتبدلها حالا بعد حال ، فجاء السفر مخيبا لهذا الرجاء ، وتحيرت الأم بين فرحها وحسرتها ، وايقنت ان الوظيفة لن ترفه عن الأسرة الا قليلا ، وان خيراتها ستتبدد ما بين طنطا والقاهرة . والى هذا كله فقد لاح فى افق الأسرة شبح فراق جديد لم تالفه ، فتوجعت قلوبها ، وعجبت الأم لهذا الحظ الذى يأبى ان يمنحها ابتسامة الا تحت عبوسة متجهمة ، والذى يمد يد النوى بينها وبين الابن الوحيد الذى لا يخلق لها المتاعب . كانت ترى فى حسين صورة من نفسها الهادئة الصابرة ، وكانت تجد عنده من الأنس والراحة ما لا تظفر به عند غيره . اجل لم يكن أحب الجميع الى قلبها ، اذ كان حسنين الطفل المشاكس الذى يحظى بهذه المنزلة ، ولكنه بدا لعينيها وقتذاك كانفس ما تملك فى حياتها . ووقع الفراق من نفس حسين موقعا سيئا ، وحزن له حزن رجل لم يبتعد عن بيته يوما واحدا فى حياته ، وضاعف أثره فى نفسه تعلقه الشديد بامه واخوته وما كان يأمل من الترفيه عنهم بوجوده بينهم . وكان يقول لنفسه كثيرا « ساعيد نفيسة الى بيتها سيدة

محترمة حال تسلمى اول مرتب من الحكومة » ولكنه رأى حلمه يتبدد ، وغدا يذهب الى بعيد مخلفا أسرته المحبوبة وراءه على حال ليست افضل كثيرا مما كانت عليه . ولعل هذا ما جعله يمضى الى احمد بك يسرى مستشفعا بنفوذه على ابقائه فى القاهرة ولكن البيك – وكان ضاق به – اخبره بان رغبته بعيدة عن التحقيق فى الوقت الحاضر . ثم اعترضته مشكلة جديدة تتعلق بالنقود التى يجب ان تتوافر له ليقيم بها أسباب معيشته فى طنطا حتى يتسلم أول مرتب له فى نهاية الشهر ، من اين له بهذه النقود ؟ واتجه نحو اخته نفيسة ولكن الفتاة كانت تنزل لأمها عن جل ارباحها المحدودة ولا تكاد تبقى لنفسها على شىء الا ما يلزم لكسائها ، والى هذا فما تبقى من اثاث البيت لا يفى ثمنه – اذا بيع جميعه – بمطلبه ، فلم يجد من ملاذ امامه الا اخاه حسن . وخاطب امه فيما تراءى له فوافقت عليه ولم يداخلها شك فى نجدة ابنها الاكبر اذا وسعه ذلك ، واطلعته على عنوان اخيه لأول مرة فمضى من توه الى شارع كلوت بك وراح يبحث عن عطفة جندف . وكان غادر البيت كبير الأمل ثم تسلل القلق الى نفسه رويدا رويدا حتى تساءل فى النهاية ترى هل يعطينى حسن ماأريده حقا ؟! واذا لم يفعل فهل تضيع الوظيفة من اجل بضعة جنيهات لا يجدها ؟!. ثم اهتدى الى عطفة جندف وهو على حال من التشاؤم مؤلمة ، ووجدها عطفة ضيقة متعرجة ، تقوم على جانبيها بيوت متداعية ، وتسطع فى هوائها الفاسد رائحة السمك المقلى ، وتكتظ بالمارة وعربات اليد ، وتتجاوب فى جوها نداءات الباعة تتخللها شتائم ونحنحات محشرجة وبصقات غليظة ، ثم تأخذ ارضها المغطاة بالأتربة ونفايات الخضر وروث الدواب فى الصعود تدريجا حتى خيل اليه فى النهاية أنها مقامة على سفح تل . ومضى الشاب الى البيت رقم١٧ ، وهو بيت قديم من دورين يلفت الأنظار بضيقه فكأنه عمود ضخم ، وقد جلست غير بعيد من مدخله بائعة

دوم ولب وفول سوداني فدخل كالمتردد وارتقى سلما حلزونيا بغير درابزين وقد زكمت انفه رائحة نتنة صاعدة من بئر السلم ، حتى انتهى الى الدور الثاني وطرق الباب . كانت الساعة حوالى الحادية عشرة صباحا ، وكان اخوف ما يخافه الا يجد اخاه فى الشقة ، وزاد من خوفه ان احدا لم يلب الطارق . وعاود الطرق بشدة وياس حتى كلت يداه ، ثم وقف يائسا لا يدرى ماذا يصنع، وقبل ان يتحول عن موقفه جاءه صوت غليظ من الداخل يهتف بحنق :

ــ من ابن الكلب الذى يطرق الباب فى هذه الساعة المبكرة ؟!

ودق قلبه بسرور ، وقال يجيب الصوت الذى عرفه حق المعرفة :

ــ انا حسين يا حسن . . .

وقال الصوت بدهشة « حسين » ، ثم سمع خشخشة المزلاج وهو يرفع ، وفتح الباب فراى اخاه بشعر هائج مشعث وعينين محمرتين منتفختين فمد له يده وهو يهتف بدهشة :

ــ حسين !.. أهلا وسهلا ، ادخل ، خيرا ان شاء الله ، ماذا وراءك ؟

فدخل حسين فى شىء من الارتباك ، وسرعان ما تطاير الى أنفه عرف بخور طيب بدا عذبا مريحا عقب رائحة السلم ، ووجد نفسه فى دهليز شبه مظلم تكتنفه حجرتان واحدة الى يمين الداخل والأخرى فى مواجهته والى اليسار المرافق . وابتسم حسين الى اخيه وقال كالمعتذر :

ــ هل اتيت مبكرا ؟. . الساعة الحادية عشرة !

فتثاءب حسن طويلا ثم قال ضاحكا :

ــ انى استيقظ عادة حوالى العصر . المفنون ليلهم نهار ونهارهم ليل . ولكن خبرنى قبل كل شىء كيف حالكم ؟

ــ بخير والحمد لله . . وكيف انت ؟

فقال وهو يسير به الى الحجرة التى الى يمينه :

ــ نحمده . .

دخلا حجرة صغيرة تكاد تقسم مناصفة بين فراش وصوان بينهما الى الجدار الداخلى كنبة علقت فوقها على الحائط صورة كبيرة تجمع بين حسن وامراة لحيمة عميقة السمرة قد اعتمدت منكبه بساعديها المشتبكتين ، فثبتت عينا حسين عليها فى دهشة لفتت نظر أخيه فتساءل ضاحكا :

ــ ماذا يدور براسك ؟

فساله حسين بسذاجة :

ــ هل تزوجت يا أخى ؟

فأجلسه على الكنبة ووثب الى الفراش وتربع عليه وهو يقول :

ــ تقريبا . . .

ــ خطبت ؟

ــ الثالثة . . .

ــ الثالثة ؟ !

ــ أعنى الفرض الثالث !

فرفع الشاب اليه عينين داهشتين فى وجوم ثم ابتسم ابتسامة آلية على الرغم منه ولاح فى وجهه ما يشبه الحياء فضحك حسن عاليا وقال باستهانة :

ــ هى زوجة فى كل شىء الا العقد . . .

فسأله حسين فى خوف :

ــ الست وحدك الآن ؟

فحنى راسه دلالة الايجاب ، ثم تثاءب بصوت مرتفع كالنهيق ، ثم قال محذرا :

ــ طبعا لن تخبر احدا ؟

ــ طبعا . . .

فضحك حسن وقال :

- لا احب ايذاء مشاعرهم ، هــذا كل ما هنالك . وبهذه المناسبة الم تجرب النساء ؟

فهز الشاب راسه سلبا فى حياء ، فساله مستطردا :

- وحسنين ؟

فارتج قلبه فى خوف والم لم يدر لهما سببا ، ثم قال :

- ولا حسنين ...

فتفكر حسن مليا ثم قال :

- هــذا افضل بالنسبة لكما .. (ثم ضاحكا) اذا نويت الزواج يوما فاقصدنى أزودك بنصائح عظيمة .

فقال حسين بهدوء :

- لست افكر فى الزواج كما تعلم ...

- امن الممكن ان يتزوج حسنين قبلك ؟

فخفق قلبه ، ولكنه قال بهدوء :

- هذا مؤكد لأنه مرتبط بوعد قديم ...

فقال حسن بتأثر :

- على اية حال اذا انتهى حسنين من دراسته فليس ثمة عائق .. آه ، على فكرة ، ماذا جد من انباء الوظيفة التى تبحث عنها ؟

وسر حسين بما هيا له من فرصة يلج بها موضوعه فقال :

- لقــد جئتك لأخبرك باننى تعينت كاتبا بمدرســة طنطا الثانوية ، وباننى سأتسلم عملى فى أول اكتوبر ...

فقال حسن بدهشة :

- هل تسافر الى طنطا ؟... وما الفائدة التى تجنيها أمك اذا فتحت بيتا جديدا فى طنطا ؟

- فائدة قليلة ، ولكن ما الحيلة ؟

- هذا سوء حظ فارح ، وهذه هى نتيجة المدرسة !

فابتسم حسين يغالب ارتباكه ، ولم اطراف شجاعته وقال :

- ساسافر فى نهاية سبتمبر ، وانت تعلم ان الحكومة تصرف المرتبات مؤخرا !

وادرك حسن ما يعنيه قبل أن يتم كلامه ، فتفكر دون ان يبدو على وجهه شيء مما يدور فى نفسه . ثم ساله :

- وما المرتب الذى تنتظره ؟

- سبعة جنيهات .

- يا خيبتها يوم أرسلتك الى المدرسة ! .. وطبعا لا تملك من نفقات السفر ومعيشة شهر اكتوبر مليما ؟

فابتسم حسين فى تسليم وهو يعجب لما شعر به نحو اخيه - فى هذا الموقف - من الارتباك والحياء كأنه يسال رجلا غريبا . وجعل حسن ينظر اليه صامتا وعقله لا ينى عن التفكير . « جاء حسين فى ظرف غير مناسب . انى انتظر نقودا لا ادرى متى تاتى ولكن يدى الآن فارغة . مصفاة لا يبقى فيها شيء . تبا لها ! لايمكن أن اصارحه بالحقيقة ، لتقم القيامة قبل ذلك . انه فى حاجة ملحة الى النقود ، ولابد ان يحصل عليها . مستقبل الأسرة يتوقف على هذه الجنيهات ، وليست فى الواقع بالكثيرة ، ثمن اوقيات حشيش، وينفق مثلها اى فتى ارعن فى أسبوع بدرب طياب . سناء مفلسة ايضا ، لم اعد ابقى لها على شيء . ولكن لابد ان اعينه ، كيف ؟ لماذا لم يحضر الا اليوم ؟ ، الام تبقى اسرتنا شوكة فى جنبى ؟!» . وظل ينظر الى اخيه صامتا حتى امتلأ حسين قلقا وخوفا . ثم غادر حسن الفراش فجاة وذهب الى الصوان ففتح درجا وعكف عليه دقائق ثم عاد الى مجلسه ومد يده الى اخيه فاذا فيها اربع اساور ذهبية ، وقال بسرعة :

- خذ هذه الأساور ، وبعها فى الحال وانتفع بثمنها ..

وجمدت يد حسين فلم تتحرك ، واتسعت عيناه انزعاجا وانكارا ، وهتف وهو لا يدرى :

- ما هذا ؟!... أساور من هذه ؟

فقال حسن ببساطة وقد ضايقه انزعاج الآخر :

ـ أساور سناء ، امرأتى !

ـ وبأى حق آخذها ؟

ـ ان أخاك يعطيك اياها . لا شأن لك بصاحبتها . .

واشتد انزعاجه وتساءل فى امتعاض كيف يعيش اخوه ؟ ثم تمتم :

ـ لست مرتاحا الى اخذها . أما من سبيل آخر ؟

وحنق حسن على هذا « التعفف » فقال بجفاء :

ـ اذا كنت حنبليا حقا فما عليك الا ان ترفضها ، وليس عندى غيرها ! . .

فرمقه بارتياب ، ولكنه قرا فى وجهه الصدق فاحس بضيق وقهر . « أساور امراة !. . وأى امراة !. محال . شيء لا يصدق . ولا يمكن أن يدور لى بخلد ، ولم اعلم ـ ولو فى كابوس ـ بانه وقع لى . كيف يمكن ان احترم نفسى بعد ذلك ؟!. ارفض ؟. والعمل ؟!. ليس لديه نقود اخرى ، ينبغى ان اصدقه . ولكن محال أيضا ان أضيع الوظيفة ، وما عسى أن أصنع لو افلتت الفرصة ؟ كلا لا يمكن ان ارفض . لايمكن ان اقبل . لايمكن ان ارفض . لايمكن ان اقبل . ارفض . اقبل . ارفض . ارفض . اقبل . اقبل . شيء واحد يستحق اللعنة ، هو الحياة . الحياة والحظ . . . والوالدان اللذان أتيا بنا الى هذه الدنيا . كان يلعب باوتار العود ولا يبالى شيئا !. سحقا لى ، كيف افكر ؟. هيهات أن تذهب من مخيلتى صورة جثمانه . رحمه الله ، ليس الذنب ذنبه . كالدجاج نلتقط رزقنا بين القاذورات . حجرة الدجاج على السطح ملتقى حسنين وبهية. شيء تشمئز منه النفس ، فلأرفض . ولكن لا حياة الا بالاذعان . لن يدرى احد. ولكنى سأذكره ماحييت ، وساخجل منه ماحييت. انه ينتظر الجواب فاما الاذعان واما الموت . فلآخذها كدين ثم أقضيه عند الميسرة . انك تخادع نفسك . بل انى صادق ولأقضين

دينى . أرفض او لا تزعم بعد الآن انك رجل شريف . انى جائع . شريف وجائع . ولن ارفض . تبا للحياة . انى ادرك الآن ماذا ساق اخى الى هذا الوكر . اسرة ضائعة وحياة قاسية . يجب ان أبت فى الأمر والا انفجر راسى . كالدجاج . . .

ـ ماذا قلت ؟

ورفع اليه عينيه فى ذهول وقد اثر فيه صوته تاثيرا مخيفا . وكانت الأساور ما تزال فى يده ، فخفض عينيه وقال بخجل :

ـ انى اشكر لك كرمك ، واقبله على العين والراس ، وأرجو أن تعده دينا اقضيه عند الميسرة باذن الله . .

ـ اقبله هدية اذا شئت ، ولا تنس أن تخبر امك باننى اقترضت النقود من الأستاذ على صبرى . .

واثار ذكر امه المـا حادا فى نفسه فوجد امتعاضا ، وتضاعف هذا الامتعاض وهو يتناول الأساور ويدسها فى جيبه ، ثم قال :

ـ يؤسفنى اننى ازعجتك ، واظن انه ينبغى ان اذهب كى تواصل نومك . .

فمد حسن له يده بالسلام ، وضغط على يده باسما ، ثم قال :

ـ مع سلامة الله . بلغ تحياتى للجميع ، وقل لأمك باننى سازورها قريبا . . .

وغادر الشقة شاعرا بغرابة وانكار . وهبط السلم الذى لا درابزين له فى حذر ، ولكنه لم يتنبه للرائحة النتنة من شدة اغراقه فى تيار افكاره . .

٤٧

كانوا يجلسون بحجرة الاخوة التى ستصبح من الآن فصاعدا حجرة حسنين وحده . ورنت نفيسة الى وجه حسين فغمر الألم قلبها وهتفت :

ـ رباه ، هذه آخر ليلة تجمعنا معا !

واحست الأم بطعنة تصيب فؤادها الذى علمه الدهر من الصبر فنونا ، ولكنها ابتسمت ، او رسمت ابتسامة على شفتيها الجافتين ، وقالت بعطف :

ـ حسين رجل كامل ، وسيعرف كيف يعيش وحده دون ارتباك او اضطراب . وانى مطمئنة كل الاطمئنان الى انه لن ينسانا ، فسيذكرنا دائما كما سنذكره دائما . هذه هى الحياة يا عبيطة ، ومصير كل اسرة الى التفرق السعيد ـ على ما به من حزن ـ حيث ينهض كل بدوره الجديد . .

وكان حسين يعرف امه جيداً فادرك أنها تدارى حزنها بالحكمة والحزم كعادتها دائما ، فصمم على ان يعالج وحشة قلبه بالحزم كذلك . لقد بكى مرة كالأطفال ولكنه لن يبكى مرة اخرى ، وتمتم مقلدا امه فى ابتسامتها :

ـ سوف نلتقى فى الاجازات ، ولعلى أنقل يوما الى القاهرة .

فقال حسنين بأمل :

ـ لا بد أن يحدث هذا يوما ما . .

وكان حسنين يجد كآبة وحزنا . لم يفترق عن شقيقه مذ راى نور الدنيا فلم يدر كيف يلقى الحياة بدونه . كان شقيقه وصديقه معا ، اجل كثيرا ما نشب النزاع بينهما ، وبلغ الشجار احيانا ،

ولكن لم يكن لأحدهما غنى عن الآخر . لو كانت بهية اقل عنادا لما شكا الوحدة قط ، بيد انه بوسعه ان يتعزى عن الفراق بالرسائل يحبرها له من آن لآن فتصل ما ينقطع بينهما من أسباب العشرة والحديث ، ولعله يستطيع ان يسافر اليه فى العطلة . ترى هل يمكنه ان يجرى عليه راتبا شهريا ؟ خمسون قرشا أو ثلاثون خصوصا وهو يعلم بأن راتب الدروس الخصوصية ينقطع بانتهاء السنة المدرسية ! ليت شجاعته تؤاتيه الآن فيحدثه بامانيه !.. ولكن صبرا ، وليؤجل هذا الى فرصة اوفق .

وكانت الأم تواصل التفكير بلا توقف . لقد وفقت الى الظهور بالمظهر الذى تحب أن تظهر به ، او الذى اعتادت أن تظهر به ، ولكنها كانت تعانى الما عميقا بلغت شدته ذروتها هذا المساء ، كانت تكابد تأنيبا خفيا لشعورها بانها تؤثر حسنين باكبر جهاد ، والآن ماذا ترى ؟ .. ترى الأخ الوديع يضحى بمستقبله ويرمى بنفسه بين احضان النوى فى سبيل الأسرة ، بل فى سبيل حسنين بالذات . وضاعف من آلامها انها كانت ترى الواجب يحتم عليها خوض حديث ابعد ما يكون عن العواطف ، حديث ان دل ظاهره على الحدب على الفتى المسافر فباطنه يرمى الى الدفاع عن الأسرة قبل كل شيء . وجعلت تؤجله وهو يلح عليها حتى اقتنعت بانها اذا لم تسقه الآن فقد تفلت منها الفرصة الى الأبد ، ونظرت الى حسين باشفاق وحنان ــ وكان يرتب ثيابه فى حقيبة ابيه ــ وقالت :

ــ انك رجل عاقل ، وهذا ما يجعلنى جديرة بالاطمئنان . ولست اطمع فى شيء اكثر من ان تواصل سيرتك الحميدة فى بلدك الجديد ، وان تحذر صحبة السوء ...

فابتسم حسين قائلا :

ــ اطمئنى كل الاطمئنان يا اماه ...

على أن عبارة « صحبة السوء » استدعت الى مخيلته صورة

عطفة جندب والبيت الذى لادرابزين له والأساور الذهبية فشعر بفتور اغاض الاشراق الذى رسمته الابتسامة على وجهه فانحنى على الحقيبة ليوارى وجومه عن الاعين ، اما الأم فاستطردت قائلة باهتمام :

ــ ولا تنس اسرتك . حقا ليس ثمة حاجة الى تنبيهك لهذا ، ولكننى احب ان اذكرك باننا سنظل فى حاجة الى رعايتك حتى يتوظف حسنين وتتزوج نفيسة !

ــ ما توظفت الا لهذا .

وسرت فى نفس نفيسة قشعريرة رعب ، ونفذت كلمة «تتزوج» الى اعماقها وخالتها تنبش ما استتر من خبيئتها . الا يزال هذا الأمل يداعب امها ؟ .. الا تدرى ان الموت احب اليها منه ؟ . ونظرت الى وجه حسين بغرابة ، انه لا يدرى ، وهيهات ان يخطر لهم هذا على بال. هيهات هيهات . وغابت الحجرة عن عينيها فخيل اليها انها تراهم وقد احدقوا بها فى ثورة جنونية وقد جحظت اعينهم ملتهبة بنار الغضب ثم انقضوا عليها كالوحوش . وهزت راسها لتطرد عنها اشباح هذه الأوهام المرعبة فعادت الى حاضرها، ولكن سرعان ما وجدت نفسها تتذكر على الرغم منها ساعات ضعفها تلك الساعات التى تذهل فيها عما يدفعها الى تسليم نفسها من دواعى اليأس والفقر ، هنالك تنسى كل شيء الا الرغبة المحرومة الجائعة فتمثل بنفسها افظع تمثيل . تذكرت ساعات الضعف هذه وهى بينهم صامتة فعلاها خجل اليم وخوف لا قبل لها به ، وعادت تردد بصرها بين امها وشقيقيها بغرابة . ما يزال امامها فرصة للتراجع ، لا لرأب الصدع طبعا فقد ولى أوانه ، ولكن ... ، رباه لا تدرى ماذا تقول ، ما الفائدة ؟ ، اى امل قد بقى لها فى الحياة ؟ .. لقد قضى عليها بأن تقضى على نفسها ..

واصلت الأم حديثها قائلة :

ــ انظر ماذا يلزمك من نقود كى تنهض بضرورات المعيشة

وارســل الينا الفائض من مرتبك . لابد من هذا يا حسين لأنه لم يعد يبقى لدينا ما يستحق البيع .

ــ سابذل قصارى جهدى .

وتبدد امل حسنين ــ او كاد ــ من الفوز براتب شهرى من اخيه بعد ان طالبت الأم بالفائض من مرتبه . اجـل لا يبعد ان تحس الأسرة بشيء من الترفيه ولكنه لن يروى جفاف يده ، خاصة فى العطلة الصيفية الطويلة . ترى هل تطالبه أمه اذا وظف يوما بما تطالب به حسين ؟. غير معقول . اذا انتهى هو من دراسـته فستتخفف أمه من اثقل واجبات الأسرة ، وبسـعه وقتذاك ان يتزوج وان يعنى بأمر نفسه . ان نفيسة وحسين يتصـديان للزوبعة فى ابانها ، وقد وجد نحوهما عطفا ورثاء دون ان يمنعه هذا من الفرح بحظه .

ولم تفرغ الأم من الافصاح عما يدور بنفسها كله ، فودت لو تحذره من أن يستدرجه احد الى الزواج . ولم تكن تجهل أن كثيرا من الآباء والأمهات يتصيدون العزاب امثاله فى غربتهم بسهولة : ولكنها لم تدر كيف توجه اليه هذا التحذير وعن يمينه اخوه الأصغر قد خطب وتهيأ للزواج وهو ما يزال تلميذا ! . عدلت عن رغبتها كارهة ، ولكن مطمئنة فى الوقت نفسـه الى رجاحة عقله وحسن تقديره . وتحدثوا طويلا ماشاء لهم الحديث . ثم جاء فريد افندى محمد وأسرته لتوديع حسين ، واستقبلوهم كما يستقبلونهم عادة بالترحيب والسرور ، فليس ثمة احد الا ويقدر مودتهم وكرمهم وحسن جيرتهم . اجل لعله طرأ على بعض النفوس تغير باطنى منذ تمت خطبة حسنين لبهية غير الرسمية ، فالأم مثلا آمنت بانهم رموا شباكهم حول الفتى قبل ان ينهض ، وانهم راموا باستثثارهم أشد آمالها تألقا ، اما نفيسة فلم يكن بوسعها ان تحب شخصا يطمح الى امتلاك حسنين خاصة . ولكن هذه المشاعر الصامتة لم تكن لتؤثر فى رابطة الود والاخاء التى تجمع بين الأسرتين ، ولم يكن

من الهين ان تنسى الأم ايادى فريد افندى ومروءته . وقد سر حسين بزيارة التوديع سرورا كبيرا ، ووجد نحو الأسرة التى يحبها — الأب والأم والفتاة وتلميذه السابق — امتنانا عميقا . وجرى الحديث بين ذكريات الماضى وآمال الحاضر لطيفا صادقا ، مباركة عليك الوظيفة ، تسافرمصحوبا بالسلامة ، ستترك وراءكوحشة ، لقد خسر سالم استاذا لا يعوض ، الخ وبهية نفسها على حيائها وتحفظها قالت برقة « تعود بالسلامة قريبا ان شاء الله » فشكر لها تلطفها بلسانه وقلبه « فتاة حسناء حقا ، مهذبة محتشمة ، وحسنين شاب رائع وسيكون زوجا رائعا . ترى الم يقبل هذا الثغر ؟ . طالما شكا تحصنها متذمرا فيالها من فتاة نادرة حقا . ساسافر غدا وتمسون صورا وذكريات ، وستجتمعون كاجتماعكم هذا ، وربما لا تذكروننى الا قليلا ، او لا تذكروننى بتاتا ، ولكن كيف اكون ؟ واين ؟ وهل املك مع وحدتى الا ان أذكركم ؟ كلما اشتد الدهر ازددت قوة وصبرا ، ولأظلن هكذا الى الأبد ! .. »

٤٨

غاب وجه حسنين فى زحمة المودعين ، وتراجع سقف محطة مصر الهرمى حتى بدا من الداخل مظلما ، كل شيء يتراجع بسرعة متزايدة ، وداعا يا مصر . وعاد حسين برأسه الى الداخل واعتدل فى جلسته وهو يغمض عينيه ليخفى دمعة رقيقة غالبت ارادته طويلا ورمش سريعا لينفض نداها عن أهدابه . وكان الى يساره افندى يتصفح جريدة على حين جلس قبالته قرويان يتجاذبان الحديث ومع أن العربة كانت نصف ممتلئة الا ان ضجة الراكبين كادت تعلو على صلصلة عجلات القطار ، وذكر فى حزن مرطب بسرور انه رأى دمعة فى عينى حسنين ، اجل لقد تجلدا وهما

يتحادثان على طوار المحطة ، ولكن حين تحرك القطار وأخذ الفتى يلوح له بيده اغرورقت عيناه بالدموع . وفى البيت كانت نفيسة تبكى صراحة حتى التهبت عيناها ، لشد ما يذكر وجهها ـ الذى حرمه الله نعمة الحسن ـ بعطف ورثاء وحنان . اما امه ـ وقد ابتسم على رغمه ـ فقد ضمته الى صدرها وقبلت خديه ، ولعلها تفعل هذا لأول مرة ، أو فى الأقل فهو لا يذكر انها قبلته قبل هذه المرة ! . لشد ما تاخذ نفسها بالحزم حيالهم ، هذا طبعها ، ولكن هيهات ان يطمس حنانها العميق . ولم تشا ان تبكى وهى تودعه اذ انها تتشاءم من دموع التوديع ، ولكنه قرا فى تقلص جفنيها نذيرا بالبكاء لا يلبث ان يستفيض دموعا اذا واراه الباب عن عينيها . وقال لنفسه لعلها بكت طويلا ، ولعلها لا تزال تبكى ، وشعر لهذا بكآبة وحزن . ولم يكن رآها تبكى قبل وفاة والده فاشتد تاثره ، « يا لها من امراة عظيمة . شاء الله ان يبتلى اسرتنا بمصيبة قاصمة ولكن سبق لطفه فقدر ان تكون هذه المراة امنا . ماذا يكون مصيرنا لولاها ؟ . كيف غذتنا وكستنا ؟ كيف سيطرت على توجيهنا ؟ كيف نهضت بضرورات أسرتنا فى هذه الظروف القاسية ؟ يا لها من معجزة تحير العقول . حتى حسن اخى ففى ظنى انه لولا المرحوم ابى لأمكن ان تجعل منه رجلا غير الرجل . آه . . لأقتصدن فى الكلام عن حسن . لولاه ما عرفت سبيلى الى وظيفتى ، نقوده هى كل مالى حتى آخر الشهر . الأساور ؟ . يا للذكرى ! . انس ، ينبغى ان أنسى كى اعيش . سأقضى الدين يوما وأسدل الستار على اسوا الذكريات » . وارسل بصره من النافذة فارا من افكاره فراى الحقول تترامى حتى الأفق ، والخضرة يانعة ناضرة بهيجة تميل رءوسها مع الهواء فى موجات متصلة ، وهنا وهناك فلاحون وثيران تلوح كالدمى تكاد تبتلعها الارض ، وسوائم ترعى ، وفوق هذا كله سماء الخريف متلفعة ببياض شاحب ينحسر فى اكثر من موضع عن بحيرات من زرقة صافية . ومر

القطار بجدول صاف ذابت أشعة الشمس على سطحه زئبقا يبهر الأعين . ورأى أسلاك البرق فى أمواجها المتواصلة تشملها حركة منتظمة كأنها تسبح فى الفضاء على وقع طقطقة القاطرة الرتيبة . ثم مد بصره كرة أخرى الى الأرض المنبسطة ، الصامتة الصابرة ، الخيرة ، فذكر دون وعى امه ! .. كهذه الأرض الخضراء صبرا وجودا والدهر يحرثها بسنانه !. لم يعد بوسعها ان تقوم بزيارة محترمة لأنها لا تجد الثياب اللائقة ! . وتغيمت عيناه فغابت عن ناظريه بهجة المنظر ودعا الله أن يرزقه حتى يرفه عن أمه المتصبرة واسرته المتجلدة . « يا للعجب . ان مصر تأكل بنيها بلا رحمة . ومع هذا يقال عنا اننا شعب راض . هذا لعمرى منتهى البؤس . اجل غاية البؤس ان تكون بائسا وراضيا . هو الموت نفسه . لولا الفقر لواصلت تعلمى هل فى ذلك من شك ؟. الجاه والحظ والمهن المحترمة فى بلدنا هـــذا وراثية . لست حاقدا ولكنى حزين . حزين على نفسى وعلى الملايين . لست فردا ولكننى أمة مظلومة ، وهذا ما يولد فى روح المقاومة ويعزينى بنوع من السعادة لا ادرى كيف اسميه . كلا لست حاقدا ولا يائســـا ايضا ، واذا كانت فرصـــة التعليم العـــالى قد افلتت من يدى ، فلن تفلت من يد حسنين ، وربما وجدت نفيسة الزوج المناسب . ســوف ترد الروح الى اسرتنا فنذكر ايامنا السود بالفخار » . ولاحت منه التفاتة الى يساره فوجد الأفندى الذى كان يتصفح الجريدة قد طواها ونظر اليه نظرة من ضاق بالوحدة والصمت ، وكأنه كان ينتظر هذه الالتفاتة العارضة فقال بلا داع ولا تمهيد وهو يلوح له بالجريدة المطوية :

ـ لولا الطلبة ما ائتلف الزعماء ، من كان يتصور ان يجلس صدقى مع النحاس على مائدة واحدة ؟

ورحب حسين بالحديث ليريح راسه من افكاره وقال :

ـ هذا حق يا سيدى .

- ومن كان يصـــدق ان يعترف الانجليز بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وان ينزلوا عن التحفظات الأربعة ؟.. اتظن أن تلغى الامتيازات حقا ؟

- اعتقد هذا .

فقال الرجل بسرور :

- سيحكم النحاس الى الأبد . انتهى عهـد الانقـلابات . حضرتك وفدى ؟

- نعم ...

- قرأت هذا فى سماحة وجهك . الوطنى هو الوفدى ، وما الأحرار الدستوريون الا انجليز بطرابيش بصرف النظر عما يقال عن الائتلاف وفوائده .

- هذا حق لا شك فيه ...

- حضرتك مسافر الى الاسكندرية ؟

- الى طنطا فقط .

- شى لله يا سيد يا بدوى ، لقد عشت فى طنطا اعواما ..

ولاح الاهتمام فى وجه حسين فسأل :

- انى موظف جديد ، فهلا دللتنى على فندق معتدل الأسعار يصلح للاقامة ؟

فجعل الرجل يدعك ذقنه بيده متفكرا ثم قال :

- عليك بفندق بريطانيا بشـارع الأمير فاروق لصـاحبه ميشيل قسطندى .

يمكن ان تقيم فى حجرة نظير جنيه ونصف شهريا ..

ثم تحدثا طويلا عن الاقامة فى الفنـادق وسكنى الشـقق والمفاضلة بينهما ...

٤٩

كانت حجرته بالفندق صغيرة ، ذات فرش لشخص واحد وصوان ومقعد خشبى ومشجب . وكان جوها يشى بالرطوبة الكامنة ، اذ كان بها نافذة واحدة تفتح على عطفة جانبية ضيقة ويحول بينها وبين الفضاء جدار بيت قديم ، فلم تجد الشمس سبيلا اليها . وكان يوجد بالفندق حجرات تطل على شارع الأمير فاروق ولكنها مرتفعة الايجار فعدل عنها الى هذه الحجرة البسيطة قائلا لنفسه : « من العدل ان اعيش كمايعيشون فى عطفة نصرالله » . وكان اول ما فعل ان فتح النافذة واطل منها مدفوعا بحب الاستطلاع فوقع بصره على عطفة حقيرة تقوم على جانبيها بيوت قديمة فعجب للفارق الكبير بينها وبين الشارع الذى تتفرع منه ، ثم راى جدار البيت الذى يحجب عنه الفضاء فداخله ضيق وايقن بانه لن يظفر فى وحدته بتسلية . وتحول عن النافذة الى مرآة الصوان فطالعته صورته فى هيئة غريبة ، بدا وجهه طويلا وقسماته شائهة الى ما تناثر على صفحتها الباهتة من افرازات الذباب ، فتضاحك وقال مخاطبا صورته « انى اجمل منك بفضل الله ورحمته » ثم مضى يخلع ثيابه ، وارتدى جلبابه ، ورتب ملابسه القليلة فى الصوان الذى بدا على صغره فارغا ، والواقع انه لم يكن يملك غير بدلة وجلبابين وملابس داخلية من نسختين ، وجميعها قديمة عملت بها يد الرفو والترقيع ، وعلى سبيل الاطمئنان دس يده فى جيب الجاكتة واخرج رزمة الجنيهات وعدها ثم اعادها الى مكانها وقد عاودته ذكرياتها الأليمة ، ثم ذهب الى الفراش وتربع عليه . لا يدرى ماذا يفعل فى بقية النهار ، ولما لم يجد احدا يحادثه ولا عملا يعمله فقد استسلم بكليته الى التاملات

والأحلام . وشعر بالوحدة والدهشة ، وادرك انه سيعانى مر العناء من فراغه . اجل انه يحب القراءة ولكن حتى اذا امكنه ابتياع ما يريد من الكتب فسيظل لديه من الفراغ ما يضيق به . لم يالف الحياذ فى هذا الصمت الثقيل ، وشعر فى وحدته الصامتة بانه شىء ضائع تافه لا يحفل به أحد ولا يابه له أحد . اين صوت حسنين الحاد العصبى الذى لا يفتأ يضج بالضحك او بالشكوى ، اين صوت نفيسة الرفيع وتعليقاتها اليومية الساخرة على الجيران والحوادث . ولكنه لم يشأ الاستسلام لشعوره ، وآثر ان يبحث شئون ميزانيته التى سينظم معيشته على اساسها . مرتبه سبعة جنيهات ، مبلغ لا باس به فى ذاته لولا ما يحدق به من ظروف ، منه اجرة سكن ١٥٠ قرشا ، و ٢٠٠ قرش للأكل لا يجوز له ان يتعداها بحال ، فول للفطور ، وطبق خضر باللحم وارز ورغيف للغداء ، وحلاوة طحينية أو جبن للعشاء ، واذا دعا الأمر اقلع عن العشاء كما اعتادوا ان يفعلوا طوال العامين المنصرمين ، ومهما يكن من امر فلن يسمح لمعدته بان تكون مصدرا للمتاعب والارتباك ، انه اعظم من هذا وبوسعه ان يقرر هذه الحقيقة الآن ، وهو فى مأمن من معارضة حسنين ، وان تحمل المضايقة فى سبيل الحياة التى يرضى فيها عن نفسه لألذ من شهوة الطعام . ثم ٢٠٠ قرش لأمه ، وهو قدر زهيد ، وكان بوده لو يضاعفه ولكن لا حيلة له فلم يبق لنفقاته النثرية وكسائه الا ١٥٠ قرشا فيما عدا الضرائب التى تخصم عادة من المرتب . ثم تساءل فيما يشبه الحيرة الا يمكنه أن يقتصد ولو مبلغا قليلا فى صندوق التوفير ؟ ! . انه لا يطيق الحياة بلا اقتصاد من اى قدر كان ، ولا يظن أن انسانا احتضنته ام كامه يستطيع أن يمارس الحياة بلا اقتصاد . والحق أن امه بين النساء كألمانيا بين الدول قادرة على الاستفادة من كل شىء ولو كان زبالة ! . كانت ترقع البنطلون حتى اذا بلغ اليأس قلبته ، فاذا ادركه اليأس مرة اخرى قصت اطرافه وجعلت منه سروالا داخليا ، ثم تصنع من

بعضه طاقية وتستعمل بقيته ممسحة ، ولايلفظه البيت الا فتيتا !
لابد من الاقتصاد مهما كلفه الأمر ، وان قسوة الحياة التى عضتهم بلا رحمة لحرية بان تجعل من الاقتصاد عقيدة لهم . وعندما بلغ هذا الحد من التفكير تداعت الى نفسه مشاعر الخوف التى كانت تعذب أسرته بسبب وبلا سبب ، والتى لم يكن من باعث لها الا الفقر . اجل كانوا فى خوف دائم من ان تزيد النفقات الضرورية على الايراد المحدود ، كأن يتعرض احدهم للمرض ، او يجد من ناحية المدرسة طلب ، أو تتعطل نفيسة عن الكسب ردحا من الزمن او أو او ، مما لا يقف عند حد ، اواه لشد ما يشعر بغمز الألم فى صميم قلبه وهو يجتر هذه الذكريات ، ومن خلالها يتراءى لعينيه وجه امه المعروق الجاف كمثال حى للصبر والألم ، احب الوجوه الى قلبه على بؤسه ودمامته ، ومن عجب ان نفذت الى نفسه - وقتذاك - نسمة مطلولة بغتة لشعوره بانه بات قادرا على التخفيف عنها مما يثقل كاهلها . أجل انه من الغد موظف من موظفى الدولة ، وبعد أعوام قصيرة او طويلة يصبح حسنين موظفا أيضا من درجة اعلى ، وسيفاخر هو مدى الحياة بانه قنع بشهادة متوسطة لييسر لأخيه الحصول على شهادة عليا . ترى هل يذكر حسنين هذه العبر ؟ . انه يبدو مشغولا بأمر نفسه عما عداها ، ذكى بلا ريب ، ومجتهد ، بيد انه . . . آه فليمسك عن نقده فى غربته ، فما اشد حنينه اليه ، وما اكبر شوقه حتى الى عناده وملاحاته . ومزق الصمت صفير قطار قطع عليه أفكاره وخفق قلبه . وكان الفندق غير بعيد من المحطة ، فلم يكن بد من ان تذكره القطر بين آن وآن بالقاهرة واهلها . وعاودته ذكريات الوداع فنهشت قلبه حتى سح حنينا دافقا . ثم غشيت قلبه سحابة مظلمة من الوحشة والكآبة فقال لنفسه يصبرها ويعزيها : لعلها ضريبة اليوم الأول للفراق ثم يهون الأمر رويدا رويدا . وتحير ماذا يفعل ، هل يقضى سحابة اليوم

فى هذه الحجرة او ينطلق الى الخارج ليجول جولة فى المدينة الجديدة ، ثم خطر له خاطر هبط على نفسه كما تهبط اداة النجاة على المتخبط بين الأمواج ، وهو ان يكتب رسالة لأخيه . وجاء بخطاب وبدأ يكتب بلا توان فوصف رحلته والفندق وصاحبه قسطندى وحجرته واشواقه ثم حمله تحياته الى امه ونفيسة ، ثم توقف متسائلا هل يهدى تحية لى بهية ؟ هل يذكرها بالاسم ، أو يصفها بخطيبة اخيه او يقنع بتحية عامة لأسرة فريد افندى ؟ ثم آثر الأخيرة بعد تردد طال اكثر مما ينبغى . .

٥٠

وغادر حجرته فى الصباح الباكر ، ولكنه وجد الخواجا ميشيل قسطندى جالسا الى مكتبه البالى عند اسفل السلم . وقد سأله الرجل عما اذا كان يحتفظ بشىء ثمين فى حجرته ، فابتسم حسين على رغمه وقال له « الأشياء الثمينة فى جيبى » . وانطلق الى الطريق ، ثم قصد مطعم فول فى نهايته كان عرف موقعه فى اثناء جولته أمس بالمدينة ، وتناول فطوره ، ولفت نظره بصفة خاصة سلطة حمص لم يعرف لها نظيرا فى القاهرة . وتمشى فى المدينة حتى التاسعة ثم ذهب الى المدرسة الثانوية ليقدم نفسه الى الباشكاتب ويتسلم عمله رسميا . وقد اهتزت نفسه لمرأى المدرسة ، وعاودته ذكريات قريبة حية لاحت فى عينيه كالحلم . وعرف البواب بشخصيته فمضى به الى حجرة الباشكاتب وطلب اليه ان ينتظر حتى يحضر الرجل عما قليل . وجلس حسين على كرسى قريبا من المكتب وجعل ينظر خلل الباب المفتوح الى فناء المدرسة فى جو يثقل عليه الصمت . بعد اسبوع يبدأ العام الدراسى وتمتلىء هذه المدرسة بحياة حارة . وذكر كيف كان

ـ منذ اشهر ـ يقضى اسعد اوقاته بالمدرسة فى مثل هذا الفناء ، وكيف كان يمتلىء خشوعا حيال اى موظف من موظفيها . انه الآن احد هؤلاء الموظفين ، بيد انه لم يستسلم للزهو . ان التلميذ حلم اما الموظف فحقيقة ، التلميذ مشروع مستشار او وزير اما الموظف فدرجة ثامنة لا اكثر . ولم يطل به الانتظار فما عتم ان صكت اذنيه سعله غليظة ونحنحة عميقة ثم ازيز بصقة ، وراى على الأثر رجلا يقتحم الحجرة مهرولا ، قصير القامة ، رقيق الجسم ، كروى الوجه ، اعمش العينين . تعلوه صلعة ناصعة البياض ، وقد قبض على طربوشه بيد وراح يجفف صلعته بمنديل باليد الأخرى ، وما ان وقعت عيناه على الشاب حتى صاح به :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، كيف طلعت هنا ؟ .. هل بت ليلتك فى حجرتى ؟ .. تلميذ مستجد ؟ !

فوقف حسين مرتبكا وقال :

ـ انا يا بيك الكاتب الجديد حسين كامل على ..

فقهقه الرجل ضاحكا ، ولكن ادركه السعال وعاودته النحنحة فامتلأ فمه مرة اخرى ونظر حوله فى حيرة ، ثم جرى الى الخارج ، وغاب نصف دقيقة ثم عاد احسن حالا وهو يقول كالمعتذر :

ـ لعن الله البرد ، اصاب به كل مطلع فصل من فصول السنة ، فتجدنى فى حيرة دائمة ما بين فصول السنة وفصول المدرسة ، لا مؤاخذة يا حسين افندى السلام عليكم اولا ..

فمد حسين يده مبتسما وهو يرد تحيته باحسن منها ، ثم جلس الرجل الى مكتبه ودعاه الى الجلوس فجلس ، وانشأ الباشكاتب يقول :

ـ اسمى حسان حسان حسان . العادة فى اسرتنا أن يتسمى الابن الاكبر باسم ابيه ، الم تسمع باسرة حسان بالبحيرة ؟ ... كلا ؟! ... كلا كلا يا سيدى ، الله الغنى ، التلاميذ الكلاب يدعوننى بحسان اس٣ .

فضحك حسين ملء قلبه ، ولكن الرجل حدجه بنظرة انتقاد من بصره الأعمش وقال :

- علام تضحك ؟ الم تتخلص بعد من عقلية التلاميذ ؟ وبهذه المناسبة اقول لك انى رجل عصبى جدا ولكن قلبى طيب . وكثيرا ما العن ابا احسن واحد ، بلا قصد سيىء ومع الاحترام الكلى للشخص الملعون ! . فافهمنى ولا تنس انى فى سن والدك !

فقال حسين فى ارتباك شديد :

- لن يحصل بيننا ما يثير الغضب ان شاء الله .

- ان شاء الله . احببت ان اعرفك بنفسى ، هذا كل ماهنالك . انى العن نفسى كثيرا . اللعن مريح فى احايين لا حصر لها ، ولولاه لمات كثيرون كمدا . ستعلم عما قريب معنى العمل فى مدرسة « ثم متنهدا » وصل الكتاب الخاص بتعيينك من الوزارة (وبحث عنه فى أوراقه حتى وجده) وهو الرقيم ١١٧٥ بتاريخ ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٣٦ . وقد جئتنا ونحن فى اشد الحاجة اليك ، وستبدأ الآن فى مراجعة كشوف الأسماء والمصروفات . لقد تزوج الكاتب السابق من كريمة مفتش بالوزارة فنقله فجاة الى القاهرة . حضرتك متزوج يا حسين افندى ؟

فقال حسين مبتسما :

- كنت تلميذا حتى الربيع الماضى !

- وهل تظن التلمذة مانعة من الزواج ؟ لقد تزوجت وانا تلميذ بالثانوى ، وهذه ايضا من عادات اسرتنا كتسمية الابن الاكبر باسم أبيه . وكان لنا عادات اخرى عظيمة ابطلها صدقى باشا لا سامحه الله . .

فنظر حسين متسائلا فاستدرك فى حزن قائلا :

- والدى حسان بك وفدى كبير واحد اعضاء الهيئة الوفدية . وقد طالبه صدقى باشا أثناء حكمه المشئوم بالانفصال عن الوفد ،

ولما ابى كما ينتظر منـــه حرمه معونة بنك التسليف فى عز الأزمة فبيعت الأرض وضاعت الثروة .

فقال حسين :

ــ ولكن النحاس قد عاد الى الوزارة ؟

ــ ولكن الأرض ضاعت . والأدهى من هذا كله ان صـدقى انضم الى الوطنيين وقد خطب اول هـذا العـام فى مستقبليه بدسوق فبلغهم تحيات « زعيمى النحاس » يا خسارتك يا حسان حسان حسان !

فتظاهر حسين بالتاثر وغمغم :

ــ ربنا يعوضكم عن خسارتكم خيرا . .

فهز الرجل راسه ، وسكت دقيقة ، ثم قال :

ــ حظك سعيد اذ عينت فى المدرسة بعد ان ولى عهد الاضراب . كادوا يحرقون بنا المدرسة اثناء المظاهرات الأخيرة لعن الله المظاهرات والطلبة وصدقى باشا . اين تقيم يا حسين افنـدى ؟

ــ فى فندق بريطانيا .

ــ فندق ؟ ! . خيبك الله ، معـذرة ، اعنى سامحك الله . الفندق مقام غير صالح للاقامة الطويلة ويجب ان تبحث فورا عن شقة صغيرة . .

ــ ولكنى لم احمل معى اثاثا ؟

فتفكر حسـان افندى وهو يقرض اظافره باهتمام طارىء ثم قال :

ــ فرش حجرة لن يكلفك كثيرا ويمكن ان تؤدى ثمنه مقسطا بضمانتى اذا شئت . . .

وعاود التفكير وهو يتفرس وجه الشاب واستطرد :

ــ توجد شقة مكونة من حجرتين على سـطح البيت الذى اقيم فيه لن تزيد اجرتها عن جنيه واحد فما رايك ؟

وثار اهتمام حسين لأول مرة بعد سماع قيمة الايجار فقال :

ـ سأفكر فى الأمر جديا ..

ـ الأمر واضح مثل ١ + ١ = ٢ والآن هلم الى العمل فان الأورق اكوام مذ تزوج ابن القديمة ونقل الى القاهرة ..

٥١

وقرر حسين افندى ان يبقى فى الفندق حتى يتسلم مرتبه اول الشهر الجديد ، واخذ يقتنع بمرور الأيام بوجوب الانتقال الى شقة خاصة يتهيأ له فيها الشعور بالاستقرار والطمأنينة على وجه افضل . وكان حسان افندى دائبا على تزيين فضائل الاقامة فى شقة له ، حتى هل الشهر الجديد فابتاع له فراشا وصوانا صغيرا ومقعدا بحوالى الجنيهين تم الاتفاق على ادائها على اربعة اقساط بضمان حسان افندى ، ولما كان ايجار الشقة جنيهها فلم تزد نفقاته شيئا . وكانت الشقة الجديدة تشغل نصف سطح البيت الذى يقيم حسان افندى بطبقته الوسطى ، وكانت مكونة من حجرتين غير المرافق . فأغلق الشاب حجرة لعدم الحاجة اليها وفرش الأخرى بالأثاث الجديد وكان للحجرة نافذة تطل على شارع ولى الله ـ حيث يوجد مدخل البيت ـ وينسرح امامها الفضاء بلا عائق لارتفاعها عما حولها ، فشعر الفتى ـ بعد ضيق ـ براحة الفضاء وطلاقة الجو ، وسر لذلك كثيرا . وكان يوم انتقاله الى الشقة الجديدة يوما سعيدا حقا ، اذ انه وجد نفسه ـ لأول مرة فى حياته ـ صاحب بيت واثاث ومرتب . ولم يكن نسى ذلك الاحساس اللطيف بالارتياح والسرور الذى انبعث فى نفسه وهو يتسلم مرتبه صباح ذلك اليوم ، ولا كيف دارى ابتسامة انطلقت من قلبه الى شفتيه حياء ان يطلع الصراف على فرحه ، ولكن هذا السرور كله لا يعد شيئا الى السرور الذى امتلأ به قلبه وهو

يبعث بالجنيهين الى امه ، كانت لحظة عظيمـة عرف اثناءها ان صبره الطويل لم يذهب سدى . وما كاد يستقر به المقام حتى زاره حسان افندى مهنئا وقال له « لن تكون غريبا مادمت بيننا » فشكر له فضله وحفظ له فى نفســه من الامتنان ما هو خليق بقلبه الشكور ، وغفر له ما يلقى منه فى المدرسة من حدة الطبع وسوء التصرف والارتباك فى العمل ، والحق انه قد الف هوسه متعزيا بطيبــة قلبه وخفة روحه ، ولم يرض حســان افندى ان يتركه منفردا ودعاه الى قضاء سهرته بشرفة شقته فذهب معه مغتبطا وجلسا معا وحسان افندى يقول :

ــ يبدو لى انك لا تحب المقــاهى فاجعل من هــذه الشرفة ناديك الليلى ..

وكانت الشرفة مهيأة للجلسة الطيبة ففى جانبها الأيمن كرسيان كبيران من القش بينهما خوان وفى الجانب الآخر شلتة كبيرة تقوم وراءها وسادة ، وعلى خوان فى ركن من الشرفة وضعت صينية صفت بهـا قلتان وابريق وقد عام على المـاء المتجمع فى وسطها الليمون البنزهير . وراح حسان افندى يتحدث بلا توقف تقريبا وكيفما اتفق ، وقد بدا فى جلبابه الفضفاض اصغر منه فى البدلة فلم يكن شيئا يذكر ، او كان لسانا فحسب . ورحب حسين بالجلسة لما عاناه من الفراغ فى الأسابيع الماضية ، فلم يكن يدرى ماذا يفعل بالوقت ، ولم تنفع القراءة فى تزجية فراغه الا قليلا ، لا لأنه كان يضيق بها ولـكن لأن نقوده لم تسعفه بشراء ما يحب من الكتب فاكتفى مضطرا بكتاب غير الجريدة اليومية . وجرب الاختلاف الى المقهى ولكنه لم يهش له وخاف ان يجره الى بعثرة نقوده المعدودة فيما لا يجدى . وكان بطبعه حريصـا ، لهذا كله رحب بدعوة حسان افندى وصدقت نيته على ان يجعـل منها تسلية محبوبة مهما كلفه هذا . وتادى الحديث الى الشقة الجديدة فقال حسان افندى :

- لا يهمك تنظيف شقتك فقد امرت الخادم بأن يتعهدها بالتنظيف كل صباح ، وسوف أوصى غسالة تعرفها « الجماعة » بأن تذهب اليك كل يوم جمعة .

فشكر حسين صنيعه فى حياء وتأثر ، ولكنه تضايق بعض المضايقة لانه كان يستطيع ان ينظف حجرته بنفسه ، ولأن قيام الخادم بهذه الخدمة اليومية يوجب عليه أن ينفحه ببعض النقود بين آن وآخر الامر الذى لا يمكن ان يتقبله بارتياح . وضحك حسان افندى بسرور ثم قال :

- أما مفاجأة المفاجآت التى اعدها لك فهى النرد ... هل تجيد لعبها ؟

فقال حسين بسرور :

- بعض الاجادة ..

فغادر الرجل الشرفة بحماس ثم عاد بالنرد ووضعها على الخوان وهو يقول بفخار صبيانى :

- أنا بحمد الله خير من يلعبها بالوجه البحرى ، وربما بالقبلى ايضا ..

سر حسين حقا بهذه التسلية التى لم يكن يتوقعها وتساءل :

- عادة ام حبس ؟

فقال حسان افندى بثقة :

- اختر لنفسك ما تشاء ، انك على الحالين لمغلوب ..

وبدءا يلعبان . وقد اتضح لحسين أن حسان افندى يرش وجه المستمع اليه عن قرب برذاذ ريقه اذا حادثه فامل ان يلهيه اللعب عن الكلام ، ولكنه كان يواصل اللعب والكلام معا ، وكان اللعب نفسه يهيىء له فرصا لا تنتهى للثرثرة فكان يعلق على اية نقلة للقطع مزهوا بلعبه ساخرا من لعب الشاب ، ثم صاح به بعد أن غلبه أول عشرة :

- العن ســوء الحظ الذى رمى بك بين يدى ، وهيهات ان تذوق الفوز ما دمت حيا ..

وعاودا اللعب بحماس وتحفز ، وانهمك فيه حسين انهماكا شديدا فلم يفق حتى طرق سمعه صوت اقدام خفيفة تقترب من الشرفة ، والتفت نحو الباب بحركة عكسية فراى فتاة تحمل بين يديها صينية شاى ، وسرعان ما استرد بصره فى حياء وارتباك لانه ادرك من اول نظرة ان الفتاة لا يمكن ان تكون خادمة . واحس بشخصها احساسا غامضا وهو ينحنى قليلا ليضع الصينية على كرسى خيزران ، ثم به وهو يذهب مبتعدا . ولم يكن بصره قد ارتد عنها فارغا ، اجل علقت به صــورة وجه ممتلىء يميل الى البياض ، وعينين سوداوين - او لعلهما عسليتان ؟ - ذواتى نظرة مليحة . ولبث فى ارتباكه مورد الوجه على حين امسك حسان افندى عن ثرثرته بغتة ، ثم عاد يقول بصوت منخفض :

- هذه ابنتى احسان ، لم ار باسا فى ان تقـدم لنا الشــاى ما دمت اعدك كأحد ابنائى ..

وحرك حسين شفتيه كانه يتكلم ولكنه لم ينبس بكلمة ، وقال حسان افندى وهو يصب الشــاى فى القدحين :

- البنت فى البيت نعمة كبرى ، لقد تزوج اخواتها واحدة فى القاهرة واثنتان فى دمنهور ولم يبق غيرها !

تمتم حسين فى ارتباك :

- ربنا يفرحك بها ..

ومضيا يحتسيان الشاى فى صمت . واخذ الارتباك يذهب عن حسين مخلفا وراءه شعورا بالحرج لم يدر له سببا واضحا ، او لعله تهرب من الســبب وتجاهله . ووجد الى هذا انه لا يزال متاثرا بما علق فى مخيلته من صورة الفتاة على غموضها ، تاثرا يعرفه فى نفســه حيال اية فتاة ولا دلالة خاصــة له سوى انه انفعال مكتوب على كل شاب بصفة عامة ، وكل شاب بكر بصفة

خاصة ، ولعل انبعاثه هذه المرة فى بيت - لا فى الطريق ولا فى الترام - هو الذى اشاعه فى جو من الحيرة والبهجة والعمق . وكان حتما ان يفكر فى امور اخرى بعيدة عنه بعد القاهرة فتساوره مشاعر خوف وحذر ، ولبث حسان افندى يراقبه صامتا ، ثم ضاق بالصمت فقال :

- اشرب شايك وتاهب للعشرة الآتية ، وقعت فى مخالبى ولا نجاة لك .

٥٢

كانت على درجة من الحسن تسوغ تأثره ، وقد صدق ظنه فيما تلا من ايام واسابيع فرآها فى الطريق بصحبة امها ، ولمحها فى البيت اكثر من مرة . ومن حسن الحظ انها لم ترث من هيئة أبيها الا خديه المتنفخين ، ولكنهما جعلا لها طابعا خاصا ولم يقبحا وجهها . وأدرك بسهولة أن شقة حسان افندى باتت تجذبه اليها بقوة لا يبررها نشدان التسلية وحده . وكان يمتلىء شبابا وحيوية ، فكأن قلبه كان ينتظر اول طارق ، وسرعان ما ترعرعت بين جنبيه عاطفة يضطرم فيها الميل والرغبة والاعجاب ، فرامها انسا لوحشته وريا لظمئه ، ولكن لم تغب عنه دقة موقفه لحظة واحدة من بادىء الأمر ، فلم يكن يغفل عن متاعبه ، ولم يدر له بخلد ان يتراخى فى القيام بواجبه ، بيد انه لم يعالج امره بالحزم ، وكان هذا فوق طاقتـه ، وكان عليه ان يختار بين الاغضاء من ناحية وبين الانزواء فى حياة جافة موحشة لا نسمة فيها ولا امل . واشتدت به الحيرة ، وفكر مرارا فى العودة الى الفندق منتحلا عذرا من الأعذار ، ولكنه لم يفعل ، ثم وجد نفسه يسلم للأقدار تاركا لها الأمر كله تقضى فيه بقضائها . وتواصلت الأيام دون أن

يجد جديد ، وكان نادرا ما يرى الفتاة ولكنها لم تغب عن خاطره قط ، اما حسان افندى فلم يخرج عن مالوف ثرثرته وتجاهل الأمر كله . وفى اثنـاء ذلك لم تنقطع عنه اخبار اسرته بفضـل رسائل حسنين التى لا تترك كبيرة ولا صـغيرة ، فكانه يواصل حياته بينهم ، ويشاركهم عواطفهم جميعا . وقد اخبره بان امه قررت أن ترصد النقود التى يرسلها لضرورات الكساء وحده ، وانه ظفر منها بجاكتة جديدة يرتديها مع البنطلون القديم ، وانها ابتاعت لنفسها روبا ترتديه فوق فساتينها الخفيفة فيكسبها دفئا تستغنى به عن الملابس الصوفية ، وكان من نتائج ذلك ـ رصد نقوده لضرورة الكساء ـ انهم لم يستطيعوا الانتفاع بها فى تحسين حالهم الغذائية التى ظلت على مايعلم من التفاهة والسوء . وحدثه عن نفيسة فقال انها تظفر من آن لآن بتقدم يسير وأن الأم لم تعد تستولى على جل كسبها كما كانت تفعـل قبل ورود نقوده ، فتوفر لديها مال قليل تنفقه على ثيابها كى تظهر امام الناس بالمظهر اللائق بهم . اما حسن فيبدو ان حياته الجديدة تستاثر به استئثارا شغله عنهم ، او لعله ظن بعد توظفه ـ حسين ـ انهم لم يعودوا بحاجة اليه فانقطع عنهم انقطاعا كليا . وواصل موافاته بانباء استعداده لامتحان البكالوريا فى نهاية العام قائلا انه يستبسل فى مذاكرته لأنه يعلم ما يعنيه سقوطه . وفى آخر رسالة وردت منه تودد الى اخيه توددا كبيرا ثم ساله فى ختامها هل يطمع أن يمده بثمن بنطلون منجما على اشهر ثلاثة نظرا لأن الجاكتة الجديدة قد فقدت بهاءها فوق البنطلون القديم الناحل ؟ ووقف حسين عند هذا الرجاء متفكرا ، لا يدرى ان كان يستطيع ان يحقق له رغبته دون مساس بالقدر الذى يودعه صندوق التوفير . ولكن فيم يفكر وهو يعلم بانه لن يخيب لحسنين رجاء ؟ . ربما كان بوسعه ان يزجره لو لم يفرق بينهما هذا البعاد ، ولكن البعاد رقق قلبه وجعل حنينه الى اهله قوة لا تقاوم . أجل انه حريص لا يرحب بتاتا

ببعثرة النقود ، ولكن حرصه يتخلى عنه بلا عناء كبير اذا كان البذل لأهله . ولن يضيره التقتير على نفسه ثلاثة اشهر كثيرا فى سبيل ارضاء حسنين . انه يعرفه حق المعرفة ، ويعلم بانه يعد ما يقدم له من خير واجبا على الآخرين ، فاذا لم يسعفه بالبنطلون نسى فى حنقه صنيع الجاكتة . ووجد الى هذا شعورا غريبا يدفعه الى ان يغمر بجميله الفتى الذى يؤمن بانه سيكون له مستقبل باهر غدا . لقد ضحى بمستقبله فى سبيله وينبغى ان تكون التضحية كاملة . وعاوده ذلك الشعور السعيد الحزين بانه الضحية الصابرة على الأقدار التى تجهمت لهم ، وانه الدرع الذى يتلقى الضربات دون ان يتحطم ، انه عزاء يستمد منه قوة وسرورا ، ويضفى على حياته معنى خلقيا باهرا .

ثم حدث ما لم يقع له فى حسبان ـ هكذا قال لنفسه وان لم يكن صادقا ـ اذ كان يوما يجالس حسان افندى ويتنازعان الحديث كالعادة ، فسأله الرجل :

ـ ألم تفكر فى الزواج ؟

فاضطرب الشاب ، وشعر بما يشبه الذعر ، ثم غمغم قائلا :

ـ كلا ....

فرفع الرجل حاجبيه مستنكرا وقال :

ـ وفيم تفكر اذن ؟ ولماذا تعيش ؟ هل تظن للرجل من غاية ، خاصة اذا اطمأن جانبه بالوظيفة ، سوى الزواج ؟

وتردد حسين قليلا ثم قال :

ـ على واجبات خليقة بالتقديم عما عداها .

ثم صارحه بما يكتنف اسرته من متاعب مستعينا بالمبالغة احيانا حتى يقوى مركزه حياله . واصغى الرجل اليه باهتمام حتى انتهى من قصته ، ولكنه لم يبد عليه الاقتناع ، ولم يكن على استعداد للاقتناع بما يحول بينه وبين امانيه ، ثم هز رأسه الأصلع باستهانة وقال :

ـ أراك تبالغ فى تقدير خطورة الحال . حسبك الصبر حتى

يحصل اخوك على البكالوريا ، ثم تكون فى حل من التحرر من مسئوليتك ، وعليه هو ان يتوظف بدوره . النحاس باشا نفسه تزوج فهل ترى نفسك اكبر مسئولية منه ؟!

فضحك حسين فى ارتباك وقال :

ــ ولكن اخى مصمم على استكمال تعليمه ..

فعاد الرجل يقول هازئا :

ــ اسمع اذا كانت لك اهداف فى الحياة كاعادة دستور سنة ١٩٢٣ مثلا فالأخلق بك ان تؤجل زواجك ، ولكن دستور سنة ١٩٢٣ قد عاد والحمد لله فلماذا لا تتزوج ؟ .. يجب ان تتزوج فى نهاية هذا العام حال توظف اخيك ، اما اذا اصر على تكملة تعليمه ووافقت والدتك على هذا فلا يحق لها ان تعارض فى زواجك ، أجل لا يحق لها ان تدلل واحدا على حساب حرمان الآخر من حقه الأول فى الحياة .

ووجد حسين حديث الرجل مؤثرا اكثر منه مقنعا ، ولكنه لم يشأ ان يقطع بالرفض ان تنفصم ما بينه وبين الرجل من اسباب المودة ، فقال :

ــ اعتقد انه من الممكن ان احقق آمالى دون ان اقضى على آمال أخى ..

وكان حديث الزواج يدور دون هدف معين فى الظاهر ولكن التفاهم الصامت عن الهدف كان تاما بينهما ، وسبقت اليه اشارات فيما ينشأ بينهما من احاديث كل مساء ، وكان حسين لم يشأ ان يقنع بهذا القدر من التفاهم فقال فى حياء شديد :

ــ واظن آنسة احسان لم تعد أولى خطى الشباب ...

فضحك الرجل عاليا وقال :

ــ احسان صغيرة طبعا ولكن الزواج لم يخلق للكبار ..

لم يتقدم الموقف عن هذا الحد فيما تلا ذلك من ايام حتى اقترح حسان افندى ان يقدمه لبعض اقاربه فى حفل عائلى فلم

يسع حسين الا القبول . وخجل ان يظهر امام الأقارب بمظهره الذى لا يسر حبيبا ، وركبه فجاة مايشبه الجنون ـ هكذا وصفه فيما بعد ـ ففصل بدلة جديدة على اقساط وابتاع حذاء وطربوشا مدفوعا الى هذا كله بعواطفه ونزوته الطارئة حتى اذا جاء اول الشهر أدرك انه من المستحيل أن يرسل النقود الى أمه ، وارسل بدلا منها خطاب اعتذار كاذب يقول فيه ان مرضا الم به وانه انفق فى العلاج ما ناءت به ماهيته المحدودة . وقد كتب الرسالة بيد باردة ونفس منقبضة مقتنعا فى اعماقه بانه هوى من خطأ الى خطأ ، وان تعاقب الأخطاء قد افقده اتزان التفكير وسداد الراى فلم يحسن حتى اختلاق العذر . . .

٥٣

ثم كان يوم الخميس ، وكان حسين مستلقيا على فراشه يقرا جريدة الصباح التى يحتفظ بها عادة لوقت العصر ، فسمع دقا على الباب فظنه خادم حسان افندى ومضى الى الباب وفتحه واذا به يرى امه امامه . اجل امه دون غيرها ، ففغر فاه دهشة ، ثم اخذ يدها بين يديه هاتفا :

ـ أماه !. . فى طنطا ؟! لا اكاد اصدق عينى !

وشد على يدها ، ثم قبل خديها او تبادلا بالأحرى قبلتين ، وفى طريقهما الى حجرته سالها بدهشة :

ـ لماذا لم يخبرنى حسنين بحضورك كى انتظرك فى المحطة ؟

فجلست المراة على الكرسى الذى قدمه لها وهى تقول مبتسمة :

ـ لم أجد صعوبة تذكر فى الاهتداء الى مسكنك ، ان الاهتداء الى مسكن فى شبرا اشق من هذا بكثير . وقد اقترح حسنين على ان انتظر حتى يخبرك عن حضورى برسالة خاصة ولكنى لم اجد

داعيا لازعاجك وانت مريض كما لم احتمل البقاء فى القاهرة وانا أعلم انك هنا وحيد ومريض . . .

مريض !. . ايقظته هذه الكلمة من نشوة اللقاء فشعر بالخوف يقبض قلبه ، ولكنه قاوم الخوف بقوة الخوف نفسه فضحك وقال:

ـ يؤسفنى اننى ازعجتك يا اماه ، ولكنى ما كنت اطمع فى هذه النتيجة السارة وهى حضورك بنفسك . . !

وجعلت تتفحصه بعناية بوجه ينم عن اشفاق ورحمة ثم قالت :

ـ ماذا بك يا بنى ؟. . كيف حالك ؟ . . حدثنى عن مرضك ؟!

وداخله ارتباك بذل قصاراه كى لا تلوح اماراته فى وجهه . وكان واثقا من ان مظهره لا يشى بمرض ، بل لم يكن يخفى عليه ان صحته تقدمت تقدما ملموسا منذ توظفه لتحسن حالته الغذائية بصفة عامة ، قال ببساطة :

ـ لا شىء ذا بال . اصبت بنزلة معوية حادة ولكنها لم تلازمنى أكثر من يوم وبضع يوم . . .

فقالت وعيناها لا تتحولان عنه :

ـ لشد ما انزعجنا جميعا خصوصا وانك طمأنتنا على صحتك فى خطابك الأسبق . . .

ثم استدركت بعد وقفة قصيرة :

ـ وتوهمنا فى الأمر خطورة ، والعياذ بالله ، لما رأينا من اضطرارك قطع نقود هذا الشهر عنا . . .

وشعر بمثل شكة الابرة فى نفسه ، وقال بعجلة مبتسما ابتسامة باهتة :

ـ اضطررت الى استدعاء طبيب وشراء ادوية فانفقت اكثر من جنيهين ، وانت تعلمين انه ليس لدى احتياطى للطوارىء !

ـ لا عليك من هذا انى مسرورة لأنى وجدتك فى صحة جيدة ، ويحسن بك ان تبعث برسالة فى الحال الى اخيك لتطمئنه هو ونفيسة اللذين تركتهما فى اشد حالات القلق . .

ثم القت نظرة متفحصة على حجرته ، فعلق بصره بالبدلة الجديدة على المشجب فى خوف وقلق وتهيأ عقله لاختلاق كذبة جديدة ، ولكنها قالت :

— حجرتك نظيفة وأثاثها جيد . هلم ارنى شقتك ..

فضحك حسين قائلا :

— ليست شقتى الا هذه الحجرة ، وتوجد حجرة اخرى مغلقة لعدم الحاجة اليها .

— كأنك تستاجر حجرة بايجار شقة !.. الم يكن الفندق افضل ؟...

— على العكس فان ايجارها ينقص عن الفندق خمسين قرشا .

— اخبرتنا بانك لم تحتج الى خادم افلا يتعبك تنظيفها ؟

— كلا ، هذا على هين كما تعلمين !

فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :

— يبدو لى انك مرتاح ومسرور يا بنى ، ولذا فانا سعيدة ..

وخيل اليه أن الأزمة قد مرت بسلام فقال بارتياح صادق :

— أنا السعيد يا أماه ، وساستأثر بك شهرا كاملا .

فما تمالكت أن ضحكت وقالت :

— بل هذه الليلة فحسب . ليس لى مكان انام فيه ، وساكلفك اكثر مما تحتمل ما دمت تجىء بطعامك من السوق ..

وقبل أن يتكلم دق الباب فقام اليه ، وسمعت الأم صوتا يقول بلهجة ريفية « سيدى حسان يسأل عما اخرك اليوم » ثم سمعت حسين يعتذر بحضور والدته من القاهرة ، واغلق الباب وعاد الشاب الى مجلسه من الفراش فوجد امه تنظر اليه بعينين متسائلتين فقال :

— خادم جارى حسان افندى باشكاتب المدرسة ..

وكانت تعلم من رسائله انه الرجل الذى اقنعه بالانتقال الى الشقة وعاونه على ذلك بضمانته لأثاثه الجديد فقالت :

- يبدو لى من قول الخادم انك تمضى عنده فراغك .

وتوهم لحظة انها مطلعة على سره كله فقال دون ان ينظر اليها وهو يشعر بلسعة الخوف تجرى فى لعابه وتعترض زوره :

- كثيرا ما افعل . انه رجل طيب وهو الى هذا رئيسى وقد وجدت فى صحبته ما اغنانى عن المقاهى و « مفاسدها » .. لابد للانسان من تسلية يزجى بها فراغه ...

ثم قامت الأم الى الحمام فغسلت وجهها ، وخلعت معطفها فتناوله حسين ونفض عنه الغبار بفرشاته وهو يدعو الله ان تمر الزيارة بسلام . اجل قد تولاه القلق وخاف على سره الافتضاح واضطرب لوجودها فى موطن هذا السر فلعن الظروف السخيفة التى اجبرته على منع النقود عنها . وعادت المراة الى مجلسها واخذت تسائله عن احواله وحياته ، ولكن لم يمتد حبل الحديث طويلا لأن الباب دق مرة اخرى فذهب حسين ليفتحه فيما يشبه الحنق وكان القادم هو الخادم نفسه وقد قال بصوت بلغ مسمعيها:

- الست الكبيرة ترغب فى أن تحيى الست والدتك .

ونهضت الأم مسرعة وخرجت الى الردهة وقالت للخادم :

- لا يوجد مكان هنا لاستقبالها ، سازورها بنفسى ...

وذهب الخادم فعادا الى الحجرة وحسين يقول :

- لا داعى لهذه الزيارة ، ولا يجوز ان نفترق دقيقة واحدة فى المدة القصيرة التى تمكثينها هنا .

فتنهدت قائلة :

- مجاملات لابد منها ، ولا يخفى عليك انه يهمنى ان اجامل أسرة رئيسك ..

وعاودا حديثهما ردحا من الزمن حتى خفضت حدة النور واقبل الأصيل فنهضت الأم لترتدى معطفها قائلة « آن لى ان أزور حرم جارك » ، وراقبها الفتى بعينين كئيبتين حتى غادرت

الشقة ، ثم تنهد من الأعماق وتساءل « ترى هل يساورها شك ؟ ... كيف تنتهى هذه الرحلة ؟ ! » .

٥٤

ولبث وحده مغتما قلقا ، وتزايد قلقه بمرور الوقت ، ثم لم يعد يشك فى افتضاح سره ، ثم تساءل مدافعا عن نفسه فيم هذا الوهم كله ؟! عسى ان يمر كل شيء فى سلام ، لايمكن ان يلمحوا الى شيء ، هذا مؤكد ، ولكن هل تغيب عنها الحقيقة اذا رات احسان؟. وتنبه الى زحف الظلام فقام واشعل المصباح الغازى ، ثم سمع الباب يدق فدق قلبه معه فى عنف ومضى اليه ففتحه فدخلت امه وهى تقول :

ـ لا اظننى غبت كثيرا .

وعادا الى الحجـرة فوقف هو مستـندا الى حافة النافذة وراحت هى تخلع معطفها وحذائها فى صمت ، وجعل يقول لنفسه « وراء هذا الوجه شيء ، بل اشياء ، انى اعرف هـذا . اراهن على انها لم تتجشم السفر لتطمئن على صحتى . ليست امى بالأم الضعيفة ، انها حنونة حقا ولكنها قوية ما فى هذا من شك . ما افظع هذا الصمت ، متى ينقطع ؟ » وسألها متظاهرا بعدم الاكتراث :

ـ كيف وجدتهم ؟

فارتقت فراشه وتربعت عليه ثم قالت باقتضاب :

ـ لا ادرى لماذا لم يرتح قلبى اليهم !

انه يدرى لماذا ، برح الخفاء ، ووقع المحذور . وقال :

ـ الحق ان حسان افندى رجل طيب ...

ـ ربما . لم اقابله بطبيعة الحال ..

لن يسالها عما لم ترتح اليه منهم . فليتجاهل المسالة ، ولن يطول هذا طويلا على اية حال . ووجدها تنظر الى يديها اللتين شبكتهما على حجرها . انها تفكر فيما ينبغى قوله . لشد ما اخطأ . ما كان ينبغى ان يستسلم لاغراء الظروف التى انتهت بمنع ارسال نقوده هذا الشهر . كيف ضل عائل الأسرة ؟!. ورأى امه ترنو اليه بطرف واجم ثم تقول :

ـ اما وقد اطمأننت عليك فلا اظن ان يخجلنى ان اصارحك بأن منع النقود عنا قد اخافنى . اعذرنى يا بنى اذا اعترفت لك بانه ساورنى بعض الظن بأن يكون المرض مجرد اعتذار !

فصاح وهو لا يدرى :

ـ اماه !

ـ معذرة يا بنى ان بعض الظن اثم ، ولكنى كنت افكر طويلا فيما يمكن ان يلقى شاب وحيد فى بلد غريب . اجل انى اومن بعقلك ولكن الشيطان شاطر فخفت ان يكون اضلك ، ولا تسل عن حزنى وانت تعلم بأنى اعتمد بعد الله عليك . اخوك حسن لم يعد منا ، ونفيسة فتاة تعيسة الحظ ، وحسنين تلميذ وسيظل تلميذا طويلا ، وانت ادرى به ؟ وانا لنشقى ونجوع فى مغالبة حظنا ، وقد خسرنا نصيبك من المعاش وسنخسر عما قريب نصيب اخيك منه .

فقال حسين بانفعال :

ـ لست فى حاجة الى من يذكرنى بهذا يا اماه ، لقد اخطأ . . اضطررت الى منع النقود اضطرارا لا حيلة لى فيه . انى جد حزين يا اماه .

فقالت برقة وكأنها تحدث نفسها :

ـ انا الحزينة . .

ثم استطردت بعد لحظة صمت :

ـ انا الحزينة لانى ابدو كثيرا وكانى احول بين ابنائى وبين سعادتهم !

فقال بقلق :

ـ لشد ما تظلمين نفسك ، انت ام رحيمة كاحسن ما تكون الأم رحمة . .

ـ يسرنى انك تفهمنى يا بنى .

وتنهدت وهى تنظر فى عينيه ثم قالت :

ـ لا يقلقنى شيء فى حياتى كما يقلقنى مستقبل اختك نفيسة . اود لو اغمض عينى ثم افتحهما فاجدها فى بيت زوجها . ولكن كيف ؟ ! لسنا نملك لتجهيزها مليما ، واخوف ما اخاف ان أموت قبل ان اطمئن عليها . انتم رجال اما هى فمن الولايا اللاتى لا نصير لهن .

فصاح حسين مستنكرا :

ـ لن تكون بلا نصير ونحن على قيد الحياة . .

فتنهدت مرة اخرى قائلة :

ـ مد الله فى اعماركم ، ولكن الفتاة لا تضمن سعادتها فى بيت اخيها المتزوج !

ولاحت فى عينيه نظرة ذات معنى . انه يفهم ما يقال . اذا كانت الفتاة لا تضمن سعادتها فى بيت اخيها المتزوج ، وما دام حسنين فى حكم المتزوجين ، فلا يجوز له ان يتزوج !. منطق معقول ! ورحيم ايضا ! ، بيد انه ينطوى على حكم بالاعدام . ما عسى ان يقول ؟ لم يعد يخاف ان تنهال عليه ضربا كما كانت تفعل احيانا ، ولكنه لن يتخذ من هذا الأمان مسوغا لاغضابها ، وعلى العكس سيتخذ منه دافعا بريئا للمبالغة فى اكرامها . وقال بهدوء :

ـ اطمئنى يا اماه . ارجو الا تجد نفيسة نفسها يوما فى هذا المازق ! .

فهزت راســها هزة كأنها تقول له لنـــدع المداراة جانبا ولنتكاشف ثم قالت :

ـ الحق لقد الحت على بعض الخواطر فلم اجد فرجة الا فى ان اسافر اليك على مشقة السفر وكثرة النفقات .

فابتسم قائلا بلا وعى تقريبا :

ـ اذن لم تحضرى كى تطمئنى على صحتى !

وندم فى اللحظة التالية على افلات هذا القول منه ، ولكنها ابتسمت اليه ابتسامة حزينة وقالت :

ـ اصغ الى يا حسين ، اترغب فى ان تتزوج ؟

فتظاهر بالانزعاج ليخفى اضطرابه وقال :

ـ انى أعجب لما يدعوك الى هذا الظن !

ـ ليس أحب الى من ان اراكم ازواجا سعداء ، ولكن هل ترغب فى ان تعجل بالزواج حتى قبل أن تنهض اسرتك من كبوتها ؟

ـ لم افكر فى هذا مطلقا . .

ـ الا يضايقك تطفلى هذا ؟

ـ مطلقا !

ـ واذا اقترحت عليك ان تؤجل التفكير فى الزواج ، الا تجد فى اقتراحى ظلما ؟

ـ هو عين العدل والرحمة . .

فخفضت عينيها قائلة فى حزن :

ـ ليس شقائى الحق فيما نزل بنا ولكن فيما اراه واجبا مما يبدو لعين المتعجل قسوة وانانية . .

ـ لست هذا المتعجل على اية حال !

فترددت لحظة ثم قالت :

ـ ان ما اراه من حسن تقبلك لكلامى يشجعنى على ان انصحك بأن تترك هذه الشقة وتعود الى حجرتك بالفندق .

برح الخفاء ! واصيب بذهول ، ثم غمغم متسائلا :

ـ الفندق ؟!

فقالت بحزم :

ـ انت لا تدرى من امر الناس شيئا . ولعل جيرانك اناس طيبون ولكنهم لا يحفلون الا بمصلحتهم . واذا حافظت على جيرتهم كرهتنا وانت لا تدرى ؟.

٥٥

ولم يعودا الى هذا الحديث مرة اخرى فلم تكن الثرثرة من طبعها شأن الكثيرات من النساء . وقد قضيا صباح الجمعة فى سعادة شاملة ، حينا فى البيت ، ثم انطلقا فى المدينة لزيارة السيد البدوى ، ولكنها صممت على الذهاب الى المحطة مع الضحى فلم يسعه الا الاذعان لها مرغما . وذهبا معا وقطع لها تذكرة ، وفى اثناء انتظار القطار قال لها :

ـ سأبقى فى البيت حتى نهاية الشهر لأنى دفعت الايجار كما تعلمين ...

فكان جوابها ان دعت له بالتوفيق والسداد ، ثم جاء القطار فودعته وصعدت الى عربة من عربات الدرجة الثالثة وانحشرت بين جمع حافل من القرويات والقرويين ، وغشيته كآبة ثقيلة ، لأنه كان يقف منها موقف التوديع لأول مرة فى حياته ، فغمز القطار الذاهب قلبه غمزة قوية ، ولأنه عز عليه أن يراها منزوية فى العربة الحقيرة وسط البؤس والبائسين ، وعاد الى البيت كثير الهم والفكر . « أنا الملوم .. انى ادفع ثمن حماقتى . اى شيطان يخصنى بعنايته ؟. هذه هى المرة الثانية ، الخيبة تلاحقنى دائما . لا مفر » . وجاءه خادم حسان افندى يدعو والدته الى الغداء فأخبره بانها سافرت الى القاهرة . وجاءه مرة اخرى فى المساء

يدعوه الى السهرة المعتادة فلم يسعه الا الذهاب .

وجلسا حول خوان النرد فى الحجرة بعد ان احكم الشتاء اغلاق الشرفة . وساله حسان افندى :

ــ كيف عادت والدتك بهذه السرعة ؟

فاجاب حسين مبتسما :

ــ لا يمكن ان يستغنى عنها بيتنا اكثر من يوم . .

ــ تجىء الخميس وتذهب الجمعة ؟ !. . رحلة لا تستحق مشقة القطار !

ــ ولكنها حققت لها ما تريد فاطمانت على وتبركت بزيارة السيد . .

واشار الرجل الى داخل الشقة قائلا :

ــ قالوا لى انها ست طيبة جدا .

ــ بعض ما عندكم . .

فتساءل الرجل وهو يرمش بعينيه المعشاوين .

ــ كنا نود لو زارتنا قبل الرحيل !

ــ كانت متعجلة ، وقد حاولت ان اؤخر سفرها الى العصر ولكنها اعتذرت بحاجة بيتنا اليها . .

فقال الرجل باسف :

ــ واعددنا لها غداء طيبا فاخترت لها بنفسى ثلاث دجاجات مسمنة . . .

فابتسم حسين فى ارتباك وتمتم :

ــ بالهناء والشفاء لكم . .

وضحك الرجل ، ثم فتح علبة النرد ولكنه بدلا من ان يشرع فى اعداد القطع للعب ساله باهتمام :

ــ الم تفاتحها بما « اتفقنا » عليه ؟

فشعر حسين بحرج ولكنه قال :

ــ كلا . . .

ــ لِمَه ؟

ــ انها تعدنى رجل بيتها فكيف افاتحها بهذا ؟

فتناول الرجل زهر النرد فى قبضته وهزه ورماه ، ثم قال :

ــ انت رجل خواف . كانت امك خليقة بان تفرح لهذا النبا .

ــ انه خليق بالفرح اذا جاء فى حينه . .

فضحك الرجل ضحكة عالية ثم قال ببطء :

ــ لى فلسفتى الخاصة فى الحياة ، الق بنفسك فى عبابها ولا تخش شيئا . هل سمعت عن شخص واحد بمصر مات جوعا ؟

فقال حسين مبتسما :

ــ أصل شعبنا اعتاد الجوع !

فضحك حسان افندى واستطرد قائلا :

ــ كل الناس يعيشـــون . اغمض عينيك ثم افتحهما تجد الصغير كبيرا والتلميذ موظفا والأعزب متزوجا ولا تجد خاسرا الا من كان خوافا مثلك . هذه هى الحياة . .

خواف ؟! وضايقته هذه الصفة فثار عليها ثورة باطنية . ليس الخوف ولكنه أدرك الموقف على حقيقته . اكان يكون شجاعا حقا لو تخلى عن المراة وتركها تعود مهيضة الجناح خائبة الأمل ؟!. ليس الخوف . الرجل الأحمق يسىء فهمه . انه مصاب فى آماله ولا يجد من يرحمه ولا من يفهمه . وعندما بلغ هذه النقطة من افكاره وجد رائحة غريبة مفاجئة ، اجل وجد سرورا فى ان يكون على حق وان اساء الناس فهمه ، بل اكثر من هذا تركز السرور فى أن يسىء الناس فهمه وهو على حق ، سرور غامض كذلك السرور الذى يخامره وهو يستسلم لعنت القضاء . وقال مبتسما :

ــ انت يا حسان افندى من أسرة كبيرة فلا يمكن ان تدرك متاعب اسر كأسرتنا . . .

وندت عن الرجل ابتسامة خيلاء داراها بعبوسة مصطنعة وتمتم :

ــ عالج أمورك كما تشاء ولكن لا تنس نفسك . قال تعالى :

« ولا تنس نصيبك من الدنيا » . وكل آت قريب ، ما هى الا اشهر معدودات ثم يحصل اخوك على البكالوريا فيتغير الموقف . ارم الزهر لنرى من يكون البادىء باللعب . .

٥٦

وبعد مضى اسبوعين جاءته رسالة من حسنين ينبئه فيها بانه ادى رسوم الامتحان وانه يذاكر ليل نهار لضمان النجاح . وكان عظيم الثقة بذكاء اخيه ومقدرته فلم يداخله شك فى النتيجة المامولة . ونزعت به نفسه الى الأحلام مع انه لم يكن من الذين يستسلمون لسحرها عادة ، الى انه كان يؤمن بكذب هذه الأحلام بالذات . ورغم هذا كله تخيل اخاه قد فاز بشهادته . واقتنع بانه ينبغى أن يتوظف ليحمل العبء عنه ، ثم تخيل نفسه يبدا حياة سعيدة بضمير مطمئن ! . انه لا يطمح الى اكثر من حياة مطمئنة هانئة فى ظل الزوجية . وقد علمته هذه الحياة التى حملها منفردا فى شقته المقفرة معنى الأسرة فحن الى حضنها الدافىء حنين المقرور تحت مطر منهمر الى المأوى . لم يعد يطيق الاختلاف الى المطاعم العامة لتناول غذائه ، وبات وكانه يخاف الانفراد بنفسه فى حجرته ولو الى حين قصير ، واتعبه لحد السقم ما تتطلبه حياة الأعزب من رعاية متواصلة لشقته واثاثه وملابسه ، وكل هذا يهون الى جانب ما يعانى من جوع قلبه واشواقه . ولم يكن يحب الفتاة بالذات بقدر ما احب فيها المراة والحياة الزوجية ، ولكنها كانت المثال المحسوس لأحلامه فهفا اليها قلبه وحنينه . وزاد من تعلقه بها انه لم يكن يراها الا فى القليل النادر مما تجود به المصادفات السعيدة ، وحسب حسين انهم يتعمدون اخفاءها ، ولكن تبين له ان حسان افندى رجل محافظ حقا وانه قد يتسامح ولكن بالقدر

الذى لا يخدش حياء ولا يجاوز حدا . ولو ان حسنين رضى بالوظيفة لمضى من توه الى فتاته وضمها الى نفسه وحيى الحياة الحقة . هذا حلمه ، ولكنه مجرد حلم ، ولا يدرى متى يتحقق . وسيواصل حسنين تعليمه وما ينبغى له ان يحنق لهذا ، اجل فليدع الأمور تجرى كما يشاء الله ولينتظر . ولكن تبين له ذات مساء انه لن ينعم بالانتظار فى هدوء وطمأنينة ، اذ قال له حسان افندى عقب فراغهما من احتساء الشاى مباشرة :

ـ جد امر هام يستحق ان اشاورك فيه .

رفع اليه حسين عينيه متسائلا فقال الرجل باهتمام :

ـ الأمر أن ابن عم احسان ـ وهو تاجر ومزارع بالبحيرة ـ يرغب فى طلب يدها ، وقد رايت ان اسالك عن رايك قبل البت فى الموضوع برايى !!

وكانت مفاجأة سيئة وجم لها الشاب فى قهر وحيرة كانه لايصدق . والحق ان بعض الشك ساوره ولكنه وجد نفسه فى مأزق لايخرجه منه تشككه . وشعر بحنق انسان وضعته ظروف قاسية بين لا ونعم وهو عاجز عن الكلام ، فما عسى أن يقول ؟ ! اذا قال نعم خان أسرته ، واذا قال لا قطع ما بينه وبين حسان افندى . وتراءى لعينيه على اضطرابه وحيرته وجه الفتاة التى تعلقت بها آماله فشعر بقبضة اليأس تشد على عنقه ، ورمق الرجل الذى يعذبه بنظرة باردة تخفى وراءها حنقا متزايدا . وكان الآخر يتفرس فى وجهه صابرا فلما طال الصمت غمغم متسائلا :

ـ ما قولك يا حسين افندى ؟

ولم يجد بدا من الكلام فقال بلهجة تنم عن الرجاء :

ـ لقد فصلت لك ظروفنا بما لا يحتاج الى مزيد .

فقال الرجل فيما يشبه الضجر :

ـ سيفرغ أخوك من دراسته فى أوائل الصيف القادم .

ـ ولكنه فيما أرى مصمم على مواصلة تعليمه . .

فقال الرجل بضيق :

ـ فكرة سخيفة لا يصح ان تذعن لها وتتحمل مسئوليتها ..

واراد ان يتفادى من الخطر الماثل فقال متهربا كما يتهرب الفار وراء رجل كرسى لن تغنى عنه شيئا :

ـ بوسعى ان اعلن الخطوبة فورا على ان انتظر بعد ذلك ..

فتساءل حسان افندى بفتور :

ـ كم عاما ؟

آه ، ان الرجل يظنه لا يحسب حسابا الا لأخيه ، ولا يكاد يدرى شيئا عن نفيسة ومشكلتها المستعصية ، ليته كان بوسعه حقا ان يصارحه بالحقيقة كلها بغير خفاء ! .. واجابه قائلا فى اشفاق شديد :

ـ اربعة اعوام .. ؟!

ونظر اليه ليرى وقع تصريحه من نفسه ثم بادر قائلا :

ـ لن يضيرنا الانتظار شيئا ، الا تثق فى ؟!

ومط الرجل بوزه وهو يهز راسه ثم قال بهدوء مخيف :

ـ اربعة اعوام ! ، يا ترى من يعيش ! .. اتريدنى على ان اقول لأمها انى رفضت ابن عمها الذى يرغب فى الزواج منها الآن كى تنتظر اربعة اعوام ؟! ... يبدو لى يا حسين افندى انك لم تكن جادا فيما اظهرت من رغبة !

وانتفض حسين فى ألم بالغ وهتف :

ـ سامحك الله يا حسان افندى ! .. انى رجل مخلص ولا زلت عند رغبتى الصادقة ، ولا ارى سببا وجيها يحول بينى وبينها ..

فقال الرجل بفتور :

ـ لست ابا ولا اما فلا عجب الا ترى وجاهة السبب ، والآن فلندع النقاش جانبا واجبنى باختصار الا تستطيع الاقدام على الزواج فى هذا العام ؟

وساد الصمت ، وطال ، دون ان ينبس حسين بكلمة . لم يجد

شيئا يقوله ، وتفكر طويلا فى حيرة ، ثم اطبق شفتيه فى يأس وقهر. وابتسم حسان افندى ابتسامة باهتة ، واطبق شفتيه بدوره وقد نم وجهه البيضاوى الصغير على الجمود والكدر . وطال الصمت والجمود وفاحت رائحة الخصام كالغبار فى يوم خمسينى فلم تعد تحتملها الأعصاب . ومع ذلك لم يحتمل حسين ان تجىء القطيعة من ناحيته فتساءل بصوت حزين كانه كان يتنبأ الجواب سلفا :

ــ الا يمكن الانتظار ؟

فقال الرجل بنرفزة :

ــ كلا . . .

ومكث حسين قليلا فى خجل والم ثم نهض مستاذنا فى الانصراف فأذن له . وغادر الشقة لا يكاد يرى ما امامه من شدة الحزن واليأس ، غادرها وهو يعلم انه لن يعود اليها مرة اخرى . وذهب الى حجرته فأوقد المصباح الغازى وارتمى على الفراش . والقى على ما حوله نظرة سخط وعداوة ، عداوة لكل شىء ، كان فى تلك اللحظة عدوا لنفسه وللبشر جميعا . « اضعيف انا ام قوى ؟ وما صنعت بنفسى أهو اقدام ام فرار ؟ ! كل شىء بغيض مقيت ، هذه الحجرة التى أودعها وحجرة الفندق التى تنتظرنى بالوحشة نفسها وحسان افندى وطنطا وحسنين وامى وانا . ربما تصور الرجل انه يستطيع أن يضايقنى فى عملى بالمدرسة ! . . تبا له ، سيجدنى اصلب مما يتصور . ولكن ما قيمة هذا كله ! الموت ارحم من الأمل . لست اعجب لهذا فالموت من صنع الله والأمل وليد حماقتنا . الأولى خيبة والثانية خيبة فهل قضى على ان امنى بالخيبة مرة بعد أخرى ؟ لماذا لا يتوظف بالبكالوريا ؟ ! لماذا لا يحب لنفسه ما احب لى ؟ ! » وتناهى به الضيق فلم يعد يحتمل وحدته فقام الى المشجب وارتدى بدلته وغادر البيت ، وجعل يخبط على وجهه من شارع الى شارع فى ليل بارد حتى اعياه المشى فمضى الى مقهى . وانعشه المشى والبرد من حيث لا يدرى فاتخذ مجلسه

وهو اهدا نفسا . وراح يتسلى بمنظر الجلوس ويستمع الى ما يتطاير من سمرهم فلم يخل من كلمة او لفتة تدعو الى الابتسام . وخبت فورة الغضب الجنونية وانحسرت موجتها الصارخة عن حزن عميق لكنه هادىء وصامت . ولايخلو فى الوقت نفسه من ندم . اكان يؤثر حقا ان يوافق الرجل على رايه ؟ هل يسره ان يترك اسرته تحت رحمة الأقدار ؟ يا له من احمق !. من حقه ان يحزن ، ولكن ليس من حقه ان يغضب هذا الغضب الجنونى . وليس من الحكمة ان يستسلم للحزن ، اجل انه يعلم انه سيحزن طويلا ما دام الشعور لا يخضع للعقل ، ولكنه يؤمن ايضا بأن لكل شىء نهاية ، حتى هذا الحزن الخانق لا بد أن يدركه العزاء . وانتظر هذا العزاء كما ينتظر فريسة الكابوس صحوة النجاة . انه آت لا ريب فيه كما علمته المحن ، وهناك لن يجد ما يندم عليه وسيجد ما يفخر به ويطمئن ضميره . ان شعوره بالواجب يفوق مشاعره الأخرى ، ولشد ما اخطأ الرجل حين اتهمه بالخوف ، ويحسبه ان امه تفهمه وانها تعده الأمل والعزاء ، وافتر ثغره عن ابتسامة لهذا الأمل المنتظر وهو يعانى مرارة الحزن الراهن ..

٥٧

وحوالى منتصف الصيف استقبلت الاسرة ـ بعطفة نصر الله ـ يوما سعيدا حين نجح حسنين فى امتحان البكالوريا . وجلسوا ثلاثتهم جلسة هناء وصفاء ، فمرت ساعة لا يشوبها كدر ، وتملت الغبطة قلوب نهكها التعب . وجاء فريد افندى محمد وأسرته للتهنئة فشعر حسنين حيال خطيبته بشعور سعيد بخيلاء ساذجة كأن البكالوريا قد اضفت عليه رجولة جديدة خليقة باحترامها وعطفها . وكان كعادته مرحا لطيفا فتحدث طويلا منتشيا بالفوز

والضحكات تنطلق من فيه تباعا ، وكان منظر بهية مما يستثير سعادته واله معا ، كان يسعده ان تلتقى عيناهما خفية فيقرأ فى نظرتها الصافية المحبة العميقة المهذبة ، ولكنه لم يكن يحظى بالصفاء تحت نظرتها الا قليلا ثم يندلع فى قلبه لسان لهب ، ثم يذكر حرمانه الطويل فيثور حنقه ، ويرمق العامين المنطويين بحسرة واسف . واسترق اليها النظر خلال الحديث فانصهر بصره على وجهها البدرى وجسمها البض، وتخيلها -كما كان يطيب له ان يتخيلها كثيرا - متجردة الا من شعرها المنسدل فبلغ ريقه درجة الغليان . وجعل يتساءل صامتا الا يمكن أن تغير من سياستها بعد حصوله على البكالوريا ؟ أليس من العدل أن تهبه قبلة على سبيل التهنئة ؟!. . . وظل وعيه متنقلا بينها وبين اخيلته وبين الحاضرين ، وكان السرور شاملا بيد انه لم يخل من عذاب لا يكاد يرحمه فى محضرها .

ثم خلت الأسرة الى نفسها مرة أخرى فداخلها احساس جديد - غير السرور الصافى - بالمسئولية ، لأنهم تعلموا ان الظفر بالبكالوريا سعادة يعقبها تفكير ومتاعب . وكان اتمام تعليمه العالى أمرا مفروغا منه فيما بينهم ولكن الرأى لم يستقر على اختيار بعينه . وقد قالت نفيسة :

- عليك الآن ان تختار المهنة التى تريدها .

فقال حسنين الذى كان قد قتل الأمر بحثا :

- التعليم العالى مرحلة طويلة شاقة ، ومستقبله مجهول .

فنظرت اليه المراتان فى دهشة فاستطرد قائلا :

- لقد فكرت فى الأمر طويلا ، وانتهيت من تفكيرى الى انه يجب أن أختار مدرسة من مدرستين البوليس او الحربية !

وهتفت نفيسة بسرور :

- ما اجمل هذا !

ولم يحفل بسرورها لأنه كان يفكر فى الصعاب التى تعترض آماله فقال :

ـ دراسة عامين فحسب ثم أصير ضابطا . والنجاح مضمون تقريبا لأنها دراسة باللعب أشبه ، والوظيفة فى النهاية لا شك فيها . هذه ميزات لا يستهان بها !

فهتفت نفيسة بالحماس نفسه :

ـ دراسة عامين ثم تصير ضابطا ! .. ما أشبه هذا بالأحلام !

وتساءلت الأم باشفاق :

ـ والمصروفات ؟!

ونظر اليها طويلا كالحائر ثم قال :

ـ البوليس غالية جدا ، ولكن الحربية معقولة ... مصروفاتها سبعة وثلاثون جنيها .

فتطلعت اليه المرأتان بوجوم ودهشة فبادرهما قائلا :

ـ ليس الأمل فى المجانية معدوما أو على الأقل فى نصف المصروفات ، ولنا فى أحمد بك يسرى شفيع عظيم القدر فى هذه الحال ...

ولم يذهب الوجوم عن نظرة الأم وبدت قلقة حيال هذا الأمل . فقالت :

ـ حدثنى فريد افندى محمد عن معهد التربية الابتدائى فوجدت فيه ميزات تستحق التقدير ، فمدة دراسته ثلاث سنوات بالمجان تضمن بعدها وظيفة مدرس .

فقال الشاب بامتعاض :

ـ انى اكره أن أعمل مدرسا ، واكره اكثر أن التحق بمعهد بالمجان .

ـ ولكنك لا ترى مانعا من دخول الحربية بالمجان .

ـ ثمة فرق كبير بين معهد يقوم على المجانية ومعهد قد يعفينى من مصروفاته كلها أو نصفها . سيقول الناس عن الحال الأولى انى تعلمت بالمجان أما فى الأخرى فهيهات أن يعلم بها أحد غير كاتب المدرسة !

فهزت الأم راسها غير مقتنعة وتمتمت :

ــ المسالة اخطر من هذا !

ــ لا يوجد ما هو اخطر من هذا ، انى اكره الفقر وسيرته ، ولا احب ان اخفض راسى بين اناس مرفوعى الرءوس !

ولم يكن هذا فحسب دافعه الحقيقى الى هذا الاختيار ، والواقع انه طمح الى المدرسة الحربية مدفوعا بنفسه الظماى الى السيادة والقوة والمظهر الخلاب ، بيد ان امه ظلت على قلقها وعدم اقتناعها فتساءلت :

ــ واذا لم يتيسر اعفاؤك من المصروفات ؟

ففكر متجهما ثم قال :

ــ ساحتاج بادىء الأمر الى الدفعة الأولى من المصروفات وفى مرجوى ان انالها من اخى حسن ! لا اظنه يتخلى عنى كما لم يتخل عن حسين ، اما الباقى فليس بمتعذر توفيره اذا نزلت لى عن نقود حسين ، الى ما يمكن ان تجود به نفيسة (ثم ناظرا الى اخته) ولا اظنها تبخل على خاصة وان عملها يجيئها بكسب لا باس به . .

ونقل بصره بين امه واخته ليسبر وقع كلامه ولكنه لم يحظ بما يشجعه فاستطرد يقول برقة :

ــ عاما شدة يمران كما مر غيرهما وبعدهما الراحة والهناء !

وثابر على ترديد بصره بينهما فى رجاء ، ثم قال باغراء :

ــ أم ضابط واخت ضابط ! . . تصوروا هذا ؟ ! تصوروا مغادرتنا لهذه العطفة الى شقة محترمة بالشارع العام !

ورقت نفيسة لنظرته المتوسلة فاجتاحتها موجة ايثار وكرم فقالت :

ــ لا تحمل هما من ناحيتى ، ساهبك اقصى ما يمكننى ان اهبه !

فتجلت فى عينيه نظرة امتنان وغمغم :

ــ شكرا لك يا نفيسة ، ولن تكون امى دونك كرما ، وسيمضى كل شىء على الوجه الذى نحب جميعا . . .

ودعت له الأم بالتوفيق ، لم تكن ترجو من ورائه خيرا كثيرا ، وكان اقصى ما تطمح اليه ان يؤجل زواجه - بعد توظفه - عامين حتى ترمم ما تهدم من اسرتها ، ولكن لم يسعها الا ان تنزل له عن نقود الانقاذ التى يرسلها حسين وان تدعو له بالتوفيق من اعماق قلبها . وتأثرت نفيسة بما غمرها من ايثار وكرم ارتقيا بها الى منزلة عالية من الصفاء والسرور والحماس ، ونعمت بهذه السعادة لحظات غالية . ولكنها لم تدم طويلا ، اصطدم تيارها الدافق بعقبة كئود من الذكريات السود فتوقف عن الجريان الساجع وتجمع وتطين ، وفتر الحماس فخفضت عينيها فى خمود ، ليس الفرح الصافى من حقها ، وما عسى ان يصنع السرور بنفس ملوثة منطوية على البشاعة والشقاء ؟ .

٥٨

قال حسنين لنفسه وهو يغادر ميدان الخازندار الى شارع كلوت بك « سيقول حسن اننا لا نسعى اليه الا اذا طمعنا فى نقوده ! » وتألم لهذا الخاطر ، ولكنه خفف من وقعه قائلا انه هو - حسن - الذى لم يشأ ان يتردد احد منهم على بيته . وجعل يتساءل فى حب استطلاع عما سيجد فى هذا المسكن المحرم ! ثمة شىء « غير طبيعى » ، ولكنه لا يستغرب من حسن !

ثم ذكر النقود التى يريدها فهاله الأمر ، ماذا لو عجز حسن عن ان يمد له يد المعونة ؟ ، وشعر بأصابع باردة تقبض على قلبه وتوشك ان تعصف بآماله . واهتدى اخيرا الى عطفة جندف وأخذ يرتقى ارضها القذرة باحثا عن البيت رقم ١٧ حتى انتهى اليه ، ورأى غير بعيد بائع بطاطة جالسا القرفصاء على الأرض أمام عربته فسأله مشيرا الى البيت :

ـ هل يقيم هنا حسن افندى كامل ؟

فسأله الرجل بدوره :

ـ تعنى حسن الروسى ؟

فقال حسنين بدهشة :

ـ حسن كامل على المغنى ؟

فقال الرجل :

ـ هذا بيت حسن الروسى الذى يعمل بقهوة على صبرى بدرب طياب . . .

واغضى حسنين فى حياء منزعجا انزعاجا فظيعا ، لم يعد يشك فى انه حيال بيت اخيه وقد توكد ذلك بذكر على صبرى ، ولكنه لم يتصور انه يعمل بهذا الدرب الذى ،فرقع اسمه فى اذنه كالقنبلة. وهذا اللقب : الروسى ما معناه ؟ ودخل البيت وكانه يفر فزكمته رائحة بئر السلم النتنة وارتقى السلم الحلزونى وهو يشعر بانه يهبط الى هاوية ما لها من قرار . وطرق الباب فجاءه صوت امراة يصيح فى ابتذال « من ؟ » ثم فتح الباب عن امراة قصيرة بدينة عميقة السمرة تنطق سحنتها بجمال وقح . حدجته بنظرة نافذة وسألته :

ـ ماذا تريد ؟

فقال حسنين بصوت منخفض من الاضطراب :

ـ حسن كامل . . .

ـ من انت ؟

ـ اخوه . . .

فانبسطت أسارير المراة وتنحت جانبا وهى تقول :

ـ سى حسين ؟

فتمتم فى ذهول :

ـ حسنين !

ودخل فى تهيب وحياء . من تكون هذه المراة ؟ وكيف عرفت

اسماءهم ؟ هل تزوج حسن ؟ وشعر بقشعريرة باردة ، ايمكن ان يقال عن هذه المراة انها زوجة اخيه ؟ وان امه حماتها ؟ ! ... وتمنى من اعماق قلبه ان تكون مجرد رفيقة . ومضت المراة الى باب فى نهاية الدهليز ونقرت عليه ففتح بعد قليل وظهر حسن على العتبة ، وكانه شعر بوجوده فاتجه بصره اليه ثم هتف بدهشة وسرور :

ـ حسنين ..

وهرع نحوه وشد على يده بترحيب وشوق ، وقبل ان يتكلم احدهما تسلل من الحجرة نفر من الرجال متتابعين ، القوا على حسنين نظرة عابرة وقال بعضهم مخاطبا حسن :

ـ سنسافر عصر اليوم الى السويس باذن الله ، وتلحق بنا غدا ...

ثم غادروا الشقة . كانوا من ذوى الجلاليب ، تلفت سحنتهم النظر بغرابتها ولا يكاد يخلو وجه احدهم من تشويه . وداخل حسنين شعور بالقلق ، من يكون هؤلاء الرجال ؟ ... افراد التخت ؟ .. ما ابعد هذا عن التصور . لقد ذكره منظرهم برجال العصابات كما يظهرون على الشاشة ، وطرات عليه فكرة مرعبة بان شقة اخيه تناصب القانون العداء ! . والقى على حسن نظرة متوجسة فرآه يرتدى جلبابا مقلما فضفاضا ، ويبدو فى صحة وقوة ولكن يلوح فوق حاجبه الأيسر وفى صفحة عنقه اليسرى ندبان كبيران كانهما اثرا طعنتين شديدتين . رباه ، ان اخاه لا يخلو من تشويه اجرامى ايضا ! ولعله الآن يستطيع ان يدرك حقيقة الأسباب التى حجبته عن عالمهم . واوما حسن الى الحجرة فى نهاية الدهليز وقال للمراة :

ـ رتبى الحجرة واجمعى الأشياء ...

وشبك ذراعه بذراع حسنين واتجه الى حجرة النوم ، ثم اغلق الباب وراءهما واجلسه الى جانبه على الكنبة وهو يقول :

ـ كيف حالكم ؟ .. كيف الوالدة ؟ .. ونفيسة ؟ .. وما اخبار حسين ؟

وحدثه عن الأسرة بعقل شارد وروى له ما يعلم من اخبار حسين ثم قال بلهجة تنم عن العتاب :

ـ انقطعت عنا كانك لست منا ولسنا منك ، وباتت امنا فى حزن شديد ...

وهز حسن راسه فى كآبة وقال :

ـ انى غارق فى حياتى حتى قمة راسى ، ولكن توظيف حسين طمانني عليكم ...

وتساءل حسنين متاثرا بما طرا على اخيه من تغير فى مظهره ترى هل أبقى على حبه القديم لهم ؟ ، وانساق بغريزته الى التودد اليه قبل ان يتطرق الى مهمته وتساءل فى قلق :

ـ ما هذا يا اخى ؟ !

فقال حسن ضاحكا :

ـ مخلفات معارك . لم تكن حياتى لتخلو من عراك وقد اصبح العراك من اهم واجباتى فى الحياة الجديدة ..

وود لو يساله عن هذه الحياة الجديدة ولكنه تحامى ذلك بغريزته ايضا ، لقد قصد هذا البيت المحرم فى سبيل الحياة ، وحسن يتخذ من العراك واجبا فى سبيل الحياة ايضا ، فما افظع ماتسيمنا الحياة من خسف ! « من كان يحلم بهذا المصير ونحن صغار نلعب ! ، كان حسن طفلا حاذقا شاطرا ، وكان ابى يحبه اكثر من اى شىء فى الوجود ، ثم بدا وكانه انقلب له عدوا ، ولكن لم يكن يتصور احد ان ينتهى به المطاف الى هذا البيت ! . لا شك ان حسين ادرك الحقيقة فى زيارته لهذا البيت فى سبتمبر الماضى ، ولكن ترى هل تعلم أمى بكل شىء ؟ ! » . لم تواته شجاعته على السؤال الصريح ولكنه تساءل فى مكر :

ـ ما العلاقة بين الغناء والعراك ؟

فقهقه حسن ضاحكا ثم قال :

ــ هما شيء واحد فى عرف الكثيرين ..

وهنا جاءهما صوت المراة من خارج وهى تقول :

ــ انى ذاهبة ، هل تريد شيئا ؟

فقال لها باقتضاب :

ــ مع السلامة ..

ولم يستطع حسنين ان يقاوم حب استطلاعه فساله بقلق :

ــ هل تزوجت يا اخى ؟

ــ كلا ..

فلاح الارتياح فى وجه حسنين غير خاف فتساءل حسن :

ــ اسرك هذا ؟

ــ نعم ..

ــ لماذا ؟

فقال الشاب بسذاجة :

ــ افضل ان تختار زوجك من وسط كوسطنا ..

فقطب حسن كالمستاء وقال :

ــ انها افضل من سيدات كثيرات ، تحبنى وتخلص لى ولا تضن على بمال ..

واوشك أن يقول له « ومن مالها الخاص اعطيت حسين ما احتاجه من نفقات » ولكنه أمسك رحمة باخيه ــ لم يستطع التغير الذى لحق بطبعه ان يؤثر فى عواطفه نحو اخيه حتى حين استيائه ــ ولما راى القلق والندم يلوحان فى عينى الشاب قال برقة :

ــ ان اخلاص الزوجة لزوجها لا يخلو من منفعة وراءه اما هذه المراة فاخلاصها غير مشوب . سوف تعلمك الحياة امورا كثيرة تجهلها ..

فهز حسنين راسه متظاهرا بالاقتناع ، وابتسم الى اخيه ابتسامة رقيقة متوددا . ثم ذكر امرا كاد ينساه فرحب به ظنا

منه انه خليق بان يضفى على الجو الذى كاد يتوتر روحا من المرح فسأل أخاه ضاحكا :

- علمت وانا أسأل عن بيتك انهم يدعونك الروسى فما معنى هـذا ؟

فضحك حسن ضحكة عالية اعادت الطمانينة الى نفس الآخر وقال وهو يشير الى راسه :

- نسبة الى هذا !.. انى اكسب بعرق جبينى على نحو ما (وبسط يده ونطحها براسه ثم نظر الى اخيه نظرة ذات معنى ضاحكا) أو بالأحرى بدم جبينى . لا بد من العرق كى تعيش ولكن يختلف العضو الذى يعرق بين فرد وآخر .

وشعر حسنين بغرابة نحو اخيه ، وفكر مليا ، ثم قال بحزن :

- ثمة أناس يكسبون دون ان يعرق لهم جبين !

وبدا حسن وكانه لم يفهم قوله على حقيقته فقال بحماس :

- هذه غاية الشطارة .. ان تكسب بعرق جباه الآخرين !

وسئم حسنين هذا الحديث الذى يجرى بلا ضابط فصمم على ان يطرق الموضوع الذى جاء من اجله . وصمت قليلا ثم قال بصوت منخفض :

- اظن يسرك ان تعلم بانى نجحت فى امتحان البكالوريا .. ؟

فهتف حسن بسرور :

- مبارك . اسر طبعا بسرورك وسرور امنا !

تفرس فى وجه الشاب ثم استطرد فى لهجـة لا تخلو من اشفاق وسخرية :

- وظيفة ، ثم طنطا او الزقازيق ، اليس كذلك ؟

فقال الشاب منتهزا هذه الفرصة التى هياها الآخر كى يتقدم خطوة جديدة فى سبيل غرضه :

- كلا ، فى نيتى ان التحق بالكلية الحربية !

ـ الحربية !.. عظيم جدا !.. الحمد لله على انك لم تختر مدرسة البوليس !.

ـ مصروفاتها كبيرة ..

ـ لا اعنى هذا ولكنى لا استلطف ضباط البوليس !.

فحدجه الشاب نظرة تساؤل فقال حسن مبتسما :

ـ ضباط الجيش رجال افراح ، تراهم امام المحمل وفى الاحتفالات الكبرى اما ضباط البوليس فلا تراهم الا عادين وراء خراب البيوت !..

وساد الصمت وراحا يتبادلان النظرات ، حسنين فى قلق وحياء وحسن فى ابتسام له معناه ، ولبثا كذلك طويلا حتى انفجر حسن ضاحكا فضحك الآخر وهو يغض بصره حياء ، وواصلا الضحك حتى تعبا ، ثم ساله حسن بلهجة ذات مغزى :

ـ كم ؟!

فضحك حسنين مرة اخرى وقد احمر وجهه من الحياء . ثم قال :

ـ الدفعة الأولى من المصروفات . يؤسفنى ان اقول انها مبلغ لايستهان به ولكنى سادبر الدفعة الأخرى ومصروفات العام الثانى من نقود حسين وما وعدتنى به نفيسة !

وذكر حسن كيف كان يعد فيما مضى الخائب الفاشل فى الأسرة جميعا : الآن يرونه ملاذهم فى الملمات ! واحس زهوا ولكن هذا لم يغير من شعوره الطيب المتاصل فى نفسه نحو اسرته بل لعله ضاعفه . وساءل اخاه مبتسما :

ـ كم هذا المبلغ الذى لا يستهان به ؟

فقال حسنين فى خوف :

ـ عشرون جنيها !

ولاح الانزعاج فى عينى حسن وقال وهو لا يدرى :

- عشرون جنيها ؟.. ان جيشنا كله لايساوى هذا المبلغ ! .. هل تنوى الالتحاق بمدرسة اللواءات ؟

وانتظر حسنين فى اضطراب وقلق ولم ينبس بكلمة حتى عاد الآخر يقول بجد واهتمام :

- هذا مبلغ جسيم حقا ، ولا يمكننى ان اعطيك - اليوم على الأقل - اكثر من عشرة جنيهات !

وسادت فترة صمت اليم ، ثم نفخ حسن فى ضيق وقال :

- لو جئتنى قبل اسبوع !.. وعلى اية حال ساسافر غدا الى السويس ولعلى اعود بما يكفيك !

وتفكر مليا على حين قال حسنين بصوت منخفض :

- يؤسفنى أنى ازعجتك !

فقرصه فى أنفه ضاحكا وقال :

- كيف تعلمت هذا الأدب وعهدى بك طويل اللسان !.. لا تنزعج سآتيك بما تريد ولو قتلت قتيلا ونشلت محفظته .

ثم اعطاه عشرة جنيهات ، وحمله السلام الى امه واخته ، وطلب اليه ان يستمسك بالحكمة اذا تحدث عما رآه فى بيته . وشد حسنين على يده شاكرا وغادر الشقة. وما ان انفرد بنفسه حتى قال بصوت ثقيل كئيب « حياة حسن فضيحة يجب التستر عليها ، ولعل ما خفى منها ادهى وافظع » . وقطع الطريق متفكرا مغتما يلفه احساس بالاشمئزاز والخوف . لم يكن بوسعه ان ينسى جميله ولا ما ابداه نحوه من عطف اخوى ، ولكنه لم يستطع كذلك نسيان المراة والرجال المشوهين والندبين الخطيرين ، نقش هذا كله على صفحة قلبه بمداد التقزز والرعب . رباه ، لقد انقلب حسن الى نوع آخر من الآدميين ، لم يعد من الأسرة ولا من المجتمع الذى يعرفه . انه يترنح كانما ضربة هائلة قد هوت على راسه فافقدته وعيه ، وكلما جد فى السير امتلأ شعوره بفداحة الخطب . وذكر حاجته اليه التى جعلته يستوهبه نقودا لا يدرى من اين

اتت ، فاشتد اشمئزازه وحنقه ، ولعن هـذه الحاجة من اعماق قلبه فى ياس وقهر . وامر من هذا كله ان حاجته هذه لم تنته ، فسيعود اليه بعد ايام ويمد اليه يده سائلا ! ترى من اى سبيل تاتيه النقود فى السويس !. ان قلبه لا يكذبه ، وفيما راى بعينيه الكفاية لمن ينشد الدليل ، ورغم هذا كله سيعود اليه ويساله ان يتم صنيعه له ! هـل يستطيع ان يغضب لكرامته حقا ؟ هـل يستطيع ان يرد هذه الجنيهات الى اخيه ويصيح فى وجهه انى لا ارضى عن حياتك القذرة ؟ وندت عنه ضحكة مبحوحة مرة .. انه يعلم انه يهذى هذيانا سخيفا . سيعود اليه راضيا ويأخذ النقود ـ اذا تفضل بها ـ شاكرا ممتنا . ولو علم انه ذاهب الى السويس ليسرقها ما وسعه الا ان يدعو له بالتوفيق . وقال وكانه يحاور ضميره المتوجع « مهما يكن من امره فهو بالنسبة لنا اخ فاضل كريم ! » .

٥٩

وفى عصر اليوم نفسه مضى الى ڤيلا احمد بك يسرى بشارع طاهر . والواقع انه كان يندفع بحيوية هائلة نحو الأمل الذى ركز فيه حياته جميعا ، فاما الحرية او الموت . وجلس فى السلاملك ينتظر البك مسرحا طرفه فى أطراف الحديقة او فى الشطر الأمامى منها على الأصح . وكان مشتت اللب فرآها رؤية غامضة ، وتنقل بصره الشارد بين نخيلها الرشيق المنغرس وسـط دوائر من الحشائش المنسقة سورت بنبات الشيح وانتثرت فى رقاعهـا شجيرات الورد على هيئة اهلة . وارتاح لحظة من افكاره فاستقر ناظره على دائرة حشائش كبيرة تتوسط المكان ما بين مدخـل الڤيلا والسلاملك فاستسلم اليها فارا من قلقه . وكانت تنبثق

من وسطها نخلة قصيرة ذات جذع ابيض ترف عليهاروح الطفولة، وتغشى سطحها شجيرات الورد بوفرة حتى تماست اغصانها وتعانقت ازهارها فامتزجت فى هالة كبيرة اتنالت عليها الحمرة والخضرة والصفرة فى وئام وائتلاف وسلام . وابتسم وهو لايدرى. وكان الظل قد زحف على ارض الحديقة وما وراءها من الطريق ولاحت آثار الشمس المائلة فى اعلى الدور على الجانب الآخر للطريق ولكن الهواء هفا مائلا للسخونة مفعما بعرف الياسمين الجاثم على سور الڤيلا. وورد على خاطره هذا السؤال : «هل يمكن ان اقتنى يوما ڤيلا كهذه ؟ » وتخيل الحياة فيها ما بين المخدع والحديقة وما يتبعهما عادة من سيارة واسرة محترمة . هذه هى المرة الثانية التى يزور فيها ڤيلا احمد بك يسرى ، وفى كلتا المرتين انفجر فى صدره بركان من الطموح والسخط والتلهف على متع الحياة النظيفة المحترمة . وكان اخوف مايخافه ان ينحصر فى حياة كحياة حسين فيقطع عمره ما بين الدرجتين الثامنة والسادسة بلا امل ناضر . فى الحياة متع عالية وهواء نقى وينبغى ان ياخذ نصيبه منها كاملا . وتوقف عن التفكير فجاة حين لمح دراجة تمرق من الجانب الأيسر للحديقة وعليها فتاة . وكانت الفتاة توجه الدراجة فى حذر على مماشى الفسيفساء بين دوائر الزهور فاستغرقها الحذر عن النظر فيما حولها . كانت فى السادسة عشرة ، ترتدى فستانا ابيض هفهافا وتعصب راسها باشارب منمنم ، ذات قامة نحيلة وصدر ناهد وبشرة نقية . وقد اعجله النظر الى ساقيها المدمجتين اللتين تتناوبان الارتفاع والانخفاض فلم يكد يتبين وجهها ، واختفت وراء جناح الڤيلا الايمن قبل ان يستدرك ما فاته منها . وثار فى عينيه اهتمام ويقظة . اذا لم تكن هذه الفتاة كريمة احمد بك فمن تكون ؟. وابتدرت مخيلته تستدعى صورة بهية بجسمها اللدن الممتلىء ووجهها البدرى ، شهية جميلة ولكنها ليست من هذه الرشاقة فى شيء! ثم ذكر اخته نفيسة فعجب للاختلاف البين

بين مخلوقات من جنس واحد ، ثم شعر فى قلبه بغمز الم وعطف وعاد الى نفسه فوجد فيها من فتاة الدراجة اثرا يشبه الأثر الذى تركته الحديقة والفيلا ونجفة بهو الاستقبال ، طموحا وثورة وسخطا ! « ما اجمل ان املك هذه الفيلا وأنام فوق هذه الفتاة » . ليست شهوة فحسب ولكنها قوة وعزة . فتاة مجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يدى فى تسليم مسبلة الجفون وكان كل عضو من جسدها الساخن يهتف بى قائلا « سيدى ... هذه هى الحياة . اذا ركبتها ركبت طبقة بأسرها ! » ثم عاودته ذكرى بهية فتضاعف الم وامتزج به ما يشبه الندم والخجل . وهنا سمع وقع اقدام آتية من ناحية السلم فالتفت صوبها منقطعا عن تيار أفكاره فراى احمد بك قادما فى بدلة بيضاء من الحرير وقد رشق فى عروة الجاكتة وردة حمراء فانتفض قائما واقبل نحوه فى ادب وانحنى على يده مسلما فى اجلال وابتسم البك مرحبا وساله وهما يجلسان :

ـ كيف حال الأسرة يا بنى !

فقال حسنين بتودد :

ـ يقبلون يدك الكريمة ويذكرون صنائعك .

فغمغم البك :

ـ استغفر الله ..

وايقن البك انه سيتلقى عما قليل رجاء بتوظيف هذا الشاب او نقل اخيه الى القاهرة الخ .. لم يكن يومه يخلو من مثل هذا ، وكان يضيق بالرجاوات ولكنه كان فى قرارة نفسه يحبها كذلك ولا يطيق ان يخلو بيته يوما من صاحب حاجة . وقال :

ـ خير يا بنى ؟

فقال حسنين بحرارة :

ـ جئتك يا سعادة البك مستنجدا بشفاعتك فى الحاقى بالكلية الحربية ...

ودهش البك وكأنه كان يتوقع كل شيء الا هذا الطلب الأرستقراطى وتساءل دون أن يخفى دهشته :

ــ ولماذا اخترت هذا الباب الضيق ؟ !

وتألم الشاب لما لاح فى وجه الرجل من دهشة وكرهه لحظتها كراهية عمياء ، بيد انه قال بنفس اللهجة المتوددة المهذبة :

ــ يبدو لى يا سعادة البيك انه توجد فرصة ذهبية هذا العام لم يوجد مثلها فى السنين الماضية لما تعتزمه الحكومة من زيادة عدد الجيش ، ومهما يكن من امر فشفاعتك أهم من كل شيء !

وتساءل البك باقتضاب :

ــ والمصروفات ؟ !

وكرهه مرة أخرى . وسرعان ما تناسى رجاء المجانية أو صمم على أن يؤجله لفرصة أخرى وقال بثقة وطمأنينة :

ــ انى على استعداد لأداء المصروفات كاملة !

ففكر البك مليا ثم قال :

ــ ان وكيل الحربية صديق قديم وسأحدثه بشأنك ...

فكان جواب حسنين أن اقبل على يده يحاول تقبيلها فسحبها الرجل ونهض قائما ــ ربما انهاء للزيارة ــ فقنع حسنين بالانحناء على يده مسلما وكرر الشكر وغادر السلاملك مرح الصدر بالأمل . وذكر وهو يقطع الحديقة فتاة الدراجة وتمثلت صورتها وهو يرنو الى أثر العجلتين فى المشى ، ولكنه لم يدم هذا الا لحظة قصيرة ، ثم استأثر بوعيه كله مستقبله وآماله ...

٦٠

فى نفس الساعة كانت نفيسة فى ميدان المحطة .. كانت السماء تتخشع لهبوط المساء على حين واصل الميدان فى حياته الصاخبة يستبق على اديمه الانسان والحيوان والترام والسيارات . وكانت الفتاة واقفة على طوار تمثال نهضة مصر تنتظر انقطاع تيار السيارات لتعبر الطريق الى محطة الترام فلاحظت ان رجلا واقفا على بعد اذرع منها ينظر اليها نظرة غريبة باتت مع الأيام تفهمها حق فهمها . وتولتها دهشة وتساءلت ؛ حتى هذا ؟! . كان رجلا فى الستين ! ، يجمع فى جسمه بين ترهل العمر ووقاره ، مرتديا بدلة صوفية على حرارة الجو ويقبض بيده على مذبة انيقة عاجية المقبض ، ويضع على عينيه نظارة زرقاء . وقد انحسر طربوشه المائل الى الوراء عن جبهة عريضة لفحت الشمس اسفلها وبدا اعلاها لامع البياض فيما فوق حز الطربوش ، اما سوالفه وما لاح من قذاله فشديد البياض . وثار فى اعماقها حب استطلاع وطمع ولذلك لم تغادر موقفها حين انقطع تيار السيارات ، وحولت نحوه عينيها فوجدته ما يزال يحدق فيها ، وكأنه تشجع بنظرتها فتقدم منها فى خطوات ثقيلة وهمس وهو يمر بها :

ـ اتبعينى الى سيارتى ...

ثم واصل سيره الى سيارة واقفة لصق الطوار مثله فى الهرم والوقار ، يكاد يعلو سلمها عن الطوار شبرين ويقف عند بابها سائق كالتمثال . وصعد اليها دون ان يغلق الباب وراءه وامر سائقه فاتخذ مكانه خلف عجلة القيادة . ماذا يريد الشيخ ؟ وابتسمت خواطرها فى تشوف ، ثم عادت تنصت الى همس الطمع . وكأنه استبطاها فخلع نظارته ثم أومأ لها بيده فما تمالكت أن ابتسمت ،

والقت على ما حولها نظرة متفحصة ثم اتجهت نحو السيارة ، يحدوها الطمع وحده لأول مرة . واوسع لها فجلست الى جانبه وما عتمت ان سطعت انفها رائحة الخمر الفائحة من فيه ، فاستحوذ عليها القلق ، وقالت :

ـ لا استطيع ان اتأخر .

فقال بلسان ثقيل :

ـ ولا انا ايضا !

وامر السائق بالسير فانطلقت السيارة . ولم يفارقها شعورها بالغرابة فى اثناء الطريق ، ثم غشيتها سحابة حزن وخوف لاحساسها بانها تتدهور الى ما لا نهاية . لم يسبق لها قبل هذه المرة ان ذهبت مع رجل قبل تعارف طويل او قصير ، ولو بعد رؤيته مرتين او ثلاثا ، الى انها لم تكن تخلو من رغبة . اما هذه المرة فها هى تستسلم لعابر سبيل ، مدفوعة بالطمع وحده ، وبلا ادنى رغبة . اى تدهور واى نهاية ! ترى كيف عرف انها ضالته ! هل انقلب وجهها ـ على دمامته ـ يشى بتدهورها ؟ وتقبض قلبها فرقا ، وجبهتها حيرة قديمة جديدة معا ، بين أن تتزين فتبدو فى هذه الهيئة المبتذلة او أن تتعطل فتكشف عن دمامتها النقاب ؟!.

ووضع الرجل كفه على يدها وقال بصوت ملعثم :

ـ جميلة كالقمر !

ولم يفتر ثغرها عن ابتسامة كما كانت تفعل قديما وتمتمت :

ـ لست من الجمال فى شىء . . .

فقال مستنكرا :

ـ لا تخلو امراة من جمال !

كاذب او مخدوع فلشد ما يعمى الفسق العيون ، وقالت ببساطة :

ـ الاى ! . . .

فنقر بأصبعه على ثديها وقال :

ــ لولا جمالك ما وجدت هذه الرغبة !

ودت لو تستطيع ان تصدق قوله ، ولكن هيهات ، فلم تظفر باحد يحبها اكثر من ساعات . لعله يعربد او يخرف او يعانى مرارة اليأس مثلها سواء بسواء . لقد كابدت من الرجال ما جعلها تحقد عليهم ولكن دون ان تخمد لهذا رغبة جسدها الذى يسيمها الهوان فكرهته كما تكره الفقر . ما هى الا اسيرة للجسد والفقر ولا تدرى كيف تستنقذ نفسها منهما . جرفها التيار وجرحتها الصخور فلم تعد ترى من خير فى ان تاوى الى الشاطىء عارية مثخنة بالجراح وبلا نصير او رحيم ، ثم سمعت صوته يقول متنهدا « وصلنا » فالتفتت الى الخارج فرات السيارة تدور مع طريق دائرى تقوم على جانب منه الأشجار الضخمة كاشباح عمالقة وعلى الجانب الآخر يجرى النيل رقعة عظيمة من الظلمة الا ما انغرس فى جناحه البعيد من رماح الأنوار المنثالة من المصابيح ، وقالت كالمتسائلة :

ــ الجزيرة ؟

فضحك ضحكة فاجرة وقال بلهجة ذات مغزى :

ــ تعرفينها طبعا ...

وتريث ريثما غادر السائق موضعه واختفى فى الظلام فخلع نظارته وهو يقول :

ــ ارينى شطارتك فكل شىء يتوقف عليها ...

كان هرما مجنونا ، يكاد ينز خمرا . وانهال عليها بمداعبة غليظة نعضها بوحشية وراح يقرصها حتى أوشكت أن تصرخ . ولاحت فى الجو نذر هزء وسخرية ، ثم تعب حتى اليأس ، انفرج عن احساس بالغرابة ومغالبة الضحك . واخيرا ارتمى مخمورا وقال بصوت غليظ :

ــ مدى يدك الى مقعد السائق وناولينى الزجاجة ...

ورفع سدادتها وعل منها ثم اسلم ظهره الى المسند وراح

يتنفس تنفسا ثقيلا غليظا . ولم تعد تحتمل ثقل الانتظار فقالت برجاء مشبع بالتودد لأنها تعلمت ان تخاف هذه الآونة اكثر من اى شيء آخر :

— آن لنا أن نعود .

فقال وكأنه يخاطب نفسه :

— ليتنى لا أعود ابدا . . .

ولم تدرك ما يعنى ولكنها استجمعت شجاعتها وغمغمت :

— تسمح !

ودس يده فى جيبه واخرجها فى تكاسل ثم ترك ريالا يسقط فى حجرها فتناولته فى دهشة وانزعاج وحدجته باستنكار وتساءلت وهى تتميز غيظا :

— ما هذا ؟

فقال بجفاء مباغت وعيناه تعكسان بريق الخمر :

— نعمة كبرى ! اذا لم ترضى به عاد الى موضعه السابق الى الأبد . . .

فقالت بحنق :

— اظن مقامك اعلى من هذا بكثير . . .

فصب فى فيه جرعة كبيرة ومصمص بشفتيه مقطبا وقال :

— هذا حق ، ولكن الريال اعلى من مقامك بكثير ! اراهن على انه لا توجد امراة لها مثل هذا الأنف وتطمع فى مثله !

وجرحت الاهانة صدرها فاضطرب وقالت وهى تغالب الغضب بالخوف :

— لماذا تحدثنى بهذه اللهجة ؟

— لأنك طماعة . . . ولأتكن السبب فيما يقع لى . اعلمى انى لا احمل معى الا الفكة ، وحتى هذه تحاسبنى زوجى عليها عقب عودتى الى البيت ، واهون على ان اضربك من ان تضربنى هى !

ولاذت بالصمت وهى تنتفض غضبا وغيظا فعاد هو يقول :

— ضايقتنى امراة ذات مرة فى مثل موقفنا هـذا فصفعتها وقذفت بها خارج السيارة نصف عارية ، ماذا فعلت فيما تظنين ؟
... لا شىء ! كانت تعلم بلا ريب أن الشرطى اخطر عليها منى . ومع ذلك فهى مظلومة وانت مظلومة وانا مظلوم ايضا ، والظالم الحقيقى هى زوجى ...

فزفرت زفرة غيظ وتمتمت :

— نعوذ من فضلك ...

فقال وهو يتثاءب :

— لك هذا . افتحى النافذة ونادى السائق ...

وانطلقت السيارة فى طريق العودة فتزحزحت حتى نهـاية المقعد ، وسهمت الى الظلمة بعين خابية .

٦١

وكان يوم قبول حسنين طالبا بالكلية الحربية اسـعد الأيام جميعا . وكان يحسبه مطلبا غير عسير كشأنه حيال مطالبه، ثم اخذ يتبين عسره وعناده حتى اقتنع آخر الأمر بأن تدبيره للدفعة الأولى من المصروفات كان اخف متاعبه . وقد طال تردده الى ڤيللا احمد بك يسرى وكاد الرجل ييأس من قبوله فنصحه بالعدول عن اختياره ولكن تصميم الشاب وتقدم ترتيبه وحسن هيئته وتفوقه فى الكرة والعدو ثم شفاعة احمد بك قبل كل شىء . كل اولئك ساعد على احداث المعجزة — على حد تعبيره بعد اليأس — وتم القبول . وكاد يجن من الفرح ، والحق انه علق آماله كلها على هذا القبول بحيث لم يكن يدرى ماذا يفعل او كيف يولى وجهه وجهة اخرى لو اخفق مسعاه . كان طموحه الى الحربية يتفجر من صميم روحه الملهوفة على السيادة الثائرة على تعاسة حياته وضعتها ، وبدت

الكلية لعينيه كمصنع سحرى قادر على تحويله من انسان مهزول مغمور الى ضابط مرموق فى ظرف عامين ، وباقل جهد . وكان سمع مرة صاحبا له يصف ضباط الجيش بقوله «الضباط مرتبات عالية ونفخة كاذبة وعمل كاللعب لا خير فيه » فهامت بالحربية نفسه وقوى حلمها فى روحه . ولما علم بقبوله فى الكلية ابى ان يعترف لوساطة احمد بك بالدور الخطير الاول الذى لعبته فى قبوله فقال لامه ان الفضل الاول راجع لمزاياه الجسمية وتفوقه فى الرياضة. وقال لنفسه فى زهو « استطيع ان اعد نفسى من الضباط منذ الآن » وراح خياله المختال يستعرض الآدميين الذين ستؤثر فيهم بذلته الرسمية تاثيرها السحرى ــ الجنود والفتيات وعامة الشعب بل واحمد بك يسرى نفسه ــ وهو مرح نشوان . وحمل الخبر السار بنفسه الى اسرة فريد افندى محمد فاستقبلته بفرحة تجل عن الوصف : وقال له فريدافندى ضاحكا « شرفتنا يا حضرة الضابط » . وقال الشاب على مسمع من بهية لغرض فى نفسه « سأغيب عنكم اربعين يوما قبل أن يسمح لنا بالخروج مرة كل اسبوع » . وكان يطمع ان يحظى تلك الساعة بما حرم عليه عامين ولكنه لم يتح له أن يخلو الى الفتاة الا دقائق ، ولم تكن الدقائق لتمنعه من نيل مشتهاه لو أرادت الفتاة ان تجود له به ولكنها لم تتزحزح عن تعففها حتى فى هذه اللحظة . وغلبها الحياء كعادتها ، فانكمشت وقلبها يخفق بالعطف والالم تاثرا بالوداع . وقال لها بعجلة فى صوت لا يكاد يسمع « اريد قبلة حارة من شفتيك » ولما رأى حياءها وجمودها قال بجزع « اتابين على هذا حتى فى هذه اللحظة ! . . لا يمكن أن اتصور انك تحبينني ! » وخرجت الفتاة عن صمتها قائلة فى قلق « بل لهذا ارفض أن اذعن لك ! » وتساءل فى انكار « لا افهم ما تعنين » فقالت بشجاعة مؤثرة « ارفض لانى احبك » وكان يسمع هذا الاعتراف الصريح البسيط لاول مرة فبلغ به التاثر حد السكر وهم بالاقتراب منها ولكنها اشارت اليه

محذرة وهى تومىء براسها ناحية باب الحجرة المفتوح ، وما لبث أن عاد فريد افندى وزوجه فقضى بقية الوقت ممزقا بين نشوة السكر وقلق الشوق وحنق الغيظ ، ثم ودعهم ونزل الى شقته وهو يقول لنفسه « هذا حب عاقل ! حب يسيطر عليه الحزم والتدبير . كأنها رسمت خطة حكيمة كى تضمن زواجى بها . ولكن هل يعرف الحب الحقيقى هذا المنطق البارد ؟ ! » وكان حديثه لنفسه فى الواقع خاضعا لما استحوذ عليه من غيظ وحسرة ، وعد وداعه لها اسوأ وداع منى به عاشق . ثم امضى شطرا من الليل بين امه واخته . ولم تستطع نفيسة – كعادتها – مغالبة مشاعرها فدمعت عيناها وقالت فى حزن « قضى علينا بأن نعيش وحدنا » ولم يخل هو من كآبة خليقة بمن يفارق اهله لأول مرة ولكن هون من وقعها ان روحه كانت تهفو كثيرا الى الحياة المستقلة ، فى بيت غير البيت ووسط غير الوسط . اما الأم فحافظت على هدوئها الظاهرى ، ولم تشجع نفيسة على الاسترسال فى حزنها وقالت لها بحدة « لا تبكى كالأطفال ، سنراه كثيرا ، وحسبنا سرورا انه نال ما تمنى » . بيد ان قلبها كان فى واد آخر ، حرك الفراق الوشيك اشجانه فرجعت أوتاره الأحزان المنطوية ، فذكرت وداع حسين ، وتخيلت خلو البيت من ابنائها جميعا ، وتداعت الى ذهنها – على كره – ذكرى رحيل زوجها ، فعجبت لحياتها التى لا تجود لها بسعادة الا مصحوبة بوداع وفراق . فهل قدر لها أن تمضى البقية الباقية من حياتها وحيدة ؟ وهل فى سبيل هذه النهاية تصبرت وتجلدت وعانت ما عانت من مرارة الكفاح ؟ ! . ولكنها لم تستسلم لحزنها الا بمقدار يسير . ونادت قوتها الكامنة ، وذكرت ما صادف ابنها من آى التوفيق لتستعين به على تبديد كآبتها . مهما يكن من امر فانها تؤمن الآن بأن ما بذلت من صبر وكفاح لم يضع سدى ، وأن سفينتها الضالة فى سبيل الهداية الى مرفأ آمن . ويحق لها أن تفرح فما

من ثمرة تجنى فى هذه الأسرة الا وهى غرس يديها وعصارة قلبها .
وفى الصباح الباكر ودع حسنين امه واخته ومضى فى سبيله الى الكلية الجديدة . .

٦٢

ثم وجد نفسه فى فناء الكلية بين جماعة المستجدين من الطلبة . وبحثت عيناه فيما بينهم لعله يجد صاحبا قديما من التوفيقية فيلوذ من وحشته ولكنه لم يظفر بوجه قديم ، وضايقه هذا وان احس زهوا لكونه الطالب الوحيد من مدرسته الذى قبل فى الحربية . وتمنى كثيرا ان يبدا احد بالكلام ، وطال انتظاره . ولكن أبى كبرياؤه ان يكون هو البادىء . ثم مضى يتسلى بمشاهدة الكلية فجرى بصره مع الفناء الشاسع وابنيتها الفخمة المترامية ، ثم ثبته طويلا على تمثال المدفعين المقامين عند مدخلها فهاله المنظر وبث فى نفسه اعجابا وخيلاء . وكان بادىء الأمر مطمئنا الى مزاياه الجسمانية من طول قامته ورشاقة قده ووسامته ولكنه تخلى عن كثير من اعجابه بنفسه حين تفحص الآخرين ورأى بينهم شبابا غضا وفتوة ناضرة وجمالا رائعا ، الى ما لاحظ على بعض الأفراد من مخايل الأرستقراطية . ثم وقعت عيناه على شاب قادما من حجرة تطل على الفناء عرف فيه زميلا قديما فى التوفيقية سبقه الى الالتحاق بالكلية بعام او يزيد وكان يرتدى قميصا وبنطلونا قصيرا من الخاكى وعلى ذراعه اليسرى اربعة شرائط . لم يكن من أصدقائه ولكنه تعرف به فى فناء المدرسة ، ومع انه لم يكن يذكر من اسمه الا « عرفان » ولم تكن هذه العلاقة الواهية لتغريه بالاقبال عليه فى غير هذا الظرف ، الا انه رحب بالتسليم عليه ليعلن صداقته بهذا الطالب القديم امام الطلبة المستجدين .

ونفذ فكرته فمضى اليه حتى واجهه ومد اليه يده مبتسما وهو يقول فى الفة :

ــ كيف انت يا عرفان ؟

وسرعان ما ماتت الابتسامة على شفتيه للنظرة الجامدة التى رماه الآخر بها فى تجهم وصلف ، وقد اطال تفحصه فى تكبر وما يشبه الغضب ، ثم لمس يده بيده واستردها بسرعة كأنه يخاف عليها عدوى خبيثة دون ان ينبث بكلمة ! . وشعر حسنين بانهيار شامل وذهول قاتل ، وظنه نسيه او اساء فهمه فقال كالمستغيث :

ــ الا تذكرنى ؟ . . انا حسنين كامل على . . !

فلم يؤثر الاسم فى الآخر ايما تأثير ولم يطرا على صلابته اى لين ، ولكنه خرج عن صمته وقال بخشونة وجفاء :

ــ لا صداقة هنا . انت طالب مستجد وانا باشجاويش . .

نطق بهذه الكلمات ثم ذهب . ووجد حسنين نفسه فى موقف خزى لم يقفه فى حياته فاثلجت اطرافه وتوترت شفتاه ، وانتبذ موضعا بعيدا متحاميا النظر الى احد أقرانه وان تخيلهم وهم يتغامزون ويتضاحكون . ماذا دهاه الأحمق ! ترى هل أهانه لضغينة اضطغنها عليه او فقد رشاده ؟ أمن الممكن ان يكون هذا هو النظام المتبع فى هذه الكلية ؟ ! . ولبث مستغرقا فى افكاره لا يرى مما حوله شيئا حتى نودى على الطلبة المستجدين ودعوا الى اول طابور لهم بالملابس المدنية . ووقفوا صفين متوازيين بارشاد الباشجاويش محمد عرفان وبعض الجنود ، وقد تجنب النظر الى صاحبه القديم الذى وجده معلقا فوق راسه كالسيف وكظم عواطفه المستعرة ان يلوح منها اثر فى وجهه . ثم جاء ضابط عظيم محاطا ببعض الضباط من رتب اقل ، والقى عليهم نظرة ثاقبة ثم راح يخطبهم عن الحياة العسكرية التى آثروها . وكان يخطب باللغة العامية بصوت اجش يوافق ما ارتسم على

اساريره من الصلابة والعنف ، وكان يفصل بين كثير من جمله بهذه العبارة « العقاب الصارم » حتى صارت كضربات الايقاع وملأت القلوب رهبة وحذرا . وما ان انتهى من خطبته حتى بدا اول يوم فى الحياة العسكرية الجديدة . واستقبل به حسنين حياة جديدة لم يسبق له بها عهد . وبدا اليوم - والأيام جميعا - شاقا طويلا ، يبتدىء بالدش البارد فى الصباح الباكر ، وينتهى بالطابور ، ثم الدروس ، جهد متواصل ، وخشونة فى المأكل والملبس والمعاملة حتى اذا جاء وقت النوم استلقوا كالقتلى . وكانت خشونة المعاملة افظع ما يلاقون ، وكان الرؤساء يرونها فرضا واجبا ، ويكفى ان يحظى طالب بشريط لأقدميته حتى يمارسها كحق من حقوقه ، وهو يمارسها فى غير رافة وبسطوة تبلغ فى اكثر الأحايين اهانة صريحة وتجريحا متعمدا . ولم يكن ثمة مجال للاعتراض او الاحتجاج اذ لم يكن للكلية من شعار تحرص عليه كالطاعة العمياء الخرساء البكماء . ولم يجد حسنين من عزاء فى ذلك الجو الرهيب الا انه سيصير يوما أومباشيا ثم باشجاويشا . وهنالك يقضى ديونه دفعة واحدة ! . وقد ذكر عهد التوفيقية - الذى وصفه يوما بالارهاب - بالترحم والرثاء . وبلغ منه الضيق احيانا أن ندم على اختياره لهذه الكلية الجهنمية وتمنى لو تواتيه الشجاعة على التخلص منها . وكان يشاركه احساسه هذا كثيرون فى الأيام الاولى على وجه الخصوص . وقد عصرتهم قساوة الحياة فسارع اليهم الهزال ، ولعل حسنين كان الطالب الوحيد الذى لم يخضع لهذا القانون الطبيعى ، بل لعل جسمه اكتسب ارتواءه غير منتظر لان غذاء الكلية - على خشونته - هيأ له وجبات منتظمة لم يعتدها فى اعوام الشدة الأخيرة . بيد انه تعرض لآلام نفسية غير متوقعة فى ايام الجمع التى يسمح فيها عادة بالزيارات . كان فناء المدرسة الخارجى يمتلىء بالآباء والامهات والاقارب فيحظى الطلبة جميعا بنهار ممتع ويعودون الى حجراتهم

مثقلين بالهدايا من حلوى وفاكهة ودسم الطعام ، حتى الطلبة الريفيون لم يعدموا اقارب من القاهرة ، فلم يكن ثمة طالب يقضى هذا اليوم السعيد وحيدا الاه ، لم يزره احد ولم ينتظر احدا . وكانت امه قد أخبرته - قبل رحيله - بأنها لن تستطيع زيارته لأنها - كما يعلم - لم تتمكن من ابتياع معطف جديد يليق بالظهور امام اقرانه ، أما نفيسة فقد قالت له بمزاحها المألوف « لا اظن أنه مما يشرفك ان ابدو امام زملائك بهذا الوجه » ، ولم يكن ثمة امل فى ان تزوره بهية لحيائها وعدم اعتيادها الظهور فى مجتمع من الأغراب ، فلم يبق الا فريد افندى وكان بطبعه كسولا لا يكاد يفارق بيته الا لضرورة قصوى ، ومع هذا فقد زاره مرة وحمل اليه هدية من البسكويت . واعتاد فى أيام الزيارات أن يختار موقفا عند مدخل الفناء الداخلى يراقب منه الزوار بعينين كئيبتين ويتملى بمشاهدة النساء والفتيات مأخوذا بجمالهن واناقتهن وآى النعيم البادية فى وجوههن وثيابهن . وعجب لهذه الفوارق التى تباعد بين الآدميين ، وبدت لعينيه محيرة بقدر ما هى مزعجة . وثارت بنفسه انفعالات السخط والغضب والتمرد فلم يجد من متنفس الا فى ان يناقش ربه الحساب ، متسائلا - فيما يشبه التحدى - عن اسرار حكمته التى جعلت من الدنيا ما هو كائن !. وسأله مرة زميل له عن سر عزلته فقال بلا تردد :

- ابى متوف ، واخى مدرس بطنطا . اما الأسرة فمحافظة لم تألف الظهور بين الناس على هذا النحو ! .

بيد ان الأفكار السوداوية لم تجد من نفسه مرتعا خصيبا اذ ان الحياة العسكرية لا تمهل الأفكار حتى يستفحل خطبها . وقد علمته ان ينسى باطنه اكثر وقته ، ثم - بمرور الأيام - اخذ يألف شدتها وجوها الخانق فمضت تخف وطأتها وتحتمل ، الى ما ظفر به من صداقات جديدة ابتل بها صدره الموحش فاستطاع أن

يضحك ملء قلبه ـ رغم كل شيء ـ كعهده القديم .. وهكذا انقضت الأربعون يوما ...

٦٣

وخيل اليه ـ لدى اول خرجة من الكلية بالملابس الرسمية ـ انه حقق حلما بديعا بتصديه للعالم بالبدلة الملونة .. كان ينطلق كالعامود فى استقامته ، كالطاووس فى خيلائه ، ملقيا على صورته التى تعكسها مرايا الحوانيت والمقاهى نظرات ارتياح تشمل الشريط الأحمر والطربوش الطويل والحذاء اللامع ، ملوحا بعصاه القصيرة ذات الراس الفضى ، قابضا على قفازه كانه يتحدى العالم . ولما تراءت لعينيه عطفة نصر الله جاش صدره بمشاعر متنازعة من العطف والنفور ، ثم مضى اليها مطمئنا الى ان احدا لن يراه ممن يود الا يروه ـ لم يطلع احدا من اقرانه على عنوانه ـ راجيا ان يراه جميع الذين يود ان يروه ، واحدقت به الأعين ولوحت له الأيدى من رقاع الأحذية الى الحداد ومن بائع السجائر الى جابر سليمان البقال . وتطلع راسه الى شرفة فريد افندى فوجدها مغلقة فسر لما تهيأ له من مفاجأة سعيدة غير مسبوقة بتنبيه ، ثم قطع فناء البيت الى الشقة وطرق الباب وانتظر مبتسما . وجاءه صوت نفيسة وهى تزعق « من ؟ » وفتح الباب فما ان رأته حتى هتفت كالمجنونة :

ـ حسنين !

وشدت على يده فى انفعال وجعلت تهزها بقوة وفرح ، وجاءت الأم مهرولة على صوت ابنتها فاستسلم لذراعيها النحيلتين وهى تضمه الى صدرها وقبل جبينها فى سرور شابه شيء من القلق على سترته التى طوقتها ذراعاها ، ثم سار بينهما الى حجرته

القديمة التى بدت لعينيه غريبة ولكنها على غرابتها استثارت حنانه وذكرياته . ووقفوا ثلاثتهم والمراتان ترنوان اليه باعجاب وحب ، ثم دعت له الأم وافصحت عن سرورها بعبارات مقتضبة : ثم لاذت بالصمت ، اما نفيسة فلم يسكن لسانها لحظة « لشد ما اوحشتنا » .. « البيت من غيركم كالقبر » .. « اضطرنى غيابك الى ان ارد بنفسى على رسائل حسين بخط اقبح من وجهى » .. « لم يتمكن حسين من القيام باجازته هذا العام لمرض زميله وقد كدنا نجن من الحزن » .. « هل حقا كنتما تتراسلان ؟ .. لقد اخبرنى بهذا منذ عشرة ايام » .. « ماذا تعلمت ؟ . هل تستطيع الآن ان تطلق بندقية ؟ » . وكان يجيب على اسئلتها فى دعابة ، ثم خلع طربوشه ووضع عصاه وقفازه على المكتب ولبث واقفا وهو ينظر الى سترته ليرى ما فعل العناق بها . وجلست امه على الفراش وهى تقول :

ـ اجلس يا بنى ..

فتردد لحظة ثم قال :

ـ اخاف أن يتكسر البنطلون ! ..

فتساءلت المراة بدهشة :

ـ هل تظل واقفا طالما أنت لابس البدلة ؟ !

وابتسم فى ارتباك ثم جلس على الكرسى فى حذر ومد ساقيه وهو يتفحص بنطلونه باهتمام ، وقال :

ـ ان كسرة تلحق بالبنطلون خليقة بان توقع على عقابا صارما لا يقل عن حبس شهر بالكلية .

ونظر فى وجه امه ليرى اثر هذه الكذبة فى نفسها فقرا فى صفحته الانزعاج فاستطرد قائلا بصوت ينم عن التضجر :

ـ حياتنا شاقة لا يمكن أن يتصورها انسان ، فنهارنا كله وشطر من الليل نقضيهما فى الخلاء بين المدافع والقنابل والرصاص ، وقد تودى هفوة بسيطة بحياة فرد !

فاتسعت عينا نفيسة فى فزع ، وتساءلت الأم فى اضطراب :
ـ كيف يلقون بأبناء الناس الى الهلاك ؟!
وهتفت نفيسة فى انفعال :
ـ لماذا اخترت هذه المدرسة !
فهز راسه بثقة وقال :
ـ لا تخافا على ! . . . انى العب بالنار بمهارة استحقت اعجاب الضباط جميعا !
فقالت الأم بصوت متهدج :
ـ ما عسى أن نصنع باعجابهم اذا أصابك سوء لا قدر الله ؟!
فقال حسنين فى سرور خفى :
ـ وماذا تصنعين اذا دعينا غدا الى الحرب ؟ . . ألم تسمعا بأن هتلر يعد عدته لاشعال نار الحرب ؟ واذا شبت الحرب هجم موسولينى على مصر فندعى جميعا للقتال !
وحدجته الأم بارتياع ، ثم سألته بجد واهتمام :
ـ احقا ما تقول يا بنى ؟
وتراجع قليلا . .
ـ هذا ما يقوله بعض الناس !
ـ وما رايك انت فيما يقوله هؤلاء الناس ؟
وقبل أن يجيب صاحت به نفيسة :
ـ اذا صح ما يقولون فاترك المدرسة بلا تردد .
فضحك الشاب ملء فيه وقال مشفقا من افساد سرور اللقاء :
ـ ما أردت الا اخافتكما . . (ثم غير لهجته متسائلا) . . فلندع الهذر جانبا وخبرينى يا ست نفيسة ماذا تعدين لى غداء للغد ؟! .

فابتسمت الفتاة وأدركت ان اخاها « ضيفها » نصف نهار الخميس ونهار الجمعة وان اكرامه واجب عليها قبل أى انسان آخر ، فقالت :

ـ ساشترى لك دجاجتين تطبخهما نينة فى ملوخية !

ـ عال ! .. والحلوى ؟

ـ برتقال ؟

ـ نفسى فى الكنافة ، فطالما رايت هداياها تحمل الى الطلبة ايام الجمع فيتحلب ريقى من بعيد !

ولم تهتم الفتاة للكنافة قدر ما اهتمت للسمن اللازم لها ولكنها لم تتراجع فى نشوة الكرم التى غمرتها فقالت :

ـ وستحلى بالكنافة كما تشتهى !

فقال الشاب بعد تردد :

ـ لو كنت وقحا لسالتك ان تحشيها بالفستق والبندق !

ـ ولكنك لست وقحا والحمد لله ..

هكذا تهربت بالمزاح وادرك حسنين انه لم يعد بوسعها أن تسخو اكثر مما سخت فقال ضاحكا :

ـ آه لو رايتم الهدايا التى كانت تحمل الى الطلبة ! .. وفى مرة اهدى الى صديق قطعة من حلوى اسمها « بودنج ! » .

ـ بودنج !

ـ نعم بودنج ...

فضحكت نفيسة قائلة :

ـ لولا الملامة لقلت انها سلاح لضرب النار !

ثم سالته امه :

ـ لماذا لا تخلع ملابسك ؟

فقال فى شىء من الخجل :

ـ ساذهب الى السينما !

ولاح التذمر فى عينى الأم فاستدرك قائلا :

ـ ساعود مبكرا لنسهر معا ، وسنمضى الغد معا كذلك !

عادوا الى الحديث والذكريات طويلا ، ولكنه لم يعد يسعه أن يملك خياله الذى أخذ ينازعه الى الشقة العليا ! وكان يجد صعوبة

فى قطـع الحديث والافصــاح عن رغبته فى زيارة جارهم فريد افندى ، واخيرا قال بعدم اكتراث :

— آن لى ان اترككما للذهاب الى السينما ، ولعلى اجد بعض الوقت لزيارة فريد افندى !

٦٤

منته نفسه بالانفراد بفتاته على وجه من الوجوه ولكنه لم يدر كيف ، فقد اجتمع فى حجرة الاستقبال بالوالدين ، واستفاض الحديث العادى وهو ينتظر حضورها بصبر نافد . ثم جاءت تسير على استحياء وقد لفها روب وردى لم يبد منه غير اطرافها فسلمت عليه سلاما رسميا ووالدها يتفحصها بنظـرة ضاحكة تنم عن اعجاب . وجلست الى جانب امها ، واتصل الحديث كما كان ولكن محضرها استأثر باعماق وعيه فوجد مشقة فى تتبع الكلام التافه ومشقة اكبر فى الاشتراك فيه ، ثم اخذ يستشعر الملل والضيق ، وكلما استرق اليها نظرة وتخيل قوامها البض ثار دمه وحقد على الجلسة وشهودها . ورأى فى عينيها هداة وطمأنينة كأنه لا يكدر صفوها مكدر ، وانها لكذلك دائما كأنما لا يجرى فى عروقهــا دم ، وليس احب اليها من أن تجلس بين والديها تصغى لحديثه وهى فى مأمن من نزواته ! . لذلك يحنق عليها أحيانا ، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل ما بثته فى حناياه من طمأنينة وثقة فكان يشعر بانه يأوى من حبها الى ركن ركين وعاطفة عميقة ثابتة لا تزعزعها الحدثان . واستمر الحديث فلم تجد من نفسها شجاعة على الاشتراك فيه قانعة بهزة من راسها او ابتسامة من شفتيها فبلغ منه الضيق نهايته ، وفكر فى مخرج فخطرت له فكرة جريئة لم يقعد عن تنفيذها مدفوعا بجسارته ، فقال موجها خطابه الى فريد افندى :

ـ هل تاذن لى فى ان اصحب بهية معى الى السينما ؟

وتبادل الزوجان النظر على حين خفضت بهية عينيها موردة الوجه، ثم قال فريد افندى :

ـ اظن العالم الحديث يستسيغ هذا السلوك بين خطيبين ..

ولكن زوجه قالت بلهجة المعارضة :

ـ اخاف الا يروق هذا للست والدتك .

ولم يتورع حسنين عن الكذب انقاذا لمشروعه فقال :

ـ لقد استاذنتها فوافقت بسرور !

فابتسمت اسارير المراة وقالت وهى تنظر صوب زوجها :

ـ ما دام والدها موافقا فلا مانع عندى .

وطلب اليها فريد افندى ان تاخذ اهبتها للذهاب مع الشاب فمضت متعثرة فى خطوات الخجل ، وما هى الا دقائق حتى كانا يغادران الشقة معا . ولاحظت بهية انه جعل يسير فى حذر عندما اقتربا من شقة الأسرة كانه يخاف ان يتنبه اليهما احد من الداخل فساورها القلق وهمست فى اذنه :

ـ كذبت على امى بقولك انك استاذنت والدتك ، وستغضب نفيسة لأنك لم تدعها معنا !

فاشار اليها بالسكوت واخذها من يدها الى الفناء ثم الى العطفة ، وسارا معا والوالدان يطلان عليهما من الشرفة . وكانت بهية ترتدى المعطف الأحمر الذى يجلو نقاء بشرتها فبدت كالقطة الجميلة . بيد ان القلق لم يذهب عنها وقالت له فى لوم :

ـ ستعلم اسرتك برحلتنا ان عاجلا أو آجلا ..

ولم يدع له سروره بالظفر مكانا لهم فقال ضاحكا :

ـ لم نرتكب اثما ، ولن تحترق الدنيا !

ـ الم يكن الأخلق بك أن تدعو نفيسة معنا ؟

ـ ولكنى اريد أن انفرد بك !

فقالت بقلق ، وكانت تخاف نفيسة اكثر من اى مخلوق آخر :

- انت لا تبالى شيئا وا اسفاه . .

ولم يكن لديه من وسيلة للانتقام من تحفظها وبرودها سوى الكلمات الصريحة واحيانا النابية فقال :

- وددت لو كنت ارتكبت معصية معك حتى استاهل هذا الوصف عن جدارة . . .

فتضرج وجهها بالاحمرار وعبست فى استياء دون أن تنبس بكلمة لأنهما كانا قد اندسا بين الواقفين على طوار المحطة ، وجعل ينظر الى وجهها الساخط فى سرور باطنى ، ثم همس مبتسما :

- أعنى معصية خفيفة !

فاعرضت عنه حتى جاء الترام فصعد الى الدرجة الأولى ولم يكن بها الا سيدة اجنبية فشعر بارتياح ، وجلس لصقها ، ثم سألها فى دعابة :

- كيف كان شوقك الى فى غيابى ؟

فقالت فى شبه غضب :

- لم تخطر لى على بال قط . .

فهز راسه كالحزين وقال :

- ما آلمنى شىء كما آلمنى احساسى بتشوقك الى .

فقالت ببرود وهى تخفى ابتسامة :

- اصارحك بأن الكلية الجديدة قد زادت دمك ثقلا !

وذكر وهو لا يدرى ماتعرض به نفيسة من ثقل دم فتاته فرنا اليها متأملا فوجدها جميلة فوق ما يشتهى ، ولكنها لا تخلو من هذه الصفة ! وما غاب عنه انه يحب هذه الصفة كما يحب العاشق نقائص معشوقه . وعدل فجاة عن معابثتها فقال بحرارة :

- لم تغيبى عن نفسى لحظة واحدة طوال ذاك الفراق ، وقد تعلمت جديدا وهو أن الحب فى القرب - على طموحه المعذب - جنة اما على البعد فهو ماساة كاملة .

وخفضت عينيها دون أن تنبس ولكنه شم فى استسلامها وما

اعتراها من سهوم رائحة الوجد الصامت وامتلأت رئتاه بارتياح عميق . وتحدث كيفما اتفق حتى بلغ الترام ميدان المحطة فغادراه ومضيا صوب عماد الدين ، وطلب اليها ان تتأبط ذراعه ففعلت بعد تردد ، ولما كانت تساير شخصا ـ غير امها ـ لأول مرة فقد تولاها ارتباك وحياء . وشعرت بكوعه وهو يمس ـ عفوا او قصدا ـ ثديها فسحبت ذراعها من ذراعه ، وتساءل محتجا :

ـ ماذا فعلت !

ـ هذا اروح لى . . .

فتغيظ لافلات الفرصة وقال :

ـ سيكون من المعجزات تحويلك الى زوجة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، اى امرأة محبة تعانق وتقبل الخ الخ !

وبعد حين قصير كانا يجلسان جنبا لجنب فى السينما ، وعاوده شعور بالزهو والخيلاء ، غير انه استأثر هذه المرة بميزتين بدلته العسكرية وحبيبته . ومر به كثيرون من زملائه الطلبة وخطفت اعينهم من فتاته نظرات متفحصة فتزايد شعوره بالسرور ، ومال نحوها وهمس :

ـ الا ترين ان جمالك يجذب الأنظار من المقاعد والألواج ؟

فافتر ثغرها عن ابتسامة حيية فانطلق مرحه وهمس مرة اخرى :

ـ قلبى يحدثنى باننى سانال الليلة القبلة المشتهاة . .

فرمته بنظرة وعيد ثم نظرت فيما امامها . وحاول فى الظلام ان يعابثها بكوعه او بقدمه ولكنها لم تشجعه ، ثم اضطرت تحت ضغطه والحاحه الى ان تترك راحتها فى راحته على الذراع التى تفصل بين كرسييهما ، ومضى الوقت فى سعادة شاملة . . .

٦٥

وفى مساء الجمعة كان يقف بميدان الملكة فريدة ينتظر الأوتوبيس رقم ١٠ ليحمله الى الكلية . وكان امضى نهارا سعيدا فى أسرته وتناول غداء لذيذا ، وبدت نفيسة فى مرحها المالوف ولكنها ـ على ذاك ـ قالت له على مسمع من أمها وبلهجة ساخرة :

ـ وددت لو رايتك وانت ذاهب مع « الهانم » الى السينما !

وادرك أن سره افتضح وان الحرب اعلنت فضحك عاليا ونظر صوب أمه فرآها صامتة وعلى شفتيها ما يشبه الابتسامة ، وشكر فى نفسه بدلته العسكرية التى انقذته من لكماتها الى الأبد. وعادت نفيسة تقول بنفس اللهجة :

ـ ما اجملكما من زوجين !.. حضرتك فى طول العمود والهانم طول الشبر ودمها الثقيل يوسع لكما الطريق !

فنهرتها أمها قائلة :

ـ لا تكونى عيابة وفيك كل العبر !

فقالت الفتاة ضاحكة :

ـ انا على الأقل خفيفة ، ولكن لك حق ياسى حسنين فوجهى لم يخلق للسينما !

واعتذر لها ماوسعه الاعتذار ولكنه شعر بندم كمايشعر الآن ، وما ضره لو كان دعاها للذهاب معه ؟!. كان يستعيد ذكريات اليوم وهو واقف ينتظر ، وما لبث ان انضم اليه كثيرون من زملائه ، ثم جاء الأوتوبيس فصعدوا اليه متزاحمين ولحق بهم آخرون راى بينهم بعض من قابلهم أمس فى السينما فترجح لديه انهم سيعلقون على فتاته شأنهم فى هذه الأحوال ، وسر لذلك سرورا كبيرا وانتظر على لهفة الحديث الذى سيكون دون جوانه . ولم يطل به الانتظار

لان اكثر من واحـد منهم بدا متحفزا ، فقـال قائل منهم وهو يشير اليه :

ـ اما علمتم ؟ .. رئى الصنديد امس وفى يده فتاة !

وود ان يسمع الجميع وان يخلصوا لحديثه وحده . وتساءل البعض :

ـ من اى نوع ؟!

ـ النوع البيتى ...

ـ جميلة ؟

وتركز انتباه حسنين واشتد وعيه اما المتحدث فقال :

ـ لها عينان زرقاوان ولكن يغلب عليها الطابع البلدى !

وتصاعد الدم الى وجهه وشعر بفتور قضى فى الحال على حماسه ونشوته ، على حين واصل الآخرون حديثهم فى ضحك وصخب :

ـ ممتلئة اكثر مما ينبغى قصيرة اكثر مما يستحب !

ـ ودمها ثقيل من رتبة لواء !

ـ دقة قديمة على وجه العموم ، اين وجدتها ؟!

وادرك ان السؤال الأخير موجه اليه ولكنه لم ينبس بكلمة ، وجعل يضحك متظاهرا بالاستهانة وهو يعانى شـعورا جارحا بالخجل والقهر . وقال شاب بلهجة تنم على الاشفاق :

ـ احذر ان تكون خطيبتك !

واندفع قائلا بلا وعى تقريبا :

ـ كلا طبعا !

ـ حبيبة ؟!

فقال مدفوعا بمشاعر الالم والخذلان التى تصطرع فى نفسه :

ـ نوع من التسلية ليس الا !

ـ اذن فلا بأس بها . عذراء ؟ !

واجاب باضطراب شديد : نعم ..

ـ خيب الله املك ! لمـاذا تنفق وقتك عبثا ؟ ! الم تدر بأن

التقاليد تقضى بان تكون ليلة الخميس للعشيقة ويوم الجمعة للخطيبة او من يقوم مقامها ؟!

فتكلف الشاب ضحكة وقال :

ـ ساصحح جدول النساء فى المستقبل !

وضحكوا جميعا ، ثم غيروا مجرى الحديث . وانطوى على نفسه فى غم وهم يعانى سكرات الهزيمة . تبرأ من فتاته وهو لا يدرى . آه لو علموا أنها خطيبته وانه استعصى عليه نيل قبلة منها بعد مثابرة عامين !. طابع بلدى ، ممتلئة اكثر مما ينبغى ، قصيرة اكثر مما يستحب ، دم ثقيل من رتبة لواء ، اهذه بهية حقا ؟! . وهى الى هذا كله دقة قديمة ! ، لا يخلو هذا القول من حق فهى لا تدرى كيف تصحبه فى الطريق ولا كيف تحسن الحديث والدعابة ، ولا يكاد يذكر من قولها الا التانيب والتذمر . كيف يسعه اذا تزوجها أن يظهر بها امام الناس ؟ سيقولون هذا واكثر منه . وشعر بكرب وامتعاض ، وغاب عما حوله غارقا فى افكاره فلم ينتبه الى وقوف الأوتوبيس امام محطة الكلية حتى نهض الطلبة قائمين ..

٦٦

وفى الأسبوع التالى صعد فى الوقت المعتاد لزيارة فريد افندى ، وكان الأب وسالم الصغير فى مشوار فجلس مع الأم وبهية ، واستمتع بقدر من الحرية لا يتاح له بمحضر الأب . وبدت بهية فى فستان بنى تنبسط على أعلى صدره شبه مروحة من الحرير المزركش ينغرز مقبضها اسفل البنيقة وتنتشر اهدابها فوق الثديين ، فلم يكن ينقصها الا المعطف وتصبح متاهبة للذهاب معه الى السينما اذا دعاها . ولكنه كان ابعد ما يكون عن التفكير فى

هذا ، وكان صوت نفيسة لا يزال يطن فى اذنيه وهى تقول له بعد ان اعطته نصف ريال لسهرته :

ــ هذا لفسحتك انت وحدك !

ولكن لم تكن نفيسة كل شىء ، كان فى الواقع لا يجد الشجاعة للظهور معها مرة اخرى امام زملائه ، وبات يخجل منها وهو لا يدرى . كان يحسبها اجمل فتاة ، ولكنه لم يكن فتح عينيه بعد وجاءت ملاحظات زملائه الساخرة آية على عماه ! ورنا اليها فالتقت عيناهما ، وهناك نسى افكاره ، وانبعثت حرارة دمه واضطرمت به الرغبة مستهينة بكل شىء . مليحة شهية ، لا يستطيع ان يمارى فى هذا ولكن كيف يتعامى عن هذه الحقيقة المرعبة وهى انه يتحاشى الظهور معها امام الناس ؟ ! . وكانت الأم لاتمسك عن الحديث وهو يحاورها باقتضاب وشرود حتى قالت له :

ــ مالك يا سى حسنين كأنك مشغول البال !

فأفاق الى نفسه مضطربا وقال كالمعتذر :

ــ كان الأسبوع الماضى حافلا بالتمرينات القاسية حتى غادرنا الكلية كالأموات !

وواصل الحديث وهو اشد انتباها له حتى استأذنت الأم لأداء الصلاة فخلا لهما الجو ، وبادرته الفتاة قائلة :

ــ مالك ؟

فقال مبتسما ليذهب عنها الشك :

ــ لا شىء !

ــ لست كعادتك !

وخطر له خاطر ماكر بعثه فى نفسه خلو المكان وعواطفه الثائرة فقال متظاهرا بالحزن :

ــ لا انسى تحفظك القاسى معى !

ــ اتعود الى هذا ؟

ــ طبعا ! . . هذا حقى ولا أنزل عنه ما حييت .

فقالت الفتاة برجاء :

- حسبت اننا انتهينا من هذا ؟

- انى فى حيرة من امرك ، جميع زملائى لهم خطيبات مثلك ولكنهن لا يحرمنهم حقوقهم من العناق والقبل .

وغمغمت موردة الوجه :

- لسن مثلى ولست مثلهن !..

هذا حق ، ولعل زملاءه لم يقتصدوا فى توكيد هذا ولكنها لاتدرى ماذا تقول ! وتفكر فيماينطوىعليه قولها منسخريةلم تدر لها بخلد ، وقبل ان يتكلم عجلت هى بتغيير مجرى الحديث فسألته:

- اذاهب انت الى السينما ؟

وادرك انها تهيىء له فرصة ليدعوها للذهاب معه ، وساوره احساس بالضيق ولكن اشفاقه كان اكبر من حرجه فقال :

- كلا ، سأوافى بعض الزملاء الى موعد سابق !

وخفضت عينيها فى خجل ، ثم ساد صمت اليم ، واخيرا سألته بلهجة ذات معنى :

- ماذا احدث ذهابنا معا الى السينما فى بيتك ؟

ووجد فيما تعنيه بسؤالها عذرا ينفعه فى تجنب ما يريد تجنبه فقال :

- لا شىء ذا بال الا ان والدتى ساءها ان ادعوك الى مخالفة تقاليد اسرتك المحترمة !

فقالت ببرود :

- ليس مما يسىء الى الأسر المحترمة ان يذهب فتياتها الى السينما !

- كما لا يسىء اليها العناق والقبل ولكنك - مثل امى - لا تصدقين !

فتجاهلت اشارته وتساءلت :

ـ هل منعتك من العودة الى تلك المخالفة ؟!

ـ كلا !.. ولكنها تخاف ان أسيء من غير قصد الى أسرتك الكريمة .

ـ الم تخبرها بموافقة والدى ؟

ـ اخبرتها ولكنها اعتقدت انهما وافقا متورطين ..

ـ هل افهم من هذا اننا لن نخرج معا بعد اليوم ؟

ولم يستطع ان يجابهها بما يبطن فقال :

ـ بل نخرج حين نشاء ..

وندم على قوله اثر التفوه به ، أما هى فابتسمت فى حياء وقالت بصوت منخفض :

ـ ظننت اننا سنذهب اليوم الى السينما !

وعجب لهذه الدعوة تجيء من ناحيتها هى ، ومع انه رق لها الا أنه لم يستسلم لعاطفته فقال :

ـ لولا انني مرتبط بموعد كما قلت لك ...

ـ آه ... هذا أهم طبعا من ذهابى معك !

ـ ليس الأمر كذلك ولكن سبق منى وعد !.. ثم ... ثم لا يجمل بنا أن نعاود ما تظنه أمى مخالفة للتقاليد بهذه السرعة !

فهزت راسها فى ابتسامة حزينة وقالت :

ـ اذن فليس الموعد الذى يمنعك !

فقال بتسليم :

ـ كلا الأمرين معا !.. لا تؤاخذى امى على عقليتها القديمة .

فخرجت عن ضبط عواطفها لأول مرة قائلة :

ـ فكيف تسمح لنفيسة بالخروج كل يوم ؟!

ولم تعجبه لهجتها ، وساءها ما تضمنته فقال بلهجة لم تخل من حدة :

ـ لولا العمل لما غادرت نفيسة البيت ابدا !

وبادرته قائلة بلين واشفاق واسف :

ــ لم اقصد سوءا باحد . اردت ان اقول ان الخروج لا يعيب انسانا . .

وساد الصمت قليلا ثم سمعا وقع اقدام الأم وهى راجعة فتساءلت بهية فى لهفة واشفاق :

ــ حسنين أأنت غاضب ؟

ولم يستطع أن يجيبها بسبب ظهور الأم فابتسم لها ابتسامة رقيقة أثابت اليها طمأنينتها . . ومكث معهما ساعة ثم ودعهما وانصرف .

٦٧

لم يكن ثمة موعد كما زعم وقد ذهب الى السينما بمفرده ودخلها بعد بدء العرض بدقائق فأرشد الى كرسيه فى الظلام . وجعل يشاهد الجريدة بنصف انتباه والنصف الآخر هائم فى البيت الذى غادره معتذرا باكذوبة . وذكر كيف ضغطت على يده . بحنو وهى تودعه ، ضغطة لذيذة ارعشت قلبه . وغفرت لها ما تقدم وما تأخر من اساءة ! . « امنيتى الآن اذنى الى التحقيق . لو مارست ضبط النفس بدل التهالك والتوسل لفزت بما أشتهى من زمن . لو عبست فى وجهها مرتين لما اصرت على قول « لا » . ما احمقنى !. لن اقنع بقبلة . لأضمنها الى صدرى حتى يطقطق عظمها تحت ذراعى ، بعيدا عن أعين النقاد التى لا تعجبها الا الملاحة والرشاقة والموضة . ولكن هل اصر على اخفائها عن الأعين حتى بعد أن اتزوج منها ؟. . لماذا لا أستهين بالناس والسنتهم ؟. . يا له من شر لا قبل لى بالتعامى عنه !. . هكذا انا » وارتاح من افكاره بتركيز وعيه فى الشاشة فرأى هتلر وهو يستقبل سفراء الدول بمناسبة عيد ميلاده ، ثم شاهد فصلا من الصور المتحركة

واضيئت الأنوار . ودار براسه فيما حوله متفرسا فى الوجوه فاستوقف نظره امراة هائلة مفرطة فى السمنة لحد مزر تجلس لصق زوجها وتنازعه الحديث ، ولم يسعه الا الاعجاب بشجاعة الرجل الذى يستصحب هذه المراة دون مبالاة باحد . ولاحت منه التفاتة الى يساره فراى فى الكرسى الذى يليه فتاة حسناء مرتدية جاكتة رمادية وتاييرا . وخيل اليه لحظة انه لا يرى هذا الوجه لأول مرة . وراح ينقب فى طوايا ذاكرته ، وفى اثناء ذلك انتقل بصره الى امراة تليها ثم الى رجل ما ان رآه حتى دق قلبه بعنف ونهض قائما ومد له يده بادب وهو يقول :

ـ مساء الخير يا سعادة البك .

فالتفت الرجل صوبه ـ كان احمد بك يسرى ـ وابتسم اليه مسلما ، ثم قدمه الى زوجه وكريمته وعقب على التعريف به قائلا « ابن المرحوم كامل افندى على » فسلم عليهما فى غاية من الأدب وعاد الى جلسته ومس يد الفتاة يسرى فى جسده ، وساله البك عن حاله فى الكلية فاجابه شاكرا ثم فرغ كل لحاله . ونظر الى امامه وهو يشعر بارتياح لأنه جاز فترة التعارف وهو ثابت متمالك لأعصابه مع انه كان يقدم الى عضوين فى هيئة الجنس اللطيف العالية لأول مرة فى حياته . ومر عند ذاك نادل يحمل الوانا من الشيكولاتة والمشروبات فود لو كان يملك من النقود ما يسعفه بتقديم بعض منها الى الأسرة ، ولكن لم يكن فى جيبه الا قروش ، فحنق على افلات هذه الفرصة منه ، وحقد على فقره كما لم يحقد عليه من قبل !. ثم اطفئت الأنوار وعادت الحياة الى الشاشة ، ولكنه لم يندمج فيها ووجد من وعيه وخياله اباء وجموحا . توكد لديه الآن انه لم يكن يرى هذا الوجه البديع لأول مرة ، وذكر الساق العارية التى كشفت عنها حركة الدراجة بحديقة الفيللا . ترى أى اثر قد تركه فى نفسها ؟. وأى اثر اخلفه قول احمد بك من انه « ابن المرحوم كامل افندى على » ؟ . كان

والده موظفا صغيرا ، وفضلا عن هذا فلا شك ان المراثين تعلمان بما بذل البك لأسرته من شفاعة تارة ليوظف حسين ، وتارة ليلحقه بالكلية الحربيـة ، وهيهـات ان يغيب عنهمـا حقيقة مستواه الاجتماعى . ولعـل الفتاة لم تر فيه الا صنيعة لمعروف والدها ، ولعلها قالت لنفسها انه لولا يد ابيها ما ارتدى — هو — بدلته ذات الشريط الأحمر !. كل هـذا محتمل ، بل هو مؤكد ، وقد التهب جبينه خجلا وسخطا . « لقد رايت ساقك على الدراجة ، عاجية جذابة ولكنها ليست بمعجزة . لا توجد معجزات فى هذه الدنيا . الست تنامين كأى فتاة ، وتغيبين عن الوجود كأى امرأة ، وتحبلين كما تحبل الخادمة التى طردناها لفقرنا ، وتعوين حين المخاض كأية كلبة ! . » وحك انفه بسبابته فجاة فتنسم شذا لطيفا مما علق براحته عند السلام ، فيه اثارة للأعصاب ونفـاذ الى القلب كأنه السحر ، فأسكره عرفه وبث فى نفسه رضى وسلاما مسحا عن صدره ادران الحنق والألم . ولحظ طيفها اللطيف فحدس أنها شابكة ذراعيها على صدرها ، وتمنى لو تربح ساعدها على يد المقعد فتمس ساعده عفوا . ثم تخيل صورة وجهها الذى القى عليه نظرة خاطفة وهو يسلم عليها ، بطولة المتلىء وعينيها السوداوين اللتين ينمان عن حيوية وخفة ، وهالة شعرها الأسود العميق السـواد ، وبشرتها النقية التى تزين وجنتها اليسرى شامة ، ثم راح يستحضر صورة بهية ، ويعرض الصورتين جنبا الى جنب حيال مخيلته حتى اقتنع بأن هذه الفتاة ليست اجمل من فتاته ، ولكنه شعر فى الوقت نفسه بأن بهية جمـال جامد وهذه جمال متحرك ، كأنما يبث فى النفس حرارة ويشيع فى الخيال حياة . وليس هذا فحسب فانها تمثلت لعينيه الطموحتين كرمز حى للدنيا الراقية التى يتطلع اليها بشغف جنونى . لم تكن فتاة بقدر ما كانت طبقة وحياة . وبرغم نشوته الراهنة لم يخدع عن حقيقة شعوره ، ولم يتوهم انها تغلغلت فى قلبه حيث استكنت

بهية ، فهذه ـ على سلبيتها المطلقة ـ تقبض على جذور غرائزه واعصابه ، ولكن الأخرى تخاطب مباشرة طموحه الذى لا يقف عند حد ، ولعله عرف على ضوء عينيها جانبا من نفسه كان غامضا وهو انه يؤثر فى اعماقه الطموح على السعادة والسلامة !. ثم هبطت عليه نوبة فتور مفاجىء فقال لنفسه « انى احلم احلاما سخيفة . ولكن الا يحق لى ان اروح عن صدرى بالأحلام ؟ اليست الأحلام نفسها حلما ؟.. بلى ، انها حلم ، ولا يكدر صفوها الا شعورنا الوهمى بانها حقيقة ! » . وانقضى زمن لا يدريه قبل ان يتمكن من تركيز انتباهه فى الشاشة ، ولكنه كان قد استنفد حيوية كبيرة فبدا المنظر متعبا مملا ، وتصبر عليه فى جهد حتى انتهى واضيئت الانوار . والتقت الأعين فحنى راسه تحية ثم انخرط فى تيار الخارجين . وانفلت من الزحام فتمشى فى الطرق ساعة ثم استقل الترام الى شبرا . واقبل على حيه فبدت له عطفة نصر الله اشد كآبة من عهدها ، وزكمت انفه رائحتها التى يختلط بها التراب بالدخان بمواد شحمية كثيرة فقطعها برما خابى العينين ..

٦٨

وتواصلت الأيام حتى اوشك العام الدراسى على الختام . وفى ثلثه الأخير علم ان وزارة الحربية قررت تخريج دفعة الشباب مكتفية بعام دراسى واحد على ان يتم الخريجون تدريبهم فى الفرق التى يلحقون بها ، وذلك لتواجه زيادة عدد الجيش بعد اقرار المعاهدة . وضوعف العمل للطلبة ولكنهم اقبلوا عليه مستبشرين متحمسين ، والواقع انها كانت حقيقة اقرب ما تكون الى الخيال فلم يكن ثمة واحد منهم يصدق انه سيكون ضابطا بعد عام دراسى

واحد ، وكان آخر هؤلاء جميعا حسنين نفسه . ثم انتهى العام وتخرج الشاب ! . واستخف الطرب الأم وكانت اشبه بملاح تائه تمزق شراعه ونفد طعامه اذ تكشف الضباب لعينيه فجاة عن مرفأ آمن ، ولهج لسانها بحمد الله وجعلت تقول فى حرارة وايمان عميق « انت وحدك يا ربى الذى أخذت بيدى ، ومن كان يرى حالنا بالأمس ونحن نتخبط فى ظلمات الياس ويرانا اليوم وكل شىء من حولنا يدعو للأمل يقر من صميم قلبه بعدلك ورحمتك ». وغبطت نفسها على سعادتها لأول مرة فى حياتها واخذت محنتها الطويلة تتراءى لعينيها الذابلتين فى هالة من الفخار والسرور وكأنها لم تكن سوى عبوسة مصطنعة على جبين الأقدار الرحيمة ، فابتلت عيناها بدموع الفرح والشكر . وكانت تقتصد من نقود حسين ونفيسة ما تعده لسداد مصروفات السنة التالية فاخذه حسنين ليهيىء به ملابس الضابط الكاملة وشغل بذلك طول المهلة التى تمنح للخريجين قبل توزيعهم على الفرق المختلفة . ولما كان ترتيبه بين الأوائل فقد الحق بسلاح الفرسان بالقاهرة وتهيأ للأسرة من حسن التوفيق ما لم تكن تحلم به ، وارتدى حسنين بدلة الضابط فتحقق حلمه القديم وجعلت امه تنظر اليه بعينين أذهلهما الفرح حتى شذت عن المالوف من صمتها ورزانتها ، فهذا هو الابن المحبوب ، زهرة حياتها واملها المنشود . وقد قال لها مرة :

– اذا حان موعد الاحتفال بالمحمل فسيتاح لك ولنفيسة فرصة باهرة لتشاهدانى على صهوة جوادى على راس فرقة الفرسان !

فلم تتمالك أن قالت له :

– هذا اذا ابتعت لى معطفا يليق بالظهور فى الطريق الغاص بالمتفرجين !

فضحك الشاب قائلا :

- صبرك حتى أقبض مرتبى !

كانت اياما سعيدة صفت لهم فيها الدنيا وطابت . بيد أن الشاب كان يفكر فى أمور كثيرة ، وكان يروم ان يقيم سعادته المتاحة على اسس ثابتة لا يتطرق اليها الفساد ، فانتهز فرصة انفراده بأمه مرة - كانت نفيسة فى الخارج - وقال لها بصوت ينم عن الاهتمام الشديد :

- أماه ، يجب أن تنقطع نفيسة عن عملها المزرى فى الحال لأنه لا يجوز لأخت الضابط أن تكون خياطة .

فابتسمت الأم وقالت فى بساطة :

- سترحب بهذا بمجامع قلبها يا بنى ...

كان ينتظر هذا القول بلا ريب بيد انه لم يمح من نفسه ما يعتلج بها من مثار الفكر فاستطرد متنهدا فى كآبة :

- ليتنا نستطيع ان نمحو الماضى من صفحة الوجود ! .. اخاف أن يعيرنا قوم بما كان ، وانت أعلم بنفوس الناس ، واكره ما اكره ان يترامى شىء من هذا الى احد من زملائى فافقد كرامتى بين اقرانى ...

فسرى اليها بعض همه ولكنها ربتت على كتفه مبتسمة وقالت باستهانة :

- كنا فقراء ، واكثر الناس فقراء ولا عيب فى هذا ...

فهز راسه معترضا وقال فى اسى :

- كلام يقال ولكنه لن يغنى عنا شيئا وانت اخبر بالنفوس!.

- لا احب لك يا بنى أن تنغص عليك صفوك بأمثال هذه التخيلات !..

فاستدرك قائلا وكأنه لم يسمع قولها :

- هذه العطفة الحقيرة تعرفنا على حقيقتنا ، فلهذا لا اطيق البقاء فيها ...

واشفقت الأم من تكدير سعادتها الشاملة فقالت بتوسل :

- ستسوى هذه الأمور مع الزمن فلا تتعجل بحمل همها !

وحدجها بنظرة غريبة وغبطها فى نفسه على قوة اعصابها ، ولكنه سرعان ما تغيظ لعدم اكتراثها بالأخطار التى تتهول فى راسه وقال بحدة :

- قد تسوى هذه الأمور مع الزمن حقا ولكن بعد ان تكون قد قضت على !

فلاحت فى عينى المراة نظرة ارتياع وقالت له فى عتاب :

- اراك كعادتك نافد الصبر متعجلا للمتاعب ، ونصيحتى لك الا تخلط افراحك الحقيقية باتراح وهمية لا اهمية لها . .

فقال باستنكار :

- لا اهمية لها ؟ !

- بلى لا اهمية لها !

- ماضى نفيسة وما يعرفه هذا الحى عنا لا اهمية له ؟

- اذا لم تأخذ نفسك بالايمان بهذا فلن تنعم بالسعادة ابدا .

فتنهد حسين قائلا :

- اود ان اسدل على الماضى ستارا كثيفا . .

- تجمل بالصبر وسيكون لك هذا . .

فالتهب الشاب غيظا وقال كمن ضاق صدره :

- لا أخاف شيئا كخوفى الصبر الذى تدعيننى اليه . انظرى الى هذه العطفة الحقيرة وهـذا البيت العارى هل استطيع ان اخفيهما الى الأبد عن اعين زملائى ؟ !

وشعرت المراة بتعاسة وأدركت ان حياتها لن تخلو من هم وكدر . وقالت له بمرارة :

- خطوة خطوة ! كنا لا نجد الطعام فانظر اين نحن الآن ! !

فهز راسه فى حزن وقال :

- ما اردت اغضابك يا اماه ولكنى افكر هذه الأيام كثيرا فى المتاعب التى تتهددنا . وقد ذكرت لك بعضها ، ولعل ما بقى ادهى

وامر . فانظرى مثلا الى اخى حسن وسيرته فى الحياة ! . . كيف نستقبل الحياة فى هدوء وحولنا هذه المتاعب ؟!

وتفرست فى وجهه بدهشة وكانها تعجب لقدرته على اصطياد الهموم ، وتمتمت فيما يشبه اليأس :

ـ دع الخلق للخالق . كنا هكذا دائما فلم نهلك ولم يقض علينا .

فقال الشاب بانكار :

ـ لم اكن ضابطا اما الآن فقد اصبحت سمعتى مهددة !

وتجهم وجه الأم ولاذت بالصمت فى كرب شديد فتنهد حسنين قائلا :

ـ ينبغى ان يتغير كل شىء ، حتى قبر والدنا المكشوف بين قبور الصدقة . تصورى ماذا يظن بنا زملائى لو علموا بمكانه !

ودارت الأم مشاعرها بابتسامة وقالت برجاء :

ـ انى احب لنا ما تحب ولكنى اوصيك بالصبر واحذرك عواقب ثورة لن تجدى الآن الا الحزن . تريد أن تمحو الماضى وتغير البيت وتنشىء مقبرة وتبدل اخاك من حال الى حال ، ولكن هيهات أن يتم لك ما تريد قبل زمن طويل فكيف يكون العمل ؟ . طالما تمنيت ان تسعدنا وان تسعد معنا فاذا لم تروض نفسك على التسليم بالواقع وتاخذها بالصبر شقيت وشقينا !

وضاق بالكلام ضيقه بمتاعبه فامسك عنه . ولم يقع قولها من نفسه الثائرة موقع الاقتناع او القبول فخيل اليه انها لا تشاركه آماله وعواطفه ، وانه وحيد فى معركة الحياة أو الموت . ان نفسه تهفو لحياة افضل وانظف . ولن يحيد عن هدفه ، وليدافعن عن سعادته وآماله بكل ما أوتى من قوة ورغبة فى الحياة . ودق الباب عند ذاك ، وكان المساء يمد رواقه ، فحدس أنها نفيسة عائدة من عملها ، فهرع الى الباب فى تصميم جديد . .

٦٩

ودخلت الفتاة مبتسمة وكانت لا ترى تلك الأيام الا مبتسمة مستبشرة . واستبانت فى وجه امها سهوما فاقتربت منها وقالت مداعبة :

ـ تخلى يا أماه عن هـذا الجد الذى لا داعى له فقد انتهت متاعبنا .

وردد حسنين قولها فى نفسه محزونا ، هـل حقا انتهت متاعبهم ؟ . ان ميزانية الجيش كلها لا تكفى لانهاء متاعبهم ! ثم رفع بصره اليها وقال بلهجة ذات معنى :

ـ آن لك أن تستريحى ..

فتساءلت ضاحكة :

ـ أتعنى أن أترك مهنتى ؟

ـ نعم ...

ـ أتركها غير آسفة ، وسألزم بيتى كالهوانم ، ألست شقيقة ضابط ؟ !..

ولم يتمالك أن قال ساخرا :

ـ وشقيقة سى حسن أيضا !

فرددت عينيها بينه وبين امها فى دهشة وتساءلت عما جعله يقحم أخاه بهذه اللهجة المرة ، أما هو فسألها متهكما :

ـ الا يسرك هذا ؟

وقالت الفتاة برقة وعطف :

ـ مهما يكن من أمر أخينا حسن ففضله لا يمكن ان ينكر ..

وتدارك الشاب قائلا :

ـ لست فى حاجة الى من يذكرنى بهذا ، وعلم الله انى احبه ،

ولكن لا حيلة لى اذا قلت ان سلوكه فى الحياة ليس مما يشرف .

وثقبت العبارة الأخيرة قلبها فلاحت فى عينيها نظرة زائغة ، وتخيلت امورا فبردت اطرافها رعبا ، ثم خيل اليها أنه يعنيها بالذات ، ولم تعد ترتاح للصمت فغمغمت فى فتور :

ـ واية اسرة تخلو من شيء من هذا القبيل !

فقال حسنين بامتعاض :

ـ ولكنه لا يوجد فى الأوساط المحترمة .

وركبها الضيق والقلق فرغبت فى الاختفاء وتظاهرت بالضحك وقالت فى مرح متكلف :

ـ لا يستحيل ان يوجد شقيقان احدهما وزير والآخر لص ، بالله لا تكدر صفونا ، واعلم انى صنعت لك صينية كنافة فدعنى اسخنها ولناكل فى سلام !

وغادرت الحجرة الى المطبخ بوجه مكفهر ونفس حائرة يشيع فى قلبها خوف وقلق . انه يدعوها الى القبوع فى البيت اسوة بالنساء المحترمات ، وانها ترحب بهذا ولكن ما كان كان ولا سبيل الى اصلاحه . وهى تستطيع اذا شاءت أن تنتحل لسلوكها الأعذار وان تقول لنفسها انها انما ارتضت تلك الحياة للحصول على النقود التى اقامت بها أود اسرتها فى اكلح ساعات حياتها ، وهذا حق ولكنه ليس الحق كله ، فهنالك ايضا الرغبة المعذبة واليأس القاتل . وكم ودت فى ساعات يأس لو تموت هذه الرغبة ولو تموت هى بموتها ولكنها كانت تزداد رغبة وانحدارا ويأسا ثم تمردا واستسلاما . وعانت كثيرا شقاء الذنب وكان عزاؤها الوحيد ـ ان كان عزاء على الاطلاق ـ ان الأقدار لا يمكن ان تدخر لها حياة افضل . وكم تمزقها الحيرة الآن بين ماض تعيس ورغبة لا تسكت عنها . وحتى هذه الحياة الجديدة الموعودة لا تدرى ان كانت تستطيع حقا ان تخلص لها بعد ما كان ، فلن تغيض رغبتها ولن يتخلى عنها اليأس ، وفيم تأخذ نفسها بصبر لا مطمع لأمل وراءه وليس لديها ما يصح المحافظة

عليه ؟ هل يمكن ان تقنع من الحياة بانتظار طويل ممل للموت ؟ . لاتدرى ان كان بوسعها حقا ان تخلص للحياة الجديدة ، وان تتعذب عذابا طويلا متصــلا بعد ان خسرت كل شيء . انها تمقت الماضى وتخافه ولكنها تشد اليه بقوة شيطانية فلا تستطيع منه فكاكا ، ولن تفتأ تتبعه يائسة مثقلة بالذنب مرتعبة ، كمن يسلم للسقوط من علو شاهق فى كابوس بعد ان ايس من اليقظة . وجعلت تنظر فى سهوم الى صفحة الكنافة الموردة حتى تخيلت نفسها فى الصينية تحترق وقد اسودت بشرتها ، وفى تلك اللحظة بدت الحياة لهـا عابثة قاسية ، تعبث فى قسوة ، وتقسو فى عبث . فتساءلت «لماذا خلقنى الله ؟ » . ومع ذلك كانت تحب الحيـاة ، ولم يكن يأسها وعذابها وخوفها الا آيات على هذا الحب ، وكانت الى هـذا كله تنتظر مع الغد موعدا لم تضمر النكوص عنه .

وحملت الصينية بخرقة بالية وعادت الى الحجرة فوضعتها على المكتب وهى تقول فى مرح وكأنها انسيت افكارها ومخاوفها .

ـ اقدم لك آخر كنافة من عرق جبينى ، وعليك وحدك منذ الآن ان تحلى السنتنا !

واقبلوا على الكنافة بشهوة وقد تطهرت الأنفس من همومها ، وقالت الأم وهى تغرز اصابعها فى الصينية :

ـ ليت حسين كان معنا .

ولوح لها حسنين باصبعه حتى ابتلع ما فى فيه ثم قال :

ـ آن لنا ان نسعى الى نقله الى القاهرة ، كان احمـد بك يسرى قد وعد بنقله بعد مرور عام او نحوه وها قد اوشك ان يمضى عامان على تعيينه فى طنطا .

كان يرغب فى معاشرة اخيه كعهدهما القديم ، وكان يأمل ان يجد فيه عونا على متاعبه ، وقد رحب الى هذا وذاك بفرصه تتيح له زيارة احمد بك فى قصره .

٧٠

ذهب مع اصيل الغد الى ڤيللا احمد بك يسرى وفى نيته ان يقدم له فروض الشكر لمناسبة تخرجه ثم يستشفعه لنقل اخيه الى مدرسة من مدارس القاهرة . وقد وقف البواب احتراما للضابط ثم قاده الى السلاملك ومضى الى الداخل لانباء البك بحضوره . وجلس حسنين على الكرسى الذى جلس عليه اكثر من مرة فى اوقات متباعدة وظروف مختلفة ، وراح يسرح طرفه فى الحديقة . وجرى بصره فى المشى الطويل المتعرج الذى راى الدراجة تقطعه فى مهل وحذر منذ اكثر من عام وتساءل ترى الا تزال تلهو بهذه الرياضة ؟ . وابتسم للذكرى حينا ثم تساءل مرة اخرى احقا جاء للشكر والشفاعة وحدهما ؟ ! وعاوده الابتسام . بيد انه كان فى حيرة من اهدافه قلقا حيال البواعث التى تحركه ، مشفقا من الاساءة الى خطيبته ، ثم ذكر زيارته الأخيرة — التى اعقبت تخرجه — لبيت فريد افندى وكيف مرت فى احاديث مملولة وشعور اليم بالحرمان ، حتى انه لم يظفر بجلسة منفردة واحدة بفتاته ، ذكر هذا فوجد من التذمر ما هو عليه احساس التانيب الذى دب فى اعماقه لسروره بذكريات ڤيللا احمد بك . ونفض عن راسه افكاره واستسلم لمشاعر الطموح التى تتوهج فى قلبه فى محيط هذه الڤيللا الرائعة فانثالت على مخيلته الأحلام ، ماض جديد وبيت جديد وقبر جديد واهل جدد ومال موفور وحياة وضاءة لامعة . ومع انه صار ضابطا ، ولعل كثيرين يرمقونه بعين الحسد لذلك ، الا انه ادرى الناس بقلبه الذى يحترق لهفة على الحياة السامية النظيفة ، هذا القلب الذى اورده الجزع موارد القلق والسخط والشقاء ، ولبث على استسلامه للأحلام حتى عاد

البواب من الداخل وتنحى عن البـــاب فى أدب وهمس « سعادة البك قادما » . ونهض حسنين ، ثم ظهر البك فى بدلته البيضاء والوردة الحمراء تزين عروته ، ولمـا رأى الشاب ألقى على بدلته العسكرية نظرة شاملة ثم قال ضاحكا :

– اهلا بالضابط .

وانحنى الشاب على يده مسلما وهم بالكلام ولكنه رأى حرم البك تتبعه قادمة من الداخل وفى أثرها الفتاة . وادرك انه جاء فى وقت غير مناسب لغرضه لأن الأسرة متأهبة للخروج ، وقد توكد هذا لديه حين لمح السيارة تدور فى الممشى الواسع وتقف عند أسفل السلاملك منتظرة الذاهبين ، فما كان منه الا أن سلم على المراتين وتأخر خطوتين قائلا :

– جئت لأقدم لسعادتك فروض الشكر لمناسبة تخرجى ، وأرى أن أستأذن فى الانصراف الآن حتى لا أؤخركم .

ولكن البك قال :

– بل نجلس لنشرب ليمونا معـــا . ما يزال أمامنا فسحة من الوقت . .

وجلسوا فجلس وهو يبذل قصاراه ليضبط أعصابه فلم يكن أبغض اليه من أن يتولاه الاضطراب أو الارتباك حيال البك وانداده من علية القوم . وذهب البواب لاحضار الليمون اما البك فسأله برقة :

– أين كان تعيينك ؟

فقال حسنين بزهو مكتوم :

– سلاح الفرسان بالقاهرة .

– كنت من المتقدمين ؟

– الثامن . . .

وهنأه الرجل ، ثم ساد الصمت . وكان فى عزمه – لو قابل البك منفردا – أن يعدد أياديه على أسرته وما بذل من شـــفاعة

محمودة له ولأخيه على ان يتدرج من الثناء الى عرض مسالة اخيه حسين ، ولكنه عدل عن هذا مصمما على الاحتفاظ بكبريائه أمام المراتين ، وامام الفتاة خاصة ، ولم ير ضيرا فى تأجيل مسالة شقيقه الى غد او بعد غد على ان يحدث البك عنها فى مكتبه بالوزارة . وجاء خادم نوبى باقداح الليمون ودار بها عليهم . وانتهز حسنين فرصة رفعه للقدح الى فمه فاسترق الى الفتاة نظرة من فوق حافة القدح فرآها وهى تحسو شرابها فى رفق ولطافة ، فلم يند عن زورها هذه الحركات العصبية التى يبعثها الازدراد العنيف ، وتمزرت السائل فى رقة فانسكب فى هوادة وحياء ، وقد اكتسى وجهها بهدوء بديع واسترخاء حالم كأنها تستنيم للمسات النعاس ، واعاد القدح الى الصينية ثملا بنشوة افتتان تبعثها الأناقة والرشاقة وامارات الأرستقراطية . وتخيلها فجأة بين ذراعيه مستكينة مستنيمة فأصر على اسنانه . « ما هذا الجنون الذى ينبعث فى دمى ، ليس شهوة فحسب ، بل ليس شهوة على الاطلاق ، بهية اشهى منها وان كان يخجلنى الظهور معها امام الناس ، ليس ركوب هذه الفتاة بعمل جنسى ولكنه غزو كامل وفتح مظفر ، هذه هى ! » . وانتبه من افكاره على صوت احمد بك وهو يسأل :

ـ كيف حال الأسرة ؟

فخطر له خاطر ظن انه يرفع من كبريائه . وكانت الأكاذيب تنبعث فى نفسه احيانا بوحى البديهة فقال بلا تردد :

ـ الحمد لله . انقضت متاعبنا بعد أن كسبنا القضية !

فتساءل البك :

ـ اى قضية ؟

فقال بثبات وثقة :

- قضيـــة قديمة بين امى واخوالى على اوقاف وقد حكم لأمى بنصيبها كاملا !

فقال الرجل :

- مبارك .. مبارك ..

وشعر حسنين بارتياح وزهو ، ثم وقف وهو يقول :

- لقد اخرتكم وانا آسف يا سعادة البك .

ونهضوا جميعا وهبطوا الى موقف السيارة ، وتمنى لو يدعوه الرجل الى الركوب معهم ، ولكنه مد له يده مودعا فسلم عليه وحنى راسه تحية لأسرته ومضى الى الباب مسرعا . كانت الزيارة تبدو مخفقة لانه لم يمس الموضوع الذى جاء من اجله ولكنه كان يرى توفيقه بهذا اللقاء غير المنتظر وهذه الكذبة التى جادت بها البديهة السـعيدة اخطر من غرضـه الأول الذى لن يؤثر فيه تاجيل يوم او يومين ..

٧١

وقلب وجهه فى السماء ولما يبرح شارع طاهر فطالع فى صفحتها نظرة الغروب الشاحبة فتساءل ترى هل يجد اخاه حسن فى بيته اذا جازف بزيارته ؟ كان مصـمما على مجابهتـه برايه وان كان ضعيف الأمل فى اصلاح ما فسد من امره ، ولكن تركيز افكاره فى مستقبله ومستقبل أسرته جعلـه يسـتهين بكل شىء حتى مناضلة حسن نفسـه . ومضى يشق طريقه بعزيمة لا تنثنى ولكنه كان يحمل قلبا اثقله الهم والشك . واستقل الترام حتى ميـدان الخازندار ثم اتجه الى شارع كلوت بك وقد تحـول انتباهه الى بدلته العسكرية التى فرضـت عليـه الظروف - كانت امه قد استغلت ملابسه القديمة فى اغراض جديدة كعادتها - ان يخترق

بها طرقا مريبة ! لم يكن الاختيـــار بيده ، وكان يرى فى حســن مشكلة الأسرة المعقدة الأولى . لقد تخلت نفيسة عن مهنتها ، وسوف يهجر قريبا عطفة نصر الله بل وشــبرا جميعا ، وربما اسدل ستار النسيان على الماضى البغيض كله ، فلم يبق الا حسن ، وهيهات ان يطمئن له جانب ما دام شقيقه مقارفا حياته الآثمة . وطالعته عطفة جندف فعــرج اليها متجنبا الأنظار التى تطلعت اليه فى دهشة وقطعها مسرعا الى بيت اخيه ومرق اليه كالهارب مستقبلا الرائحة النتنة . وارتقى الســلم الحلزونى ممتعضا ، ذاكرا فى ضـيق وخجل زيارته الأولى لهــذا البيت منذ عام ، حتى وقف امام باب الشقة فى شبه ظلام وطرق الباب . وفتح الباب عن وجه رجل غريب ــ وجه شــائه من الوجوه التى لم تبرح ذاكرته منذ زيارته الأولى ــ وما ان وقع بصره عليه حتى دفع الباب فاغلقه فى وجهه بسرعة غريبة وقد ندت عن فيه صرخة قائلة : « بوليس ! » فدهش الشاب ، ثم حدس ما هنالك فانزعج واحس بخزى والم لم يحس بمثلهما من قبل . ولبث متسمرا فى مكانه لا يدرى ماذا يفعل . وفكر فى العدول عن الزيارة ، ولكنه لم يبرح مكانه ووجد من نفسه تصميما عنيدا على انجاز مهمته مهما كلفه الأمر . ليست المسالة لهوا وعبثا ؛ هى حياة او موت ، ولن يستطيع السير فى حياته قدما ووراءه هذا البيت . وطرق الباب مرة اخرى ، وانتظر وهو يعلم بعبث الانتظــار ، ثم اعاد الطرق بشدة . ترى هل يمكن ان يكونوا قد هربوا من الشقة من احدى النوافذ ؟ واراد ان ينادى اخاه بصــوت مرتفع فيتعرف عليه بصوته ولكنه خاف ان يعرفه كما يريد ثم يعلن شــخصيته لصاحبه المذعور ليطمئنه فتذاع الصلة التى يتمنى الا تعــرف ابدا ، ومع هذا فمن ادراه ان حسن لم يخبر احدا بحقيقة شقيقيه ولو على ســبيل الفخار ؟ ! واصر على اســنانه فى خزى ويأس ، ولكن اليأس امده بقوة عناد جديدة فطرق البــاب بقبضة يده

بعنف وصاح « يا حسن ، يا حسن ، أنا حسنين ! » . ولم يطل انتظاره بعد النداء ففتح الباب وبدا حسن خلفه يطالعه بعينين ذاهلتين . وبدا كمن يفيق من صدمة ، وثبت عليه بصره لحظات دون أن يتحرك ، ثم دبت فى عينيه يقظة ، وشاع فى نظرتهما الابتسام وهتف :

ـ حسنين ! .. ضابط ! .. لا اصدق عينى !

وشد على يده ، وربت بالأخرى على ذراعه ، وجذبه الى الداخل وهو يضحك ضحكة عصبية عالية ، ثم سار به الى حجرة النوم وهو يقول :

ـ ضابط ! .. يا لها من مفاجاة ! .. مبارك مبارك .. هذا يوم سعيد ..

وجلس حسنين على الكنبة ، واغلق حسن الباب ثم جاء فجلس الى جانبه ، وكان الشاب يبذل جهدا جبارا ليتغلب على اضطرابه ويتمالك أعصابه ، ونظر الى اخيه مبتسما وقال :

ـ انى أحق الناس بالتهنئة ولكنك انت احقهم بالشكر .

فضحك حسن بسرور ولعل شعوره بالسرور كان مضاعفا بعد ما كان من انزعاجه وقال :

ـ علام أستحق الشكر ؟ ما اديت اليك الا بعض حقك عندى . دعنا من هذا وخبرنى عن حال الأسرة ، وكيف أمنا ونفيسة وما اخبار حسين ؟

وراح يحدثه عما يريد بباطن فاتر وظاهر متكلف الاهتمام ، وكاد الحديث يسوقه وهو لا يدرى الى سؤاله عما قطعه عنهم ، ولكنه امسك عن السؤال فى اللحظة الأخيرة ذاكرا ان انقطاعه هذا خير غير مقصود وأن وصاله شر ما يبتلون به وهو على هذه الحال ، ولما فرغ من حديثه قال حسن :

ـ الحق انى احن اليهم كثيرا ولكن حياتى لم تعد تسمح لى باشباع هذا الحنين . نحن فى بلد واحد ولكنى فى الواقع كانى

فى بلد بعيد منقطع عن العالم ، وربما خفف عنى الالم احيانا انهم لم يعودوا بحاجة الى وانى اديت بعض الواجب على . وفضلا عن هذا فلست تجدنى فى يسر متصل ، فقد يمتلىء جيبى بالنقود أياما ثم يفرغ أسابيع ، وفى حالة امتلائه تجدنى مضطرا للانفاق بغير وعى . لا عليك من هذا ، لقد اصبحت ضابطا فمبارك عليك حظك ولا يصح ان اخلط بفرحى شيئا آخر . . مبارك ياحضرة الضابط !

وجعل حسنين يصغى اليه وهو يتفرس فى وجهه فهاله ما يرى من تغير وتشويه وغرابة كانه يستهلك فى العام الواحد من حياته المحفوفة بالمهالك اعواما طوالا . لقد انتهى حسن ، وشعر بانقباض وتشاؤم ، ويثقل المهمة التى جاء من أجلها . ومع هذا فلم يخطر له لحظة واحدة ان يعدل عما يراه واجبه ، وعزم على ان يتسلل الى هدفه برفق فابتسم وقال :

ـ اخاف ان اكون قد ازعجتك بزيارتى !

ـ ابصق هذه العبارة من فيك !.. ما هذا القول يا حضرة الضابط ؟!

فاشار حسنين ناحية الخارج وقال متصنعا الدهشة :

ـ لقد فتح الباب لى رجل غريب ثم صرخ مرتعبا « بوليس » واغلق الباب فى وجهى !

فقهقه حسن عاليا وقال :

ـ حصل سوء تفاهم نادر ولكنى عرفت صوتك فانتهى الأمر بخير . .

فوجد حسنين صعوبة قبل ان يقول متسائلا :

ـ وما الذى أخافه ؟

فالقى عليه نظرة كانما تسائله أيجهل حقا أم يتجاهل ! ثم قال بعدم اكتراث :

ـ يوجد اناس كما تعلم يخافون البوليس !

فتساءل الشاب باشفاق :

- أليس من الخطر ان تفتح ابواب بيتك لمثل هؤلاء ؟ !
فصمت حسن قليلا ثم قال :
- بلى ولكن الانسان ليس حرا فى اختيار اصحابه !
فقال بدهشة :
- كيف هذا يا اخى ؟ ! . . الانسان حر بلا شك فى اختيار اصحابه . . .
فقال حسن بلهجة من يرغب فى تغيير مجرى الحديث :
- فلندع هذا جانبا ولنختر حديثا الطف !
- لا استطيع ان ادعه حتى اطمئن عليك . . .
فقال حسن ضاحكا :
- لا خوف على ، اطمئن !
- انى اعجب لما يدعوك الى مصادقة هؤلاء الأشرار ! . . انت فنان محترم وتستطيع ان تختار من بين زملائك احسن الأصدقاء .
وخفض حسن عينيه ليخفى نظرة التجهم التى لاحت فيهما . غضب الرجل ، ولو ثار غضبه حيال شخص آخر غير حسنين لانفجر ، ولكنه كظمه وعالجه بالحسنى . اغضبه شعوره بأن اخاه يعلم من أمره اكثر مما يتظاهر به ، وانه يعامله معاملة الأطفال . ولو انه صارحه بذات نفسه ، بل لو انه وصفه بالشر كما وصف أصحابه لما غضب كما يغضب الآن . وعزم على أن يكشف القناع عن الحديث الكاذب فقال باقتضاب وبصوت - رغم كظمه غضبه - غير الذى تكلم به قبل ذلك :
- انى واحد من هؤلاء الأشرار !
وفغر حسنين فاه دهشة فقال الآخر بجفاء :
- حسنين اياك والتظاهر بالدهشة . لست غبيا ولست غبيا فيحسن بك ان تحدثنى بالصراحة التى تعودت ان تحدثنى بها دائما . ما وجه الغرابة فى أن اكون شريرا ؟ الم اكن طوال عمرى هكذا ؟ !

وخفض الشاب عينيـه فى وجوم وخجل وتشتت منطقـه فانعقد لسانه ، وارتاح الآخر لارتباكه فعـاوده مرحه واراد ان ينهى هذا الحديث المؤلم فقال :

ـ لا عليك من هـذا ، ولعن الله الرجل الرعديد فلولا فزعه الصبيانى ما جرى الحديث بيننا هذا المجرى السخيف ، ولنعد الآن الى الأهم (ثم ضاحكا) لا شك انك جئتنى لحديث آخر !

فجمع الشاب ما تشتت من افكاره وقال متنهدا :

ـ الحقيقة اننى ما جئت الا لهذا الأمر !

فلاح الاستنكار فى وجه حسن وقال متهكما :

ـ حسبتك جئت تطلب نقودا !

وشعر الشاب بغضب اخيه ولكن لم ينثن عن عزمته فقال بلهجة رقيقة متوددا اليه :

ـ بفضلك السابق لم اعد فى حاجة الى نقـود ولكن مهمتى الآن اجل من النقود ، انى اريد ان اطمئن عليك . .

فحدجه بنظرة ثاقبة وقال بسخرية :

ـ لا زلت اطالبك بالمزيد من الصراحة ! . . انك يا حضرة الضابط تريد ان تطمئن على نفسك لا على انا !

فقال حسنين وهو يشعر بقهر وغيظ :

ـ هما شىء واحد . . .

ـ حقا ؟ ! لا ارى رايك او دعنى اسالك لماذا لم توجه الى هذه النصيحة من قبل ؟ . . منذ عام مثلا ؟

لا يسعه ـ بعد ان قال له وهو لا يدرى انه انما جاء لهـذا الأمر ـ ان يدعى انه كان يجهله ، وركبه الضيق ، ولكنه تهرب من سؤال اخيه قائلا :

ـ الا ترى وجه الخير لك فيما اريد ؟

فتجاهل حسن سؤاله وقال بنفس اللهجة الساخرة :

ـ كنت قبـل عام فى حاجة جنونـية الى النقـود فلم تهتم

بالنصح والارشاد أما الآن وقد اصبحت ضابطا فلا يهمك الا الدفاع عن هذه النجمة اللامعة !

ومع ان وجه حسنين لم يتغير الا ان قلبه ماج بالغيظ والحنق وكأنما اهاجه ان يقرا الآخر أعماقه بهذه السهولة الساخرة ولكنه قال بلهجة لينة :

ــ اخى ...

وأشار اليه الآخر ان يسكت فسكت ، ثم قال باستهانة :

ــ ساكون معك صريحا الى ابعد حد ، واذا كنت تسائل نفسك حقا عن عملى فانى اقول لك انى فتوة قهوة بدرب طياب (ثم مشيرا الى الصورة فوق راسه) وعشيق هذه المراة ، وبائع مخدرات

وهتف حسنين فى انزعاج :

ــ لا اصدق هذا ! .

فقال الرجل مبتسما فى هدوء :

ــ بل تصدقه كل التصديق ، ولعلك خمنته فيما مضى ، وها قد صح تخمينك ، فماذا ترى ؟ !

فرنا الشاب اليه صامتا فى اشفاق والم ، حتى ضاق بصمته فقال محزونا :

ــ ليس أحب الى من ان تبدا حياة جديدة شريفة !

فضحك حسن عاليا ثم قال بسخرية :

ــ بفضل حياتى غير الشريفة امكننى ان ادفع عن اسرتنا غائلة الجوع ، وان أزود اخاك حسين بما كان فى حاجة اليه كى يباشر عمله الحكومى ، وان اهيىء لك قسط المصروفات الذى جعلك ضابطا والحمد لله .

ووخزه كلامه بمثل شك الابر فتراءت له الحياة ضيقة خانقة ، ولكن رغبته الحارة فى الدفاع عن نفسه أبت عليه ان يسلم بالهزيمة فقال :

ــ كان هذا بفضل نبلك ولا فضل لهذه الحياة الخطيرة فى ذاتها !

ــ لا تغالط نفسك . انهم يدعوننى بالروسى لا بالنبيل . ثم ما هى الحياة غير الشريفة ؟ ليس ثمة الا حياة فحسب ، وكلنا يسعى للرزق . . .

ــ توجد حياة آمنة ، وحياة يفزعها مجرد توهم البوليس . .

ــ هذا من عسف البوليس ، ولا ذنب لنا ، بالله خبرنى ماذا تريد على أن أعمل ؟

فقال حسنين بحماس وقد لاحت له بارقة امل :

ــ اهجر هذه الحياة واختر لنفسك عملا شريفا كسابق عهدك .

وانفجر الرجل ضاحكا وتساءل فى دهشة :

ــ صبى ميكانيكى ؟ ! . . هذا كمن يطلب اليك ان تستقيل من الجيش لتبدأ من جديد بالتوفيقية !

وغلى حنق الشاب فى اعماقه مرة اخرى ، ولكنه تساءل فى هدوء وابتسام :

ــ الا تدرى ما النهاية المحتومة لحياتك ؟

فقال متهكما فى بساطة :

ــ أن اسجن او اقتل ! . . واذا قدر على ان اقتل أولا نجوت بطبيعة الحال من السجن !

فتظاهر بالضحك وما يزداد الا حنقا ، واشتد حنقه خاصة لاستهانته ، ومع انه يئس منه او كاد الا انه استطرد قائلا :

ــ أرى أن خطورة حياتك لا تغيب عن فطنتك ، فلست فى حاجة الى ان ابصرك بعواقبها الوخيمة ، وانى استحلفك بالله أن ترعى نفسك بالحكمة . .

فالقى عليه نظرة طويلة باسمة كانه يقول له « لا تحاول خداعى بتوددك » وقال :

ــ لا تخف على ، أستغفر الله ، اعنى لا تخف على نفسك أو سمعتك . لا تحمل نفسك هموما فارغة ، هبنى كشىء لم يكن .

لا تكترث لما يقول الناس عنكم بسببى فانك تستطيع أن تحيا الحياة التى تروق لك على رغم كلام الناس . .

وتنهد حسنين فى ضيق وقنوط ، وحنق عليه فى تلك اللحظة حنقا أسود تمنى معه لو كان شيئا لم يكن حقا . ولكنه كائن ، ومسلط على راسه كالسيف القاتل ، فما عسى ان يفعل ؟ وتنهد مرة اخرى وتساءل :

ـ اليس ثمة امل فى ان تعود الى الحياة الشريفة ؟ . . اهذه كلمتك النهائية ؟ !

وغضب حسن ، وكانه اشفق على اخيه من غضبه فانتفض قائما وقطع الحجرة الصغيرة ذهابا وايابا مرتين مفرغا بخار غضبه فى حركاته العنيفة ، ثم استند الى حافة السرير ، وشبك ذراعيه على صدره ، وقال بلهجة من نفد صبره :

ـ حياة شريفة ، حياة شريفة ! لا تعد هذه العبارة على مسمعى فقد أسقمتنى . ميكانيكى بقروش معدودات فى اليوم ، اهذه هى الحياة الشريفة ؟ ! . . السجن احب الى منها ! ولو اننى استمسكت بها طوال حياتى لما حليت كتفك بهذه النجمة . اتحسب ان حياتى وحدها غير الشريفة ؟ . . . يا لك من ضابط واهم ! . . . حياتك انت ايضا غير شريفة ، فهذه من تلك ، ولقد جعلت منك ضابطا بنقود محرمة مصدرها تجارة المخدرات وأموال هذه المراة (واشار الى الصورة) ، فانت مدين ببدلتك لهذه المومس والمخدرات ، ومن العدل اذا كنت ترغب حقا فى ان اقلع عن حياتى الملوثة ان تهجر انت ايضا حياتك الملوثة ، فاخلع هذه البدلة ولنبدا حياة شريفة معا ؟

واصفر وجه حسنين وغض بصره فى ذهول ويأس وقد امتلأ صدره غيظا وحقدا . وانفرجت شفتاه اكثر من مرة كانه يهم بالكلام ولكنه كان يطبقهما فى تسليم اليائس . ولم يرحمه حسن على ما بدا من قهره ووجومه فقال :

ـ ارايت انك تؤثر النجمة على الحيـاة الشريفة ؟ !! ولست الومك فانا مثلك اوثر رزقى على الحياة الشريفة (ثم ضاحكا) .. نحن شقيقان ويجرى فى عروقنا دم واحد !

ونهض حسنين عابسا وهو يقول :

ـ لا تسخر منى جزاء ما اوليتك من نصيحة !

ثم اتجه نحو باب الحجرة وهو يقول :

ـ استودعك الله ...

ولما وضع يده على اكرة الباب ساله الآخر برقة مفاجئة :

ـ الا تريد ان تسلم على ؟

فتحول اليه ومد له يده ، فشد عليها الآخر وابقاها فى يده وهو يقول ضاحكا :

ـ يؤسفنى اننى اغضبتك . انس ما كان ولنبق كما كنا ولو على البعد . ستجدنى دائما « الروسى » الذى عهدته . ولا تنس ان تهدى سلامى الى امنا ونفيسة . مع الف سلامة ..

٧٢

واطلع امه على صورة واضحة من سيرة حسن فقد كان صدره اضيق من ان يتسع لها وحده . واستمع لما جاد به لسانها من ضروب العزاء والنصح بقلب مغلق ، كان فى الحقيقة متجهما متشائما حاقدا . ولما كان لديه بضعة أيام من الفراغ قبل أن يبدأ عمله بالفرقة فقد خطر له أن يسافر الى طنطا للقاء حسين ، وعاوده شعوره القديم بالحاجة الى مشاورة اخيه فيما يلم به من احداث . بيد انه لم يقدم على تنفيذ فكرته وبدا كالمتردد ، وفيما بين هذا وذلك لم يجد من سلوى الا فى شقة فريد افنـدى . ولكنه كان يذهب اليها ناشد عزاء لاملبيا شوقا ، ولم تغب عنه حقيقة مشاعره

فحمل كآبته العامة مسئولية تغيره . ثم اخذ يستبين ان تغيره أعمق من ان يكون اثرا عارضا وقتيا ، وتساءل فى حيرة الم يعد يحبها ؟!. عرض له هذا التساؤل اول ما عرض فى ضحى اليوم الذى جاء بعد زيارته لحسن بيومين ، وكان يجالس بهية على انفراد بحجرة الاستقبال على حين شغلت الأم بالمطبخ ، فجعل ينظر الى الفتاة متسائلا الم يعد يحبها ؟! هى فتاته بجسمها وروحها ، ولم تزل مثار رغبة جامحة ولكن كأنه يرغب فى ان يولى عنه فيما يرغب أن يولى عنه من ماضيه جميعا . وتحير بين رغبته فيها وما يتساءل عنه من انتهاء حبه لها ! أيمكن أن يرغب فيها ولا يحبها فى آن ؟ انه يجذب اليها بقوة عنيفة ولكن يرغب به عنها ما يرغب به عن عطفة نصر الله وعطفة جندف . لم تعد الأمل الذى يرنو اليه ، وما هى الا لوثة فى دمه يبغى منها شفاء . وأدام النظر اليها حتى خال وجهها الهادىء المهذب عقابا مجسما فوجد وخزا فى قلبه ، وطرد أفكاره دون أن يبت فيها برأى وسمعها تقول له :

ـ لا تحملق فى هكذا . .

ـ ما ألذ أن يضمها الى صدره ويمطرها قبلا ! انه لا يدرى ما هو فاعل بها غدا ولكنه يأسى على طول حرمانه .

وقال مبتسما :

ـ انى افكر فى تقبيلك قبلة حارة نبدأ بها حياة جديدة . .

ـ لا يحلو لك الا هذا الكلام !

ـ هل ثمة ما هو أحلى ؟

فترددت قليلا ثم خفضت عينيها قائلة :

ـ يوجد ما هو أهم !

وحدس ما تعنيه بلا تردد . وساوره قلق . ولكنه تجاهل ظنه متسائلا :

ـ أهم من القبلة ؟!

ـ أحب أن تحدثنى جادا ولو مرة . .

- ولكنى اود ان اقبلك جادا !

فتفكرت فيما يشبه الحدة ، كأنما تغالب خطره ثم بدا كأنها تغلبت على حيرتها فقالت :

- الا تدرى ماذا قالت أمى ؟

صدق حدسه !.. لابد مما ليس منه بد ! وتساءل متبالها :

- ماذا قالت ؟

فقالت بصوت منخفض وفى عناء من حياء :

- قالت لى لقد طال انتظارك ، وها قد صار ضابطا !

واحس فى اعماقه بحنق حام كأنه سمع تجديفا ، ومع انه كان يعلم بأنه ليس له حق فى حنقه الا انه كره الأم فى تلك اللحظة . ثم تساءل :

- هل تتعجل الزواج ؟

فتضرج وجهها بالاحمرار وغمغمت :

- كلا ولكنها ترى انه آن أن تعلن الخطبة .

- الم يتم هذا !

فتحسست بنصر يمناها فى حياء وغمغمت :

- ثمة امور لم تزل ناقصة ..

وفهم ما تشير اليه فى استياء لم يدر سببه . لم يكن ثمة شىء مستغرب فيما يطلبون ومع ذلك حنق عليهم جميعا وركبه شعور المطارد اذا تهدده خطر ، وتفرس فى وجهها وهو يذكر ما قال زملاؤه عنها فى الأوتوبيس وقال لنفسه «فتاة طيبة ولكنها ليست اهلا لان تكون زوج ضابط مثلى ، ولو تم هذا الزواج لكان الأول من نوعه ! » ثم قال لها فى هدوء باسم :

- هذه امور لا وزن لها ...

- ولكنها هامة جدا فى نظر الناس فطالما تساءل اقاربنا عن الخاتم !...

وعجب لحماسها ، وتمنى لو كانت تعلن عن بعض هذا الحماس

فى الحب . « ولكنها تريد ان تتزوجنى لا ان تحبنى . هـذا سر برودها وتحفظها . واذا لم يكن حب ، بل وحب قهار جنونى ، فما الذى يغرينى بالزواج منها ؟! » وقال :

ـ لا داعى للعجلة ، ستتحقق آمالنا فى الوقت المناسب . . .

ـ ومتى يكون هذا الوقت المناسب ؟

فقرب ما بين حاجبيه كأنه يفكر وقال :

ـ أظن اذا رقيت الى رتبة الملازم اول اصبح فى وسعى ان افتح بيتا مع معاونة أهلى الذين لا يستغنون عنى كما تعلمين . .

وبدا فى وجهها الوجوم وجعلت تقرض ظفرها حانية الراس خابية العينين . ومع انه ارتاح لتصريحه الذى مد له فى حريته الا انه رق لمنظرها ، وجرى بصره على جسمها فدق قلبه وتناسى افكاره ومخاوفه وحنقه فنهض اليها وجلس الى جانبها على الكنبة، ولكنها تباعدت الى نهاية المقعد وحالت دونه بساعديها قبل ان تذهب روح المقاومة الطارئة مسحة الحزن من عينيها . وقبض على ساعديها وهوى على كفيها يقبلهما ، حتى قامت مبتعدة عنه وهى تهتف :

ـ دعنى . . دعنى . . لم تعد كما كنت . .

وقام فى أعقابها مدفوعا بفورة احساسه وجنون اعصابه وطوقها بذراعيه واطرافه ترتعش ، ودافعته بقوة فهوى بفيه الى شفتيها فأمالت رأسها الى الوراء فمست شفتاه طرف ذقنها ، ثم تملصت من ذراعيه ووقفا وجها لوجه وهما يلهثان ، وصاحت به بصوت متهدج :

ـ لا تهجم على غصبا !

وانقلبت شهوته غضبا فحدثته نفسه بهجرة الحجرة ، وسار خطوتين صوب الباب ، ثم تحول اليها بغتة وقد انقلب غضبه شهوة جنونية فانقض عليها مصمما على أرواء عواطفه ، وطوقها بذراعيه رغم مدافعة يديها ، وضمها الى صدره بعنف ووحشية ،

ثم طبع شفتيه على شفتيها ، وكلما مالت بوجهها عنه اتبعها وجهه لازقا فاه بفيها ، ملاقيا دفعات مقاومتها بقوة وحشية ، حتى سكنت بين ذراعيه فى شبه اغماء . ولم يبال خورها فراح يضمها الى صدره حتى استشعر طراوة جسمها اللدن على بطنه وفخذيه فتسرب الى احساسه فى ارتياح عميق كانه كشف جديد عن لذة الحياة . وندت عنها مقاومة طارئة ضعيفة كصحوة الموت ولكنه قضى عليها بوحشيته ، وجن انفعالا وتطلعا واستزادة ، وانصهر قلبه وسرى ذوبه فى أعصابه باعثا لذة خيالية ، ثم انهار فى تسليم متوقع مفاجىء معا . وافاق كمن يفيق من حلم فوجدها بين ذراعيه وشفتيه على خدها ، ولما شعرت بذراعيه تتراخيان عنها دفعته فى صدره متراجعة وقالت وهى تتنهد فى صوت ضعيف :

— لن أصفح عنك ...

ولم يترك قولها فى نفسه اثرا ، لا حسنا ولا سيئا ، فلم يأبه لها وكان احساسه تجاهل وجودها . شعر بظفر وارتياح ثم غلبه عليهما فتور فتراجع الى مقعده الأول وجلس عليه فى دهشة . ولبثت هى بموقفها كالمترددة ثم عادت الى مجلسها فى استياء وراحت تعاتبه وتعنفه دون أن يلقى اليها بالا . ورنا اليها بغرابة وساءل نفسه : اهذه هى ؟ اهذا انا ، اين هى وأين انا ؟ . ثم ران عليه فتور ثقيل أكثر مما يحتمل ...

وجعل يصغى اليها دون أن يحمل نفسه مشقة الاعتذار ، وانتهز فرصة حضور امها فجالسها دقائق ثم قام مستأذنا فى الانصراف . ولما غادر الشقة شعر برغبة فى الهرب ، وحينذاك عاودته فكرة السفر الى طنطا فابتسم لها فى ترحاب وحماس ..

٧٣

عندما انتهى الى فندق بريطانيا بشارع الأمير فاروق بطنطا كانت الساعة حوالى الخامسة مساء وقاده غلام الى حجرة اخيه فنقر على الباب ووقف مبتسما انتظارا للمفاجاة السارة . وفتح الباب وظهر حسين فى جلبابه ، وسرعان ما اتسعت عيناه دهشة فاقبل على القادم وهو يهتف :

ـ حسنين !.. لا اصدق عينى !

وتعانقا عناقا حارا ، ثم دخلا الحجرة الصغيرة وحسين يلقى عليه نظرة متفحصة فى حب واعجاب ثم قال بصوت متهدج من التاثر والسرور :

ـ يا لها من مفاجاة سعيدة . اهكذا يهجم العسكريون بلا انذار ؟ مبارك . لقد ارسلت لك برقية تهنئة ...

ـ وصلتنى ورايت ان اجيئك بنفسى شاكرا !

ـ وكيف حال نينة ونفيسة ؟

ـ على خير حال . وجدت لدى بضعة ايام اجازة قبل بدء العمل فضلت أن امضيها معك ...

ـ أحسنت صنعا . وحسن ؟ اما من جديد عنه ؟

وغاض البشر من وجه حسنين ولكنه ابى أن يخلط باللقاء كدرا فقال :

ـ دعنا منه الآن على الأقل ..

وحدس حسين ما أحزنه ولكنه لم يكن اقل رغبة منه فى تأجيل النكد الى وقت آخر فدعاه الى الجلوس على الكرسى الوحيد ووثب هو الى الفراش . وتبادلا نظرات مشوقة متفحصة فلمس كل منهما ما طرأ على الآخر من أمارات الصحة والعافية

وان كان وزن حسين قد زاد اكثر مما يتصور أخوه ، كذلك وجده قد ربى شاربه بطول شفته وعرضها مما اكسبه مظهر رجولة وقور وجعله يبدو اكبر من سنه ، وقد داعبه قائلا :

ـ لقد خلقت لتكون أبا بارا . .

فابتسم حسين على ما اثار قوله فى نفسه من ذكريات محزنة ولكنه لم يعلق عليها بكلمة وقال مشيرا الى نجمة الضابط :

ـ انى فخور بك .

فقال حسنين بتأثر :

ـ انى مدين بها لنبل تضحيتك .

وهبط قوله على قلبه بردا وسلاما ، وتمتم :

ـ لا تبالغ ! انت رجل جدير بكل خير . .

وقال حسنين لنفسه « هذا شقيق لا يشين ، ولولا ماضى نفيسة وحاضر حسن وماضيه ما وجد انسان على الأرض اسعد منى » ثم قال لأخيه بسرور :

ـ ابشر لقد رجوت احمد بك يسرى أن يسعى لنقلك الى القاهرة فوعدنى خيرا . .

ـ عفارم ! وبهذه المناسبة اخبرك اننى ساعود معك الى القاهرة قائما باجازتى السنوية . .

ثم غادر الفراش وهو يقول :

ـ اغسل وجهك ونفض بدلتك من وعثاء السفر وهلم ننطلق الى المدينة فلا خير فى البقاء فى هذه الحجرة الضيقة . .

وارتدى بدلته ثم خرجا معا يتمشيان فى طرقات المدينة ، ثم مضى به الى قهوة السمر وجلسا معا يواصلان حديثهما . وتكلم حسين عن حياته فى طنطا كثيرا ، وشكا الى اخيه وحدته وكيف عودته على غشيان المقهى كل مساء فيمضى ساعتين على الأقل مع نفر من الموظفين يلعبون النرد حينا ويسمرون حينا آخر ، ثم يعود الى الفندق فيطالع ساعة أو اكثر قبل النوم ، وحدثه عن

آخر كتاب ابتاعه وهو الاشتراكية لمكدونالد المترجم عن الانجليزية وكيف أن النظام الاشتراكى لا يتعارض مع الدين ولا الأسرة ولا الأخلاق . كان فى وحدته وضيقه يسعد بأحلام الاصلاح ويتخيل مجتمعا خيرا من المجتمع الذى يعيش بين احضانه ، وحالا خيرا من الحال المقدورة له ، واسعده الأمل فى امكان تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد التى اشرب حبها والايمان بها منذ طفولته.

ثم تساءل فى نفسه ترى هل افضت امه للشاب بالسر الذى دفعها الى زيارته منذ عام ونصف ؟ ولما لم يشر حسنين الى الموضوع بكلمة اطمأن الى انها كتمت الأمر كله وهو ما ترجح لديه من بادىء الأمر . وذكره هذا الخاطر بآلامه الماضية ولكنه ذكرها بقلب خال هادىء لولا حنينه العام الى الرفيق والحب ما تشكى قط . ثم وجد نفسه وهو لا يدرى يسأل حسنين عن خطيبته ! واجاب الشاب اجابة عامة قائلا : « بخير والحمد لله » ، وساءل نفسه هل يصارح اخاه بما طرأ على نفسه من تغير وتطور ؟ ولكنه جفل عن هذا ، واجله الى المستقبل اذا جد جديد من الأمر . وكان يعلم سلفا بان حسنين لا يمكن أن يوافق على نواياه أو يرضى عن منازعه . وتواصل الحديث بينهما طيبا لطيفا حتى عزم حسنين على خوض الموضوع الخطير الذى يشغله فقال متنهدا :

ـ تصور كم كانت الحياة جميلة لولا ماضينا واخونا حسن ..

واحس حسين بما وراء هذا التنهد من حزن وسخط فقال ببساطة :

ـ اعتقد ان آلامنا قد انتهت ، اما ماضينا فليس فيه ما يخجل ، واما حسن فلن يضر وا اسفاه الا نفسه ..

فهز راسه دلالة على عدم الموافقة وقال فى حزن :

ـ أنا علمت أن حسن قد انقلب مع الزمن بلطجيا وتاجر مخدرات ! ؟

ومع أن حسين كان يتخيل شقيقه الاكبر على أسوأ حال الا

انه لم يكن يظن انه تردى الى هذا القرار ، فهتف فى ارتياع :

ــ لا تقل هذا . . !

فكان جواب حسنين على ارتياعه أن قص عليه ما شاهده فى زيارته الأخيرة لحسن وما سمع ، واصغى اليه اخوه فى صمت ووجوم . ولما طال صمته ساله حسنين :

ــ ما رأيك ؟

فبسط له راحتيه كانه يقول له : « ما حيلتنا ؟ . . » ثم غمغم :

ــ واأسفاه ، كان حسن ضحية للمرحوم والدنا ، وكان والدنا ضحية لضيق ذات اليد !

فقال حسنين بجزع :

ــ الا تستطيع اقناعه بالاقلاع عن اسلوب حياته ؟

فقال الآخر متنهدا :

ــ لن يقلع عنها مهما قلنا أو فعلنا . شىء واحد يستطيع أن يعدل به عن حياته وهو أن نهيىء له رأس مال مناسب كى يبدأ حياة جديدة ، فهل يسعنا هذا ؟ !

وتبادلا نظرة يائسة لأن السؤال لم يكن فى حاجة الى جواب ، ثم قال حسنين بحدة :

ــ أنتركه فى غيه كى يقضى على آمالنا !

ــ لقد قضى على نفسه .

ــ وعلينا ! كيف تواجه العالم ولك مثل هذا الأخ ؟! . . سوف تظهر اسماؤنا يوما فى الجرائد بين اعمدة الحوادث والجنايات !

فتنهد حسين محزونا متفكرا فى كلام اخيه الذى رجع أصداء أفكار طالما أكربته فى وحدته ، ولكنه قال معارضا اخاه ونفسه معا :

ــ لا ذنب لنا . ولا يصح أن ندع الخوف يتهول فى قلوبنا . قد يصيبنا رشاش من السنة الناس ، الآن أو فيما بعد ، ولكننا لن يمكننا مواجهة الحياة اذا لم ندرع بقدر من عدم المبالاة . . .

بدا له حسين كأنه لا يعى ما يقول ، أو كأنه لا يبالى السمعة

الطيبة التى هى اس كل امل فى الحياة بيد أنه مهما يكن من أمره فهو ليس ذا اصدقاء كاصدقائه يشفق من ان يطلعوا على اسرار اسرته ، كذلك لا تنازعه نفسه الى المجد والطموح فليس فى آماله ما يخاف عليه السنة الناس . أجل اخطأ تقديره ولن يجد من اخيه مشاركة وجدانية ، وحنق عليه فى تلك اللحظة كثيرا ، واحتقر استسلامه وهدوءه . واندفع قائلا وكأنه لا يروم الا الترويح عن حنقه :

– هل نعد أنفسنا شرفاء ؟

فقال حسين بدهشة :

– ولم لا ؟!

– ولكنا استعنا على تقويم حياتنا بنقود ملوثة !

تطاير الشرر بغتة من عينى حسين ، وحملق فى وجه اخيه وهو صامت ، وكان آلامه الدفينة قد طفت على سطح قلبه داعية معها من الأعماق أسوأ الذكريات ، ثم قال بحدة :

– كنا فى موقف دفاع عن النفس ، والدفاع عن النفس قد يحل القتل .

وشعر حسنين بارتياح خفى لغضب أخيه ، وجعل يتساءل فى حيرة عما دفعه الى مجابهته بهذا التصريح الأليم . ثم استطال الصمت حتى سئما الموضوع فخاضا فى غيره ، غير أنه مضى زمن غير قصير قبل أن يطيب لهما الحديث . .

٧٤

وبعد بضعة أيام عاد الشقيقان معا الى القاهرة فكان يوم فى حياة الأسرة لا ينسى . وقبلت الأم حسين طويلا ثم عانقته نفيسة عناقا حارا ، وامضى الشاب ساعة طويلة من الظهر وهو يحدث

عن طنطا وحياته بها والمراتان منصتتان . وجعلت نفيسة تتفرس فى شاربه وبدانته الآخذة فى النمو فهالها تغيره وقالت باستنكار :

ــ فيم تبدو كالرجال وانت طفل !

فقال حسين مبتسما :

ــ لم أعد طفلا .

وقال حسنين ضاحكا :

ــ نحن رجال وانت أختنا « الكبرى » !

فقالت الفتاة بحدة :

ــ كنت اكبر كما فيما مضى اما من الآن فصاعدا فانتما تكبرانني ، هل تفهمان ؟ !

ثم التفتت صوب امها وساءلتها فى اعتراض :

ــ هل يعجبك هذا الشارب الذى يكبر نفسه ويكبرنا معه بلا داع ؟ !

وكان الوقت ظهرا فراح حسين يخلع ملابسه ، وقد بدا البيت لعينيه غريبا . بيد أن حبه العميق لأسرته ولبيته استيقظ ودر حنانا فملكه ارتياح شامل ، ارتياح من اهتدى الى ماواه بعد أن تخبط ضالا طويلا . واجال طرفه فى حجرة المذاكرة ، هذا المكتب القديم ، وهذين الكرسيين ، وهــذه النافذة التى تقوم صفحة الجريدة منها مكان اللوح الزجاجى المحطم ، كل أولئك ذكريات عزيزة . اما سريره فلم يعد له أثر ، بيع فى الوقت المناسب كالمتبع، ولحق بسرير حسن ، وكأنه لم يعد من اهل البيت ! ومع انه كان يحدس هذا بالبداهة الا انه شعر بحزن وكآبة . وهنا شعر بنفيسة وهى تغادر الحجرة قائلة :

ــ امهلانى ساعتين أعد لكما غداء طيبا !

وابتسم ارتياحا . انه لم يذق طعاما طيبا منذ عهد بعيد ، ربما منذ وفاة والده . أجل كان طعامه طيبا وهو موظف افضل من طعامه وهو تلميذ كما يشهد بذلك ارتواء جسمه ، ولكنه لم يطلق

لشهوته العنان قط . على انه كان مشغولا بما هو اخطر من لذة الطعام وهو تذوق عودته السعيدة الى منبته الاول وجوه الاصلى . كان حنانه كالفنوة الحلوة يتردد فى حواسه جميعا ، حتى هواء عطفة نصر الله الفاسد وجد له ميل الفة ورقة مودة فكانه الصحة والعافية . وجعل يحادث امه وعيناه تترددان فى انحاء الحجرة الصغيرة حتى استقرتا على جاكتة حسنين المعلقة بالمشجب فنظر الى النجمة طويلا . سيرقى حسنين عاما بعد عام حتى يصير ضابطا عظيما على حين يبقى هو كاتبا فى الدرجة السابعة — او السادسة على احسن فرض — طوال مدة خدمته . على انه لم يجد اى اثر لشعور الحسد او الحنق ، كان ابعد ما يكون عن هذا ، بل كان سروره باخيه لا يدانى ، ولكنه وجد نفسه يتأمل فى صمت حزين الفوارق الطاغية التى تميز بين الموظفين ، وامتد خياله وهو لا يدرى الى الفوارق التى تفصل بين الناس عامة . ترى الا يمكنه اذا نقل الى القاهرة ان يلتحق بمعهد ليلى عسى أن يتغير من حال الى حال ؟ وابتسم قلبه لهذا الخاطر السعيد واودعه صدره كامل احتياطى يلجا اليه فى حينه فينجيه من مصير كمصير حسان افندى حسان ! وحتى حسان افندى نفسه لم يكن ليرقى الى الدرجة السادسة لولا الوزير الوفدى ! وذكر عند ذاك امورا سمع بها فى طنطا فسأل اخاه :

— هل حقا ما يقال عن احتمال سقوط الوزارة ؟

فضحك حسنين قائلا :

— غير مسموح للضباط بالاشتغال بالسياسة .

فضحك الشاب ، ثم قال :

— كيف تسقط بعد أن نفض الانجليز ايديهم من سياستنا ؟

وتساءلت الأم :

— انعود مرة اخرى الى المظاهرات ؟

— من يدرى ؟

فعادت تتساءل بقلق :

ــ لا شأن للجيش مع المظاهرات ؟

فقال حسنين بمكر :

ــ اذا قامت ثورة فلابد من تدخل الجيش !

وضحك حسين ، وادركت الأم ما تعنيه ضحكته فرمت حسنين بنظرة شزراء وهزت منكبيها استهانة . وعادت نفيسة لتقول لهم ان الغداء يتهيأ على احسن حال ، ثم سألتهم عن السلطة المفضلة لديهم ، وغادرت الحجرة مشمرة عن ساعديها والعرق يتصبب من جبينها . وساد الصمت فعاد حسين الى افكاره ، وفكر هذه المرة فى الاجازة وكيف يمضيها . كان الموظفون فى طنطا يدعونه باليهودى لانه لا يقامر ولا يسكر ولا ينفق اكثر من قرش واحد فى القهوة ، ولكنهم جهلوا حقيقة حاله ، أجل انه ميال بطبعه الى الاقتصاد ولكن هل تركت مسئولياته له شيئا يقتصد ؟ ! . ولم تدعه امه لأفكاره طويلا فعادت تنازعه الحديث ، وخيل اليه انها ترنو اليه بحنو نادرا ما تعلنه ، ترى هل ذكرت كيف قست عليه يوما ؟ ! لقد قست عليه حقا ، ولكن قسوة الدهر عليهم جميعا كانت أعظم . ترى ماذا هى فاعلة مع حسنين ؟ . . ولكن لماذا لا يبدو الفتى متحمسا لزواجه ! لماذا لم يحدثه عنه ؟ ! . وحوالى الساعة الثانية جاءت نفيسة حاملة صينية الغداء ، فوضعتها على المكتب وهى تقول :

ــ ناكل اليوم على المكتب لأن الموظفين لا يصح ان ياكلوا على الأرض .

جمعتهم المائدة لأول مرة منذ عامين ، ثم عادوا الى جلستهم على الفراش الصغير وواصلوا الحديث فى انس وسرور . وحوالى منتصف الرابعة دق الباب الخارجى فغادرت نفيسة الحجرة لتفتح للقادم . ووثب لراس حسين خاطر عجيب ، اتكون أسرة فريد افندى قد جاءت لتهنىء العائد ؟ ! . . وفى هذه الساعة ؟

وعادت نفيسة جريا ووقفت على عتبة الحجرة وهى تنظر اليهم بعينين متسعتين تلوح فيهما الدهشة والانزعاج ، ثم هتفت قائلة :

ــ ضابط وعساكر ..

٧٥

ووقف الشقيقان فى دهشة وحسنين يتناول جاكتته ويرتديها بسرعة متسائلا :

ــ ماذا يريدون ؟

وكانت نفيسة تردد بصرها بينهم وبين القادمين فقالت فجاة بذعر :

ــ رباه . . . لقد دخلوا الصالة .

واندفع الشابان خارج الحجرة فوجدا ضابطا وشرطيين ورجلا آخر يبدو من مظهره انه مخبر ، فتقدم حسنين من الضابط متسائلا :

ــ ماذا تريد حضرتك ؟

فقال له الضابط :

ــ لا مؤاخذة ، لدى أمر بتفتيش هذه الشقة !

واطلعه على أمر كتابى فنظر فيه حسنين بعينين لا تريان شيئا ، على حين سأل حسين :

ــ لعلك أخطأت الشقة . ماذا يدعو لتفتيش بيتنا ؟

فقال الضابط :

ــ نحن نبحث عن حسن كامل على الشهير بالروسى !

ووجم الشابان وهما ينظران الى الضابط فى انزعاج وقنوط ، وكانت المراتان تقفان على عتبة الحجرة فركبهما الذعر وتسمرتا فى مكانهما . وعاد الضابط يقول :

ــ لقد قبض على بعض شركائه ولكنه اختفى قبل القبض عليه ، ودلنا بعضهم على مسكنه الأول وتحققنا من هذا بواسطة شيخ الحارة . . .

فقال حسنين بصوت متهدج :

ــ ولكنه لا يقيم هنا . لقد غادر بيتنا منذ اعوام ولا ندرى عنه شيئا .

فهز الضابط راسه وقال :

ــ على اى حال ساقوم بتفتيش الشقة تنفيذا للأمر . .

وبدأ التفتيش فتراجع احد الجنديين الى الباب واقتحم الضابط والآخران الحجرات ، وقد جمد الشقيقان فى موقفهما كانهما استحالا حجرين . وقال حسنين لنفسه « ساذكر هذه الساعة ما حييت » ، وتبع خياله الضابط وهو ينتقل من حجرة الى حجرة ، وكانه يرى معه الحجرات الخالية العارية ويقلب اثاثها البالى الحقير ظهرا لبطن . لم يكن تفتيشا عن حسن فحسب ، لان حسن لا يمكن ان يختبىء فى درج المكتب أو تحت حشية الفراش ، فالفضيحة افظع مما يتصور . وحتى فى تلك اللحظة الرهيبة لم يستطع احد ان ينتزع من نفسه الخجل الجارح الذى عفى عزة نفسه والضابط يهتك بعينيه المتفحصتين حقارة البيت وفقره ، وبلغ مسمعه ــ على ذهوله ــ صوت بكاء مكتوم فارتفع بصره الى نفيسة وصاح بها بحدة جنونية :

ــ اكتمى انفاسك !

وانتهى التفتيش فامر الضابط رجاله بمغادرة الشقة ثم اقترب من حسنين وقال برقة :

ــ اكرر الأسف . وانه ليسرنى اننى لم اعثر على شىء كان حريا بان يسبب لكم المتاعب !

ورفع يده الى جبينه بالتحية وغادر الشقة مخلفا وراءه سكونا محزنا . وتبادل الشابان نظرة ذاهلة دون أن ينبسا بكلمة ، واقبلت

المراتان نحوهما بوجهين ميتين . وانتبه حسنين من ذهوله بغتة متأوها فوثب الى الباب وابرز راسه راميا بطرفه الى فناء البيت فراى رجال البوليس فى نهاية الفناء يشقون طريقهم وسط لمة من الرجال والصبية بينهم البقال والحداد وبائع السجائر فتراجع وهو يضرب صدره بقبضته صائحا :

- الجميع يتفرج على فضيحتنا . افتضحنا وانتهينا .

وعاودت نفيسة البكاء ونظرت الأم الى حسين كأنها تستغيث به ولكن الشاب لم يدر ماذا يقول ، وبدا كأنه يقاوم طعنة قاسية . وجعل حسنين يذرع الصالة وهو يواصل ضرب صدره بعنف ويقول :

- بودى لو أقتل ! . . لن يروح عن صدرى اقل من القتل .

وضاقت الأم بعنفه بنفسه فغمغمت قائلة :

- هدىء من روعك يا بنى ، ماذا يجدى ضربك نفسك هكذا ؟

فصاح فى غضب :

- دعينى اقتل نفسى ما دمت لا اجد من اقتله !

وخرج حسين عن صمته فقال بصوت غريب :

- يجب أن نتدبر أمرنا فى هدوء .

فرماه بنظرة من عينين محمومتين وقال :

- اى أمر نتدبره . . لقد افتضحنا وانتهينا !

- هذه مصيبة لا حيلة لنا فيها ولكننا لم ننته ، فلنتدبر أمرنا .

لم يكن صدره ليحتمل المناقشة فمضى الى حجرته وارتمى على فراشه ، وكان الخزى يخنقه والغضب يحرقه فمقت اخاه المذنب مقتا قتالا ود معه لو يخفيه عنه الموت الى الأبد . واستسلم لخواطر دموية جنونية راح يجترها فى ذهول وهذيان ، ولحق به حسين فجلس على الكرسى صامتا متحاميا اثارته ، وكان هو نفسه فى حالة تستحق الرثاء . لم يبلغ منه الحزن يوما ما بلغه فى تلك الساعة ، فلم يغب عنه ما أصاب سمعتهم من طعنة قاتلة ،

وما يتهددهم من قلاقل فى الحاضر والمستقبل وما نزل باخيه الأكبر من قضاء لا قائمة له بعده . ماذا جنت أسرته حتى تستحق هذا كله ؟!. واخذت تتجمع فى ذاكرته ذكريات من آلام الماضى ويربطها بآلام الحاضر فبدت له كدمل خطير يتكشف فجاة عن مضاعفات سامة فى الوقت الذى يظن به الاندمال والشفاء . وكعادته قرن آلام اسرته بآلام الناس فوجد نفسه يتامل حزينا شاملا ، وكان يلقى على تامله هذا كآبة لا شك فيها ولكنها كثيرا ما توحى بشىء من الصبر والعزاء . ثم نزعت به نفسه الى تلمس بصيص نور فى ظلامه المحيط ، وجعل يسترق النظر الى وجه اخيه المكفهر متحينا فرصة لمحادثته .

ولبثت الأم وابنتها بموقفهما ونفيسة لا تمسك عن النحيب . لم يعد بوسع المراة المحنكة ان تحسن التفكير والتدبير ، غلبت على أمرها . وقهرها الحزن والاسى . وكان قلبها يعانى الآلام التى تتوزع قلوب ابنائها جميعا يضاف اليها ألم خاص دفين يخيفها بقدر ما يعذبها ، وتشفق اشفاقا شديدا من ذيوعه وافتضاحه ، هو المها لحسن نفسه . اين ذهب ؟ ، ماذا يفعلون به لو قبضوا عليه ؟ اى مصير يرصده ؟. لا ينبغى ان تذكر له الا عطفه وحنانه ، وانه جاد لهم بخير ما فى نفسه ، وانه كان ملاذهم فى الملمات . يا له من طريد لا نصير له ولا حبيب ، حتى أهله ينكرونه ويمقتونه . عين حسود أصابتهم ، نفسوا عليها الموظف والضابط ونسوا الآلام التى تركتها حطاما . وتنهدت فى عصبية لانها لم تعد تحتمل نحيب نفيسة وانتهرتها قائلة :

ـ كفاك بكاء . ارحمينى فانى لا أجد من يرحمنى !

ولكن نفيسة لم تكن تملك من نفسها شيئا ، حتى آلام الموقف الحقيقية غابت عنها فى حالتها العصبية . غلبها خوف غريب ترتعد منه الفرائص . ولم تكن تبكى حزنا او اسفا او غضبا ولكن بكاء هستيريا تغالب به خوفا لا يغلب خيل اليها معه انها هى هى

المطاردة . وتوقع قلبها شرا فظيعا ، أفظع مما وقع ، فتلفتت فيما حولها فى ذعر كأنما تخشى ان ينقض عليها فجاة . وسمعت أمها تقول بصوت ضعيف « هلمى بنا اليهما » فرحبت بالدعوة لتفر من مشاعرها وسارت وراء امها الى الحجرة فى خطوات ثقيلة ، ثم خفق قلبها وهى تجوز العتبة كأنما تجفل من لقاء أخويها ..

٧٦

ثم التفت حسنين الى حسين وساله بوحشية :

ـ اين تظنه هرب ؟

وكانت مرت فترة من الوقت ثاب فيها حسين الى بعض نفسه فلم يرتح للهجة الشاب القاسية وقال :

ـ من لى بأن أعلم ! (ثم بلهجة لا تخلو من تأنيب) تذكر انه اخونا !

ـ بعد هذا كله !

ـ نعم ، بعد هذا كله . . .

نطقها بصوت عميق ليعزى قلبا يعلم انه ـ على صمته ـ فى أمس حاجة الى العزاء ، ولكن ثارت ثائرة الآخر وصاح به :

ـ لقد قضى علينا . . .

فقال حسين بصوت متعب :

ـ لا تبالغ ولا تصخ . ينبغى أن تفكر فى هدوء .

ـ ان الحى كله يتحدث الآن عن فضيحتنا . .

فقال حسين فى هدوء :

ـ فى وسعنا أن نهجر الحى كله . . .

فتطلع اليه حسنين بعينين حائرتين انشقت ظلمتهما عن

بصيص امل . هذا دعاء تهفو له نفســه ملبية وكأنها هى التى تتكلم ، وغمغم متسائلا :

ـ ماذا قلت ؟

ـ لم لا ؟ .. القـاهرة واسعة لا تحد ، وسيطوى النسيان قصتنا فى اقل من اسبوع ! ...

فتنهد حسنين فى شبه ارتياح ، ولكنه قال فى حذر :

ـ لن نمحو الماضى .

ـ فلنفكر فى المستقبل ..

ـ ولكن الماضى سيطارد المستقبل الى الأبد ..

فقال حسين بملل :

ـ فلنفكر جديا فى الانتقال الى مكان آخر . ويجب أن يتم هذا قبل انتهاء اجازتى ..

وقالت الأم برجاء :

ـ أجدر بنا ان نفكر فى هذا حقا ..

وردد حسنين نظره بينهما حائرا . قد يقبض على اخيه وقد لا يقبض عليه ولكنه سيظل على الحالين يطاردهم ويتهددهم . لن يطمئن لهم جانب وهو على قيد الحياة . ثم تساءل فى فتور :

ـ أين نذهب ؟

فقالت الأم فى أمل :

ـ الى شارع شبرا بعيدا عن هنا ..

فندت عنه حركة تنم عن الجزع والسخط وقال :

ـ ابعد من هذا ، ابعد من هذا .. الى مصر الجديدة !

فقال حسين فى شىء من الارتياح :

ـ كما تشاء ..

فلاح فى وجهه تردد طارىء ثم قال متنهدا :

ـ ولكننا فى حاجة ماسة الى اثاث جديد !

فقالت الأم بضيق :

- لاتزد الأمور تعقيدا ، ماذا يهم الأثاث اذا لم تقع عليه الأعين؟!
- لا استطيع ان اخفى بيتنا عن اصدقائى الى الأبد !
فقال حسين :
- هذه مسالة اخرى ، وبوسعك ان تبتاع كنبة وكرسيين كبيرين وبساطا اسيوطيا فتجعل منها حجرة استقبال مؤقتة . واذا شئت خرجنا معا اليوم او غدا للبحث عن شقة ؟..

بذلك خف التوتر قليلا وان غشيت جو المكان كآبة استسلموا لها جميعا فى صمت حتى دق الباب وجاء فريد افندى واسرته . كانت زيارة منتظرة ولكنها جاءت فى اسوأ حال ، وذكر حسين فى عجب كيف حلم بها منذ ساعات ، وكيف يتلقاها الآن بفؤاد كسير ونفس فاترة . اما حسنين فقد ثار غضبه بلا سبب ظاهر ، ولو لم يره فريد افندى ونفيسة تتقدمه الى حجرة الاستقبال ، لمضى هاربا الى الخارج . واجتمعوا فى حجرة الاستقبال ، ولقى حسين من الأسرة تحية حارة ، ثم استفاض الحديث عن الماضى والحاضر . وكانوا يتوقعون ان يثير الزوار مسالة التفتيش والبوليس ولكن آل فريد افندى تجاهلوا الأمر كلية كانهم ما علموا به . ولم يلطف هذا التجاهل من حنق حسنين ، او بالأحرى زاد من ثورته الباطنة وشعر بجرح عميق فى كرامته . والتقت عيناه بعينى بهية اكثر من مرة فوجدها ترمقه بحزن وحيرة لم تخف عنه بواعثهما منذ سفره المفاجىء الى طنطا . ليكن ، لقد ضاق صدره بهذا كله . الآن ، وفى وقدة حنقه وضيقه ، يستطيع ان يواجه خواطره الباطنة بصراحة وشجاعة . لن تكون هذه المراة حماته ، ولا هذا الرجل حماه ... ولا هذه الفتاة زوجه ! . كل اولئك هم عطفة نصر الله بلا زيادة ، عطفة نصر الله بذكرياتها السود وحاضرها الاغبر . انهم يعلمون بما جاء بالبوليس كما يعلم الجيران جميعا ولكنهم يتكرمون عليهم بتجاهل الأمر ، ولعلهم يضيفون هذه المكرمة الجديدة الى مكرماتهم السابقة . سحقا لهم ، لشد مايضيق

صدره بالمكرمات قديمها وحديثها ، وانه ليتطلع الى قوم جدد لا تحول بينه وبينهم المكرمات ولا يربط الماضى البغيض اسبابه باسبابهم . « انظرى بحزن وحيرة كيف شئت ، لست لك ، لست لك . ينبغى ان يتغير كل شىء . ماذا فتننى فى هذا الجسم ؟! الانه لحم طرى ؟ الأسواق ملأى بهذه اللحوم . جو بغيض . لو طال المقام بى هنا اكثر من ذلك سابغض اسرتى نفسها » . وطالت الزيارة فجعل يتحملها فى صبر حتى انصرفت الأسرة قبيل المغرب بقليل . وقد دست الفتاة فى يده ورقة مطوية وهى تسلم عليه ، ولما ان خلا الى نفسه وبسطها وجد بها هذه العبارة « قابلنى فوق السطح » . كانت اول رسالة توجهها اليه ، وتفحص الخط بعناية وغرابة فوجده بخط الأطفال اشبه ، وذكر لتوه تعليمها الابتدائى!. بيد انها كانت على ايجازها عميقة الدلالة حتى لكانها صرخة استغاثة . ولا شك انها كتبتها خلسة فى شقتها قبل الزيارة مما يدل على أن قلبها توجس خيفة من ان يواصل فراره منها الذى بداه بالرحيل الى طنطا . واحس بغمز الألم فى قلبه وشمله عدم ارتياح فسخط كما يسخط على كل شىء حوله . ولكن فيم يسخط ؟ اليس من الخير ان تلم بما طرأ على نفسه ؟ وهل كان يظن أن الارتياب لن يتسرب الى نفسها بعد سفره المفاجىء ؟ ليكن . لن يرضخ لضغط الظروف حتى يدمر نفسه بنفسه ، ولن يغامر بسعادته ومستقبله من أجل عاطفة طفلية قديمة ووعد صبيانى . وخاف ان يخلو الى نفسه اكثر مما خلا فمضى الى حجرته وقال مخاطبا أخاه :

ــ هلم بنا نخرج ...

ونهض حسين موافقا على دعوته وغادرا الحجرة معا . ووجد ما يشبه الندم ، وتمنى لو كان حسين قد تكاسل عن تلبية دعوته بهذه السرعة ليعاود التفكير ! ولم تكن الفرصة قد ضاعت تماما ، فلم يزل بوسعه ان يراجع نفسه ، ولكنه لم ينبس بكلمة ، وواصل

سيره الى جانب اخيه . لعلها تنتظر الآن أمام حجرة الدجاج ! وخفق قلبه خفقة شديدة . تنتظر بلا أمل ؟ ما اقبح هذا . وفى نفس المكان الذى لمس حرارته وسمع بثه وشكواه ؟ ما اعجب هذا . وحاول أن يطرد هذه الصورة عن مخيلته بتصميم عنيف . ثم سمع اخاه وهو يخاطبه قائلا :

— لن نضيع وقتنا ، ولن ينقضى هـذا الشهر حتى نكون قد انتقلنا الى البيت الجديد .

٧٧

وانقضت الأيام التالية فى البحث عن مسكن جديد حتى اهتدوا الى بيت بشارع الزقازيق بمصر الجديدة ، ذى موقع ساحر وايجار مستطاع على حد قول حسنين . وفى اليوم المحدد للانتقال اجتمعت كلمتهم على حمل الأثاث مساء على غير المألوف لاخفائه عن أعين المستطلعين ، ونفذ ذلك ، ولبث حسنين فى الشقة مع الأثاث المكوم على حين عاد حسين الى عطفة نصر الله ليصحب امه وأخته الى المقام الجديد . وودعوا حيهم ليلا غير آسفين ، بل مستبشرين خيرا ، ولما بلغوا الحى الجديد تولتهم دهشة ممزوجة باكبار لما شاهدوا من اتساعه وصمته ومناظر العمارات والفيللات المقامة على جانبيه وهوائه الجاف النقى فلم تتمالك نفيسة نفسها من أن تقول باسمة على رغم ان الموقف لم يخل من ذكريات حزينة « لقد صرنا من الطبقة العالية حقا » .

وكانت الشقة الجديدة فى بيت مكون من دورين تحيط به حديقة بسيطة فارتقوا اليها سلما ذا سبع درجات وهنالك وجدوا حسنين فى انتظارهم وقد اشعل المصباح الغازى . ونشطت المرأتان الى فرش الحجرات الثلاث الصغيرة وعاونهما

الشابان فلم يستغرق تجهيز الشـقة الجديدة بالأثاث البسيط اكثر من ساعة تخللتها فترة راحة . وبدت الكراسى والكنبتان والفراش غريبة نافرة وسط الحجرات الأنيقة ، ولم يفت حسنين التعليق على هذا بتذمر كالعادة ولكنه وجد بعض العزاء فى حجرة الاستقبال التى كانت تفتح على الخارج فلا يضطر القادم الى عبور الصـالة الداخلية اليها . وتحدثوا غير قليل عن الوسط الجديد والعمارات والشوارع وما يتخيلونه عن الجيران ، وتحدث حسنين عن ضرورات الحياة الجديدة كما يراها حتى قال :

ـ امران لا يمكن تأجيلهما وهما النور الكهربائى وخادم صغير فبغير هذين لا يصح ان نبقى هنا يوما واحدا . .

ولم يعترض على قوله احـد اذ كان مفهـوما انه هو الذى سيدخل النور الكهربائى ويستحضر الخادم . ثم فكر فى الوسط الجديد من زاوية جديدة فتساءل فى نفسه ترى هل تصلح أمه واختـه لمخالطة هؤلاء القوم ؟ وخيـل اليه انه يسمع تعليقـات السيدات والهوانم عقب زيارة لبيته فتصاعد دمه الى رأسه وقال مخاطبا امه فى لهجة تنم عن التحذير :

ـ لا ينبغى أن نعرف احدا فى حينا الجديد ولا يعرفنا احد فلا نزور ولا نزار . .

فقالت امه بعدم اكتراث :

ـ لا رغبة لى فى معرفة احد . .

وقالت نفيسة :

ـ لا صديق لنا هنا نأسف على قطعه !

فقال لها الشاب بقلق :

ـ يا حبذا لو اهملت صديقاتك الأخريات ايضا !

فاضطربت نفس الفتاة ، ومع أن الانقطاع عن العالم «الخارجى» كان من امانيها الا انه كان أمنية تعجز عن تحقيقها دائما ، ولا تفتأ تساق اليه بقوة بغيضة آسرة ، فتساءلت فى اشفاق :

ـ وهل ابقى حياتي سجينة ؟ !

وتدخل حسين للدفاع عن اخته فقال :

ـ لا تغال يا اخى فى طلباتك . . .

فقال الشاب فى حدة :

ـ لا اريد ان يزورنا احد من حينا القديم . . .

ـ لن يتجشم احد زيارتنا فيما عدا فريد افندى واسرته .

وصمت حسنين طاويا سخطه . وذكر زيارة التوديع التى قامت بها أسرة فريد افندى امس ، وكيف عرفوا العنوان الجديد ، وكيف تمنى وقتذاك لو يغمض عينيه ثم يفتحهما فلا يجد اثرا للماضى كله ، خيره وشره ! . . ترى هل أفضت الفتاة لوالديها بما تجد من فتوره ؟ . . ترى هل يفلت من هـذه العلاقة بيسر ام تنشب به متاعب لا يحلم بها ؟ ! . ليصمدن مهما يكن من الأمر ، الحرية والمجد فوق المتاعب جميعا . اجل لو تغلب على المـاضى فسيتمتع باشرف ما فى الحياة فى طمانينة وسلام .

ثم انتحى حسين بالشاب ليوازن معه ميزانيتهما لما جد عليها من تكاليف النقل وشراء ما سموه « حجرة الاستقبال » الى ما ينتظر من نفقات جديدة للنور والخادم . وقامت نفيسة للفرجة من نوافذ الشقة واستطلاع الدنيا الجديدة . وخلت الأم الى نفسها فاستجمعت ما مر بها من حوادث فى الأيام الأخيرة حتى انتهى بها المطاف الى هذا الحى الجديد ، فلم يستقر وعيها الا على شىء واحد ، هو حسن ! . ترى اين يهيم الفتى ؟ ماذا صنع الله به ؟ . لم تكن تخلو الى أفكارها حتى يطالعها من ثناياها فيستثير دفين الحسرة والألم . . .

هكذا باتوا اولى لياليهم بمصر الجديدة .

٧٨

ـ جئنا نهنىء بالبيت الجديد جعله الله مقاما سعيدا ..

قالتها ام بهية ثم جلست هي والفتاة على الكنبة الجديدة . كان الوقت عصرا وكانت الأسرة مجتمعة ما عدا نفيسة التي غادرت البيت قبل وصول الأم وابنتها بنصف ساعة .

واثنت ام بهية ثناء جميلا على المسكن الجديد وحيه الباهر ، وشكت الوحشة التي شعروا بها بعد فراقهم ، واعتذرت عن تغيب فريد افندى بانهماكه فى العمل بالوزارة بعد الظهر لمناسبة موسم الاجازات . ثم جرى الحديث المألوف واشترك فيه حسنين كالمعتاد ولكنه كابد قلقا لم تخف عنه بواعثه وشعورا مؤلما بالحرج . وجعلت بهية تخالسه نظرات حزينة ، فصيحة بغير بيان ، فازدادت حاله توترا ـ ثم اعربت ام بهية فجاة عن رغبتها فى الانفراد بالأم ـ الأمر الذى زاده قلقا وتوترا ـ وما لبثا أن غادرا حجرة الاستقبال معا . ووجد حسين نفسه غريبا بين خطيبين فغادر الحجرة منتحلا بعض الأعذار ، وخلا الجو ، وهو ما لم يكن يتوقعه حسنين بحال . وكان يعرف بداهة ما دعا أم بهية الى الانفراد بامه ، فادرك أن الساعة الفاصلة فى حياته قد دقت ، فاما النجاة واما الهلاك . وتبادلا نظرة طويلة ، هى فى انكار وتساؤل وهو بابتسامة باهتة لا معنى لها . ولم تلبث ان سالته مستنكرة :

ـ لماذا لا تزورنا ؟

فقال واجما :

ـ اسباب لا تخفى عليك تمنعنى من الظهور فى حينا القديم !

ولكنها لم يبد عليها الاقتناع وعادت تسأله :

ـ لم لم تقابلنى فوق السطح بعد ان تركت الورقة فى يدك ؟

ـ كنت واخى مرتبطين بموعد هام .

فتساءلت بلهجة وشت بحزنها :

ـ وسفرك المفاجىء الى طنطا دون ان تخبرنى ؟

فقال وهو يتحاشى عينيها :

ـ اضطررت الى السفر فجاة . .

فهتفت فى انفعال :

ـ لم تعد تبالى حتى باختلاق الأعذار المعقولة !

ان الموقف دقيق حقا ، بل اليم ، ولكن التخاذل معناه الموت بالنسبة اليه ، ولن يتهاون فى حق حريته ومستقبله وتنهد متظاهرا بالحزن وغمغم قائلا :

ـ ان ظروفى اعقد من ان تقدريها . .

ـ أفصح عما تريد قوله . لا افهم شيئا الا انك تغيرت . لم تعد كما كنت . لست غبية ولا حمقاء ، انت لا تريد أن ترانى . .

ـ سامحك الله . . .

ولعل ضيق الوقت حل عقدة لسانها فقالت فى تألم ظاهر :

ـ لا تلق الى بهذه العبارات المبهمة . أريد ان افهم كل شيء . ماذا بك ؟ . . لماذا تغيرت هكذا ؟ صارحنى بما فى ضميرك كله . .

وحال تشبثه بالنجاة والفرار دون احساسه بما فى كلماتها من يأس وعذاب فقال :

ـ لم أتغير ولكن ظروفى تغيرت . .

فقالت باستغراب :

ـ تغيرت ظروفك حقا ولكن الى احسن !

ـ هذا فى الظاهر فقط أما الحقيقة فهى اننى بت ادرك مسئولياتى الشاقة .

فقالت بلهجة لا تخلو من غيظ :

ـ الم تكن تدرك مسئولياتك من قبل ؟ . . ان مسئولياتك جميعا لا تحول بينك وبين ما تريد اذا كنت تريده حقا !

ـ اريد ولا استطيع .

فرنت اليه شاحبة الوجه وغمغمت :

ـ بل تستطيع ولا تريد .

ولم يجد ما يقوله ، وتضاعف احساسه بعذاب الموقف ، ومع ذلك ازداد تصلبا وتشبثا فتمتم :

ـ انت مخطئة .

وكانت تتفحصه فى جزع ويأس وكأنها تريد ان تنفذ الى اعماقه ، وابتلعت ريقها بمشقة ثم قالت :

ـ كلا ، لست مخطئة . لو كنت تريد حقا لما قلت لا استطيع . ان هى الا معاذير (ثم متنهدة على رغمها) لم تعد تحبنى وتريد ان تتخلص منى . هل ثمة سبب آخر !

ومع ان هذا ما كان يؤمن به فى اعماقه الا ان سماعه هاله واكربه فرفع حاجبيه منكرا وقال :

ـ لشد ما تظلميننى !

ولم تسكن لهجته خاطرها ، او بالحرى مكنت لقبضة اليأس من عنقها . وزاد احساسها بضيق الوقت من جزعها فتناست حياءها المطبوع وهتفت :

ـ انت الظالم ، لقد خطبتنى ثلاثة اعوام ثم بدا لك ان تتخلص منى . .

وتحامى عينيها فنظر الى الارض . كان متحرجا متألما ولكن تصميمه على عدم التراجع كان اعظم فقال :

ـ ان ظروفى اقسى من أن تدركيها على حقيقتها . أمامى صبر طويل . .

ورقت لهجتها فجأة وقد تورد وجهها وقالت برجاء :

ـ اذا لم يكن ثمة سبب آخر فبوسعى أن اشاركك الصبر !

فتوجس خيفة من تغير لهجتها وقال :

ـ انه صبر طويل . .

فقالت باللهجة نفسها :

ــ لا باس ، الا انني ارجو ان تعلن خطبتنا بالطرق المعهودة .

وذهل حسين لانقلاب الحديث الى هذا المجرى بعد ان اوشك ان ينقطع ، وركبه الخوف والضيق والجزع فهتف وهو لا يدرى :

ــ كلا ! !

وجعلت تحملق فى وجهه فى ذهول ، ثم خفضت عينيها فى ياس ، واحمر وجهها خجلا . وحركت شفتيها مرة ومرة كأنها تريد الكلام ولا تستطيعه ثم غمغمت :

ــ ارايت انني كنت على حق لما قلت لك انك تريد ان تتخلص منى ؟ . . .

وبلغ منه الارتباك مبلغا لم يعهده من قبل ، ولاذ بالصمت مليا ، ثم قال كالمعتذر :

ــ انى جد حزين ، ربما اقمت لى العذر يوما .

فقالت فى اعياء وقهر :

ــ حسبك ، لا اريد سماع كلمة اخرى .

وساد صمت ثقيل الوطاة كالمرض ملأ الحجرة بأنفاس الياس الخانقة ، ولكن وجد الشاب على حرجه وألمه لونا من الراحة ، فمهما يطل هذا العذاب فلا بد أن ينتهى ، وهنالك يجد نفسه حرا طليقا. وتساءل وهو يسترق اليها نظرة ترى ماذا يدور فى راسها ؟ الا زالت تريده ؟ أم كرهته ؟ أم تتمنى الانتقام منه ؟ لشد ما احبها عهدا طويلا ، ولكن هكذا انتهى كل شىء . وتساءل ترى فيم تتحادث الأمان ؟ وعلام انتهى الحديث الذى طال ؟ ثم قال لنفسه : « ان مصيرى يتقرر بيدى لا بيد أخرى » . ثم ترامى اليه صوت المراتين وهما تتكلمان قادمتين فخفق قلبه واستحوذ عليه قلق مفاجىء . وعادتا الى مجلسهما بوجهين يلوح فيهما الرضا ــ مما ضاعف قلقه ــ ثم دق الباب وكانت القادمة نفيسة ، ورجع حسين الى الحجرة ، فوجد حسنين فى المحيطين به ما انتزعه من افكاره

ورد اليه شيئا من هدوئه . ومع ان بهيـة بدت على حال من الوجوم لا تخفى الا ان الحـديث لم يشـذ عن المألوف حتى انتهت الزيارة ...

٧٩

ونظر حسنين صوب امه فى قلق متسائلا فادركت انه يسال عما دار بينها وبين ام بهية ، ونظرت اليه نظرة لا تخلو من فتور وقالت :

ـ حدثتنى ست ام بهيـة عن وجوب اعلان الخطبة بصـفة رسمية ، ووافقتها فى النهاية على رايها ..

وقطب الشاب فى حنق وضرب يدا بالاخرى وهتف بها :

ـ تسرعت يا أماه !

وشعر بما أحدثه قوله من دهشة فعاد يقول :

ـ لا لوم عليك بطبيعة الحال ولكننى فسخت الخطبة !

وحدقت به الأعين التى تابى تصديق ما سمعت وتساءلت الام :

ـ ماذا تقول ؟

فقال ضاغطا على مخارج الألفاظ :

ـ لقد فسخت الخطبة اليوم ، الآن ، وغادرتنا بهية وهى تعلم ان كل شىء بيننا قد انتهى .

وصاح حسين منزعجا :

ـ ماذا تقول يا اخى ؟ ... كيف حدث هذا ؟!

وقالت الأم :

ـ انك تحيرنى بتصريحك هذا ، ولست افهم شيئا ! هل وقع بينكما خلاف بغتة ؟ .. متى ؟ وكيف ؟

وكانت نفيسة آخذة فى خلع حذائها فامسكت وقالت :

ـ تكلم يا حسنين . هذا خبر لم يتوقعه احد !

فقال الشاب بوجوم :

ـ الواقع انني عقدت العزم على فسخ الخطبة من زمن غير قصير ولكنني لم لشا ان اخبر احدا ، واليوم حين انفردت بها فى هذه الحجرة لم اجد معدى عن اعلان نيتى فانتهى كل شيء . ارجو الا يسائلنى احد عما قلت أو عما قالت فهذا لا يعنى احدا سواى .

فقال حسين باهتمام واسف :

ـ كان موقفا قاسيا على الفتاة بلا شك ، وارجو ان يكون لديك من الأسباب ما يبرر الاقدام على هذه الخطوة الفظيعة . .

وقالت الأم المنزعجة :

ـ يا للفضيحة ! . . . لقد تم الاتفاق بينى وبين الأم فى نفس الوقت الذى كنت تهدم فيه ما نبنى ، فما عسى ان تظن بى المرأة ؟ ، ألا يمكن ان تشك فى اننى كنت اخادعها وانا اعلم بنواياك ؟ . . . ماذا فعلت يا بنى ؟ . . . ما سبب هذا كله ؟ . . . وماذا يعيب الشابة ؟ !

وضاقت نفيسة بالمتكلمين فصاحت بحدة :

ـ دعونا نسمع صاحب الشأن . . .

وقال حسنين مخاطبا امه :

ـ بهية شابة لا غبار عليها ، ولكن تبين لى بوضوح انها ليست الزوجة التى اطمح اليها . . .

فقالت الأم :

ـ لقد خطبتها ثلاث سنوات فكيف يليق أن تهجرها بلا سبب مقنع !

وهز حسين راسه مؤمنا على قول أمه ثم قال :

ـ هذا حق . ان فسخ خطبة امر فظيع . ولا يجوز ان يقع بلا سبب مقنع !

وتساءلت نفيسة باهتمام :

- كيف تبين لك انها ليست الزوجة التى تطمح اليها ؟ . . . دعوه يتكلم . . .

فقال حسنين بضيق :

- لا ريب ان بهية لا تصلح زوجة لى . حقا لقد خطبتها بنفسي ولكنني لم أكن أدرك هذه الحقيقة وقتذاك . . .

فقالت الأم بقلق :

- بهية فتاة جميلة ومؤدبة ، ولأبيها فضل علينا لا ينسى . .

وقال حسين بلهجة تنم عن استياء :

- انى اعجب لحكمك هذا . ما هى الزوجة الصالحة فى نظرك ؟

فصمت حسنين قليلا ثم قال :

- اريد زوجة من وسط ارقى ، مثقفة ، وعلى شىء من الثراء . . .

فتساءل حسين بنفس اللهجة :

- أهذه هى الأسباب التى جعلتك تنكث بعهدك ؟!

فقال حسنين متنهدا :

- نحن فقراء ، وبهية فى حكم الفقراء كذلك ، واخاف اذا مت قبل نهاية المرحلة - كوالدنا - أن اترك أبنائى لقساوة الحاجة كما تركنا . . .

وهتفت نفيسة قائلة بحماس :

- صدقت !!

فغضب حسين لحماس أخته وسأله :

- هل قدرت خطورة الخطوة التى اقدمت عليها ؟

فقال حسنين بحزن :

- لشد ما حز فى نفسى الأسف ولكننى لم اوافق على ضياع حياتى ! . . .

- وتوافق على ضياع حياتها ؟!

ـ لن تضيع حياتها . لا زالت فى عنفوان الشباب ، والمستقبل امامها باهر .

فتساءل حسين فى حنق :

ـ هل تسمح لى بان اصف لك سلوكك ؟

فنظر اليه فى وجوم ولم ينبس بكلمة فهز حسين راسه فى انزعاج وتساءل :

ـ انى اعجب كيف تسخط على سلوك حسن وله من الأعذار ما ليس لك !

وامتقع وجه الشاب وقال بحدة :

ـ لا اشك ان سلوكى لم يخل من قسوة ولكنه سينتهى بخير بالنسبة لى ولها ، وهو على اية حال افضل من زواج غير موفق . .

واعرض الشاب عنه يائسا ، وضربت الأم كفا بكف وهى تتمتم :

ـ يا لها من اساءة شديدة لأطيب الناس طرا ، رباه كيف اخفى وجهى !

ومع أنها كانت صادقة فيما تقول الا ان اعماقها لم تخل من ارتياح خفى . وقد كانت تشفق من ان يبادر حسنين الى الزواج فتعود الأسرة الى الترنح والقلق ، وكانت ترمق نفيسة دائما بعين الخوف متسائلة فى حزن عن المستقبل القريب والبعيد . ولكن اذا كان هذا حقا لا شك فيه فحق كذلك ما تجد حيال اسرة فريد افندى من اسباب الخجل والالم . اما نفيسة فلم تكن تحسن اخفاء عواطفها فقالت :

ـ لا خوف على بهية ، ستتزوج اليوم او غدا .

فقال حسين بامتعاض :

ـ هذا الكلام يصدق على كل فتاة ولكنه لا يصلح دفاعا عن خطئنا . .

فقالت نفيسة متهكمة :

ـ لا يصدق على كل فتاة ! . . والدليل على ذلك انه لايصدق على أخت حضرتك !

وخفف تهكمها من التوتر العام ، وانتهز حسنين الفرصة فقال بلهجة دب فيها الحماس :

- اليس الأفضل ان اختار زوجة من نوع خاص ككريمة احمد بك يسرى مثلا :

وقالت نفيسة بمرح :

- وما هذا على الله بكثير . من يدرى لعلنا نراك يوما فى ڤيللا محترمة وتتدفق علينا خيراتك يوما بعد يوم . .

ولم يلق حسين اليهما بالا ، وقالت الأم وكانها تحدث نفسها :

- سيعلم فريد افندى بالخبر هذا المساء . ما عسى ان يقول عنا ؟ ! . . ليتنى اجد الشجاعة لأزورهم واعتذر اليهم !

ففكر حسين طويلا ثم تمتم بهدوء وحزم :

- لا تنقصنى انا هذه الشجاعة .

ووقع قوله من نفوسهم موقع الاهتمام ، وسالته نفيسة :

- اتذهب حقا ؟ . . وما عسى أن تقول لهم ؟

فقال الشاب مقطبا :

- أقول ما يفتح الله به على . رباه ، لا شك أن فى دمنا شيئا نجسا . . .

ومضى يرتدى ملابسه ، ثم غادر الشقة . . .

٨٠

لم يقصد غايته رأسا ولكنه مضى الى مشرب شاى بمصر الجديدة فجلس ساعة يقلب الأمر على وجوهه ويعد له عدته . سرح خياله بين ذكريات الماضى وحوادث الحاضر ، وساءل عقله طويلا وساءل قلبه ، ثم قر فكره على راى . وكان فى تفكيره جريئا حازما قاطعا على غير عادته ، فلم تعترضه الصعوبات ولم تثبطه المخاوف ، حتى

عجب للسرعة التى بت بها فى الأمر وتساءل فى دهشة « ترى اهى من وحى الساعة ام اثر لما تجمع فى نفسى خلال ثلاث سنوات ؟ » . واستحوذ عليه شيء من الاضطراب ، وعاد يسأل نفسه ، ويستعرض الظروف المختلفة ولكن لم تكن قوة لتثنيه عما عقد العزم عليه . وقام من مجلسه تعتلج فى صدره انفعالات شتى من بسطة السرور وقبضة القلق واريحية المغامرة ، ثم اتخذ سبيله الى عطفة نصر الله فبلغها فى اول الليل . ومضى يقترب من البيت القديم وهو يشعر بثقل المهمة وحرج الموقف ، ولكنه اقدم بخطى ثابتة وعزيمة لا تنثنى . ثم طرق الباب بقلب خافق ففتحت له الخادم ، وحدجته بدهشة أثارت أعصابه ، ثم قادته الى حجرة الاستقبال . وما عتم أن جاء فريد افندى بجسمه المترهل فرآه لأول مرة مكفهر الوجه ، يتوهج الغضب فى نظرة عينيه . وما كاد الرجل يفرغ من مجاملات السلام ويستقر على مجلسه حتى قال بانفعال وتأثر شديدين :

— عشرة العمر كله ، وجيرة العمر كله ، وصداقة العمر كله ، تمزقونها جميعا فى دقيقة واحدة !

فنظر حسين الى الخوان امامه فى ارتباك وتمتم بصوت منخفض:

— ان ما بيننا من ود قديم لا يمكن ان يتغير ، وان ننس لا ننسى فضلك ونبل اخلاقك ما حيينا . . .

فلم يعره الرجل التفاتا وضرب كفا على كف وهو يقول :

— لم ادر حين خبرونى كيف اصدق اذنى . ان طبيعة قلبى تأبى أن تصدق هذا الغدر الشائن . . .

— انى عاذرك يا سيدى . وصدقنى اننا لم نكن أذنى لتصديقه منك ، حتى اننى تركت أمى فى حال يرثى لها . . .

وتابع الرجل حديثه دون اهتمام بما قال :

— كنت ألاحظ انه يتثاقل عن زيارتنا ، وقيل لى فى تفسير ذلك أعذار صبيانية زادتنى تشاؤما ، حتى علمت هذا المساء بانه

جاهر بنكث عهده ، . ما شاء الله ، هل حسب بنات الناس ألعوبة يلهو بها على هواه ، يخطب حين تحلو له الخطبة ، ويفسخ حين يطيب له الفسخ ؟ ! . . . لقد عاملته كابنى ولم يدر لى بخلد انه يطوى صدره على قلب بهذا الخبث والغدر . . .

وزاد شعور حسين بالحرج وطأة فقال ينتحل الأعذار كيفما اتفق :

ــ اخى فتى طائش وقد اضاعت حادثة حسن صوابه .

فتساءل الرجل فى انكار :

ــ وما ذنبنا نحن ؟ . . هذا عذر غير مفهوم !

ــ اقصد ان المصيبة اثارت اعصابه وافسدت حكمه فضاق صدره بالدنيا جميعا .

فلوح الرجل بيده فى عنف وقال ساخطا :

ــ كلام غير مقنع . انى رجل مجرب واعلم ان الرجل لا يغدر بخطيبته لمثل هذا السبب . قل غير هذا الكلام اذا شئت ان اصدقك . قل انه صار ضابط وبات يطمع فى نوع آخر من النساء .

فقال حسين بلهجة حزينة :

ــ وددت بحياتى لو اصلح الأمر .

ــ فسد الأمر ولا صلاح له . انه عبث لا يليق بالشرفاء ، ولو كنت غير الرجل لقاضيته وادبته ، ولكنى احمد الله على ما كشف لى من حقيقة نفسه بعد ان خدعت به طويلا . ما هو الا شاب نذل جبان ، ولا تؤاخذنى على قول الحق . . .

ووقعت هذه الاقوال من نفس الشاب موقعا اليما فخفض بصره مليا ثم قال بصوت ضعيف :

ــ انى جد آسف ، بل كلنا آسفون ، ولا مطمع لنا الآن الا الابقاء على الود القديم . .

وساد الصمت برهة ثم تمتم الرجل بفتور :

ــ ما عهدنا منكم شرا . . .

وشعر حسين بقلق وتوتر ، وذكر ما انتهى اليه رأيه قبل حضوره بقلب خافق مضطرب وتساءل فيما بينه وبين نفسه ترى هل من المناسب الآن الاقدام على الافصاح ؟ ! . . . ومع انه لم يجد من الجواب مشجعا الا انه ابى التراجع او التأجيل ، ونظر الى الرجل بعينين حذرتين وتساءل :

ـ هل استطيع أن اقابل الآنسة بهية ؟

فقال الرجل بجزع وهو يلطم الهواء بظاهر كفه :

ـ ما الداعي لهذا ؟ . . . فلندعها وحدها ، هذا خير ما يفعل !

وغلب التأثر الشاب . ترى ماذا تفعل المسكينة ؟ وماذا أحدثت الصدمة بنفسها الرقيقة ؟ وماذا هو فاعل ايقدم أم ينكص ؟ الا يقع كلامه من هذا الجو المكهرب موقعا مضحكا ! ولكنه شعر شعورا خفيا بانه اذا تراجع هذه اللحظة فلن يقدم ابدا ، وتنهد تنهدة عميقة ازاح بها التردد عن صدره وقال بسكينة ظاهرة يداري بها اضطرابه :

ـ سيدي ، لا أدري كيف اعرب عما في نفسي ، ولست ازعم انى اخترت وقتا مناسبا ! ولكنني لا استطيع ان أقاوم ما يدفعني الى قول كلمة اخيرة وهي انني أرجو ان تبارك يوما رغبتي الصادقة في طلب يد الآنسة بهية !

واتسعت عينا الرجل دهشة وبدا انه كان يتوقع كل شيء الا هذا ، ولعله اراد ان يتكلم ولكن ارتج عليه . أما حسين فكان قد عبر قمة أزمته فقال مستردا بعض هدوئه :

ـ لا تحسبن ان ما يدفعني الى هذا الرجاء هو ما اشعر به حيال تصرف اخي من خجل ، او ما عسى ان تتصوره عطفا على حال الآنسة . كلا ، واقسم على هذا . انها رغبة قائمة بذاتها ، منبعثة أولا وآخرا من تقديري لكريمتكم ولكم .

وواصل فريد افندي دهشته الصامتة على حين استمد

حسين من انطلاق لسانه وصمت الرجل شجاعة وحرارة فاستطرد قائلا :

- شيء واحد يحرجني في هذا المسعى كله وهو ما أشعر به من انني غير كفء لها .

فخرج الرجل عن صمته لأول مرة متمتما :

- لا تقلل من شانك يا حسين افندي ، انت عندي بمنزلة الابن . .

فقال حسين وقد تورد وجهه :

- شكرا . .

وتفكر الرجل قليلا كالحائر ثم قال :

- لا يسعني الا شكرك على رغبتك هذه ، ويسرني - علم الله - ان تتحقق ولكنك تدرك طبعا أن وقت التحدث بشانها لم يئن بعد ؟ ! . . .

فقال حسين بحماس :

- هذا طبيعي جدا يا سيدي ، وبوسعي ان امد . . اعني ان انتظر حتى يجيء الوقت المناسب . . .

وانتهى الحديث عند هذا الحد . . .

٨١

وعاد الى مصر الجديدة غارقا في أفكاره فلم يكد يرى شيئا من الطريق ، ولكنه استعرض صفحة مطوية طويلة من حياته كما فعل في مشرب الشاى قبل ان يتجه الى بيت فريد افندي . وكان على حيرته يشعر بسرور وامل لم يشعر بمثلهما طيلة حياته . لقد احب الفتاة فيما مضى ولكن حبه مات قبل أن يترعرع ويزدهر ، ولم يبق منها في قلبه الحكيم الوافي الا المثال الذي يحلم به للزوجة الصالحة ، وانه يذكر انه تألم كثيرا وصبر كثيرا ، فتعلم

انه بشيء من الحكمة يمكن ان يعثر فى دنيا الالم على مسرات عالية ، وخرج من التجربة ساكن القلب بسام الثغر ، وكان يقول لنفسه متعزيا ان مواجهة سوء الحظ بالصبر والتسامح . سرور ينبغى ان يعد من حسن الحظ .. وهكذا تعزى ونسى من زمن طويل . ولما أن تفتح له باب الأمل المغلق على حين غفلة نسى انه كان ينسى وازهر الحب فى قلبه كان ثائرته لم تهدأ لحظة واحدة من الزمان . وانطلق فى سرور لا تشوبه شائبة حتى بلغ البيت . ووجد الجميع فى انتظاره فما ان وقعت اعينهم عليه حتى صاحوا به :

ــ ماذا لقيت ؟ !

ورأى ان يمهد للخبر العجيب الذى يحمله بأن يهول من خطر الأمور فقال وهو يهز رأسه اسفا :

ــ وجدتهم على حال من التأثر انزويت لها خجلا وخزيا ، ولأول مرة فى حياتى رأيت فريد افندى الرجل الوديع ثائرا غاضبا كاسرا ...

وسألته الأم بحسرة :

ــ خبرنى عما حصل كله . الم تقابلك أم بهية ؟

ــ كلا ، قابلنى الرجل وحده وقبل ان افتح فمى بكلمة انهال علينا تأنيبا وتقريعا ..

واعاد عليهم كلام الرجل ــ فيما عدا الكلمات القارصة ــ مضيفا عليها من عنده الوانامن التأثر والحزن ليستثيرالمهم ويستدر عطفهم حتى ملأهم الوجوم والخجل ، الا نفيسة فقد قالت :

ــ ما كان ينبغى أن تلقاه الليلة . وعلى اية حال فالخطأ الاول ينصب على من يقبل تلميذا صغيرا كخطيب لابنته فضلا عن ان يكون هو الساعى بحيله الى عقد الخطبة . ولا اجد حسنين مستحقا للوم فقد كان تلميذا كما قلت لا يعرف ما يضره مما ينفعه ، فلما أن بلغ طور الرجولة تبين ان الفتاة لا تصلح زوجة له فماذا عليه اذا تركها ؟!

وصمم حسين على ان يشق طريقه الى هدفه فقال بهدوء مخاطبا أخته :

ــ تكلمى عن الفتاة برفق من فضلك فقد تصبح خطيبة إخيك الآخر !.

وحملقت فيه الأعين بدهشة ، وندت عن نفيسة آهة سريعة ، وتساءل حسنين :

ــ ماذا تقول ؟

فقال حسين وهو يتغلب على ارتباكه بقوة ارادته :

ــ يجوز ان تصبح خطيبة لى ..

ــ لك انت !

ــ لى انا ..

وهتفت نفيسة :

ــ كلام لا يدخل المخ !

ــ ولكنه الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان .

وسألته الأم وهى تتفرس فى وجهه :

ــ هل خطبتها حقا ؟

فقال الشاب خافضا عينيه :

ــ نعم ، قلت له انه يسرنى اذا وافق أن اطلب اليه يد الفتاة ..

فسأله حسنين بقلق :

ــ أفعلت هذا رغبة فى اصلاح الأمور ؟

فتردد حسين قليلا ثم قال :

ــ لا يخلو الأمر من هذه الرغبة ، بيد اننى اكن للفتاة تقديرا كبيرا ، واعتقد انه اذا لم يكن بد من الزواج فالأفضل ان يكون من فتاة مثلها ..

فتساءلت نفيسة فى لهجة ساخرة :

ــ ومن قال انه لابد من الزواج ؟!

وتداخلت الأم متسائلة :

ـ وماذا قال لك فريد افندى ؟

فأجابت نفيسة بالنيابة عنه قائلة :

ـ قال على العين والراس طبعا ..

وأجاب حسين دون أن يعبأ بها :

ـ شكر لى طلبى ولكنه اعتذر بانه لا يستطيع ان يخاطب الفتاة الآن بهذا الشان وطلب الى أن امهله الى حين ..

وعاد حسنين يسال باهتمام :

ـ اكنت تضمر هذه النية حين غادرتنا ؟

فأجاب حسين بفطنة :

ـ كلا ..

فقال الآخر باشفاق :

ـ اخاف أن تستبين بعد حين انك غير راغب فى الزواج حقا !

فقالت نفيسة متنهدة :

ـ ربنا يسمع منك ...

فصاحت بها امها غاضبة :

ـ نفيسة !

اما حسين فقال مجيبا اخاه :

ـ انى احب بطبعى الحياة المستقرة ..

فقال حسنين بارتياح :

ـ ليس احب الى من سعادتك وسعادتها ..

وصمت قليلا ثم استدرك قائلا بصوت منخفض :

ـ ولى انا ايضا آمالى ، كان أتزوج من كريمة احمد بك يسرى. اتظنه يا اخى املا اخرق ؟!

فقال حسين مبتسما :

ـ لم لا ؟ .. انك كفء لها ..

وهتفت نفيسة ضاحكة فى شيء من الاضطراب :

ـ لنا الله ، اردنا ان نسترد واحدا والغالب اننا سنخسر الاثنين ، وهذه اصابة عين حامية . .

وتمتمت الأم بهدوء :

ـ على بركة الله ، انى مطمئنة الى ان ابنائى لن ينسونى . .

فقالت لها نفيسة :

ـ ما أجهلك بالزواج واسراره ، سلينى أنا عنه .

ضحك حسنين قائلا :

ـ امنا أعرف بنا منك . .

وساد الصمت فراح حسنين يتساءل فى نفسه وهو يسترق النظر الى اخيه : ترى اكانت خطبته بنت ساعتها حقا ؟!

٨٢

« ربما كان الانتظار حكمة ، ولكن ماذا يجدى الانتظار اذا طار الطائر ؟ ! » هكذا تساءل حسنين فيما يشبه الغضب ، وبعد انقضاء قرابة شهر لم ين فيه عن التفكير والتدبر ساعة واحدة . قالوا له ـ خاصة حسين ـ انه ينبغى أن ينتظر حتى يكون ثروة صغيرة ثم يتقدم لطلب يد الفتاة ، وليكن رايهم صوابا ، ولكن من يضمن له أن تنتظره الفتاة حتى تتكون هذه الثروة ؟. ومما شجعه على نبذ هذا الرأى « الحكيم » ان أحمد بك يسرى على علو مقامه قريب اليه بحكم العلاقات القديمة ، فطمع فى ان يوسع له صدره . أما اذا افلتت من يده الفرصة السعيدة فليس لديه الا أن ينتظر أعواما طوالا قبل أن تفتح له الأبواب أسرة كهذه . الا يمكن أن يطلب يد الفتاة ثم يستمهل البك حتى يستكمل استعداده ؟. . يمكن بلا ريب ، واذا لم يمكن فان احتمال الرفض لايجب أن يقعده عن المسعى ، انه أجرأ من أن يقعده شىء عن غاية ، ثم انه لا يطيق هذه الفضيلة التى يدعونها بالصبر . الآن ، ودون

خوف او تردد ، وليكن ما يكون . كان الشاب يدير هذه الأفكار فى راسه وهو يقترب من فيللا احمد بك يسرى بشارع طاهر . صمم وشرع فى التنفيذ بلا مبالاة . هذه هى الحياة التى يتلهف عليها بكل قوة نفسه . وليس ثمة ما يزعجه فقد اختفى حسن وصارت نفيسة آنسة محترمة والماضى فى طور الاحتضار ، وما يريد الا الحياة النظيفة السعيدة لنفسه وذويه . وكان قد اخذ زينته وتبدى فى منظر حسن يجمع الى رشاقة الشباب فحولة الرجولة . وما ان انتهى الى الفيللا حتى أدخل الى السلاملك فجلس ينتظر ولكن بقلب خافق ونفسه قلقة ، « اليس عجيبا أن اتقدم لطلب يد فتاة هذه فيللتها وانا لا املك الا ما تبقى من مرتبى !. وهناك قضية الوقف الوهمية التى حدثت البك عنها ولكن هيهات أن تغنى عنى شيئا . لماذا لم يكن لأمى وقف ؟ ولكن هذه مسألة اخرى ، فلو كنا من أصحاب الوقف لكان الماضى غير الماضى والحاضر غير الحاضر . ليكن ما يكون ، لن اتراجع ، ومهما يكن من أمر فلن يقطع راسى ، اذا ربحت ربحت الدنيا جميعا واذا خسرت لم اخسر شيئا يذكر . انى آسف يا بنى ، سلام عليكم يا سعادة البيك ، هذا أفظع ما يتوقع . انى كفء لها بغير جدال . ما عسى أن تريد مما ليس لدى ؟ المال ؟ عندها المال بالقنطار . ما احمقكم يا اهل هذا البيت اذا رفضتم يدى . فى هذا الموضع رايتها أول مرة على دراجتها ، ساق تستأهل ثقلها ذهبا وفخذ سبحان الخالق . مسكينة نفيسة . ترى اين حسن الآن ؟ ليته يفر الى بلد غريب فيختفى الى الأبد . لا تكاد ذكراه المزعجة تفارقنى فمتى أرتاح من الماضى كله . لن اتراجع . فى هذا الموضع كادت تهوى بها الدراجة . اقدام البك ؟. » وانصت فى اهتمام ثم نهض منا فى احترام حين راى البك قادما نحوه وسلم فى اجلال والآخر يقول :

ـ أهلا بحضرة الضابط . كيف حالك ؟

واجابه الشاب وهو يبذل اقصى جهده للسيطرة على انتباهه وارادته :

ــ شكرا لك يا سعادة البك .

وتساءل البك ضاحكا بلهجة ذات معنى :

ــ الا يزال اخوك فى طنطا !

ورحب حسنين باى حديث يطيل له مهلة الاستعداد فقال باهتمام ظاهرى :

ــ بلى يا سيدى :

وكانا قد اطمأنا الى مجلسيهما فقال البك :

ــ ليس فى الامكان نقله هــذه العطلة ولكنى اخــذت وعدا صادقا بنقله فى العطلة القادمة . .

وكان حسنين يعلم بهذا ولكنه قال بامتنان :

ــ هذه مأثرة جديدة تضاف الى مآثرك السابقة :

وساد صمت ، وشعر الشاب بانه يقتحم لحظة رهيبة من حياته ، وانه لم يعد وراءه ثمة مجال لتردد او تراجع ، فالقى بعزمه قائلا بصوت لم يخل من اضطراب فى نبراته :

ــ الواقع انى قصدتك يا بك فى شأن يخصنى انا . .

فرفع اليه الرجل عينيه متسائلا :

ــ خير ان شاء الله ؟ . .

فاعتدل الشاب فى جلسته كأنه يستمد من اعتداله قوة وقال :

ــ انى استشفع بسعادتك لغاية بعيدة اراها فوق مطمحى .

فتساءل البك مبتسما وهو يدلل بأصــابعه شاربه الغليظ المصبوغ :

ــ أتريد أن ترقى لواء ؟

فضحك الشاب ضحكة عصبية سرعان ما غاضت من اساريره وقال بصوت منخفض :

ــ اعز من هذا . انى طامح الى شرف مصاهرتك . .

وحل اهتمام مفاجيء محل النظرة الباسمة ، وخيل اليه ان الرجل استحوذت عليه دهشة رغم ما يتظاهر به من الرزانة وضبط النفس ، ولكن اية دهشة يا ترى ؟ دهشة المفاجاة ام الانزعاج ؟ ودق قلبه بقوة وشعر شعورا عميقا بخطورة اللحظة التى يكابدها . اما الرجل فقال بعد صمت وتفكير :

ـ لا يسعنى الا ان اشكر لك حسن ظنك . .

وتاثر للقول الرقيق تاثرا لم يخل من الم غامض وقال بتوكيد :

ـ أرجو الا اكون قد جاوزت حدى . .

فقال البك مبتسما :

ـ حاشا لله . انى اكرر الشكر بيد اننى اؤجل الجواب حتى اشاور اصحاب الشان .

فارتاح حسنين لهذه المهلة التى رحب بها ترحيب المحارب المحرج بهدنة آمنة وقال :

ـ هذا طبيعى يا سعادة البك ولكنى ارجو حقا الا اكون قد جاوزت حدى .

فابتسم البك قائلا :

ـ لا تعد على مسمعى هذا القول .

ونهض الشاب مستاذنا فى الانصراف ثم غادر الفيللا . واستعاد فى الطريق كل كلمة قيلت وما صاحبها من حركات واشارات ولمحات ، وحاول أن يستشف ما وراءها من معان ومقاصد ، ومع أنه كان يؤول كل شيء بخيال جريء طموح متفائل الا أنه وجد انقباضا وقلقا ، وفى النهاية قال لنفسه وهو يهز كتفيه استهانة « اذا ربحت ربحت الدنيا جميعا واذا خسرت لم اخسر شيئا يذكر » .

٨٣

لم يفكر حسين فى معاودة زيارة فريد افندى حتى اوفت اجازته على نهايتها ، كأنما اراد ان يمد للرجل فى مهلة تفكيره حتى يستخلص منه رأيا قاطعا . ولم يكن يكف فى أثناء ذلك عن مشاورة والدته ، ولم تبد المرأة اعتراضا ولكنها نصحته ان يؤجل زواجه عاما حتى يستكمل استعداده . ومن عجب انها لم تفلح فى اسداء مثل هذه النصيحة للشاب الآخر المتعجل ولكن حسين نفسه لم يكن ليوافق اخاه على تعجله الذى وصفه « بالتهور » ولم يخف عليه أنه اذا وفق حسنين الى هذه الزيجة الخيالية ، وتم زواجه هو بعد عام ، فستجد امه واخته نفسيهما وحيدتين بلا عائل ، ولهذا طمان والدته الى انه مصمم على أن يضم زوجه الى البيت فى كنف معيشة واحـدة ، واطمأن قلبه وفكره فمضى الى بيت فريد افندى ، واستقبله الرجل بترحاب انعش آماله ، ومع أنه لم يكن للزيارة الا معنى واحد لا يخفى على أحد الا انه خاطب الرجل قائلا فى شىء من الارتباك :

ـ جئت استودعكم الله قبل عودتى الى طنطا غدا . .

فابتسم فريد افندى ابتسامته الرقيقة وقال :

ـ مع سلامة الله ، وان شاء الله نسمع قريبا عن نقلك الى القاهرة . . .

فقال حسين برجاء :

ـ ارجو ان يتم هذا فى العطلة القادمة . .

وساءل نفسه ترى هل يفتح «الموضوع» او ينتظر حتى يتكلم الرجل ؟. . لقد شاور أمه فى الأمر كأنه اصبح حقيقة مفروغا منها ، ومع هذا فمن يعلم بما دار فى نفوس أهل هذا البيت ؟!.

وساوره قلق ، اخـذ يتزايد كلما طال انتظاره للكلمة التى يود سماعها ، حتى جاءت الست ام بهيـة فنهض لاستقبالها فى ادب وشد على يدها فى حرارة ، وتفاءل بمقدمها خيرا . وقد قالت له وهما يجلسان :

- انى سعيدة برؤيتك يا بنى ، كيف حال والدتك ؟

فقال حسين بحرارة :

- بخير يا سيدتى . وهى تقرئك السلام ..

ثم نظر فريد افندى الى زوجه وقال لها :

- حسين افندى جاء يودعنا لانه مسافر غدا واظن من المناسب ان نخبره بما قر الراى عليه (ثم محولا راسه الى الشاب) بخصوص ما حدثتنى عنه يا حسين افندى يسرنى ان اقول لك «اننا» موافقون .

وتتبع فؤاده كلام الرجل فى خفقان متواصل ، استحال الما خالصا عند بعض المقاطع ، ثم انتهى بوثبة فرح فقال بصوت متهدج :

- شكرا لك يا سيدى ، الف شكر ، انى سعيد حقا ..

فابتسم الرجل وقال مخاطبا زوجه :

- وسينقل الى القاهرة فى العطلة القادمة ...

فضحكت المراة قائلة :

- خبر سار ، نحن نود بطبيعة الحال « ان تكونوا » على مقربة منا ...

فتورد وجه الشاب وقال بصوت وشى بسروره :

- سيتحقق هذا باذن الله ...

ثم قال فريد افندى :

- ولكن يحسن بنا ان ننتظر فترة معقولة قبل اعلان الخطبة .

ثم ضحك ضحكة لم تخل من الارتباك واستطرد قائلا :

- حتى ينقضى وقت مناسب بين الخطبتين ...

فخفض حسين عينيه وهو يتمتم :

ـ انى رهن اشارتكم .

وقام فريد افندى وغادر الحجرة ، وغاب دقائق ، ثم عاد تتبعه بهية . ومع ان حسين حدس الأمر الا انه وقع من نفسه موقع المفاجاة البكر فنهض باذلا مكنون قوته لتمالك نفسه . ثم مد لها يده فى صمت ، فتلاقت يداهما ، وشعر بيدها على يده ناعمة الملمس رقيقة الموقع ، باردة المس ،فاهتز صدره ودر رقةوشكرا. وشعر بانه ينبغى ان يقول كلمة ، والح عليه هذا الشعور ، ولكنه وجد راسه فراغا ، ولم يسعفه الموقف بالتفكير فجلس دون ان ينبس بكلمة . وسرعان ماتناسى مشاعر الأسف المنبعثة من خرسه فى موجة السرور والرضا التى غمرت حواسه جميعا فنزلت عليه سكينة لطيفة أشبه بالشفاء الذى يعقب نوبة الم . ما أجملها كيف يعمى بعض الناس عن هذه المزايا المكتملة ؟!. انها الوداعة والفضيلة اللتان ترويان الحنان الظامىء الى حياة البيت السعيد . لا تثير استفزازا من اى نوع كان ولكنها تبث سلاما وطمانينة . لماذا جاء بها ابوها ؟ ليس لهذا الا معنى سعيد واحد ، قال اننا موافقون ثم جاء ببقية « اننا » شاهدا ملموسا . بوده لو يسعه ان يستخبر افكارها هل افاقت من الصدمة ؟ هل برىء الفؤاد ؟ أبدات حقا تستشعر ميلا اليه ؟ . ولم يتركه الوالدان لتاملاته فعاودا حديثهما الذى بدا الآن تافها متطفلا . الا يمكن ان تحدث معجزة فيغادرا الحجرة ؟ وقد التقت عيناه بعينيها مرة فتاه فى صفاء وزرقة لحظة بهيجة . عنده ما يقوله ولديها مايقال بلا ريب . ومهما يكن من امر فالأيام آتية ، وسيفصح عما فى ضميره ، عن كل كبيرة وصغيرة . وفى اويقات ما بين الحديث كان يتجمع فى احساس رقيق سعيد أقنعه بان فى الدنيا سرورا خليقا بأن يكفر عن جميع اكدارها . سرور يقطر صفاء . ليدم طويلا ، لتدم هذه

الجلسة ، هذه الحال ، هذا المنظر ، هذا الاحساس ، ليدم عمرا ، ليشمل الحياة جميعا .

وتواصل الحديث ولكنها لم تشترك فيه اللهم الا بايماءة أو فمغمة ، حتى وجب الذهاب فنهض مستأذنا ، وسلم عليها ، وغادر الشقة وهو يشعر لأول مرة بأنه مقبل من حياته على وقت حصاد . . .

٨٤

وسافر حسين ، وانقضت ايام من فترة الانتظار التى دعاها حسنين بمدة « تحت الاختبار » . والتى عاناها فى تجلد اضطرارى والأمل واليأس يتجاذبانه . وقد اسف على سفر اخيه لانه كان يفضل بلا شك أن يتلقى رد احمد بك يسرى وهو غير بعيد عن مشورته ، كان فى الحقيقة يأنس الى مشاورته وان غلب عليه الاستبداد برايه والاندفاع وراءه ؛ على أن اقدام حسين على الشروع فى الزواج كان قد ترك فى صدره راحة لانه كان فى اعماقه متعبا لسبقه الى استكمال حياته بالزواج والآخر منزو تحت الأعباء كأنه محروم من الانتفاع بحياته . ولا يعنى هذا انه لم يكن مشغولا بمستقبل أسرته فالحق انه كان يرجو من وراء زيجته النفيسة خيرا كبيرا لنفسه ولأسرته على السواء . هكذا سوى متاعبه الداخلية بهذا المنطق ليفرغ لملاقاة حظه بقلب مطمئن . وانه لعلى تلك الحال اذ دعاه احد الأصدقاء من زملائه الى موافاته الى كازينو لونابارك بمصر الجديدة ، وكان هذا الصديق — ويدعى على البرديسى — أقرب زملائه مودة الى قلبه ، نشأت صداقتهما وتوثقت بالكلية ، ثم حافظت على حرارتها رغم تعيينه هو بسلاح الفرسان والتحاق الآخر بالطيران ، ومضى الى موعده فوجده فى انتظاره ، وجلسا معا فى حديقة الكازينو ، ثم طلب الصديق قدحين

من الجمعة . وادرك حسنين من اللحظة الأولى أن صاحبه قد دعاه لأمر ، لانه على غير عادته - وبالرغم من مرحه الظاهر - بدا جادا متفكرا ، وما لبث ان ساله :

- اتذكر الملازم احمد رافت ؟

فقال حسنين بعدم اكتراث :

- طبعا ، انه من دفعتنا ، واظنه ضابطا بالطوبجية ، اليس كذلك ؟ . .

فاوما الصديق دلالة على الموافقة وقال بضيق ومرارة :

- سمعته بالأمس يتحدث عنك فى جمع من الاخوان بما اغضبنى وساءنى . . .

فحملق حسنين فى وجهه بدهشة . كان يتوقع اى شىء الا هذا . وتساءل فى استنكار :

- ماذا قال ؟

فقال على البرديسى بوجوم :

- كنا ، انا وبعض الأصدقاء ، نلعب الورق فى بيته بالمعادى .

- وبعد ؟

- لا اذكر المناسبة التى اثارت الحديث . كنا سكارى . ولكنى سمعته يخوض فى امور تمسك . خبرنى اولا هل سعيت حقا الى طلب يد كريمة رجل يدعى احمد بك يسرى ؟!

وفجر الاسم زلزالا فى صدر الشاب فدق قلبه دقة عنيفة ، وذكر لتوه ان احمد رافت هذا على صلة وثيقة ببعض اقارب احمد بك يسرى . وبذل جهدا صادقا ليتمالك أعصابه ، ثم قال باقتضاب وهو يكابد شعورا غليظا بالتشاؤم والخوف :

- ربما . . . .

- أتعلم أن احمد رافت صديق لهذه الأسرة ؟

- هذا جائز ، ولكن خبرنى ماذا قال ؟

فصمت البرديسى كالمتردد حينا ثم تمتم بصـوت منخفض والحرج باد فى أساريره :

ــ فهمت من حـديثه ان الأسرة لم توافق . يؤسـفنى ان ابلغك هذا . . .

وشعر بالخبر يضـغطه كحمل ثقيل فتضاءل تحته واحس بانهيار فى كرامته ورجولته . ثم فار غضبه حتى اوشك ان يستسلم لنيرانه ولكنه ثار على الاستـسلام فى اللحظة الأخيرة ، وابى الا ان يتظاهر بعدم الاكتراث ، بل ندت عنه ضحكة وتساءل :

ــ اهذا ما أساءك يا صديقى ؟

فقال الصديق بوجوم وقلق :

ــ هذا امر عادى ، يحدث كل يوم ، ولكنه ذكر فى غير لياقة الأسباب التى تبرر عدم موافقة الأسرة ، ومع انها اسباب تافهة لا يمكن ان تحط من قدر انـسـان الا انه ساءنى جدا ان يرددها فى جمع حافل من السكارى . . .

كان يشعر دائما بأن مطرقة ثقيلة من ماضيه معلقة فوق رأسه تهدده فى كل حين ، وهاهى قد اهوت على يافوخه ونثرته هشيما . ليس الأمر بحاجة الى ايضاح او سؤال ، ولكن أمن الممكن حقا ان يتجاهل كل شىء ؟ ! ورفع بصره الى وجه صديقه الواجم وسأله بلهجة آلية :

ــ خبرنى عما قال ؟

فعبس الشاب فى ضيق وتبرم ثم استطرد :

ــ انه حقيق بالاهمال ولكن من الانصاف ان تعلم بما يقال عنك ولست فى حاجة لأن أقول لك انى غضبت لك غضبة صادقة ألجمت السنة الهاذين . .

اذن اتخذوا منه مادة لهذيانهم ! واى مادة ! كان ينبغى ان يفكر فى هذا كله يوم اقدم على تلك الخطبة المشئومة . وابتسم الى صديقه ابتسامة باهتة وقال :

ـ لايخالجنى شك فى شهادتك . انى اقدر اخلاصك حق قدره . ولكن ارجو ان تعيد على مسمعى كل كلمة قيلت . كلمة كلمة .

وبدا الشاب متأففا ، واكتفى بان يقول فى امتعاض شديد :

ـ قال كلاما كثيرا عن اخ لك .. حتى قلت له متحديا انى اعرف قاطع طريق فى بلدتنا اخوه وزير فى القاهرة !

فامتقع وجه حسنين ، وتأذى لدفاع صاحبه كأنه يسمع التهمة نفسها ، بيد انه ضحك فى يأس وقال :

ـ العادة ان عين الرضا لا ترى الا الوزير اما عين الغضب . ما علينا ، وماذا ايضا ؟

فقال الشاب فى تهرب :

ـ وكلام سخيف من هذا القبيل ...

ولكن حسنين هتف به فى ضيق غلبه على امره فجأة :

ـ ارجوك ، ارجوك ، لا تخف عنى شيئا ..

فقال الشاب عابسا من التحرج :

ـ اكره الخوض فى الحرمات .

ـ أختى ؟!

ـ نعم ...

ـ قال انها كانت تعمل لترتزق ... ؟

ـ وقلت له غاضبا ان العمل الشريف لا يعيب احدا وان الفقر ليس جريمة .

فهز حسنين راسه فى حرارة وردد قول صاحبه فى سخرية أليمة :

ـ .. ان الفقر ليس جريمة !.. بديع !.. وماذا قال ايضا ؟..

ـ لا شىء ...

ـ حسبه ! اخ قاطع طريق واخت خـ ... عاملة ، هه ؟ ويريد بعد هذا أن يتزوج من كريمة بك قد الدنيا !

قال البرديسى :

ـ أعتقد أن حسن الاختيار قد أخطاك فى التقدم لمثل هـذه الأسرة العيابة .

فابتسم حسنين ابتسامة مريضة وتمتم :

ـ صدقت . .

ثم راح يقول لنفسه « انى غائص فى الطين حتى قمة راسى . ليس لهذه الحال من علاج الا ان ادق عنق هـذا الأحمد رافت . ولكن هل يغير هذا من الواقع شيئا ؟ ، كلا ، انه دفاع غير مجد بيد انه لا يجوز أن تغيب عنى حقيقة هامة وهى ان اللكمة القوية تستطيع أن تنتزع الاحترام انتزاعا وتفرضه فرضا . انى قادر على هذا والحمد لله فلا تنقصنى الشجاعة او القوة . كان حسن احقرنا شانا ولكنه كان على ذلك اعظمنا احتراما . هذا درس ينتفع به » . ثم سمع صديقه يقول فى عزاء :

ـ لا تكترث اكثر مما ينبغى .

فقال وهو يهز منكبيه متظاهرا بالاستهانة :

ـ نصيحة معقولة . ليس فى اسرتنا ما يشين . كنا اغنياء فى يوم ما ثم دهمتنا أيام شداد فلاقيناها بشجاعة حتى تغلبنا عليها . ليس فى هذا ما يشين . . .

ـ بل فيه من دواعى الفخار ما فيه .

فضرب الأرض فجاة بقدمه وقال مستعر العينين من الغضب :

ـ ولكنى أعرف كيف أؤدب من تحدثه نفسه باهانتى . .

ـ هذا حق لا شك فيه . .

وساد صمت مرهق بالتعب والألم فلم يجد البرديسى خيرا من ان يطلب قدحين اخريين من الجعة ، ثم تمتم مبتسما :

ـ ستجد اذا شئت من هى خير منها . . .

فقال حسنين باستهانة :

ـ اوه ، البنات فى البلد اكثر من الهواء وارخص من التراب ! وعل من الجعـة فى ظمأ ، وشغل الصديق بقدحه أيضا فعاد

الصمت . «آه لو كان فى وسع الانسان ان يخلق حياته من جديد، فيولد فى اسرة جديدة ، وينشىء ماضيا جديدا . ولكن ما بالى اعذب نفسى بالامانى الكاذبة . هذا انا ، وهذه حياتى ، ولن اسمح بان اتحطم . لم تنته المعركة بعد ! » .

٨٥

ولما غادر الكازينو مودعا من صديقه كانت الصدمة والجعة تكادان ان تذهبا بعقله . وكان يبغى ان ينفس عن صدره قبل كل شىء ومهما كلفه الأمر بيد انه استسخف فكرة مواجهة الضابط احمد رافت واغراه شعوره المنطوى على التحدى والغضب بما هو اجل واخطر . « ان غضبى على هذا الشاب المغرور غير عادل . لقد سمع قولا بذيئا فردده . ليس لى عليه حق ولا استطيع الزعم باننا كنا أصدقاء . اذا سنحت فرصة للتحرش به فى المستقبل فلن أدعها تفلت بسلام ، ولكن لندع تأديبه حتى سنوح هذه الفرصة . هدفى الحقيقى هو البك نفسه ذو الشارب المصبوغ . ساقول له ان اقل ما يستحقه رجل تقدم لطلب يد كريمتك هو ان تحافظ على كرامته خصوصا اذا كان ابن صديق قديم . اذا تنصل من التهمة قذفته بالدليل القاطع وقلت له ان الفقر ليس بعيب بخلاف التشنيع على الناس فهو عيب حقير . اذا غضب ولا بد أن يغضب كما يحتم مركزه الكبير فلن اقتصد فى اظهار غضبى حتى أفرغ بخار صدرى المكتوم . » . وبهذا الشعور المتفجر وما ينبثق حوله من اشعاعات الجعة القى بنفسه فى اول ترام صادفه فحمله الى ميدان المحطة ، ثم استقل الترام الى شارع طاهر ، وعندما تراءت له فيللا احمد بك يسرى تثاقلت قدماه كانه يمهل نفسه لمعاودة التفكير . وترددت فى أعماقه هواتف

تهيب به الى التراجع ولكنها ذابت فى تيار الحمى المستعر فى راسه فدفع الى الفيلا دفعا حتى وجد نفسه حيال البواب الذى وقف له احتراما . وشق طريقه الى الداخل دون استئذان وهو يشعر بغرابة سلوكه وسخافته ولكن دون ان ينثنى . كانت الشمس قد مالت نحو الأفق فلاحت شجيرات الورد والشيح كالناعسة فى ظل المغيب ، وارتسمت على ارض الممشى الوسيط آثار عجلات السيارة فى هيئة خطين عريضين منحنيين ، فاتجه نحو السلاملك، تشى نظرة الحيرة والتردد التى تنتاب تصميمه من حين الى حين بانه لم يقتنع كل الاقتناع بوجاهة البواعث التى تدفعه الى هذا التحدى ، ومع هذا ارتقى السلم بسرعة غير متوقعة ، وما كاد يبلغ الفراندا حتى وقف متسمرا تحت صدمة دهشة مفاجئة لم تدر له بخاطر فى هذيانه الطويل المتصل . راى الفتاة — نفسها — جالسة على كرسى كبير وقد رفعت راسها عن كتاب او نحوه وتطلعت الى القادم بعينين متسائلتين . وثبتت عيناه عليها فى جمود ذاهل وقد صدع صدره من الأعماق احساس بالخزى اذابه ذوبانا . ثم أدرك انه حيال موقف لو استسلم فيه لضعفه لباء بخزى جديد فاق ما تعرض له من الوان الاهانة ، فاستمد قوة جديدة من خوفه مصمما على الخروج من ورطته بكرامة واستهانة. وافاده التصميم فتمالك نفسه ، وحنى راسه باحترام وقال مبتسما فى لطف :

— مساء الخير يا آنسة . معذرة عن ازعاجى غير المقصود لك . هل استطيع ان اقابل البك ؟

فقالت برقة — وكان يسمع صوتها لأول مرة — دون ان يعتورها أدنى ارتباك :

— والدى معتكف اليوم لوعكة خفيفة .

وحنى راسه مرة اخرى ، ولعله وجد ارتياحا الى هذا الخلاص الذى جاء من حيث لا ينتظر ، وقال وهو يهم بالذهاب :

- أستودعك الله ..

ودار على عقبيه وسار خطوة ، وخطوة اخرى ، ثم توقف فى تصميم مباغت . اختفى منطق السلام وحل محله غضب واستهتار وتلبسته الحال الغريبة التى دفعته من مصر الجديدة الى شبرا .

ودار حول نفسه مرة اخرى وواجه الفتاة فى جراة غير مبال بنظرتها المترفعة المتسائلة ثم قال بصوت اعلى مما يستدعى الموقف :

- معذرة ، يعز على ان اودع هذا البيت الوداع الاخير دون ان اعرب عن افكارى ..

فظلت على تساؤلها الصامت دون ان تنبس بكلمة ، فاستطرد متسائلا :

- اظن بلغك اننى طلبت يدك ؟

فقالت وهى تغض بصرها :

- لم تجر العادة بأن يحدثنى احد من زوار ابى .

فقال فيما يشبه الدهشة :

- ظننتها عادة غير مستنكرة فى الأوساط الراقية !

- ليس فى جميع الأحوال .

فتمادى فى الاستهانة قائلا :

- اسمحى لى ان أتكلم رغم هذا ، اننى قصدت البك لمحادثته فى الأمر نفسه لانه نما الى ان طلبى عد وقاحة لا تغتفر ..

فقالت دون ان ترفع بصرها :

- يحسن بك ان تؤجل حديثك لحين لقاء البك ..

فقال وعيناه لا تتحولان عن وجهها :

- ولكن ما اسعدنى به الحظ من لقائك - وأنت صاحبة الشأن الأول - يحتم على أن أتكلم ، يهمنى ان اعرف رأيك ، هل يعد طلبى وقاحة حقا ؟

فقالت بما ينم عن الضجر :

ـ ارجو ان تؤجل حديثك لحينه . . .

ومع ان ضجرها كان شيئا منتظرا الا انه آلمه واحنقه فقال :

ـ ان الذى يسعى الى يد فتاة يتقدم عادة بخير ما فيه ولكن يحدث أحيانا لسوء الحظ الا يروا الا شر ما فيه ، كبعض مساوىء تتعلق باسرته مثلا . . .

فنهضت قائمة ، عابسة . وهى تقول :

ـ لا مفر من الذهاب .

واتجهت نحو مدخل البهو فلاحقها بصوت مرتفع قائلا :

ـ كنت اود ان اسمع رايك ، ولكن حسبى هذا ، انى آسف ، وارجو أن ترفعى تحياتى الى البك . .

ودار على عقبيه مسرعا وهبط السلم ثم سار نحو الباب . ومرت بخاطره مناظر متباعدة فى سرعة وتدفق . كموقفه مع بهية فى بيتهم الجديد ، وحديث البرديسى فى الكازينو . وهذا الحديث القريب « لست عاشقا خائبا والحمد لله . كنت على وشك ان اكونه ولكن الله سلم . بيد اننى رجل خائب وهذا افظع . أحب أن افكر طويلا فى هذه الأمور المعقدة . انى اشعر بمرض من نوع جديد ، اين الداء ؟ اين الخطأ ؟ اين العلاج ؟ » .

ولما خلص الى الطريق كان مقتنعا بانه ارتكب سخافة لا معنى لها . . .

٨٦

قالت الأم مبتسمة وان نمت نظرة عينيها عن اسى :

ـ من عجب انك ترمى بنفسك فى امور خطيرة دون ان تأخذ العدة لها . هبهم وافقوا على الزواج فماذا كنت تفعل ؟ الم تفكر فى هذا ؟ الم نحذرك جميعا من عواقبه ؟

كان قد مضى على حديث صاحبه البرديسى حوالى عشرة ايام ومع هذا لم تغب هذه المسالة عن اذهانهم ، وكانوا كلما جمعتهم جلسة فى الشرفة المطلة على الطريق فى اوقات العصارى ولاح فى وجهه الشرود او التفكير انبرت الأم للحديث ترجو أن تبلغ به موضع التعزى من قلبه وانضمت اليها نفيسة مازجة الجد بالمزاح.

وقال حسنين فى ضجر:

- لا يبدو لى الغد خيرا من اليوم ..

فقالت نفيسة:

- كلام فارغ ..

وصدقت الأم على كلامها قائلة:

- وستبدى لك الأيام انه كلام فارغ ، وستتزوج من خير منها ..

وتساءل فى نفسه لماذا يبدو المتشائم الوحيد فى هذه الأسرة ؟ اهى اسرة بلهاء ام هو الأبله ؟ اليس الدور الذى يلعبه الشيطان فى هذه الدنيا اخطر من ادوار الملائكة مجتمعين ؟ بلى ، فلماذا لا يرونه كذلك ! . ولقد ارسل الى حسين كتابا بآخر انباء زواجه فماذا كان جوابه ؟ لم يكد يزيد شيئا عما تقول امه او اخته ! . اماتوا وهم احياء ؟ الم تعد تستهويهم الحياة الرفيعة الشريفة ؟ !

وقطع عليه افكاره جرس الباب الخارجى الذى رن رنينا متواصلا ، ثم صوت الخادم وهى تصيح بحالة مزعجة بعد ان فتحت الباب « سيدى .. ستى » فهرع الى الصالة مستطلعا تتبعه امه واخته فرأى عند باب الشقة المفتوح رجلين غريبين يسندان ثالثا بينهما ، جريحا فيما يبدو من عصابة قذرة تطوق راسه وتنز دما ، وقد مال عنقه الى كتف أحد الرجلين . واقترب حسنين من القادمين مبهوتا منزعجا لا يدرك شيئا ولا يفهم شيئا حتى صار على قيد خطوات منهم وعيناه لا تتحولان عما انحسرت عنه العصابة من وجه الجريح . بشرة شاحبة تشوبها زرقة تثير

من الأعماق ذكرى الموت ، وتعلوها فوضى مخيفة من شعر نابت وآثار التهاب ، ولكن العينين المغمضتين رمشتا فى اعياء فلاحت خلال اهدابهما نظرة واهنة غير غريبة سرعان ما انتقلت حركتها الضعيفة الى ذاكرته وانفجرت بها كالقنبلة . وقبل ان يتحرك لسانه جاء صوت امه من الخلف مؤكدا ما انفجر فى راسه هاتفا فى نبرات يمزقها الخوف والاشفاق :

ـ حسن ... هذا حسن ...

فصاح حسنين مرددا قول امه فى ذهول :

ـ حسن ..

وهنا قال الرجل الذى يسند عنقه بكتفه ويشترك مع الآخر فى حمله :

ـ يجب ان ننيمه فى الحال ..

وتقدم الشاب فى ذهول منهم وانحنى فوق قدمى اخيه وبسط ذراعيه تحت ساقيه ورفعهما فى رفق وساروا معا متعاونين فى حمله الى حجرة نومه ، وانامو‌ه على الفراش الوحيد فى البيت ، ثم أسرع الرجلان بمغادرة الحجرة يتبعهما حسنين على حين هرعت الأم ونفيسة نحو الفراش فى جزع لا يوصف . وفى الصالة اشار الرجل الذى تكلم اول مرة ـ وكان يرتدى جلبابا وطاقية ـ الى الاخر ـ الذى يتزيا بزى الأفندية ـ وقال :

ـ لا مؤاخذة ، هذا سائق التاكسى .

فأدرك حسنين أنه يلمح الى اجرة التاكسى فسار معهما حتى السيارة واعطى الرجل النقود وصرفه مستبقيا الآخر ، ثم ساله فى اضطراب وجزع :

ـ ماذا حدث ؟

فقال الرجل :

ـ سى حسن اخى وصديقى ، ولعلك تعلم انه كان هاربا من وجه البوليس فانتهز بعض أعدائه هذه الفرصة وتربصوا له فى

بعض الأماكن التى يقطعها مستخفيا وانقضوا عليه غدرا وسلبوه ماله ولاذوا بالفرار ، وقد تحامل المسكين على نفســه حتى بلغ مسكنى ورجانى أن أذهب به الى أهله فاخذنا التاكسى الى عطفة نصر الله حيث أخبرنا الجيران انكم انتقلتم الى هذا البيت فجئنا من تونا .

وكان حسنين يصغى الى الرجل فى شبه ذهول ، ومع أن احساسات شتى تعاورت قلبــه الا ان احساس الخوف والقلق غلبها جميعا ، ولما انتهى الرجل من حكايته غمغم الشاب :

ـ شكرا لك يا سيدى على مروءتك ، هلا تفضلت بالبقــاء ساعة حتى يستريح . .

ولكن الرجل رفع يده الى رأسه شاكرا وقال :

ـ انى ذاهب فى الحال ، ولى كلمة قبل الذهاب وهى انه يجب الاسراع الى علاج الجرح الخطير ولكن حذار من استدعاء الاسعاف أو حمله الى القصر والا أدى الأمر الى التحقيق ثم الى البوليس . . !

وحياه الرجل ومضى الى حال سبيله ، فعاد الشاب الى الحجرة كمن يشق سبيله فى ظلمة حالكة والأرض تميد به . ووجد أخاه كما تركه راقدا وكأنه اطمأن الى الجو الجديد فاسـلم الى غيبوبة تامة ، وانكبت عليه المرأتان فى جزع باد ، ولما أحستا بالقادم تطلعتا اليه بنظرة استغاثة. ورنا الى الراقد طويلا ثم تساءل بصوت غريب :

ـ الم يتكلم ؟

فقالت الأم وهى تزدرد ريقها الجاف :

ـ غمغم كلمات لاتغنى شيئا ثم راح فى غيبوبة. أغثنا بدكتور .

ولكن الجريح حرك يده بجهد ، وبدا كأنه يستطيع أن يغـالب غيبوبته عند الضرورة فقــال بصوت باهت ضـعيف تجرد من فحولته المعهودة :

ـ لا دكتور . . الدكتور . . يبلغ . . البوليس .

والقى عليه نظرة متفحصة فرأى العصابة المخضبة بالدم تخفى

راسه وجبهته وجانبا من صفحتي وجهه فلا تبدو الا عيناه المثقلتان بالاعياء والذبول وذقنه النابتة الشعر ، وقد فغر فما تتردد فيه انفاس ثقيلة محشرجة ، على حين تمزق رباط رقبته وجيب الجاكتة وانتثرت خيوط الأزرار ، وراحت يمناه تنقبض وتنبسط ، ويئن بين آونة وأخرى . وقف حسنين حيال هذا المنظر ذاهلا فتناسى مخاوفه وتركز شعوره فى احساس عميق بالألم والاشفاق . نسى برهة كل شيء الا انه حيال اخيه الجريح ، وانه ينبغى انقاذه باى ثمن . ثم جعلت تطفو من اعماقه مشاعر خوف وقلق طالما طاردته فى الأيام الأخيرة فى هيئة نذر تتهدد سمعته ومستقبله ، فانقبض قلبه ، وداخله الم جارح لهذه المشاعر ذاتها من ناحية ، ولتانيب الضمير على احساسه بها فى مثل هذا الموقف من ناحية أخرى . وكانه فزع الى الهرب من باطنه بالكلام فقال مخاطبا الجريح برقة :

ـ دعنى احضر طبيبا . حياتك اهم من اى شيء آخر .

وقالت الأم ونفيسة برجاء معا :

ـ نعم يا حسن ، دعنا نحضر الطبيب .

ولكنه رفع جفنيه الثقيلتين وقال بنبراته المضغوطة المتعبة :

ـ كلا . لا تخافوا . هذه ضربة تافهة . .

ثم حاول ان ياخذ نفسا عميقا واستراح لحظة ، ثم استدرك قائلا مغمض العينين :

ـ غدروا بى . الويل لهم . ان كان لى عمر فالويل لهم . ولكن لا تستدعوا طبيبا . الطبيب يبلغ البوليس . .

فقال حسنين وكان لا يزال فريسة للنزاع الناشب فى باطنه :

ـ لابد من احضار طبيب ، وليس عسيرا ان نقنعه بتكتم الخبر .

وتوسلت اليه الأم قائلة :

ـ ارحمنى يا حسن واقبل هذا . .

فنفخ الرجل مغمغما فى ضجر :

ـ ارحمونى انتم ودعونى فى سلام ... اف .

وجعلت الأم تردد بصرها بينه وبين حسنين ولكن الشاب كان من العناء فى بلوى . برح الخفاء وتبين حقيقة مشاعره ، فليس تألمه لأخيه بشيء يذكر الى جانب الخوف الذى يلقى عليه ظلا ثقيلا من شبحه الجاثم . « قضى علينا ، قلبى لا يكذبنى على الأقل فى الشر ، قضى علينا فى مصر الجديدة كما قضى علينا فى شبرا وسيطاردنا البوليس جميعا كالمجرمين . اكاد ارى بعينى راسى المحموم الضابط وهو يفتش الحجرات ويلقى القبض على المجرم الهارب . هل سدت منافذ الحياة ؟ ! . اتقول انه اخى ؟ اجل انه اخى ، ولكنها حياتى التى تتحطم تحت قدميه فى طريقه الوعرة . اف ، لشد ماضاق صدرى !. ثم سمع أمه وهى تهتف به فى يأس :

ـ اغثنى يا حسنين ! .. الا ترى انه يموت بين ايدينا !

« كلا لن يموت ، اما انا فانى اموت موتا بطيئا قاسيا . ان كرامتى تحتضر . وهبه مات حيث هو الآن فسيأتى طبيب للكشف عليه ثم يلحق به البوليس والنيابه ولن يكون لهم سبيل على الجثة ولكن ستفوح النتانة من البيت فى هيئة فضيحة رائعة ! » ثم حانت منه التفاتة الى امه وكانت تردد بين الراقد وبينه نظرة حائرة زائغة فزعة ، ومع انها كانت مطبقة الفم الا انه سمع لنظرتها تلك صرخة مدوية تمزق نياط القلب . وعجب لنفسه فقد حقد عليها بادىء الأمر ثم خيل اليه ان ذكريات غامضة سريعة تطرق قلبه فى لمح البصر فتخاذل وضعف وعاد يركز بصره فى العصابة الملوثة بالدم ، واسترد قوة تفكيره فخطر له خاطر باهر تمتم على اثره بلا وعى « كيف نسيت هذا ؟ ! » ثم قال مخاطبا امه فى عجلة :

ـ ساحضر طبيبا صديقا من مستشفى الجيش ، انتظرى قليلا فلن أغيب طويلا .

وهرع الى بدلته فلبسها متعجلا وغادر البيت لا يلوى على شيء ...

٨٧

وقف حسنين مستندا الى حافة النافذة يراقب الطبيب وهو مكب على عمله الدقيق وقد غادرت الأم والأخت الحجرة ولبثتا وراء الباب المغلق يكاد يسمع تردد انفاسهما . كان عابسا شديد التأثر ، وتولاه الفزع ، ثم اخذ يهدا رويدا ، ويغيب فى اعماق نفسه . وكان قد اخبر الطبيب لدى مقابلته ان اخاه اصيب بجرح فى راسه عقب معركة مع احد افراد الأسرة ورجاه ان يسعفه مبديا له رغبته الحارة فى تكتم الخبر حتى لا تخدش كرامة الأسرة بفضيحة عامة ! ومضى الطبيب معه فى تحفظ ، ولما اجرى الكشف الابتدائى على راس الجريح قال :

ـ كسر عميق ، الى ما استنزف من دم غزير . لا ادرى ماوجه الحكمة فى عدم ابلاغ البوليس ؟ !

فقال حسنين بتوسل :

ـ فلنتحاش هذا بأى ثمن !

فقال الطبيب وهو يتهيا للعمل :

ـ الظاهر انك لا تدرك خطورة الأمر ! . . وعلى اى فلنؤجل هذا الى حينه !

وتركه طوال العملية الجراحية غير مستقر ولا مطمئن ، بل قضى حديثه الأخير على نوازع عطف كانت تتحرك فى اعماقه . كان فى ذهابه الى المستشفى وعودته بالطبيب مجال حسن هيا له جوا طيبا تنمو فيه احساسات العطف وتزكو فنزعت به الذكريات الى الأيام الخوالى التى كان حسن فيها المرفه الوحيد عن باسائهم ، واليد المبسوطة التى تجود فتحقق لهم الآمال . ولكن سرعان ما استثار القلق الخوف فتحجر قلبه ونضب معين العطف ولم

يعد يرى فى الرجل الجريح الا نذير الشر الذى يتهدد سمعته ومستقبله . ها هو يرقد فى غيبوبة شاملة لا يشعر بالأسلحة الدقيقة التى تعبث بلحمه وعظمه ، وهكذا كانت حياته دائما جرحا عميقا يبتلى سواه بآلامه ، اما هو فلم يفق من غيبوبته قط ، او لم يشأ ان يفيق منها . الم يضرع اليه بالدموع أن يغير حياته ؟ بلى ، وكان جزاؤه السخرية الأليمة ، فلو أنه مات فى ارض بعيدة !

ثم ثبت عينيه على الوجه الذى أخذ يختفى تحت الأربطة فسرت فى جسده رعدة ، وامتلأ يأسا وانقباضا واخيرا سمع الطبيب يخاطبه قائلا :

- انتهيت من الممكن عمله الآن ، هلم معى الى الخارج . .

وانتظر حتى غسل الرجل يديه وارتدى جاكتته ثم سار بين يديه الى حجرة الاستقبال ولم يجلس الرجل وبدا متفكرا ، ثم قال بهدوء غير منتظر :

- لا اظن الحال خطيرة جدا ولكنه سيحتاج الى علاج طويل . يا له من اعتداء وحشى ، لماذا لا تبلغ البوليس ؟

فقال حسنين بجزع وان رده قول الطبيب الى بعض رشاده :

- انى أتفادى من الفضيحة ، ومهما يكن من امر فنحن اسرة واحدة ! . . .

فهز الطبيب راسه فيما يشبه التذمر ثم قال بشىء من الحزم :

- ساعود لرؤيته صباحا فاذا وجدته على ما يرام فيها والا فسأجدنى مضطرا للتبليغ .

وساوره القلق فقال برجاء وكانه يخاطب نفسه :

- ارجو الا يحدث هذا .

ثم خاطب الطبيب قائلا :

- انى أشكر لك ما تجشمت من جهد وتعب .

واتجه الرجل الى الخارج فوصله الى الباب الخارجى وهو يشد

على يده بامتنان ، ولم يشأ الطبيب ان يذهب قبل أن يكرر على مسمعه قائلا فى توكيد :

ـ ساعود صباحا ..

ووقف يتابعه بناظريه وهو يستقل سيارته حتى انطلقت به مزمجرة فى طريقها فتنهد كأنه يزيح ثقلا لا يتزحزح ثم عاد الى الحجرة ينقل خطواته فى كآبة ، وما كاد يلج الباب حتى هرعت اليه أمه وسألته فى لهفة وجزع :

ـ ماذا قال الطبيب ؟

وكره لهفتها وجزعها من اعماق صدره ولكنه لم يجد بدا من ان يقول فى هدوء :

ـ انه مطمئن الى الحالة وسيعود صباحا . كيف حاله الآن ؟

فقالت نفيسة :

ـ لم يفق بعد .

وارتمى على الكرسى الوحيد بالحجرة واغمض عينيه « انا الجريح حقا . انه ينام نوما عميقا فى غيبوبة سعيدة فمن لى بمثل هذه الغيبوبة . لا اظن الحال خطيرة جدا ، هكذا يقول الطبيب الغافل . كلا انها خطيرة جدا ، وابلاله اخطر من موته . اذا ساءت الحال ابلغ الخبر الى البوليس ، واذا تحسنت جثم على صدرى حتى يبلغ اعداؤه البوليس عنه ، فالفضيحة آتية لا ريب فيها .. اين المهرب من هذه الآلام جميعا ؟. انى امقت هذا الجريح وامقت نفسى وامقت الحياة جميعا . اما من حياة غير هذه الحياة ومخلوقات غير هذه المخلوقات ؟ .. » والظاهر ان افكاره انعكست على صفحة وجهه فتقبضت أساريره فى امتعاض وألم ، ولاحت من امه التفاتة اليه فاشتد بها التأثر وقالت له برقة :

ـ هون عليك ، اخوك بخير ، والله حافظه وحافظنا ..

وفتح عينيه فى دهشة ، ورمقها بنظرة غريبة دون أن ينبس بكلمة ...

٨٨

وجاء الطبيب فى صباح اليوم الثانى ثم غادر البيت معلنا اطمئنانه ، وبذلك نجا حسنين من الخطر القريب الداهم ليفرغ لقلق متصل وعذاب بطىء واوهام لا تفارقه ليلا ولا نهارا . وانقضت ايام والأسرة فى هدوء نسبى ، ومضى الرجل الجريح يفيق ويسترد حيويته شيئا فشيئا ، وبعودته الى الحياة ساورته افكار قديمة لم تلبث عدواها ان سرت الى النفوس المحيطة به . وقد ابتسم بادىء الأمر ابتسامة حزينة يشوبها تسليم لم تالفه طبيعته وقال كالمعتذر :

ـ اتعبتكم كثيرا ، والظاهر ان الله لم يخلقنى الا للتعب .. فليسامحنى الله !

والتمعت فيما حوله بسمات المجاملة والتودد فلم ينخدع بها ، او لم ينخدع بها جميعا ، فمالت عيناه نحو حسنين وقال :

ـ لا شك فى انك غاضب ولعلك تود ان تذكرنى بمواعظك السالفة !...

فغمغم الشاب قائلا :

ـ لا أود الا سلامتك ...

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة ، ثم ما عتم أن تجهم وجهه ، وتكالبت عليه الأفكار ، فقال فى لهجة مضطربة غير التى تكلم بها اول الأمر :

ـ سلبونى نقودى ، الويل لهم ، كنت عازما على الهرب ، ولا بد من الهرب .

وتحسس راسه بيده واغمض عينيه ، ثم تمتم وكانه يحادث نفسه :

ـ ماذا فعل الله بسناء ؟ .. هل يكفون عنها ؟ .. لن تستسلم لعدو من أعدائى ، ولكنها لن تستطيع الهرب معى ، فات الوقت وفقدنا نقودنا ...

وانصت حسنين صامتا ، جافلا من ملاقاة هذا الهذيان بغير الصمت ، واختلس من امه وشقيقته نظرة فوجدهما تتبادلان نظرة حائرة ثم عاد حسن يقول فى نبراته المضطربة :

ـ يجب ان اختفى . ان الصديق الذى حملنى الى هنا رجل مخلص ولكنه اجهل من ان يحفظ سرا ، وليس احب اليه من ان يروى قصة مروءته لرفيقته ، فتنقلها هذه لجارتها ، حتى تبلغ أحدا ممن يتربصون بى ، فلا تدرى الا والبوليس يقتحم علينا البيت .

وتنهد حسنين فى ياس ، وحانت منه التفاتة صوب امه فالتقت عيناهما لحظة قصيرة قبل أن تغض بصرها ، وامتلأ حنقا فخاطبها فى سره ... لماذا اتيت بنا الى الدنيا ؟... لماذا اقترفت هذا الجرم الشنيع ؟.. ثم سمع اخاه يهتف بعنف :

ـ يجب أن اختفى . سأغادر البيت حالما اقدر على المشى ، وربما غادرت القطر كله ...

واستروح حسنين نسمة باردة كالأمل لاول مرة مذ جاء الرجل محمولا كالقضاء والقدر . « هل يمكن ان يحدث هذا قبل أن تقع الواقعة !.. هل يختفى حقا فلا تقع عليه عين ولا يعرف له اثر ؟!.. فليتقدم حيث هو ، يجب أن احيا حياة مطمئنة ! »

ثم مر يوم ويوم حتى غدا جو البيت على كآبته معهودا مالوفا ، فلامس حسن الشفاء او كاد واخذ يفكر جديا فى مغادرة البيت ثم فى الهرب من الوطن كله ويرسم لذلك الخطط فى صمت وتفكير متواصل ، ولم تعد نفيسة تلزم نفسها القبوع فى البيت فعادت الى زياراتها التى لم تكن تنقطع يوما : وكذلك عاود حسنين حياته العادية ما بين عمله وبيته والنادى ولكن راسه لم يتوقف عن

التفكير فى اخيه والخطر الذى يتهدد سمعتهم بسبب اقامته بينهم ـ وقد دار حديث بينه وبين امه مرة حول هذه النقطة الحساسة فقال لها بعد اشفاق وتردد :

ـ اذا كان البوليس لم يهتـــد الى محل اقامته حتى الآن فبمعجزة من الله لا يمكن أن تستمر طويلا ...

ونظرت اليه المراة نظرة غريبة احتار فى تفسيرها بادىء الأمر ، أهى عتاب صامت ، أم تسليم بالقضاء من العجز عن ملاقاته ، أم استنكار يداريه الخوف من الافصاح ، كل اولئك بدا راجحا حينا لولا ان برح الخفاء فهتكته دمعة ترقرقت فى محجريها فى بطء كالحياء وفى تردد هو العذاب ، هنالك ملأه الانزعاج لأنه لم يكد يذكر ان راى امه باكية على كثرة المحن والملمات ، وتراجع فيما يشبه الفرار وصور من حزمها وعزمها تنثال على مخيلته فى دهشة والم ، فكأنه يشهد احتضار أسد هصور . على انه حين خلا الى نفسه تناسى آلام الآخرين وانفرد بآلامه هو ومخاوفه ، فاشتد به الاستياء والحنق ، ولعن نفسه وامه معا ...

وفى عصر اليوم التالى مباشرة ارادت هـذه المخاوف أن تخطو خطوة جديدة . كان يجلس وامه واخوه على الفراش يتجاذبون الحديث ، وكانت نفيســة فى الخارج . ورن جـرس الباب فجأة فذهبت الخادم لتفتح ، ثم عادت فى ارتباك ظاهر وقالت للشاب :

ـ سيدى ، عسكرى بوليس يرغب فى مقابلتك ...

٨٩

تناثرت نفوسهم كالشظايا ، فوثب حسنين قائما وهو يحدق فى وجه الخادم ، ورمى حسن بقدمه من على الفراش الى ارض الحجرة وهو ينظر الى النافذة فى عبوس متمتما « الهرب ! » ، على حين رددت الأم بينهما عينين زائغتين وكان حلقها من الجفاف بحيث لم يسمح لكلمة بالخروج . وجمد حسنين فى مكانه فى دقيقة ، ثم استسخف جموده فهز منكبيه فى يأس وغادر الحجرة الى الباب الخارجى حيث يوجد الشرطى واقفا وتبادلا تحية آلية ثم سأله الشاب فى استسلام :

ـ افندم ؟ !

فقال الرجل بصوت اجش :

ـ هل حضرتك الضابط حسنين كامل على ؟

ـ نعم . . .

ـ حضرة ضابط نقطة السكاكينى يرغب فى مقابلتك فى الحال . .

ونظر حسنين فيما وراء الرجل حتى الطريق فلم ير غيره ممن كان يتوقع رؤيتهم ، وداخله شىء من الطمأنينة ، ولكنه تساءل فى حيرة :

ـ ماذا يريد حضرته ؟

ـ امرنى أن أبلغك رغبته دون أن يزيد . . .

وتردد الشاب قليلا ثم استطرد ريثما يرتدى ملابسه وعاد الى الحجرة ، ووجد اخاه وراء بابها يتصنت فما ان رآه حتى سأله فى لهفة « هل جاءوا ؟ » ، وكررت الأم السؤال فى صوت مريض ، فأعاد على مسمعيها ما دار بينه وبين الشرطى وهو يرتدى ملابسه ، وما كاد ينتهى حتى قال حسن :

ـ لعل الضابط من معارفك فاراد ان ينبهك قبل ان يكبس البيت . هذا واضح . اصغ الى ، اذا سالك عنى فقل له انك لم ترنى منذ اعوام . لا تتردد ولا تخش عاقبة الكذب فلن يقفوا لى على اثر . ساختفى عقب ذهابك مباشرة فقلها ولا تخف وربنا معكم . . .

فتساءل حسنين وهو يخفى عنه عينيه حتى لا يقرأ فيهما ما تنفس فى اعماقه من أمل جديد :

ـ وهل لديك من القوة ما يعينك على الهرب ؟

فقال حسن وهو يجذب بدلته من على المشجب :

ـ انى على خير عافية . . . مع سلامة الله .

وغادر حسنين الشقة ومضى فى صحبة الشرطى ، وكان اول ما بدا له ان يساله عن اسم الضابط لعله يكون حقا من معارفه ولكن الشرطى ذكر له اسما غريبا لم يسمع به من قبل فعاودته الحيرة . وبدا له الأمر شديد التعقيد . بيد أن عزم حسن على الاختفاء بث فى نفسه طمانينة لا حد لها . وبلغا نقطة البوليس قبل المغرب بقليل ، وقاده الشرطى الى حجرة الضابط ثم ادى التحية قائلا :

ـ حضرة الملازم حسنين كامل على .

كان الضابط جالسا الى مكتبه ، وعلى بعد ذراع من المكتب وقف رجلان وامراة من اهل البلد تلوح فى وجوههم آثار معركة حديثة العهد ، ولكن الرجل نهض لاستقبال حسنين ومد له يده وهو يقول « اهلا وسهلا » ثم امر الشرطى باخلاء الحجرة واغلاق الباب . وطلب الى الشاب ان يجلس على كرسى امام المكتب فجلس وهو يقول لنفسه « ترى ما معنى هذا كله ؟ .. ترحاب ومجاملة ثم ماذا ؟ ! » . . .

وخرج الضابط من مجلسه ووقف فى مواجهته مستندا بيمناه الى حافة المكتب ، وجعل يتفحصه بنظرة غريبة تلوح فيها حيرة

من لا يدرى كيف يبدا حديثه أو من يجد فى ذلك قدرا من الصعوبة لا يخفى . وشعر بفترة السكوت على قصرها غليظة لا تحتمل ، واشتد به احساس كريه استحوذ عليه منذ اللحظة التى وطات قدماه فيها ارض نقطة البوليس ، احساس بالرهبة والقلق والضيق « ضابط مهذب يتحرج من القاء التهمة فى وجهى، هذا غريب فى ذاته ، تكلم وارحنى فطالما تراءى لخيالى كابوس هذه اللحظة . انى اعلم سلفا ما تريد قوله . تكلم ... »

ونفد صبره فقال :

ــ دعانى الشرطى لمقابلة حضرتك ؟

فقال الضابط :

ــ انى آسف لازعاجك . كنت اود ان القاك فى ظرف خير من هذا ، ولكنك ادرى بما يتطلبه الواجب احيانا .

وزفر حسنين آخر نسمة من امل ضعيف فى السلامة وقال فى وجوم :

ــ انى اشكر لك كرم اخلاقك . وها انا مصغ اليك . .

فقال الضابط باهتمام ورقة معا :

ــ أرجو أن تتلقى ما ساقول بشجاعة ، وان تسلك سلوكا جديرا بضابط يقدس القانون ...

فقال الشاب وهو يعانى ما يشبه الهزال والخور :

ــ هذا طبيعى جدا .

فعض الضابط على اسنانه كما بدا من تقبض صدغيه ثم قال باغتصاب :

ــ الأمر يتعلق باختك ...

ورفع حسنين حاجبيه فى استنكار ثم قال :

ــ تعنى اخى ؟

ــ الست اختك ، ولكن معذرة أحب أن أسالك اولا هل لك أخت تدعى نفيسة ؟

فقال حسنين فى ذهول :

ـ نعم ، هل وقع لها حادث ؟

فغض الرجل طرفه وهو يقول :

ـ يؤسفنى ان اخبرك بانها ضبطت فى بيت بالسكاكينى ..

وفزع حسنين واقفا ، متصلب الجسم ، مصفر الوجه ، محملقا فى وجه محدثه ، وهو يلهث قائلا :

ـ ماذا تقول ؟

فربت الرجل على كتفه متاثرا وقال :

ـ ادع كل قوة فى نفسك كى تضبط اعصابك . الموقف يستلزم الحكمة لا الغضب . ارجو ان تساعدنى على القيام بواجبى ولا تجعلنى اندم على ما اتخذت من اجراءات راعيت فيها المحافظة على كرامتك قبل كل شىء .

انصت اليه وهو لا يزال يحملق فى وجهه ، تمتلىء عيناه بوجهه تارة فلا يرى سواه ، ويغيب عنهما اخرى فيسمع الصوت ولا يرى شيئا ، وثالثة لا يرى الا شفتين تنطبقان وتنفرجان فينثال من بينهما كلام هو الفزع واليأس والغرابة ، وبين هذا وذاك ترمش عيناه فى حركة عصبية فتلتقطان منظرا غريبا هنا وهناك ، بندقية مثبتة فى جدار أو صفا من البنادق أو محبرة ، وربما امتلأ أنفه برائحة دخان محبوس أو رائحة جلود غريبة ، ثم ينحل وعيه ويتراجع فجأة الى ذكرى بعيدة لا صلة لها بالحاضر فيلوح لذاكرته منظر عطفة نصر الله وهو صبى يلاعب حسين البلى « ضبطت فى بيت ! اى بيت !؟. ان احدنا فاقد العقل ولا شك ولكن من هو ؟ . ينبغى ان اتحقق من انى عاقل أولا ... » وتنهد فى وهن ، ثم ساله فى استسلام :

ـ ماذا تقول يا سيدى ؟

ـ يوجد فى هذا الحى بيت تستاجره ست رومية وتؤجر حجراته بالساعة للعشاق . كبسنا البيت عصر اليوم فوجدنا

الست . . . وجندها مع شاب ، واعتقلناها طبعا وشرعت فى اتخاذ الاجراءات القاسية التى تعرفها فاضطرت تحت تاثير الخوف ان تعترف لى بانها شقيقة ضابط على امل ان اطلق سراحها . .

ـ اختى انا ؟ . . انت متاكد ؟ . . دعنى اراها . .

ـ اضبط نفسك ، ارجوك ، لو كنت متاكدا من انها اختك لاطلقت سراحها . ولكنى خفت ان يكون اعترافها خـدعة ، قد عرضت المسالة على المامور فوافق على وقف الاجراءات على شرط التاكد من صدق قولها . . .

ومن عجب انه لم يعد يداخله ادنى شك فى حقيقة الواقعة فسرعان ما آمن بها قلبه المتشائم ، ووجد فى فظاعتها ترجيعا لأصداء خوف قديم طالما ناوش قلبه وعذبه . اجل لم تخلق هذه الواقعة الا لحظه ولأسرته ، انه يعلم هذا علما لا يتطرق اليه الشك. اهذه هى نهاية المطاف ؟! ثم غلبه ذهول شـعر معه بانه أثر من آثار ماض منطو انقطعت صلته بالحاضر فضلا عن المستقبل ، كان ، هذا هو ، ولكنه لا يكون ولن يكون . ثم انبعثت منه لهفة على النهاية فقال بصوت ميت :

ـ اين هى ؟.. دعنى اراها من فضلك . . .

فأشار الضابط الى باب مغلق وقال :

ـ تركناها فى هذه الحجرة لانه اغمى عليها حين علمت بانى ارسلت فى طلبك بدل أن أطلق سراحها . اسلك سلوك رجل يحترم القانون واذكر انى مسئول عن الأرواح . انك رجل محترم ومهذب فعالج الأمر بالحكمة . لا يصح ان يعلم احد ممن فى النقطة شيئا ولكن هذا يتوقف على سلوكك انت ، تذكر هذا جيدا . . .

فكرر قوله بنفس الصوت الميت :

ـ دعنى اراها من فضلك . . .

ومضى الضابط الى الباب المغلق متثاقلا وفتحه ، واقترب حسنين منه كمن يمشى فى حلم ، والقى بنظرة من فوق كتفه كمن

ينظر ليتعرف على جثة فى المشرحة ، فراى لصق الجدار المواجه للباب اريكة ارتمت عليها فتاة قد القت براسها الى الحائط ، عيناها نصف مفتوحتين ولكنهما مظلمتان لا تريان شيئا ميتة او مغمى عليها او لعلها فى ذهول الافاقة الأول ، وقد التصقت بجبهتها شعيرات مبتلة وعلت بشرتها صفرة الموت . لكنها نفيسة دون غيرها . « قلبى لا يكذبنى فى المصائب ابدا لو كانت ميتة لادعيت انى لا اعرفها بلا تردد » ولم تبد حراكا كانها لم تحس للقادمين وجودا ، او أنها لم تستطع ان تبدى حراكا . ونظر الضابط صوبه متسائلا ولكن عينيه لم تتحولا عنها ، جمد بصره وتحجر وغشيه ذهول وجد فيه مهربا مؤقتا مما كان ومما سيكون وخيم عليهم سكون الموت ، وانقضت فترة طويلة او قصيرة — ثم شق الصمت صوت باطنى يصرخ فى اذنه « انتهى ... » ، وتخايلت لعينيه صورة امه كما رآها منذ ساعة واقفة بينه وبين حسن فى حيرة يائسة والرجل يتوثب للفرار . ود فى تلك اللحظة لو يقتحم تجارب الكفر والقسوة والموت . « ماذا ينتظر الضابط ان افعل ؟ . . ماذا ينبغى ان افعل ؟ رباه كيف اغادر هذا المكان ؟ ! » ... ثم سمع الرجل يقول :

— لقد قدمت ما عندى من واجب نحوك فهات ما عندك من حكمة ....

فسأله بدوره وهو يتحامى عينيه :

— اين الآخر ؟ !

وادرك الضابط ما يعنيه فقال بلهجة لا تخلو من حزم :

— طبقت عليه الاجراءات واطلق سراحه ...

فغمغم قائلا :

— لنترك هذا المكان شاكرين ...

٩٠

فى الخارج لفحه هواء بارد وكان الظلام قد خيم فابتعد عن نقطة البوليس فى خطوات ثقيلة تتبعه هى على بعد ذراع منكسة الوجه . سارا مع قضبان الترام ولم يكن يدرى اين ينتهى به المسير لأنه لم يسبق له المجيء لهذا الحى ، ومع ان الليل كان فى أوله الا ان الطريق بدا مقفرا ، وتساءل فى نفسه ترى اين ينتهى الطريق ؟ . . ثم بدا له تساؤله آية فى الغرابة ، فلم يكن المهم ان يعرف اين ينتهى الطريق ولكن الجدير بالمعرفة حقا ان يعلم ما هو صانع « بها » . كان يحسب انه سيبدأ بالتنفيذ توا بعد خروجه من النقطة ، وكانت هى تتوقع هذا ، ولكن اقدامهما تقدمت بهما دون ان يفعل شيئا ، وكان يشعر بوجودها وراءه فى ضيق لا يحتمل ، ويسمع وقع قدميها كالرصاص فى ظهره ، ويمحو أول فأول اية رغبة فى ان ينظر الى الخلف ، ومع انه بدا فى صمته ـ ذلك الصمت الهائل الذى وقف حائلا بينهما ـ وكانه يفكر تفكيرا متواصلا الا انه فى الحقيقة كان فارغ الراس . كان فارغ الراس بحال مزعجة ، لم يردها ارادة ، ولكنها فرضت عليه قسرا وبثت فى نفسه احساسا بالقلق ، احساس من يتلهف على السيطرة على ارادته سيطرة غاشمة فلا يجد الى ذلك سبيلا . واصطدمت قدمه بحجر صغير اعترض سبيله فانطلقت فى صدره شرارة حنق ، وكانها جذبت اليها أفكاره الهاربة فى الظلام ، وسرعان ما وجد نفسه يتساءل فى صمت ايخنقها ؟ . . ايحطم راسها بحذائه ؟ . . لا بد لصدره من متنفس . وظل الصمت الجهنمى سائدا . وبينما كان يجمع عزمه لزحزحة هذا الصمت تطوعت هى ـ وهو

ما عجب له ـ لزحزحتـه . فسمعها تغمغم فى نبرات مرتعشـة متهدجة قائلة :

ـ لقد اجرمت . انى اعلم هذا .. ولن اسالك غفرانا لست جديرة به .

هل حقا واتتها قواها على الكلام !.. يا للشيطان !.. واحدث صوتها ـ على ضعفه ـ زوبعة من الهياج فى صدره ، زوبعة عمياء طاغية صبت الغضب فى اطرافه صبا فتوقف عن السير والتفت نحوها فى سرعة غريبة وارتفع ذراعه فى الهواء وهوى على وجهها كالقذيفة فتراجعت مترنحة دون ان تنبس ثم سقطت على ظهرها واصطدم مؤخر راسها بالأرض . لم تنبس بكلمة ولا ند عنها اى صوت ، ولكنها جلست على الأرض بسرعة ثم لمت نفسها ووقفت واخذت فى التراجع حتى ارتكنت الى جدار بيت . واقترب منها فتراءى لعينيها تصميمه رغم الظلمة التى تظل وجهه فلوحت له بيدها كانها تساله ان يقف ثم اندفعت قائلة فى عجلة وتوسل :

ـ قف ، لا تفعـل ، لست اخاف على نفسى ولكنى اخاف عليك ، لا اريد ان يمسك سوء بسببى ..

وزادته رقة كلامها هياجا على هياج فصاح بها بصوت كالخوار :

ـ لا تريدين ان يمسنى السوء بسببك ؟ ! .. يا عاهرة لقد صببت السوء على صبا ...

فاعادت بتوسل حار :

ـ ولكنى لا اطيق ان يسيئوا اليك ولو كان السبب هلاكى ..

ـ هذا مكر حقير لن ينفعك فى انقاذ حياتك الحقيرة ، هيهات ، لن ينالنى سوء بقتلك ..

فهتفت فى حرارة :

ـ لا ينبغى ان يمسك عقـاب وان هان ، ثم بماذا تجيب اذا سئلت عما دفعك الى قتلى ؟ !. دعنى اقم انا بهذه المهمة فلا يكدرك مكدر ولا يدرى احد ..

فتساءل فيما يشبه الذهول :

ـ تقتلين نفسك ؟ !

فقالت وهى تلهث :

ـ نعم . . .

شعر فجاة ـ وقبل ان يتمالك نفسه ـ بأن حملا ثقيلا تزحزح عن عاتقه وهوى بعيدا . كان مدفوعا بغضب مستعر واحساس معذب بالواجب ولكن العواقب ـ كذيوع الفضيحة والعقاب ـ ما فتئت تتخايل لعينيه ، فالآن بعد هذا الحكم الذى قضت به على نفسها يسعه أن يسترد انفاسه وان يستبين بصيصا من النور فى هذه الظلمة الخانقة . وغمغم متسائلا وهو لا يزال مستغرقا فى أفكاره :

ـ كيف ؟

فقالت وهى تزدرد ريقها :

ـ بأى وسيلة كانت .

فتفكر قليلا متجهم الوجه ثم قال وهو يرمقها بقسوة :

ـ النيل . . .

فقالت بهدوء :

ـ ليكن . .

فنفخ حنقا وضيقا ثم تراجع فى تثاقل وهو يغمغم « هلمى » فغادرت الجدار وتقدمت فى خطو ثقيل ، ثم دار حول نفسه وواصل السير فتبعته كما كانا . احس هذه المرة شيئا من الطمأنينة ولكن غضبه فقد عنصرا كأنه كان يعتز به وهو لا يدرى ، فقد شعورا بالكرامة كان يلازمه وهو مصمم على قتلها بنفسه ، فاستحال من شخص يندفع وراء الكرامة الى آخر ينشد السلامة . وغص حينا بقهر خانق ، ولكنه لم يكن من القوة بحيث يعدل به عما تراءى له من سبيل النجاة ، ولم يكن من الضعف بحيث يتركه فى سلام ، ونفس عن صدره قائلا فى خشونة :

ـ كيف فعلت هذا ؟ !.. انت ؟ ! . . من كان يتصور هذا !

فتنهدت قائلة فى استسلام اليأس :

ـ امر ربنا . .

فصاح مزمجرا :

ـ بل امر الشيطان .

فقالت بنفس الصوت المتنهد :

ـ نعم . . .

فتردد لحظة ثم تساءل :

ـ من هو ؟

فسرت فى جسدها رعدة وقالت بذل :

ـ لا تعذب نفسك ولا تعذبنى ، سينتهى كل شىء فى لحظات .

ـ اكان يعرفنى ؟

فقالت بعجلة وتوكيد :

ـ كلا . .

فتردد مرة اخرى وقد تضاعف عذابه ثم تساءل :

ـ أول مرة ؟ !

فعاودتها الرعدة بيد أنها قالت بتوكيد أيضا :

ـ نعم . .

فضرب الأرض بقدمه وصاح بها :

ـ كيف استسلمت للغواية ؟

فغمغمت فى عذاب صامت :

ـ امر الشيطان .

ـ انت الشيطان . . لقد قضيت علينا . .

فهتفت فى رجاء :

ـ كلا . . كلا . . سينتهى كل شىء الآن ولن يدرى أحد . .

ـ اتعنين ما تقولين ؟

ـ طبعا . .

- واذا ساورك خوف !

- كلا ، ان ما ورائى فى الحياة أفظع من الموت ..

- وعادا الى الصمت وكلاهما يشعر بجهد ونصب ، ومضى يمد البصر مع قضبان الترام فى حيرة ، ثم سالها بلهجة ساخرة :

- الى اين نحن ذاهبان ، فلعلك ادرى بهذا الحى منى ؟

ولم تجب ، ولكن تقبضت اساريرها من الألم . ثم لاح لهما ميدان الظاهر فتراءت لعينيهما آثار الحياة والعمران وترامت لأذنيهما اصوات الأحياء ، وجعل ينظر فى قلق حتى ثبتت عيناه على صف من التاكسيات فمضى الى مقدمها وفتح لها الباب فدخلت ثم دخل وراءها . وفكر قليلا والسائق ينتظر اوامره ، ثم قال له بصوت منخفض :

- جسر الزمالك من فضلك ..

٩١

انطلقت السيارة بسرعة الى شارع فاروق فى طريقها الى العتبة ثم الى امبابة .

كانا يجلسان كغريبين ، اما هو فقد القى ببصره الى الطريق خلال النافذة موليا اياها نصف ظهره واما هى فقد خفضت راسها وغابت فى ذهول عميق . لم يكن فى راسها شىء ، او شىء ذو بال ، كأنه السكون الذى يعقب عاصفة هوجاء ، او جمود الموت بعد نزع اليم . وقد بلغ بها الهياج ذروة الجنون قبل ان تسقط مغمى عليها وبعودتها الى الوعى تكالبت عليها الأفكار المفزعة ، واستعرضت عيناها شريط حياتها فى رعب جهنمى حتى اثقلت الهموم راسها فانحنى على صدرها كما ينحنى راس من سدت فى وجهه منافذ الحياة تحت جدار منهار . وبعد ما كان من

الانهيـــار الكامل وظهور حسنين وما كان بينهمـــا فى الطـريق ، شعرت بأن كل شيء قد انتهى ، واخلى الهول مكانه من راســها ، تاركا وراءه فراغا صامتا ، فلم يعد به شيء ، او شيء ذو بال الا ان تكون ذكرى بعيدة من ذكريات الصـبا او منظر مما ينعكس على عينيها من ارض الســيارة . بيد انها كانت تكابد تجربة جديدة لا عهد لهـا بهـا من قبل ، اذ هانت عليهـا الحياة حقا ، بالفعل لا بالقول ، هانت الهوان الذى يجعل من الموت نجـاة . اجل طالما تذمرت فيما مضى من حياتها وسخطت ، حتى تمنت الموت احيانا ، ولكنها لم تسع اليه مع ذلك لأنه كان ثمة امل فى الحياة يدب متواريا فى اعماقها ، الآن تقطعت بها عن الدنيا الأسباب ، واقتلعت الجذور التى تشـدها للبقاء ، ووجدت مع هـذا اليأس العميق راحــة زحزحت عن كاهلهـا الأعباء ، فلم تعـد تفكر فى شيء ذى بال ، ورمقت الموت الذى تنهب الأرض اليه باستسلام كأنه التخدير . وقد دارت السيارة حول منعطف وهى منطلقة فى سرعتها فارتجت الفتاة فى مجلسها وتنبهت الى ما حولها فيما يشبه الفزع ، ومع أنها ظلت منكسة الرأس الا انها احست بوجوده الى جانبها وتراءى شبحه الجاثم عن يمينها للحظها فى غموض فتقبض قلبها ألما وخزيا « ترى فيم يفكر ؟ .. الا يجد غير البغض والغضب ؟ متى يمسى كل شيء وقد انقضى ؟ .. هذه هى النهاية الوحيدة . ترى هل تحدس أمى الحقيقة ؟ .. لا داعى للتفكير . انى ميتة » .

ولبث حسنين مضطربا متوتر الأعصاب يتجـاذبه الغضــب واليـأس والرهبة . « كيف تنتهى هذه المحنة ؟ ، وكيف اخرج منها ؟ .. ايمكن حقا ان يسدل عليها الستار دون ان تفـوح منها رائحة حرية بأن تجعل من هذا العناء كله عبثا لا طائل تحتــه ؟ انى اختنق . ان الماضى لا ينمحى ولكنه يسابق مستقبلى . لماذا لا نعيش بلا مبالاة ؟ . قضى الأمر ولا داعى للتفكير فى هذا . لاداعى للتفكير مطلقا . ما اشـد عذابى ، كيف اتغلب على هذه التعاسة

كلها ! . مهلا ، انى اسوقها الى الموت ، وهى تعلم انها تساق الى الموت ، ترى هل تواتيها القدرة ؟ . لا شك انها تفكر الآن تفكيرا متواصلا ، ولكن فيم تفكر ؟ . لا ينبغى ان افكر فيها . الموت خير نهاية لها . لا يمكن ان تلتقى عينانا فهو فوق ما احتمل وفوق ما تحتمل هى . الامر يتعلق باختك ، آه قاتل الله هذا الضابط ، يؤسفنى ان اخبرك انها ضبطت فى بيت بالسكاكينى ، من يتصور هذا ! . وليس الموت بنهاية ولكنه بداية لتعاسة اخرى تنتظرنى فى البيت . حتى متى اواصل هذا التفكير ؟ اية مدخنة هذه ؟ لعله مصنع ، نحن نقترب من جسر ابى العلاء ، هذه المدخنة تنفث دخانا اسود كثيفا ، لو تحترق افكارى وتذوب فى انفاسى لزفرت اقذر منه . لا اريد ان يمسك سوء بسببى ، صدقت ، يجب ان تهلكى وحدك . متى يطوى الطريق ! » .

وعبرت السيارة جسر ابى العلاء فاندفعت الى داخلها موجات غامرة من هواء بارد رطب مشبع باريج النيل فاستقبله الشاب بترحاب من يصلى نارا حامية على حين سرت فى اطرافها رعدة بثت فى حناياها خوفا غامضا ، ودام لحظات ثم ارتدت بعده لحالها الأولى من الاستسلام والجمود واليأس . وضاعفت السيارة من سرعتها حتى شارفت جسر امبابة فخففت قوة اندفاعها رويدا ، ثم التفت السائق نحو حسنين متسائلا فقال له هذا بصوت منخفض « قف » ، ودفع له حسابه وغادر السيارة فغادرتها ايضا من الباب الآخر ، وما لبث التاكسى ان عاد من حيث اتى فوجدا نفسيهما وحيدين على كثب من مدخل الجسر . وكانت المصابيح القامة على جانبى الجسر تشع نورا قويا احال ظلمته نورا ، بينا اطبق الظلام على ضفاف النيل بطول امتداده شمالا وجنوبا ـ رغم المصابيح المتباعدة الخافتة ـ فبدت الاشجار المتراصة على جانبيه كاشباح عمالقة ، وكان المكان مقفرا الا من مار مسرع هنا او هناك وقد تناوحت الغصون بانين ريح باردة

كلما كف هبوبها تعالى هسيس النبات كالهمس . لازما موقفهما فى جمود كالذهول ، ثم استرق اليها نظرة فرآها مقوسة الظهر قليلا منكسة الراس غير ان منظرها لم يلق من صدره الا قلبا متحجرا ونفس خنق الهم فيها كل رحمة . وثار حنقه على جموده فجاة فقال بغلظة :

ـ انت مستعدة ؟

فغمغمت بصوت غريب لا عهد له به :

ـ نعم .

ونفذ الجواب على بساطته الى اعماقه فلم يعد يطيق موقفه ، وتزحزح عنه فى خطو ثقيل ، وقبل ان يبتعد عنها ذراعين سمعها تقول بتوسل :

ـ لا تذكر اساءتى . .

فند عنه صوت غليظ وهو يوسع خطاه كالهارب قائلا :

ـ فليرحمنا الله جميعا . .

تركها وحدها حيال الجسر ، وهدف الى الطوار الممتد الى يمين الجسر على شاطىء النيل ، ثم جد فى المسير . حدثته نفسه بالهرب ولكن قوة غشوم جعلت تجذبه الى الوراء ، وخارت مقاومته عند شجرة صفصاف ضخمة الجذع على بعد ثلاثين مترا من مبدا الطوار فتوارى وراءها فى اعياء وارسل الطرف نحو الجسر . ولاح له الجسر كتلة صماء متوهجة بانوار المصابيح تمسك من طرفيها بالشاطئين فى عناد وتصميم كانه وحش يغرز انيابه فى فريسته ، وعند راس الجسر ، وعلى الجانب المواجه له ، رآها تتحرك فى خطو ثقيل خافضة الراس ، يعلوها جمود غريب كانها تمشى فى ثبات . رآها فى وضوح تام تحت الاضواء المشرقة فثبتت عيناه على جانب وجهها المنعكس وهى تقطع الارض قدما قدما حتى بلغت المنتصف فتوقفت عن السير ، ورفعت راسها ، واجالته فيما حولها ، ثم استدارت نحو السور والقت ببصرها

الى الماء المصطخب الجارى . وجعل يكتم انفاسه ويزدرد فى تشنج ريقه الجاف وهو يترقب ، ولكن ظهر فى تلك اللحظة عند الطرف الآخر من الجسر رجلان ومضيا يقطعان الجسر فى سرعة وهما يتحدثان ، ثم لاح الترام القادم من امبابة وهو ينعطف نحو الجسر ممزقا الصمت بعجيجه ، فاسترد الشاب انفاسه ولكن الى حين قليل ، وسرعان ما ركبه القلق والضيق . وكان قلبه يخفق بعنف حتى خيل اليه من شدة وقع النبض فى اذنيه ان العالم الخارجى يسمع دقات قلبه . ثم مرت به لحظات فتوهم انه يشهد منظرا غريبا عنه لا شأن له به ، ولكنها كانت لحظات ثم انقضت وغلبته الرهبة على ما فى نفسه جميعا فلم يعد يستشعر حقدا ولا غضبا ، ثم اعتركت الأفكار فى راسه فى ثوران فشعر فى حيرته بانه يروم حل مسألة معقدة غامضة ، ولكن لا قدرة له على حلها او ليس لديه فسحة من الوقت للتفكير فيها ، فهو منها فى حيرة اى حيرة . وفى اثناء ذلك كان الرجلان قد عبرا الجسر ، وسبقهما الترام الى الطريق ، وما زالت الفتاة تحملق فى الماء . ونظر هنا وهناك فلم ير اثرا لانسان . وتجمعت نفسه فى لحظة ترقب مليئة بالفزع والرعب . رآها تعطف راسها يمينا ثم شمالا . وبغتة ، وفى حركة سريعة يائسة تسورت السور . وزلزل قلبه وهو يتابع حركاتها وجحظت عيناه ، لا يمكن ... ليس هذا ... اما هى فالقت بنفسها ، او تركت نفسها تهوى ، وقد انطلقت من حنجرتها صرخة طويلة كالعواء تمثل لعينى المبتلى بسماعها وجه الموت ، فجاوبها بصرخة فزع ولكنها ضاعت فى صرختها . شعر وهى ترمى بنفسها ان بوسعه ان يجد للمسالة المعقدة التى تحيره حلا ، ولم يكن الحل فيما فعلت بنفسها ، كان يمكن ان تكون نهاية اخرى ، وكأنما حاول أن يستدرك الخطا بصرخته ولكنها ضاعت ، ثم صك مسمعيه اصطدامها بالماء فندت عنه صرخة اخرى ..

٩٢

وثب الى منحدر الشاطىء وعينـاه تحملقان فى المكان الذى ابتلعها تحت الجسر ، ثم جمد فى موقفه لا يدرى ماذا يفعل او لا يدرك ماذا يريد ، وظل على جموده يكاد محجراه ان يلفظا عينيه من شدة الحملقة . وتوقع مرات ان تطفو على ظهر الماء ثم ادرك ان النيل المندفع الى ما تحت الجسر لا بد ان يكون قد جرفها معه ، فلعلها تتخبط فى جوف الجسر او تغوص فيما يليـه من النهر . ومر بخاطره ان ينزع سترته ويقذف بنفسه وراءها لعله ينتشلها ولكنه لم يحرك ساكنا ، ووجد لهـذه الخاطرة ما يشبه السخرية المريرة فازداد جمودا وشعر بأنه لم يعد لعقله من سيطرة عليه . وما يدرى الا وصوت من وراء يسأله باهتمام محسوس :

ـ أسمعت صرخة ؟

فالتفت الى الوراء فراى شرطيـا تنم حركاته على الاهتمام فقال له فى ذهول :

ـ نعم ، لعله غريق ...

وجعل الجندى يحدق فى الظـلام فوق النهر ثم حث خطـاه نحو الجسر . واعاده الجندى الى شيء من وعيه فتراجع الى موقفه الأول ولم يعد فى طاقته ان يضبط نفسه فاندفع عدوا صـوب الجسر ثم عبره الى سـوره المطل على الناحية الأخرى من النهر والقى ببصره الى التيار المتدفق . وما لبث ان راى آثار للحادثة لا تخطئها العين ، راى قاربا يشق الماء فى سرعة قادما من الشاطىء الأيسر نحو وسط النهر ، وسمع اصوات استغاثة وصراخا آتية من الشاطىء البعيد . وكان سطح النهر فيما يلى الجسر مضاء بما ينعكس عليه من انوار المصـابيح فتصفحته عينـاه هنا وهناك ،

ولكنه لم يعثر على ضالته . ثم تبعت عيناه القارب الذى اخذ يقترب من الوسط شاقا سبيله فى الرقعة المضاءة ، ثم اندفع مع التيار حتى خرج عنها الى الظلام . ووجد نفسه يتساءل « ترى هل يفوز القارب فى سباق الموت هذا ؟ » . ولم يستبن حقيقة مشاعره ، او لعله هرب من باطنه بتركيز حواسه فى القارب فتابعه حتى رآه يتوقف عن التجديف ثم راى شخصا يقفز منه الى الماء ، على حين تعالت اصوات الباقين بالقارب . هذه هى اللحظة الفاصلة ، وتتابع خفقان قلبه حتى جف حلقه ، وحاول عبثا ان يرى شيئا خلال الظلمة التى لفت القارب او ان يميز كلمة معبرة فى هدير الأصوات المختلفة ، ثم كل منه البصر فلم يعد يرى شيئا وكأنه عمى . واخذ يتنبه - دون التفات - الى تجمهر خلق كثيرين حوله ، ثم سمع احدهم يقول :

- القارب يعود الى الشاطىء فلعله انتشل الغريق . .

وتمشت فى أوصاله رجفة وتساءل « ترى انجت أم هلكت ؟ . . اذهب أم أفر ؟ ! » ولكنه تحول عن موقفه وسار فى اتجاه الشاطىء الذى يقصده القارب مدفوعا برغبة لا تقاوم فى تعذيب نفسه الى اقصى حد ، ولم يعد السير ليسعف جزعه فاطلق ساقيه للريح وعيناه تسبقانه الى بقعة من الشاطىء تجمهر عندها كثيرون . وبلغها والقارب يرسو الى الشاطىء فدنا من المتجمهرين بساقين متخاذلتين واندس بينهم واطرافه ترتجف على رغمه ثم القى بعينين متحجرتين الى القارب الذى اكتنفه ستار خفيف من الظلمة . وكان يقف غير بعيد منه ضابط النقطة المواجهة للشاطىء ونفر من الشرطة . ثم بدت اشباح الرجال وهى تنتقل من القارب الى الشاطىء حاملة بينها الغريق فصاح بعض المتجمهرين :

- هل نجا من الغرق ؟

وارهف السمع ليتلقى الجواب ولكن لم ينبس احدهم بكلمة

ومضوا يرتقون منحدر الشاطىء فى شىء من الجهد والأعين محدقة بهم حتى ميزت حقيقة الحمل فصاح بعضهم فى ارتياع :

ـ انها امرأة يا ولداه !

وتساءل آخر :

ـ كيف غرقت ؟

فصاح غلام :

ـ رمت بنفسها من فوق الجسر فرآتها زوج النوتى واستصرخت زوجها لانقاذها ...

وجعل حسنين يتبعهم ناظريه فى طائف من الغرابة والذهول فلم يدر كيف يصدق أن هذه هى اخته وان احدا لا يعلم بهذه الحقيقة وانه لا يفعل شيئا الا أن يقف بينهم كالغريب المستطلع . وبلغ الرجال طوار الطريق وسرعان ما نشطوا الى عملية الاسعاف ليفرغوا ما فى جوفها من ماء . وقد امر الضابط العساكر بتشتيت المتجمهرين ولكن احدا منهم لم يتعرض لحسنين فلبث بمكانه جامدا لا يطرف لا تتحول عيناه عن الجسم المقوس الذى تعبث به أيدى الرجال الغليظة . وانتبه الضابط اليه فاقترب منه وحياه بايماءة من راسه وساله :

ـ اشهدت الحادث !

فخرج الشاب عن ذهوله فى انزعاج ولكنه اجاب بعجلة :

ـ كلا ...

وانام الرجال الفتاة على الأرض وجثا احدهم الى جانبها ثم جس نبضها والصق اذنه بصدرها فوق القلب ، ثم رفع راسه قائلا :

ـ صعد السر الالهى الى بارئه ، لا حول ولا قوة الا بالله ...

وعاود الشاب احساسه بالغرابة ، وغلبه الاحساس على ما عداه ، فلم يشعر لا بحزن ولا بارتياح ، ولم يتحرك فكره لا الى الأمام ولا الى الوراء ، وكانه لم يطق هذا الفراغ المخيف فركز

انتباهه فى الجثة الراقدة غير بعيد من قدميه . جرى بصره عليها وقد تبعثر شعرها وتلصقت خصلات منه بخدها وجبينها ، وران على الوجه جمود صامت لا يبشر بيقظة وعلته زرقة مروعة ، وخيل اليه انه يرى اخاديد دقيقة حول الفم الفاغر والعينين كأنها تقلصات العذاب الذى كان آخر عهدها بالدنيا ، أما الفستان المشبع بالماء فقد لزق بالجسد وتلوثت اهدابه بتراب الأرض فتطينت ، وبدت قدم ما تزال ممسكة بفردة حذائها والأخرى فى جوربها . ورجع بصره الى وجهها فجاش صدره وامتلأ فراغه باضطراب وثوران « لماذا اضطرب هكذا ؟ الم اقتنع حقا بأن هذه هى خير نهاية ! الم اسقها الى الموت بنفسى ؟ ينبغى ان تطمئن نفسى . بيد اننى اتساءل عما داخلها من شعور وهى تهوى الى الماء ، وكيف تلقى جسمها النحيل صدمة الماء الغليظ ، وماذا دار بذهنها وهى تتخبط بين امواجه ، واى جهد وجدت والطمى يكتم انفاسها ، واى عذاب ذاقت ورغبة الحياة تثب بها الى سطحه فيشدها باطنه الى الأعماق . ان محاولة الغريق اليائسة للنجاة اشبه بأحلام الشقى بالسعادة ، كلتاهما امنية ضائعة . اتراها ترانى الآن من عالمها الآخر ؟ اراضية هى ام غاضبة ام ساخرة ؟ ! ماذا ترى فى موقفى هذا ؟ . لماذا وقع هذا كله » . وذكر بغتة امه فحجبت صورتها الجثة عن عينيه ، وهز راسه كأنما ليطردها عن مخيلته ، وصمم بقوة على ان يتحامى التفكير فيها ، وعاد بانتباهه المحموم الى الجثة . وعلى رغمه وجد نفسه يتذكر ايادى الفتاة عليه ، ما كانت تكن له من حب وما جادت به من كرم ، فما كان يخطر لها ببال ان تكون نهايتها على يديه . وشعر باعياء وقنوط وتساءل فى جزع « لماذا هذا كله ؟ ! » . واغمض عينيه لأنه لم يعد يطيق النظر اليها . كان راسه محموما ، وغيض الهم كل رغبة فى الحياة فى قلبه ، وانقلب وجه الدنيا فى عينيه كهذا الوجه الأزرق الناطق بالعدم ، وقال لنفسه وهو يتنهد من الأعماق

« رباه ، لقد قضى على » . وسمع عند ذاك صوت الضابط وهو يأمر الشهود بالذهاب معه الى النقطة ، ثم راى الجثة تحمل وراى القوم يمضون بها الى الجهة الاخرى من الطريق فاتبعهم طرفه حتى حال الظلام بينه وبينهم . وفى اقل من دقيقتين وجد نفسه وحيدا يكتنفه حفيف الأشجار التى تكاد تطبق اغصانها الغليظة الملتوية على البقعة كلها . وتراجع فى تراخ وترنح حتى اسند ظهره الى جذع شجرة وراح فيما يشبه السبات وكأنه يتردى فى هاوية معتمة ليس بها بارقة امل . « قضى على . كنا جميعا فريسة للشقاء فما كان ينبغى لأحدنا ان يعين الشقاء على اخيه . ماذا فعلت ؟ ، انه اليأس الذى فعل ، ولكنى قضيت عليها بالعقاب الصارم . اى حق اتخذت لنفسى ! . احق انى الثائر لشرف اسرتنا ؟ ! انى شر الأسرة جميعا . حقيقة يعرفها الجميع ، واذا كانت الدنيا قبيحة فنفسى اقبح ما فيها . ما وجدت فى نفسى يوما الا تمنيات الدمار لمن حولى فكيف ابحث لنفسى ان اكون قاضيا وانا راس المجرمين ! . لقد قضى على . » والقى نظرة على ما حوله فى حيرة وخوف « اين اذهب ؟ ايمكن ان امرق من هذه المحنة كما مرقت من غيرها من قبل ؟ . . لشد ما تهزأ بى الأمانى . لا تبال ، حسن . . ولكن هل يسعك هذا ؟ . احمل نفسك بشرها وانشد النسيان ثم السعادة ، هاها . انى أعبث بنفسى بلا رحمة . طالما احببت ان امحو الماضى ، ولكن الماضى التهم الحاضر ، ولم يكن الماضى المخيف الا نفسى . لماذا لا أواصل الحياة بهذه الأعباء ؟ لا استطيع . كان ينبغى ان احب الحياة الى النهاية ، ومهما يكن من أمر ، ولكن فى طبيعتنا خطأ جوهرى لا أدريه . لقد قضى عليه . . . » .

واستوى واقفا اما لأنه ضاق بمسنده واما لأنه وجد حافزا جديدا ، وابتعد عن الشجرة وهو يلقى نظرة الوداع على نقطة البوليس ، ثم اتجه صوب الجسر . سار فى خطو ثقيل خافض الراس ما فى شعوره الا السأم والنزوع الى الهرب . « لا اريد أن

يمسك سوء بسببى . امر ربنا . امر الشيطان . النيل . ليكن .
واذا ساورك خوف . كلا ، ان ما ورائى فى الحياة افظع من الموت .
انت مستعدة ؟ لماذا تغيب الملازم حسنين ، الم يرسل خطاب
اعتذار ؟ . رايت صاحب هذا الوجه عقب انتشال الجثة وسالته
هل شاهد الحادثة وكان مذهولا . » وبلغ الموضع نفسه من الجسر
فارتفق السور والقى ببصره الى الماء تتدافع امواجه فى هياج
واصطخاب . واخلى راسه من الفكر . « اذا اردت هلم . لن
اصرخ . فلأكن شجاعا ولو مرة واحدة . ليرحمنا الله . . » .

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

		الطبعة الاولى		
مصر القديمة	(مترجم عن الانجليزية)	١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة اقاصيص	١٩٣٨	الطبعة الرابعة	١٩٦٣
عبث الأقدار	قصة تاريخية	١٩٣٩	» »	١٩٦٣
رادوبيس	» »	١٩٤٣	» الخامسة	١٩٦٤
كفاح طيبة	» »	١٩٤٤	» »	١٩٦٤
القاهرة الجديدة		١٩٤٥	» »	١٩٦٢
خان الخليلي		١٩٤٦	» السادسه	١٩٦٥
زقاق المدق		١٩٤٧	» السادسة	١٩٦٥
السراب		١٩٤٨	» الرابعة	١٩٦٣
بداية ونهاية		١٩٤٩	» السادسة	١٩٦٥
بين القصرين	رواية من ثلاثة اجزاء	١٩٥٦	» الخامسة	١٩٦٤
قصر الشوق		١٩٥٧	» »	١٩٦٢
السكرية		١٩٥٧	» »	١٩٦٤
اللص والكلاب		١٩٦١	» الثالثة	١٩٦٤
السمان والخريف		١٩٦٢	» »	١٩٦٥
دنيا الله	قصص قصيرة	١٩٦٣		
الطريق	رواية	١٩٦٤	» الثانية	١٩٦٥
بيت سيء السمعة	قصص قصيره	١٩٦٥		
الشحاذ	رواية	١٩٦٥		

تحت الطبع :

اولاد حارتنا	رواية
ثرثرة فوق النيل	»

مطبوعاتنا
مكتبة مصر

تطلب مطبوعاتنــا فى الخارج من :

مكتبة المثنى ببغداد
المكتب التجارى ومكتبة المعارف ببيروت
دار الكتب الشرقية بتونس
مكتبة الثقافة بمكة

دار مصر للطباعة

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY